PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

«العطاء» .. مفتاح مغاليق النفوس

«العطاء» من القيم النبيلة التي يغفل عنها كثير من الناس، فهو مفتاح مغاليق النفوس، ومجلب المودة والمحبة، وجسر الترابط الاجتماعي، وهو جود من نوع خاص، جود بالمال والمعونة والمشورة .. وكافة سبل البر والإحسان. وكل النفوس تستسيغ العطاء، وتمتن لصاحبة، وتُقبل عليه ردا للجميل تارة، وتقديرا لصاحبه تارة أخرى.

عن أبي موسى الأشعري –رضي الله عنه– قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض؛ فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والحزن والسهل، والخبيث والطيب». [الترمذي]

وعلى قدر تنوع البشر تتنوع طرق التعامل معهم كما يقول خبراء التنمية البشرية، لكن عملية الذوبان أو الاحتواء تختلف تماما، لأن لها أساليب عامة وأطر شاملة تحتوي الكل، على تنوع شخصياتهم وأمزجتهم.

فمن واقع التجارب الحياتية تجد أن الأمي من أصعب الشخصيات في التعامل معه، ذلك لأن عقله محدود، عقل غير نشط بالمرة، صعب المراس، تحتاج لكي تستوعبه أن تنحدر وتتحدر في الأسلوب والطريقة والصياغة، وهذا من الصعوبة بمكان، فجهابذة الكُتاب الذين أوسعوا الدنيا ضجيجا وشهرة يستعصي على أحدهم كتابة أقصوصة صغيرة للطفل، لأنه تعود على أن يسمو ويحلق في سماء الفكر، أما الإبحار في القاع فتلك معضلة لا تناسب كل الناس.

وقليل الدين –أيضا– من الشخصيات الوعرة، لأن الدين بطبيعة الحال يكسب المرء سموا روحيا عجيبا، وسكينة نفسية رائعة، والنفس جموح، وهي في أشد الحاجة لمثل هذه الإيمانيات العالية كي تنطفئ جذوة تمردها وتستكين للناس، وفي روائع الخبر أن عثمان بن عفان ابتاع حائطا من رجل فساومه حتى قام على الثمن، ثم قال:

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أعطني يدك -وكانوا لا يستوجبون إلا بصفقة- فلما رأى ذلك البائع، قال: لا والله، لا أبيعه حتى تزيدني عشرة آلاف، فالتفت عثمان إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يقول: «إن الله تعالى يدخل الجنة رجلا كان سمحا بائعا ومبتاعا، وقاضيا ومقتضيا» ثم قال: دونك العشرة آلاف لأستوجب هذه الكلمة التي سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن هذين الصنفين من الناس تتفرع كافة الصفات السيئة من الغضوب والمنوع والجموع .. وغيرها من الصفات التي ينفر منها أسوياء البشر.

ولا يوجد أجمل ولا أروع من «العطاء» في إذابة أو احتواء البشر ودا ومحبة .. العطاء هو المفتاح السحري يؤلف القلوب .. عطاء البذل، بالمال والطعام والكساء والإعانة والرعاية .. العطاء كبادرة خالصة لوجه الله تعالى، لا يحركه مصلحة مرجوة، ولا فترة محدودة، ولا مقابل محتمل.

إن النفس البشرية جبلت على الامتنان لكل من يحسن إليها، والخضوع لكل من يتفضل عليها، لذلك كان العطاء سبيل العز والسؤدد واجتماع العشيرة ومتانة الصحبة، وقديما لم يوجد في العرب شيخ قبيلة ولا كبير عشيرة اتصف بالبخل، لأن البخل يُنفّر، ويكشف عن لؤم الطبع، وفي الحديث النبوي الشريف: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما أيدي الناس يحبك الناس».

وهذا لأن قلوب الناس مجبولة على حب التملك، مطبوعة عليها، ومن نازع إنساناً في محبوبه كرهه وقلاه، ومن لم يعارضه فيه أحبه واصطفاه. ولهذا قال الحسن البصري: "لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع في دنياهم فيستخفون به ويكرهون حديثه".

وقيل لبعض أهل البصرة: من سيدكم؟ قالوا: الحسن. قال: بم سادكم؟ قالوا: احتجنا لعلمه واستغنى عن دنيانا.

ولما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أسس (الأثرة على النفس) منهجا لمتانة النسيج المجتمعي، فعن عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- قال: لما قدم رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- المدينة انجفل الناس قبله، وقيل: قدم رسول الله،

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قدم رسول الله. فجئت في الناس لأنظر إليه فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء تكلم به أن قال: «أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام» [الترمذي]

ولذلك امتدح الله تعالى الأنصار بعطائهم المنقطع النظير، فقال عز وجل: {وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر:٩]

قال السعدي: "الإيثار هو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون إلا من خلق زكي".

وقال القرطبي رحمه الله: "الإيثار هو تقديم الغير على النّفس في حظوظها الدّنيويّة رغبة في الحظوظ الدّينيّة، وذلك ينشأ عن قوّة اليقين وتوكيد المحبّة، والصّبر على المشقّة".

روي أن مسروقا أدان دينا ثقيلا وكان على أخيه خيثمة دين، فذهب مسروق فقضى دين خيثمة وهو لا يعلم، وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم.

وكما العطاء بالبذل هناك العطاء بالكف، كالمروءة والحلم والتغافل وكظم الغيظ والترفع عن سائر الدنايا .. وهي مواهب وأخلاقيات شخصية، تكسب المرء جميل السمت وحسن الصيت وعلو الذكر.

فما زالت المروءة محل استحسان الخلق أجمعين، والحلم بضاعة لا تبور، أما التغافل فهو من سادات الأخلاق لأن الناس دوما لا تحب تتبع نقائصها أو سلبياتها، وترصد أحوالها، يقول الحسن البصري –رحمه الله–: "ما زال التغافل من فعل الكرام"، ويقول الإمام أحمد –رحمه الله–: "تسعة أعشار حسن الخلق في التغافل".

ومن روائع المواقف في هذا ما روي أنه جاءت امرأة فسألت حاتماً عن مسألة، فاتفق أن خرج منها صوت في تلك الحالة فخجلت، فقال حاتم: ارفعي صوتك ..

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فأوهمها أنه أصمّ فسرّت المرأة بذلك، وقالت: إنه لم يسمع الصوت فلقّب بـ «حاتم الأصم».

وجماع الأمر كله «حسن الخلق» الذي قال في المعصوم –صلى الله عليه وسلم–: «ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق» [أحمد]

بقي أن نلفت النظر أن التحلي بهذه الفضائل ليس من العذوبة والسهولة بمكان، بل إنها تحتاج لشكيمة النفس وضبط الانفعال وتجرع الغصص في سبيل قطف أطايب الثمر، وكما قال المتنبي:

كُلَّ يَوْمٍ لكَ احْتِمالٌ جَديدٌ   ومَسيرٌ للمَجْدِ فيهِ مُقامُ

وإذا كانَتِ النّفُوسُ كِباراً   تَعِبَتْ في مُرادِها الأجْسامُ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

اسم الله الأعظم

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي –رحمه الله–: "بعض الناس يظن أن الاسم الأعظم من أسماء الله الحسنى لا يعرفه إلا من خصه الله بكرامة خارقة للعادة، وهذا ظن خطأ، فإن الله تبارك وتعالى حثنا على معرفة أسمائه وصفاته، وأثنى على من عرفها، وتفقه فيها، ودعا الله بها دعاء عبادة وتعبد ودعاء مسألة، ولا ريب أنّ الاسم الأعظم منها أولاها بهذا الأمر، فإنه تعالى هو الجواد المطلق الذي لا منتهى لجوده وكرمه، وهو يحب الجود على عباده، ومن أعظم ما جاد به عليهم تعرفه لهم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، فالصواب أنّ الأسماء الحسنى كلها حسنى، وكل واحد منها عظيم، ولكن الاسم الأعظم منها كل اسم مفرد أو مقرون مع غيره إذا دل على جميع صفاته الذاتية والفعلية أو دل على معاني جميع الصفات".

ولقد ورد في شأن «اسم الله الأعظم» مجموعة أحاديث، أشهرها:

عن أبي أمامة –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: (اسْمُ اللَّهِ الأَعظَمُ فِي سُوَرٍ مِنَ القُرآنِ ثَلاثٍ: فِي البَقَرَةِ وَآلِ عِمرَانَ وَطَهَ). [رواه ابن ماجه، وحسَّنه الألباني في صحيح ابن ماجه]

(سورة البقرة): {اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}

(سورة آل عمران): {اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}

(سورة طه): {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ}

عَنْ أَنَسٍ –رضي الله عنه– أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– جَالِسًا وَرَجُلٌ يُصَلِّي ثُمَّ دَعَا: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ "، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَقَدْ دَعَا اللَّهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى) [رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داود]

عن بُرَيْدَةَ بنِ الحُصَيْب –رضي الله عنه– أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ"، فَقَالَ: (لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِالِاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ). [رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داود] .. قال الحافظ ابن حجر –رحمه الله–: وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك.

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}، وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ {الم . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}). [رواه الترمذي، والحديث ضعيف، فيه عبيد الله بن أبي زياد، وشهر بن حوشب، وكلاهما ضعيف].

واختلف أهل العلم في «اسم الله الأعظم» من حيث وجوده على أقوال:

[القول الأول]:

من أنكر وجوده أصلاً! لاعتقادهم بعدم تفضيل اسم من أسماء الله تعالى على آخر، وقد تأول هؤلاء الأحاديث الواردة السابقة فحملوها على وجوه:

«الوجه الأول»: من قال بأن معنى "الأعظم" هو "العظيم" وأنه لا تفاضل بين أسماء الله تعالى.

قال الحافظ ابن حجر: وقد أنكره قوم كأبي جعفر الطبري وأبي الحسن الأشعري وجماعة بعدهما كأبي حاتم بن حبان والقاضي أبي بكر الباقلاني فقالوا: لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض، ونسب ذلك بعضُهم لمالك؛ لكراهيته أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها من السور لئلا يُظن أن بعض القرآن أفضل من بعض فيؤذن ذلك باعتقاد نقصان المفضول عن الأفضل، وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم: العظيم، وأن أسماء الله كلها عظيمة، وعبارة أبي جعفر الطبري: "اختلفت الآثار في تعيين الاسم الأعظم والذي عندي: أن الأقوال كلها صحيحة إذ لم يرد في خبر منها أنه الاسم الأعظم، ولا شيء أعظم منه"، فكأنه يقول: كل اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه بكونه أعظم، فيرجع إلى معنى عظيم كما تقدم.

«الوجه الثاني»: أن المراد بالأحاديث السابقة بيان مزيد ثواب من دعا بذلك الاسم.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال الحافظ ابن حجر: وقال ابن حبان: الأعظمية الواردة في الأخبار: إنما يراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك، كما أطلق ذلك في القرآن، والمراد به: مزيد ثواب القارئ.

«الوجه الثالث»: أن المراد بالاسم الأعظم حالة يكون عليها الداعي، وهي تشمل كل من دعا الله تعالى بأي اسم من أسمائه، إن كان على تلك الحال.

قال الحافظ ابن حجر: وقيل: المراد بالاسم الأعظم: كل اسم من أسماء الله تعالى دعا العبد به مستغرقاً بحيث لا يكون في فكره حالتئذ غير الله تعالى، فإن من تأتَّى له ذلك: استجيب له، ونقل معنى هذا عن جعفر الصادق، وعن الجنيد، وعن غيرهما.

[القول الثاني]: من قال بأن الله تعالى قد استأثر بعلم تحديد اسمه الأعظم، وأنه لم يُطلع عليه أحداً من خلقه .. قال الحافظ ابن حجر: وقال آخرون: استأثر الله تعالى بعلم الاسم الأعظم ولم يطلع عليه أحداً من خلقه.

[القول الثالث]: قول من أثبت وجود اسم الله الأعظم وعيَّنه، وقد اختلف هؤلاء المعينون في الاسم الأعظم على أربعة عشر قولاً ! وقد ساقها الحافظ ابن حجر رحمه الله في كتابه فتح الباري، وهي:

١. هو ! ٢. الله ٣. الله الرحمن الرحيم ٤. الرحمن الرحيم الحي القيوم ٥. الحي القيوم ٦. الحنان المنان بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام الحي القيوم ٧. بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام ٨. ذو الجلال والإكرام ٩. الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ١٠. رب رب ١١. دعوة ذي النون في بطن الحوت "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" ١٢. هو الله الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم ١٣. هو مخفي في الأسماء الحسنى ١٤. كلمة التوحيد " لا إله إلا الله".

قال الشيخ الألباني رحمه الله:

واعلم أن العلماء اختلفوا في تعيين اسم الله الأعظم على أربعة عشر قولاً، ساقها الحافظ في «الفتح»، وذكر لكل قول دليله، وأكثرها أدلتها من الأحاديث، وبعضها

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

مجرد رأي لا يلتفت إليه، مثل القول الثاني عشر؛ فإن دليله: أن فلاناً سأل الله أن يعلِّمه الاسم الأعظم، فرأى في النوم ؛ هو الله، الله، الله، الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم. !!

وتلك الأحاديث منها الصحيح، ولكنه ليس صريح الدلالة، ومنها الموقوف كهذا، ومنها الصريح الدلالة؛ وهو قسمان:

قسم صحيح صريح، وهو حديث بريدة: (الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد .. إلخ)، وقال الحافظ: "وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك"، وهو كما قال رحمه الله، وأقره الشوكاني في «تحفة الذاكرين»، وهو مخرج في "صحيح أبي داود ".

والقسم الآخر: صريح غير صحيح، بعضه مما صرح الحافظ بضعفه؛ كحديث القول الثالث عن عائشة في ابن ماجه (٣٨٥٩)، وهو في «ضعيف ابن ماجه» رقم (٨٤١)، وبعضه مما سكت عنه فلم يحسن! كحديث القول الثامن من حديث معاذ بن جبل في الترمذي، وهو مخرج في «الضعيفة» برقم (٤٥٢٠) وهناك أحاديث أخرى صريحة لم يتعرض الحافظ لذكرها، ولكنها واهية، وهي مخرجة هناك برقم (٢٧٧٢ و ٢٧٧٣ و ٢٧٧٥) «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» (١٣ / ٢٧٩).

ولعل أقرب تلك الأقوال أن الاسم الأعظم هو «الله»؛ فهو الاسم الجامع لله تعالى الذي يدل على جميع أسمائه وصفاته تعالى، وهو اسم لم يُطلق على أحد غير الله تعالى، وعلى هذا أكثر أهل العلم.

قال ابن القيم: "اسم «الله» دالٌّ على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا بالدلالات الثلاث" ... والدلالات الثلاث هي: المطابقة والتضمن واللزوم.

وقال ابن أمير حاج الحنفي: عن محمد بن الحسن قال: سمعتُ أبا حنيفة رحمه الله يقول: اسم الله الأعظم هو «الله» وبه قال الطحاوي وكثير من العلماء، وأكثر العارفين.

وقال أبو البقاء الفتوحي الحنبلي:

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فائدتان:

الأولى: أن اسم «الله» علم للذات، ومختص به، فيعم جميع أسمائه الحسنى.

الثانية: أنه اسم الله الأعظم عند أكثر أهل العلم الذي هو متصف بجميع المحامد

وقال الشربيني الشافعي: وعند المحققين أنه اسم الله الأعظم، وقد ذكر في القرآن العزيز في ألفين وثلاثمائة وستين موضعاً.

وقال الشيخ عمر الأشقر: والذي يظهر من المقارنة بين النصوص التي ورد فيها اسم الله الأعظم أنّه: «الله»، فهذا الاسم هو الاسم الوحيد الذي يوجد في جميع النصوص التي قال الرسول –صلى الله عليه وسلم– إنّ اسم الله الأعظم ورد فيها.

ومما يُرجِّح أن «الله» هو الاسم الأعظم أنه تكرر في القرآن الكريم (٢٦٩٧) سبعاً وتسعين وستمائة وألفين – حسب إحصاء المعجم المفهرس – وورد بلفظ (اللهم) خمس مرات، في حين أنّ اسماً آخر مما يختص بالله تعالى وهو (الرحمن) لم يرد ذكره إلا سبعاً وخمسين مرة، ويرجحه أيضاً: ما تضمنه هذا الاسم من المعاني العظيمة الكثيرة.

ويأتي في الدرجة الأخرى من القوة في كونه اسم الله الأعظم «الحي القيوم»، وهو قول طائفة من العلماء، ومنهم النووي، ورجحه الشيخ العثيمين رحمه الله.

لذلك كان –صلى الله عليه وسلم– يعلمه لفاطمة –رضي الله عنها– كما ورد ذلك في حديث صحيح عن أنس بن مالك –رضي الله عنه– قال النبي –صلى الله عليه وسلم– لفاطمة –رضي الله عنها–: (ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به، أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين). [حسن ٥٨٢٠ صحيح الجامع]

وعن أنس بن مالك –رضي الله عنه– قال: كان النبي –صلى الله عليه وسلم– إذا كربه أمر قال: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث) [الترمذي، حسن: الكلم الطيب ٧٦ / ١١٨ الألباني]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وعن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– كان –صلى الله عليه وسلم– إذا نزل به هم أو غم قال: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث). [حسن، حديث ٤٧٩١ صحيح الجامع]

وأخيرا لابد من التنويه بأنه ليست معرفة اسم الله الأعظم خاصة بالخواص من أولياء الله والصالحين من عباده، بل قد يفتح باب المعرفة والسلوك في ذلك لآحاد المؤمنين وعامتهم، وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم). [الطبراني في المعجم الكبير، وصححه الألباني في الصحيحة ١٨٠٣)

والمسلم يسأل الله حاجته، ويلح عليه في السؤال، ويحسن الظن به، ويأخذ بأسباب الإجابة، ويتوكل على ربه، ويرضى بما قسم له، ولا حرج في أن يدعو العبد ربه أن يفتح له باب المعرفة والدعاء باسمه الأعظم، ويتقبل ذلك منه؛ وإن كان ينبغي له –أيضا– أن يدعو الله بأسمائه الحسنى عامة، ويتخير منها ما هو لائق بحاجته ومسألته؛ وقد قال سبحانه: {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف:١٨٠]، وقال عز وجل: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً} [الإسراء:١١٠]

قال السعدي –رحمه الله– في تفسيره: يقول تعالى لعباده: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ} أي: أيهما شئتم {أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) أي: ليس له اسم غير حسن، حتى ينهى عن دعائه به، فأي اسم دعوتموه به، حصل به المقصود، والذي ينبغي أن يدعى في كل مطلوب، مما يناسب ذلك الاسم".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ما لأحوال الدنيا دوام

لو تفكرت العقول في تغير الأحوال، لما جعلت الدنيا دار قرار ومقام، وإنما هي مراحل تقطع بالقلوب والأبدان، فطوبي لأصحاب الحجا الذين سلكوا مسالكها وقطعوا دروبها على خير حال.

قال تعالى: {يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} [الرحمن:٢٩]

أي يسأله من في السموات والأرض، سؤال المحتاج إلى رزقه وفضله وستره وعافيته، وهو -عز وجل- في كل وقت من الأوقات، وفي كل لحظة من اللحظات في شأن عظيم وأمر جليل، حيث يُحدِث ما يحدث من أحوال في هذا الكون، فيحيي ويميت ويعز ويذل ويغني ويفقر ويشفي ويمرض.. دون أن يشغله شأن عن شأن.

عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال في هذه الآية: (مِن شأنه: أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما ويخفض آخرين) [حسنه الألباني في صحيح ابن ماجة ١٦٧]

وسأل بعضهم أحد الحكماء عن كيفية الجمع بين هذه الآية، وبين ما صح من أن القلم قد جف بما هو كائن إلى يوم القيامة؟ فقال: "شئون يبديها لا شئون يبتديها".

كان للنعمان بن المنذر بن ماء السماء وهو النعمانُ الأصغر الذي قَتَلَهُ أبرويز تحتَ أرجُلِ الفيلة – قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين، ووَلّى مكانه إياس بن قبيصة- .. كان له بنتان قد ترهبتا: هندٌ صاحبةُ دِير هند بنت النعمان بظاهر الكوفة، والحرقة؛ وحين فتح خالد ابن الوليد عين التمر، سأل عن الحرقة، فأتاها – وكانت عمياء- وسألها عن حالها فقالت: لقد طَلَعَتْ علينا الشمسُ وما مِن شيءٍ يَدُبُّ حولَ الخورنق [هو من أعظم قصور النعمان] إلا تحت أيدينا، ثُمَّ غَرُبَت وقد رحمنا كل مَن يدور به، وما مِن بيتٍ دخلته حبرة (أي فرح) إلا دخلته عَبرة؛ وأنشأت تقول:

بينا نَسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا .. إذا نَحنُ مِنهم سوقه نَتنصف

فأُفٍ لدُنيا لا يَدومُ نعيمها .... تقلب تيارات بنا وتصرف

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وأتت سعد بن أبي وقاص في جوار لها، فقال سعد: قاتل الله عدي بن زيد كأنه ينظر إليها حيث يقول:

إن للدهر صرعة فاحذرنها .. لا تبيتن قد أمنت الشرورا

قد يبيت الفتى معافى فيردى ... ولقد كان آمناً مسروراً

ثم أكرمها وأحسن جائزتها؛ فلما قامت، قالت: أُحَييكَ تَحيَّةَ أملاكنا بعضهم بعضا [أي تحية الملوكِ لبعضهم]: لا جعل الله لكَ إلى لَئيمٍ حاجة، ولا نَزَعَ عَن عبد صالح نعمة إلا جعلكَ سبباً لِرَدِّها عليه، فلقيها النساء وقلن: ما فعل بك الأمير؟ فقالت:

حاطَ لي ذِمَّتي وأكرَمَ وجهي .. إنّما يُكرِمُ الكَريمُ الكريما

وحكى شيخٌ من العرب قال: بعثني أهلي في الجاهلية إلى ذي الكلاع الحميري بهدايا، فمكثتُ شهرًا لا أصل إليه، ثم بعد ذلك أشرف إشرافة من كُوَّة، فخرَّ له مَن حول القصر سُجَّدًا، ثم رأيته من بعد ذلك وقد هاجر إلى حمص واشترى بدرهم لحمًا، وسمطه [سمط الجدي: نتف صوفه بالماء الحار] خلف دابته؛ وهو القائل هذه الأبيات:

أف للدنيا إذا كانت كذا .... أنا منها في بلاء وأذى

إن صفا عيشُ امرئٍ في صبحها .. جرعته ممسيًا كأس القذى

ولقد كنت إذا ما قيل من .... أنعم العالم عيشًا قيل ذا

وكان يقال: زمام العافية بيد البلاء، ورأس السلامة تحت جناح العطب.

وقيل: إذا أدبر الأمر أتى الشر من حيث يأتي الخير، وبتقلب الدهر تُعرَف جواهر الرجال.

يقول سيد قطب –رحمه الله– في قوله تعالى: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران١٤٠]:

"والقرآن الكريم يرد المسلمين إلى سنن الله في الأرض. يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور. فهم ليسوا بدعاً في الحياة؛ فالنواميس التي تحكم الحياة جارية

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

لا تتخلف والأمور لا تمضي جزافاً، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام. واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق. ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين؛ بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول. والسنن التي يشير إليها السياق هنا ويوجه أبصارهم إليها هي:

عاقبة المكذبين على مدار التاريخ. ومداولة الأيام بين الناس. والابتلاء لتمحيص السرائر، وامتحان قوة الصبر على الشدائد واستحقاق النصر للصابرين والمحق للمكذبين.

وفي خلال استعراض تلك السنن تحفل الآيات بالتشجيع على الاحتمال والمواساة في الشدة، والتأسية على القرح الذي لم يصبهم وحدهم إنما أصاب أعداءهم كذلك وهم أعلى من أعدائهم عقيدة وهدفاً وأهدى منهم طريقاً ومنهجاً، والعاقبة بعد لهم والدائرة على الكافرين".

ثم يقول –رحمه الله–: "إن الشدة بعد الرخاء والرخاء بعد الشدة هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس وطبائع القلوب ودرجة الغبش فيها والصفاء ودرجة الهلع فيها والصبر ودرجة الثقة فيها بالله أو القنوط ودرجة الاستسلام فيها لقدر الله أو البرم به والجموح!

عندئذ يتميز الصف ويتكشف عن: مؤمنين ومنافقين ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم وتتكشف في دنيا الناس دخائل نفوسهم. ويزول عن الصف ذلك الدخل وتلك الخلخلة التي تنشأ من قلة التناسق بين أعضائه وأفراده وهم مختلطون مبهمون!

والله سبحانه يعلم المؤمنين والمنافقين. والله سبحانه يعلم ما تنطوي عليه الصدور. ولكن الأحداث ومداولة الأيام بين الناس تكشف المخبوء وتجعله واقعاً في حياة الناس وتحول الإيمان إلى عمل ظاهر، وتحول النفاق كذلك إلى تصرف ظاهر

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ومن ثم يتعلق به الحساب والجزاء . فالله سبحانه لا يحاسب الناس على ما يعلمه من أمرهم ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم.

ومداولة الأيام وتعاقب الشدة والرخاء، محك لا يخطئ وميزان لا يظلم. والرخاء في هذا كالشدة. وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل. والنفس المؤمنة هي التي تصبر للضراء ولا تستخفها السراء وتتجه إلى الله في الحالين، وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فبإذن الله" [في ظلال القرآن: ١/٤٥١]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ابن مقلة في مراجل الأيام

عن أنس بن مالك –رضي الله عنه– قال: كانت ناقة لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– تسمى العضباء، وكانت لا تسبق، فجاء أعرابي على قعود له فسبقها، فاشتد ذلك على المسلمين، وقالوا: سُبقت العضباء!، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (إن حقا على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه). [البخاري ٦٥٠١]

يقول الشيخ الشعراوي: "لذلك لابد أن نفهم. أن الإنسان الذي يستعلي بالأسباب سيأتي وقت لا تعطيه الأسباب. فالإنسان إذا بلغ في عينه وأعين الناس مرتبة الكمال. اغتر بنفسه. نقول له: لا تغتر بكمالات نفسك. فإن كانت موجودة الآن. فستتغير غدا".

ثم يقول –رحمه الله–: "أننا لا يمكن أن نقول: إن مداولة الأيام تكون بين المؤمنين والكافرين، إنما هي بين الناس؛ لأن الناس هم مجموعة الإنسان، فإن تجردوا عن منهج السماء فهم سواسية، وصاحب الحيلة يغلب، أو صاحب القوة يغلب، أو صاحب العدد أو العُدّة يغلب".

الوزير محمد بن مُقْلَةَ

أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة، من أشهر خطاطي العصر العباسي، نبغ في الخط العربي وبلغ مرتبة عالية في فنه إلى أن انتهت إليه جودة الخط وحسن تحريره.

عرف محمد بن علي بـ «ابن مقلة» لأن له أمّا كان أبوها يلاعبها في صغرها ويقول لها: "يا مقلة أبيها" فغلب عليها هذا الاسم واشتهرت به، فاتصل هذا الاسم المشهور بابن مقلة، فكان بذلك مقلة الزمان وملك الخط والبيان.

قَالَ الصُّوْلِيُّ: مَا رَأَيْتُ وَزِيْراً مُنْذُ تُوُفِّيَ القَاسِمُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ أَحسن حَرَكَة، وَلاَ أَظْرَفَ إِشَارَةً، وَلاَ أَمْلَح خَطّاً، وَلاَ أَكْثَرَ حِفْظاً، وَلاَ أَسلَطَ قَلَماً، وَلاَ أَقْصَدَ بَلاَغَة، وَلاَ آخذَ بِقُلُوْب الخُلَفَاءِ، مِنِ ابْنِ مُقْلَة.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وهو الذي أتم ما بدأ به قطبه المحرر من تحويل الخط من شكله الكوفي إلى الشكل الذي هو عليه الآن، وهو أول من هندس الحروف وقدر مقاييسها وأبعادها بالنقط وضبطها ضبطًا محكمًا، ويعتبر رائد ومؤسس قاعدتي خطي الثلث والنسخ، بالإضافة إلى ذلك أجاد خطاً سمي بخط «الدرج» الذي بلغ في خطه شأناً عظيماً ودرجة عالية في نفوس الناس حتى وصفوه بأنه أجمل خطوط الدنيا، وعنه انتشر الخط في مشارق الأرض ومغاربها وعلى طريقته سار الخطاطون من بعده. وكتب أبو علي بن مقلة المصحف مرتين وبخطه ضرب المثل.

قال المحبي: وَابْن مقلة هُوَ أول من نقل الْخط الكوفي إلى العربي وخطه يضْرب مثلا في الْحسن لأنه أحسن خطوط الدُّنْيَا، وَفِيه يَقُول أَبُو مَنْصُور الثعالبي:

خطّ ابْن مقلة من أرعاه مقلته .... ودت جوارحه لَو حولت مقلا

فالبدر يصفر لاستحسانه حسدا .... والنور يحمر من نواره خجلا

وَقيل إنه كتب كتاب هدنة بَين الْمُسلمين وَالروم فوضعوه في كَنِيسَة قسطنطينية، وَكَانُوا يبرزونه في الأعياد، ويجعلونه من جملَة تزايينهم في أخص بيُوت الْعِبَادَات، ويعجب النَّاس من حسنه، وبقي الكتاب إلى زمن السلطان محمد الفاتح حين فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣هـ.

وَمن خَبره أَنه تقلبت بِهِ أَحْوَال ومحن أدَّت إلى قطع يَده، وَمن نكد الدُّنْيَا أَن مثل تِلْكَ الْيَد النفيسة تقطع، وَمن عجائبه أَنه كتب باليسرى بعد الْقطع.

لقد عاش ابن مقلة حياة مضطربة كعصره بدأها كاتبًا بسيطًا ينتفع بخطه ثم تولى خراج بعض أعمال فارس فتحسنت أحواله. استوزره الخليفة العباسي المقتدر بالله (٣١٦هـ، ٩٢٨م) وعزله (٣١٨هـ، ٩٣٠م) واعتقله وصادر أمواله ونفاه إلى شيراز حتى آلت الخلافة إلى القاهر بالله (٣٢٠هـ، ٩٣٢م) فاستوزره واستدعاه. إلا أن ابن مقلة لم تُرْضِه أوضاع الدولة فتآمر على القاهر وتوارى عنه (٣٢١هـ، ٩٣٣م) حتى خُلع. وتولى الراضي بالله (٣٢٢هـ، ٩٣٤م) فاستوزره إلى أن تآمر عليه المظفر بن ياقوت (٣٢٤هـ، ٩٣٦م) فقُبِضَ عليه وخُلِعَ من الوزارة وعُذِّبَ وَغُرِّم فجلس في داره حتى استولى محمد بن رائق على مقاليد الأمور. فسعى به ابن مقلة عند الراضي الذي

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أمّله بالإجابة حتى اعتقله وسلمه إلى ابن رائق فقطعوا يمينه (٣٢٦هـ، ٩٣٨م)، فكان يكتب بيسراه ويشد القلم إلى ساعده ويكتب. وكتب أبياتاً فريدة في معناها العميق، مملوءة بحزن سرّي عجيب، مرسومة بحروف تساقطت منها صيحات الألم والدموع على اليد التي أبدعت أيّما إبداع فقال:

ما سئمت الحياة لكن توثقت .. بأيمانهم فبانت يميني

ولقد حُطتُ ما استطعت بجهدي .. حفظ أرواحهم فما حفظوني

ليس بعد اليمين لذة عيشٍ .. يا حياتي بانت يميني فبيني

قال بن كثير: "وَقَدْ كَانَ فِي أَوَّلِ عُمْرِهِ ضَعِيفَ الْحَالِ، قليل المال، ثُمَّ آلَ بِهِ الْحَالُ إِلَى أَنْ وَلِيَ الوزارة لثلاثة من الخلفاء، المقتدر، والقاهر، والراضي، وعزل ثلاث مرات، وقطعت يده ولسانه في آخر عمره، وَحُبِسَ فَكَانَ يَسْتَقِي الْمَاءَ بِيَدِهِ الْيُسْرَى وَأَسْنَانِهِ، وكان مع ذلك يكتب بيده اليمنى مع قطعها، كما كان يكتب بها وَهِيَ صَحِيحَةٌ، وَقَدْ كَانَ خَطُّهُ مِنْ أَقْوَى الْخُطُوطِ، كَمَا هُوَ مَشْهُورٌ عَنْهُ، وَقَدْ بَنَى له داراً في زمان وزارته وجمع عند بنيانها خلقاً من المنجمين، فاتفقوا على وضع أساسها فِي الْوَقْتِ الْفُلَانِيِّ، فَأَسَّسَ جُدْرَانَهَا بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ كما أشار به المنجمون، فَمَا لَبِثَ بَعْدَ اسْتِتْمَامِهَا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى خُرِّبَتْ وَصَارَتْ كَوْمًا".

قال بن الجوزي: "ومن العجائب أن دار ابن مقلة احترقت في مثل اليوم الذي أمر فيه بإحراق دار سليمان بن الحسن بباب المحول في مثل ذلك الشهر بينهما سنة، وكُتِبَ على حيطان دار ابن مقلة:

أحسنت ظنك بالأيام إذا حسنت .. ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها ...... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

قال الثعالبي: ومن العجائب أن الوزير ابن مقلة تقلّد الوزارة ثلاث مرات، وسافر في عمره ثلاث مرات: واحدة إلى الموصل، واثنتين في النفي إلى شيراز. ودفن بعد موته ثلاث مرات في ثلاثة مواضع.

وقد جاء قطع يد ابن مقلة بسبب دعوة ابن شنبوذ المقري، قال ابنُ كثير: ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة فيها أحضر ابن شنبوذ المقري فأنكر عليه جماعة

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

من الفقهاء والقراء حُرُوفًا انْفَرَدَ بِهَا فَاعْتَرَفَ بِبَعْضِهَا وَأَنْكَرَ بَعْضَهَا، فاستتيب من ذلك واستكتب خطه بِالرُّجُوعِ عَمَّا نُقِمَ عَلَيْهِ، وَضُرِبَ سَبْعَ دُرَرٍ بِإِشَارَةِ الْوَزِيرِ أَبِي عَلِيِّ بْنِ مُقْلَةَ، وَنُفِيَ إلى البصرة. فَدَعَا عَلَى الْوَزِيرِ أَنْ تُقْطَعَ يَدُهُ وَيُشَتَّتَ شمله، فكان ذلك عما قريب.

فقدر الله أن وافقت تلك الدعوة ساعة إجابة، فانظر كيف دارت الأيام على ابن مقلة حتى تحققت فيه دعوة ابن شنبوذ.

يقول صاحب المستطرف: "كان مقلة وزيرا لبعض الخلفاء، فزور عنه يهودي كتابا إلى بلاد الكفار وضمنه أمورا من أسرار الدولة ثم تحيل اليهودي إلى أن وصل الكتاب إلى الخليفة، فوقف عليه وكان عند ابن مقلة حظية هويت هذا اليهودي فأعطته درجا بخطه فلم يزل يجتهد حتى حاكى خطه ذلك الخط الذي كان في الدرج فلما قرأ الخليفة الكتاب أمر بقطع يد ابن مقلة وكان ذلك يوم عرفة وقد لبس خلعة العيد ومضى إلى داره وفي موكبه كل من في الدولة، فلما قطعت يده وأصبح يوم العيد لم يأت أحد إليه ولا توجع له ثم اتضحت القضية في أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودي والجارية فقتلهما أشر قتلة ثم أرسل إلى ابن مقلة أموالا كثيرة وخلعا سنية وندم من فعله واعتذر إليه فكتب ابن مقلة على باب داره يقول:

تحالف الناس والزمان ..... فحيث كان الزمان كانوا

عاداني الدهر نصف يوم ... فانكشف الناس لي وبانوا

يا أيها المعرضون عني .... عودوا فقد عاد لي الزمان

ثم أقام بقية عمره يكتب بيده اليسرى".

قال ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الطبيب، وكان يدخل على ابن مقلة لمعالجته: كنت إذا دخلت عليه في تلك الحال كان ينوح على يده ويبكي ويقول خدمت بها الخلفاء وكتبت بها القرآن الكريم دفعتين، تقطع كما تقطع أيدي اللصوص، فأسليه وأقول له هذا انتهاء المكروه وخاتمة القطوع.

وظهر في زمان الوزير بن مقلة رجل تدَّعِي الرافضةُ أَنه الْبَاب إِلَى الْأَمَام المنتظر، فحُكِمَ عليه بإراقة دمه، وَظَهَرت عِنْده رقاعٌ من أحد الوزراء اسمه الْحُسَيْن بن الْقَاسِم

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

يخاطبه فِيهَا بالآلهية وأنَّه ربُّه ورازقه ومحييه ومميته، وَأَنه يسْأَله الْعَفو عَن ذنُوبه والصفح عَن تَقْصِيره، وَشهد جمَاعَة بِأَنَّهَا خط الوزير الحسين بن القاسم فَأفْتى الْفُقَهَاء بِإِبَاحَة دَمه، فكتب بن مقلة من بغداد كتاب إلى الرقة يأمر فيه بضرب عنق الحسين بن القاسم، فنُفِّذ الحُكم وَحُمِلَت رَأس الحسين بن القاسم إِلَى بَغْدَاد فِي خلَافَة الراضي ووزارة أبي عليّ ابْن مقلة سنة اثْنَتَيْنِ وَعشْرين وَثَلَاث مائَة.

قال الصفدي: وَمن الْغَرِيب أَنه لما قطعت يَد ابْن مقلة جعلت فِي سفطٍ فِيهِ رَأس الْوَزير الْحُسَيْن بن الْقَاسِم وأودع الخزانة ثمَّ إِن ابْنه الْقَاسِم بن الْحُسَيْن طلب الرَّأْس فَدفع إِلَيْهِ السَّفط بِمَا فِيهِ فسَيَّر الْيَد إِلَى الدِّينارية زَوْجَة ابْن مقلة وَدفن هو رأس أبيه فِي مقابر قُرَيْش، فسبحان الله الْعَظِيم يَد كتبت بِقطع رَأس فِي الرقة وَهِي فِي بَغْدَاد قطعت وَجمع بَينهمَا فِيمَا بعد فِي سفطٍ وَاحِد.

ثم إنه قُطِع لسانه بعد ذلك، قال بن الأثير: وَصَارَ يَدْعُو عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ وَقَطَعَ يَدَهُ، فَوَصَلَ خَبَرُهُ إِلَى الرَّاضِي وَإِلَى ابْنِ رَائِقٍ، فَأَمَرَا بِقَطْعِ لِسَانِهِ، ثُمَّ نُقِلَ إِلَى مَحْبِسٍ ضَيِّقٍ، ثُمَّ لَحِقَهُ ذَرَبٌ [مرض لا يبرأ] فِي الْحَبْسِ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَنْ يَخْدِمُهُ، فَآلَ الْحَالُ إِلَى أَنْ كَانَ يَسْتَقِي الْمَاءَ مِنَ الْبِئْرِ بِيَدِهِ الْيُسْرَى، وَيُمْسِكُ الْحَبْلَ بِفِيهِ، وَلَحِقَهُ شَقَاءٌ شَدِيدٌ إِلَى أَنْ مَاتَ، وَدُفِنَ بِدَارِ الْخَلِيفَةِ، ثُمَّ إِنَّ أَهْلَهُ سَأَلُوا فِيهِ، فَنُبِشَ وَسُلِّمَ إِلَيْهِمْ، فَدَفَنُوهُ فِي دَارِهِ، ثُمَّ نُبِشَ فَنُقِلَ إِلَى دَارٍ أُخْرَى.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

تقلب الدنيا بأهلها

الدنيا ليست صفحة واحدة بل صفحات .. تتعدد ألوانها، ولا تستقيم منحنياتها .. غنى وفقر، صحة ومرض، عز وذل، نصر وهزيمة .. تارة يفرح الموالي، وتارة يشمت الأعادي .. قال تعالى: {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} المداولة نقل الشيء من واحد إلى آخر. وقيل المُدَاوَلَةُ: المفاعلة من الدولة، وهي الغلبة، أخبر تعالى على سبيل التسلية أن الأيام على قديم الدهر لا تبقي الناس على حالة واحدة.

والمراد بالأيام هنا أوقات الغلبة والظفر، يصرفها الله على ما أراد تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، أي وتلك الأيام يُصَرِّفها الله بين الناس، نصر مرة وهزيمة أخرى، لما في ذلك من الحكمة، حتى يظهر ما علمه الله في الأزل ليميز الله المؤمن الصادق مِن غيره.

الراعي النميري

عبيد بن حصين، شاعر بني نمير، لقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل، وكانت قبيلة بني نمير أهل بيتٍ وسؤدد. وهي أحدى بطون قيس عيلان المضرية، وكانت قيس هذه عزيزة الجانب، مرهوبة السلطان، بوفرة عددها، وبسالة فرسانها، حتى أنها انضمت إليها بعض القبائل المستضعفة كي تحتمي بها، أما في الإسلام فقد بلغت من عزتها أنها طمعت في الخلافة، وكادت تظفر بها من أيدي الأمويين، لولا استنجادهم باليمنية والتغلبية .. ولقد كانت بنو نمير جمرة من جمرات العرب، فهي من أشرف بيوت قيس عيلان الجد الأكبر لشاعرنا الراعي النميري.

والراعي النميري من شعراء الطبقة الأولى بين الفحول الذين عاشوا في القرن الأول الهجري، ولقد كان الراعي حجة في النحو واللغة، اعتمد عليه النحاة في تأييد مذاهبهم النحوية، كما اعتمد عليه اللغويون في تقرير ألفاظهم اللغوية.

يذكر أن قيس عيلان كانت زبيرية الهوى (نسبة إلى عبد الله بن الزبير) ضد بني أمية، مما أحنق بني أمية على قيس عيلان، وبخاصة الخليفة عبد الملك بن مروان الذي أخذ يناصبها العداء، ويرميها بأقسى الولاة، ويثقلها بخراج فادح.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ولذلك نرى شاعرنا في قصيدته اللامية يهجو عمال الخليفة، وقد عز عليه أن يرى قومه فريسة الجور والطغيان، فيقول لعبد الملك بن مروان:

أخليفة الرحمن إنا معشر .. حنفاءُ نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى لله في أموالنا ...... حق الزكاة منزلا تنزيلا

إن السعاة عصوك يوم أمرتهم .. وأتوا دواهي لو علمت وغولا

وقد أشتهر الراعي بنبله وبعده عن الأثرة، وسعيه في مجد قومه، وبذل وجهه لهم، دون أن يرجو لنفسه عطاء، ففي وفادته على عبد الملك بن مروان، أنشد عبد الملك قصيدته الدالية، فقال له عبد الملك: "فتريد ماذا؟" قال: "ترد على قومي صدقاتهم"، فقال عبد الملك: "هذا كثير!!"، قال: "أنت أكثر منه"، قال: "قد فعلت، فسلني حاجة تخصك"، قال: "قد قضيت حاجتي"، قال: "سل حاجتك لنفسك"، قال: "ما كنت لأفسد هذه المكرمة".

تبدل الحال

تبادل جرير والفرزدق الهجاء أكثر من أربعين سنة، وانحاز الراعي النميري إلى الفرزدق على حساب جرير حيث قال:

يا صاحبي دنا الرواح فسيرا .. غلب الفرزدق في الهجاء جريرا

فسوء حظه جعله يتعرض لجرير، إذ قال الرواة: إن جريرا التقى الراعي النميري وقد مر على بغلة له، وخلف الراعي ابنه "جندل" راكبا مهرا، فلما استقبله قال جرير:

"مرحبا بك يا أبا جندل، إن قولك يُستمع، وقد بلغني أنك تُفضل عليّ الفرزدق تفضيلا قبيحا، وأنا أمدح قومك وهو يهجوهم، وهو ابن عمي وليس منك، ولا عليك كلفة في أمري معه، وقد يكفيك من ذلك هين، وأن تقول إذا ذكرنا: كلانا شاعر كريم، فلا تحمل منه لائمة ولا مني".

وهنا لحق بالراعي ابنه جندل، فضرب عجز بغلته ثم قال: أراك واقفا على كلب بني كليب، كأنك تخشى منه شرا، أو ترجو منه خيرا. فضرب البغلة ضربة شديدة، فزحمت زحمة وقعت منها قلنسوة جرير، قال جرير:

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

"فوالله لو يعوج علي الراعي لقلت: سفيه غوي –يعني جندلا ابنه– لكنه والله ما عاج علي [أي ما صاح علي يسترضيني]، فأخذت قلنسوتي فمسحتها وأعدتها على رأسي"

وانصرف جرير مغضبا، ولم يمهله كثيرًا، بل أعد له في اليوم التالي قصيدة تتكوّن من سبعة وتسعين بيتا من الشعر، وأتى «سوق المربد» بالبصرة بعد أن احتل الناس مراكزهم وأسرج ناقته عند مجلس الفرزدق والراعي النميري وألقى قصيدته، وقد أسماها «الدامغة» لأن جريرًا دمغ بها الراعي النميري: أي أصاب دماغه. ويقال أن الراعي مات كمدًا من هجاء جرير، وكان أهجى بيت في القصيدة قوله:

فَغُضَّ الطَرفَ إِنَّكَ مِن نُمَيرٍ.....فَلا كَعباً بَلَغتَ وَلا كِلابا

وهذا بيت مأثور أدرك فيه غاية الهجاء للراعي النميري، إذ إنه دعاه أن ينكس نظره ويخفض جبينه ذلاً ومهانةً لانتسابه إلى النميريين الأذلاء، الذين لم يبلغوا منزلة كعب (قبيلة والدته) ولا منزلة قبيلة كلاب (قبيلة والده)، فقال بعض من معه: «هذا شؤمك، وشؤم ولدك جندل».

ويروى أنه لما كتب جرير هذا البيت أطفأ مصباحه ونام لأنه رأى أنه بلغ حاجته وشفى غيظه من الراعي النميري.

يقول الراعي: خرجنا من البصرة، فما وردنا ماء من مياه العرب إلا وسمعنا البيت قد سبقنا إليه حتى أتينا حاضر بني نمير، فخرج النساء والصبيان يقولون: قبحكم الله وقبح ما جئتمونا به، ومنذ ذلك الحين سميت بالدامغة، حتى أخذ بنو نمير يغيّرون قبيلتهم وينتسبون إلى قبائل أخرى.

ومن أبيات القصيدة:

أَعَدَّ اللَهُ لِلشُعَراءِ مِنّي........ صَواعِقَ يَخضَعونَ لَها الرِقابا

أَتَلتَمِسُ السِبابَ بَنو نُمَيرٍ ....فَقَد وَأَبيهِمُ لاقوا سِبابا

أَنا البازي المُدِلُّ عَلى نُمَيرٍ....أُتِحتُ مِنَ السَماءِ لَها اِنصِبابا

فَلا صَلّى الإِلَهُ عَلى نُمَيرٍ.....وَلا سُقِيَت قُبورُهُمُ السَحابا

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وَلَو وُزِنَت حُلومُ بَني نُمَيرٍ.......عَلى الميزانِ ما وَزَنَت ذُبابا

فَغُضَّ الطَرفَ إِنَّكَ مِن نُمَيرٍ.....فَلا كَعباً بَلَغتَ وَلا كِلابا

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

دوام الحال من المحال

تقلب الأيام من سنة الله عز وجل في خلقه، يحمل في طياته عظة للمتعظ، وعبرة للمعتبر .. قال أحد الحكماء: "من أيسر فتن، ومن أعسر حزن، وفي ممر الأيام معتبر الأنام".

قال تعالى: {وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران١٤٠] .. قال فخر الدين الرازي: "واعلم أنه ليس المراد من هذه المداولة أن الله تعالى تارة ينصر المؤمنين وأخرى ينصر الكافرين، وذلك لأن نصرة الله منصب شريف وإعزاز عظيم، فلا يليق بالكافر، بل المراد من هذه المداولة أنه تارة يشدد المحنة على الكفار وأخرى على المؤمنين، والفائدة فيه من وجوه:

(الأول): أنه تعالى لو شدد المحنة على الكفار في جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات لحصل العلم الاضطراري بأن الإيمان حق وما سواه باطل، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب، فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة على أهل الإيمان، وأخرى على أهل الكفر لتكون الشبهات باقية والمكلف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل الدالة على صحة الإسلام فيعظم ثوابه عند الله.

(الثاني): أن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصي، فيكون عند الله تشديد المحنة عليه في الدنيا أدباً له، وأما تشديد المحنة على الكافر فإنه يكون غضبا من الله عليه.

(الثالث): وهو أن لذات الدنيا وآلامها غير باقية وأحوالها غير مستمرة، وإنما تحصل السعادات المستمرة في دار الآخرة، ولذلك فإنه تعالى يميت بعد الإحياء، ويسقم بعد الصحة، فإذا حسن ذلك فلم لا يحسن أن يبدل السراء بالضراء، والقدرة بالعجز.

وروي أن أبا سفيان صعد الجبل يوم أحد ثم قال: أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟، فقال عمر: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا أبو بكر، وها أنا عمر، فقال أبو سفيان: يوم بيوم والأيام دول والحرب سجال، فقال عمر

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

-رضي الله عنه- لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، فقال: إن كان كما تزعمون، فقد خبنا إذن وخسرنا. [التفسير الكبير: ٣٩٥/٤]

قال محمد بن هلال: بعث إليَّ المعمَّر برسالة يطلب مني بغلة مسرجة ولم تكن له عندي منزلة مرعية، فرددت الرسالة ولم أجبه عنها، ثم إنه بعثها إليَّ وكتب على ظهرها:

عسى سائل ذو حاجة إن منعته .. من اليوم سؤلًا أن يكون له غدُ

فإنك لا تدري إذا جاء سائل ...... أأنت بما تعطيه أو هو أسعدُ

فأعدتُها إليه من غير جواب كما فعلت أولًا، ثم إنَّ الزمان قد دار فصُرِف عني ما كنت فيه من العُلا، ووُزِّر المعمَّر، وكنت إذ ذاك متوليًا شئونًا شتى، فأُرسلت إلى شيراز في مهَمَّة، فوردت عليه وأنا لا أشك في قتلي لما تقدم من سوء فعلي معه، فقرَّبني وأكرمني أيامًا، وأنا من شأنه متعجب.

فلما كان بعد أيام قمت من مجلسه منصرفًا فاتبعني الحاجب وقال: الوزير يريد أن يخلو بك، فلما خلا مجلسه استدعاني، وأسرَّ إلى بعض خدمه شيئًا، فمضى وعاد ومعه الرسالة بعينها، فلما أتى قرأت بحيث يسمع: {يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً}، فقال لي: لا تُرَع، أوقَفتك على سوء فعلك حتى لا تستصغر بعدها أمرًا؛ ولا تطرح مراعاة العواقب فيصير الدهر لك غير صاحب، وليكن هذا الفعل لأخلاقك مهذِّبًا؛ ثم خلع عليَّ ووَصَلني وردَّني إلى منصبي.

ولما قَتَل عامرُ بن إسماعيل مروانَ بن محمد (آخر خلفاء بني أمية بدمشق) ونزل في داره وقعد على فرشه؛ دخلت عليه عبدةُ بنت مروان فقالت: يا عامر، إن دهرًا أنزل مروان عن فرشه وأقعدك عليه لقد أبلغ في عظتك.

ولما دخل مسلمةُ بن زيد بن وهب على عبد الملك بن مروان فقال له: أي الزمان أدركته أفضل، وأي الملوك أكمل؟ فقال: أمَّا الملوك فلم أر إلا حامدًا وذامًّا، وأما الزمان فيُرفَع فيه أقوامٌ ويوضع آخرون، وكلُّهم يَذكُر أنه يُبلى جديدُهم ويُفَرِّق عديدُهم؛ ويهرم صغيرُهم ويهلِك كبيرُهم.

وقالوا في مكنون الحكم: "اليوم يومان فيوم حبرة ويوم عبرة".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقالوا: "الدهر يومان، فيوم لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصبر، فكلاهما سينحسر".

يقول شيخ الإسلام ابن –رحمه الله–: "ما جاء به الرسول –صلى الله عليه وسلم– ليس سبباً لشيء من المصائب، ولا تكون طاعة اللّه ورسوله قط سبباً لمصيبة، بل طاعة الله والرسول لا تقتضى إلا جزاء أصحابها بخيري الدنيا والآخرة، ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم، لا بما أطاعوا فيه الله والرسول، كما لحقهم يوم أُحُد بسبب ذنوبهم، لا بسبب طاعتهم الله ورسوله –صلى الله عليه وسلم–.

وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزلزال، ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم، لكن امتحنوا به، ليتخلصوا مما فيهم من الشر وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار؛ ليتميز طيبه من خبيثه، والنفوس فيها شر، والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه، قال تعالى:

{وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: ١٤٠، ١٤١]

وقال تعالى: {وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ} [آل عمران: ١٥٤]، ولهذا قال صالح –عليه السلام– لقومه : {طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} [النمل:٤٧] .

ولهذا كانت المصائب تكفر سيئات المؤمنين وبالصبر عليها ترتفع درجاتهم، وما أصابهم في الجهاد من مصائب بأيدي العدو، فإنه يعظم أجرهم بالصبر عليها.

وفى الصحيح عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (ما من غازية يغزون في سبيل الله، فيسلمون ويغنمون إلا تعجلوا ثلثي أجرهم، وإن أصيبوا وأخفقوا تم لهم أجرهم).

وأما ما يلحقهم من الجوع والعطش والتعب، فذاك يكتب لهم به عمل صالح، كما قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [التوبة: ١٢٠]".

يقول أهل العلم: "إن من لا يعرف هذه الحقيقة سيفاجأ بوقائع الأحداث تصب على رأسه صباً فيظن أنه الوحيد من بين بني الإنسان الذي يصاب بذلك لشؤمه وسوء حظه، ولذلك يبادر بعضهم بالإجهاز على نفسه بالانتحار، لأنه ما علم أن لكل فرحة ترحة وما كان ضحك إلا كان بعده بكاء، وما ملئ بيت حبرة إلا مليء عبرة، وما عبّت دار من السرور إلا عبّت من الحزن، وأنه لو فتش العالم لم ير فيه إلا مبتلى: إما بفوات محبوب أو حصول مكروه، وأن سرور الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، وإن سرت يوماً أساءت دهراً، وإن متعت قليلاً، منعت طويلاً".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

حب الصحابة

رياح الليبرالية الغربية العاتية أتت على كثير من ثوابتنا بفعل موجة التغريب التي تنبثق من واقع أن «المغلوب دائما مولع بتقليد الغالب»، فضلا عن الحملة الغربية الضروس على أمتنا الإسلامية لمحو هويتها وضمان تبعيتها .. لقد تفشت النسبية في كثير من معتقداتنا وباتت ثوابتنا هلام لا شكل له ولا معلم، ونال الطعن والنقد مقدساتنا من قرآن وسنة وعقيدة وشريعة .. حتى صار بعضهم يتحدث عن أفذاذ الصحابة – وكلهم أفذاذ– كما يتحدث عن شراذم الناس، مما يتنافى مع وجاهتهم ومكانتهم، ويتنافى مع ما كان عليه السلف المبارك من حبهم للصحابة وتوقيرهم بتوقير الله تعالى ورسوله –صلى الله عليه وسلم– لهم، حتى أنهم ألحقوا باب «حب الصحابة» في الحديث عن العقائد، إعلاما منهم أن حبهم دين يدين به المؤمنون لله رب العالمين، مما حتم علينا نحن الخلف أن نكرر الذكر ونجدد العهد على حبهم وتبجيلهم.

«صحابة رسول الله» هم من صَحِبَ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بِلُقِيِّهِ ولو ساعةً مؤمناً به ومات على ذلك، ونوع الصحبة وقَدْرُ الصُّحْبَة يختلف فيه الصحابة، فليسوا على مرتبة واحد.

والصحابة كلهم أثنى الله تعالى عليهم بدون استثناء وأثنى عليهم رسوله –صلى الله عليه وسلم–، فقال تعالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} [الفتح:٢٩]،

قال أهل التفسير: "محمد رسول الله، والذين معه على دينه أشداء على الكفار، رحماء فيما بينهم، تراهم ركعًا سُجَّدًا لله في صلاتهم، يرجون ربهم أن يتفضل عليهم، فيدخلهم الجنة، ويرضى عنهم، علامة طاعتهم لله ظاهرة في وجههم من أثر السجود والعبادة، هذه صفتهم في التوراة. وصفتهم في الإنجيل كصفة زرع أخرج ساقه وفرعه، ثم تكاثرت فروعه بعد ذلك، وشدت الزرع، فقوي واستوى قائمًا على سيقانه جميلا منظره، يعجب الزُّرَّاع؛ ليَغِيظ بهؤلاء المؤمنين في كثرتهم وجمال منظرهم الكفار.

وفي هذا دليل على كفر من أبغض الصحابة -رضي الله عنهم-؛ لأن من غاظه الله بالصحابة، فقد وُجد في حقه موجِب ذاك، وهو الكفر.

وعد الله الذين آمنوا منهم بالله ورسوله وعملوا ما أمرهم الله به، واجتنبوا ما نهاهم عنه، مغفرة لذنوبهم، وثوابًا جزيلا لا ينقطع، وهو الجنة. ووعد الله حق مصدَّق لا يُخْلَف، وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم في استحقاق المغفرة والأجر العظيم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم". [التفسير الميسر]

وقال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ} [التوبة:١٠٠]

كذلك قوله تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} [الفتح:١٨]، حتى سُمِّيَتْ هذه البيعة بيعة الرضوان؛ لأنَّ الله رَضِيَ ما عملوه، ورَضِيَ بَيْعَتَهُمْ فَسُمِّيَتْ بيعة الرضوان.

وقال تعالى: {لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} [الحديد:١٠]

قال -صلى الله عليه وسلم-

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

- (لا تسبوا أصحابي فوالذي نفس محمد بيده فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مدّ أحدكم ولا نصيفه) [الصحيحين]

- (دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد ذهبا ما بلغتم أعمالهم). [أحمد: صحيح الجامع: ٣٣٨٦]

- (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) [الترمذي، صحيح الجامع: ٣٢٩٤]

- (احفظوني في أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشوا الكذب، حتى يشهد الرجل وما يستشهد، ويحلف وما يستحلف) [ابن ماجة، صحيح الجامع: ٢٠٦].

- (إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا) [الطبراني، صحيح الجامع: ٥٤٥]

- (النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون) [مسلم وأحمد]

(النجوم) أي الكواكب، سميت بها لأنها تنجم أي تطلع من مطالعها في أفلاكها (أمنة للسماء) الأمنة مصدر بمعنى «الأمن»، فوصفها بالأمنة من قبيل قولهم رجل عدل، يعني أنها سبب أمن السماء، فما دامت النجوم باقية لا تنفطر ولا تتشقق ولا يموت أهلها (فإذا ذهبت النجوم) أي تناثرت (أتى السماء ما توعد) من الانفطار والطيّ كالسجل (وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون) من الفتن والحروب واختلاف القلوب، وقد وقع (وأصحابي أمنة لأمتي) أمة الإجابة (فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون) من ظهور البدع وغلبة الأهواء واختلاف العقائد وطلوع قرن الشيطان وظهور الروم وانتهاك الحرمين وكل هذه معجزات وقعت.

قال ابن الأثير: فالإشارة في الجملة إلى مجيء الشر عند ذهاب أهل الخير، فإنه لما كان بين أظهرهم كان يبين لهم ما يختلفون فيه، وبموته جالت الآراء واختلفت

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الأهواء وقلت الأنوار وقويت الظلم، وكذا حال السماء عند ذهاب النجوم [فيض القدير، بتصرف]

- (لعن الله من سب أصحابي) [الطبراني، حسن الجامع:٥١١١]

لما لهم من نصرة الدين، فسبهم من أكبر الكبائر، وأفجر الفجور، بل ذهب بعضهم إلى أن ساب الشيخين يقتل [فيض القدير]

- (من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) [الطبراني، حسن الجامع:٦٢٨٥]

(من سب أصحابي) أي شتمهم (فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس) أي الطرد والبعد عن مواطن الأبرار ومنازل الأخيار، والسب والدعاء من الخلق (أجمعين) تأكيد لمن سب أو الناس فقط أي كلهم، وهذا شامل لمن لابس القتل منهم لأنهم مجتهدون في تلك الحروب متأولون فسبهم كبيرة ونسبتهم إلى الضلال أو الكفر كفر. [فيض القدير]

- (اقتدوا باللذين من بعدي من أصحابي: أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمار، وتمسكوا بعهد ابن مسعود) [الترمذي، صحيح الجامع: ١١٤٤]

قوله: (واهتدوا بهدي عمار) ابن ياسر: أي سيروا بسيرته واسترشدوا بإرشاده، فإنه ما عرض عليه أمران إلا اختار أرشدهما (وتمسكوا بعهد ابن مسعود) عبد اللّه، أي ما يوصيكم به، قال التوربشتي: أشبه الأشياء بما يراد من عهده أمر الخلافة، فإنه أول من شهد بصحتها، وأشار إلى استقامتها قائلاً: "ألا نرضى لدنيانا من رضيه لديننا نبيينا". [فيض القدير، المناوي]

وفي شأن الأنصار خاصة قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

- (آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار) [متفق عليه]

- (حب الأنصار آية الإيمان، وبغض الأنصار آية المنافق) [النسائي، صحيح الجامع: ٣١٢٣]

- (من أحب الأنصار أحبه الله، ومن أبغض الأنصار أبغضه الله) [أحمد، صحيح الجامع: ٥٩٥٣]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

- (لا يحب الأنصار إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله) [متفق عليه]

- (لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر) [مسلم]

- (أحسنوا إلى محسن الأنصار، واعفوا عن مسيئهم) [الطبراني، صحيح الجامع:١٩٦]

- (أما بعد أيها الناس! فإن الناس يكثرون ويقل الأنصار حتى يكونوا في الناس بمنزلة الملح في الطعام، فمن ولي منكم أمرا يضر فيه أحدا وينفع فيه أحدا، فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم) [البخاري]

- (إن الناس يهاجرون إليكم ولا تهاجرون إليهم، والذي نفسي بيده لا يحب الأنصار رجل حتى يلقى الله إلا لقي الله وهو يحبه، ولا يبغض الأنصار رجل حتى يلقى الله إلا لقي الله وهو يبغضه) [أحمد، حسن الجامع: ١٩٧٩]

- (إن الأنصار قد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي عليكم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم) [صحيح الجامع: ١٥٨٧]

- (الأنصار كرشي [أي بطانتي] وعيبتي [أي خاصتي]، وإن الناس سيكثرون، وهم يقلون، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم) [النسائي، صحيح الجامع: ٢٧٩٢]

- (لكل نبي تركة وضيعة وإن تركتي وضيعتي الأنصار فاحفظوني فيهم) [حسن، صحيح الجامع: ٥١٧٣]

- (لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس واديا أو شعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم) [متفق عليه]

- (الأنصار شعار، والناس دثار، ولو أن الناس استقبلوا واديا أو شعبا واستقبلت الأنصار واديا لسلكت وادي الأنصار، ولو لا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار) [ابن ماجة، صحيح الجامع: ٢٧٩١]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

- (ألا أخبركم بخير دور الأنصار؟ دار بني النجار ثم دار بني عبد الأشهل ثم دار بني الحارث ثم الخزرج ثم دار بني ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير) [صحيح الجامع: ٢٦٠٢]

- (خير ديار الأنصار بنو النجار) [الترمذي، صحيح الجامع: ٣٣٠٦]

- (خير ديار الأنصار بنو عبد الأشهل) [الترمذي، صحيح الجامع: ٣٣٠٧]

- (الأنصار ومزينة وجهينة وغفار وأشجع ومن كان من بني عبد الدار موالي دون الناس، والله ورسوله مولاهم) [مسلم]

- (قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله) [متفق عليه]

- (جزى الله الأنصار عنا خيرا، ولاسيما عبد الله بن عمرو بن حرام وسعد بن عبادة) [ابن حبان، صحيح الجامع: ٣٠٩١]

- (كان يحب أن يليه المهاجرون والأنصار في الصلاة ليحفظوا عنه) [أحمد، صحيح الجامع: ٤٩٢٤]

- (كان يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح رءوسهم) [النسائي: صحيح الجامع: ٤٩٤٧

ومعنى هذه الأحاديث، أن من عرف رتبة الأنصار، وما كان منهم في نصرة الإسلام والسعي في إظهاره، وإيواء المسلمين وقيامهم في مهمات الإسلام حق القيام وحبهم للنبي -صلى الله عليه وسلم- وحبه إياهم وبذلهم أموالهم، وأنفسهم بين يديه، وقتالهم معه، ومعاداتهم سائر الناس من غير المسلمين إيثارا للإسلام .. أحب الأنصار، وهذا من دلائل صحة إيمانه، وصدقه في إسلامه، لسروره بظهور الإسلام، والقيام بما يرضي الله سبحانه وتعالى، ورسوله - صلى الله عليه وسلم - ومن أبغضهم كان بضد ذلك، واستدل ببغضه لهم على نفاقه وفساد سريرته. ويقاس على ذلك حب، أو بغض من سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

مجمل القول

هذه الآيات والأحاديث تفيد في شأن الصحابة أمور:

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

- الأول: أنَّ الصحابِيَّ إذا مات على الإيمان فإنَّهُ موعودٌ بالمغفرة والرضوان.
- الثاني: أنَّ الصحابة كلهم عدول لتعديل الله تعالى لهم وثنائه عليهم.

ومعنى العدالة هنا أنَّهُم عُدولٌ في دينهم وفيما يروون وينقلون من الشريعة، وأنَّ ما حَصَلَ من بعضهم من اجتهاد، فإنَّهُ لا يقدح عدالتهم ولا يُنْقِصُهَا، لِمُضِيِّ ثناء الله تعالى عليهم مطلقاً.

- الثالث: أنَّ سبَّ الصحابة ينافي ما دَلَّتْ عليه الأدلة من الثناء عليهم، وهو منهيٌ عنه بالنَّصْ، فلذلك أفادت هذه النصوص المباركة حُرْمَةْ سبِّ الصحابة.
- الرابع: أنَّ هذه الآيات والأحاديث دلَّتْ على أنَّ الصحابة يتفاوتون في المنزلة وفي المرتبة وأنَّهُم ليسوا على درجة واحدة.

فرض وواجب

حب الصحابة «فرض وواجب» وهو من الموالاة الواجبة للصحابة، وهذا الحب يقتضي أشياء:

* الأول: قيام المودة في القلب لهم.

* الثاني: الثناء عليهم بكل موضع يُذْكَرُونَ فيه والترضي عنهم.

* الثالث: أن لا يَحْمِلَ أفعالهم إلا على الخير فكلُّهُم يريد وجه الله تعالى.

* الرابع: أن يَذُبَّ المرء عنهم؛ لأنَّه مِنْ مقتضى المحبة والولاية؛ بل من معنى المحبة والولاية النُّصْرَةْ: أَنْ يَنْصُرَهُمْ المسلم إذا ذُكِرُوا بغير الخير أو انتقص منهم منتقص، أو شَكَّكَ في صدقهم أو عدالتهم أحد، فإنَّهُ واجبٌ أن يُنْتَصَرَ لهم رضي الله عنهم.

دين وولاء

حبُّ الصحابة «دِيْنْ» لأنَّ الله تعالى أثنى عليهم، وتصديق خبر الله تعالى وانعقاد الوَلَاية لا شك أنَّ هذا دين؛ بل من أعظم الدين.

والصحابة اجتمع ذلك في حقهم من ناحيتين:

- الناحية الأولى: أنَّ الله عَقَدَ الوَلَاية بين المؤمنين فقال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}[التوبة:٧١] ومعنى الوَلَاية المحبة والنصرة، وأعظم المؤمنين إيماناً هم صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فلهم من الوَلَاية

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والمحبة والنصرة أعلاها، كذلك قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}[الحشر: ١٠] فأثنى على هؤلاء لأجل اتِّصَافِهِمْ بالدين ولاشك أنَّ حب الصحابة من هذه الجهة دين.

- الناحية الثانية: أنَّ تصديق خبر الله تعالى فيما أثنى الله به عليهم في آياتٍ كثيرة، سواءٌ ما أثنى به على المهاجرين والأنصار كجنس، أو ما أثنى به على أهل بيعة الرضوان، أو ما أثنى به على السابقين، أو ما أثنى به على جميع مَنْ مَعَ النبي –صلى الله عليه وسلم–: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ} هذا يشمل الجميع، {وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ} هؤلاء حُبُّهُم لثناء الله تعالى وتصديق خبر الله هذا لاشك أنَّهُ دين، وقال الله تعالى في آخر سورة الفتح {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ٢٩].

وحرف الجر في قول الله تعالى {مِنْهُم} .. (مِنْ) هذه، أهل السنة والجماعة؛ بل أهل السنة الذين يخالفون الرافضة والخوارج يجعلون (مِنْ) هنا بَيَانِيَّةْ لبيان الجنس، والآخرون من الرافضة يجعلونها تبعيضية، وهي لبيان الجنس.

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} لو لم يقل {مِنْهُم} لصارت تشمل كل مؤمن عَمِلَ الصالحات، وهذا يدخل فيه أجناس التابعين وتبع التابعين ومن وَلِيَهُمْ إلى يوم القيامة، فأراد تخصيص جنس الصحابة بهذا الفضل وهو الوعد بالمغفرة والأجر العظيم، فقال: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} ليس على الإطلاق {مِنْهُم} يعني مِنَ الصحابة، مِنَ الذين مع محمد {مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}.

وليست (مِنْ) هاهنا تبعيضية لأنَّها لا تنطبق عليها شروط التبعيض في هذا الموطن، وإنما فسَّرَهَا بأنها تبعيضية الرافضة ومن شابههم، وهو الموجود في تفاسيرهم، يريدون أن يكون هذا الوعد لبعض الصحابة لا لكل الصحابة.

و(مِنْ) هنا لبيان الجنس وليست لبيان وليست للتبعيض كقولك: الكتاب من ورق، هذا لبيان جنسه أو ما شابه ذلك. أما التبعيض فهذا لا يكون في الوصف، يكون الثاني بعض الأول.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وهنا جاء وعداً بالوصف فقال {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [النور:٥٥] فلا يكون التبعيض في مثل هذا السياق.

لهذا كان عامة بل كان كل مفسري السلف والأئمة على أنَّ (من) هنا لبيان الجنس لاتفاق آخر الآية مع أول الآية.

إيمان وتصديق

حب الصحابة «إيمان» لأنَّهُ واجبٌ أَوجَبَهُ الله تعالى، وما أَوجَبَهُ الله تعالى فهو من شُعَبِ الإيمان، فَحُبُّ الصحابة إيمان، والنبي –صلى الله عليه وسلم– نَصَّ في بعض الصحابة على أَنَّهُ إِيمانٌ بقوله: (آية الإيمان حُبُّ الأنصار، وآية النفاق بُغْضُ الأنصار) [البخاري ومسلم]

إحسان وبر

حبَّ الصحابة «إِحْسَانٌ وبر»، لأَنَّهُ يدل على أنَّ المُحِبْ لهم مُحْسِنْ في دينه، وأتى بما يجب عليه وما يتقرب به إلى ربه من أنواع إحسانه وصِدْقِهِ في دينه.

فأصل حب الصحابة هي مسألة «حب موالاة»، وهذه ليست من العقيدة لأنَّ أصل العقيدة ما يتعلق بمسائل الغيب ثُمَّ دخل فيها ما يتميز به أهل السنة عن غيره، فأصل العقيدة الذي يدخل في أركان الإيمان الستة: الاعتقاد في الله ربوبيته إلهيته الأسماء والصفات في الملائكة في الكتب والرسل اليوم الآخر والقدر .. هذه العقيدة، مسائل الإيمان في نفسها، أما المسائل الأخرى المُلْحَقَة هذه لأجل المُخَالفة، وصارت من العقيدة، وكونها من الإيمان هذا حق الإيمان ليست كل مسائله مسائل اعتقاد.

أقوال أهل العلم

– عن أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– قالت: "أمروا بالاستغفار لأصحاب محمد –صلى الله عليه وسلم– فسبوهم".

– عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: "لا تسبوا أصحاب محمد –صلى الله عليه وسلم– فإن الله عز وجل قد أمر بالاستغفار لهم، وهو يعلم أنهم سيقتتلون".

– قال الإمام أحمد في الصحابة: حبهم سنة، والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

- عن عبد الملك بن عبد الحميد الميموني قال: سمعت أحمد بن حنبل رحمه الله يقول: ما لهم ولمعاوية؟ أسأل الله العافية. وقال لي: يا أبا الحسن، إذا رأيت أحداً يذكر أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بسوء فاتهمه على الإسلام.

- قال أبو زرعة الرازي: سمعت قبيصة بن عقبة يقول: "حب أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- كلهم سنة".

- قال أيوب السختياني: "من أحب أبا بكر الصديق فقد أقام الدين، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان فقد استنار بنور الله، ومن أحب علي بن أبي طالب فقد استمسك بالعروة الوثقى، ومن قال الحسنى في أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- فقد برئ من النفاق".

- قال الشاعر:

حب الصحابة والقرابة سنة .. ألقى بها ربي إذا أحياني

احذر عقاب الله وارج ثوابه .. حتى تكون كمن له قلبان

ومما توسل به شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- من الأعمال الصالحة: محبة الصحابة، وآل البيت فقال في لاميته:

يا سائلي عن مذهبي وعقيدتي ... رزق الهدى من للهداية يسأل

اسمع كلام محقق في قوله ... لا ينثني عنه ولا يتبدل

حب الصحابة كلهم لي مذهب ... ومودة القربى بها أتوسل

ولكلهم قدر وفضل ساطع ... لكنما الصديق منهم أفضل

قال الإمام الذهبي: "ما نقرّر الكف عن كثير مما شجر بين الصحابة وقتالهم رضي الله عنه أجمعين، وما زال يمر بنا في الدواوين والكتب والأجراء، ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف وبعضه كذب وهذا فيما بأيدينا وبين علمائنا، فينبغي طيه، وإخفاؤه، بل إعدامه لتصفو القلوب وتتوفر على حب الصحابة والترضي عنهم وكتمان ذلك متعين على العامة وآحاد العلماء، وقد يُرخّصُ في مطالعة ذلك خلوةُ للعالم المنصف العري عن الهوى بشرط أن يستغفر لهم كما علمنا الله تعالى" ..

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

إلى أن يقول: "فالقوم لهم سوابق وأعمال مكفّرة لما وقع منهم وجهاد محّاء، وعبادة ممحصة، ولسنا ممن يغلو في أحد منهم، ولا ندعي فيهم العصمة، ونقطع بأن بعضهم أفضل من بعض. فأما ما تنقله الرافضة وأهل البدع في كتبهم من ذلك فلا تعرّج عليه ولا كرامة، فأكثره باطل وكذب وافتراء، ودأب الروافض رواية الأباطيل أو ردّ ما في الصحاح والمسانيد ومتى إفاقة من ربه سكران" ثم قال: "والعاقل خصم نفسه ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه".

مما سبق من كلام الحافظ الذهبي يتبين:

١- عدم بث ونشر ما شجر بين الصحابة من قتال.

٢- وجوب كتمان ما شجر بينهم على العامة وآحاد العلماء.

٣- قد يرخص للعالم المنصف العري عن الهوى مطالعة ما شجر في الكتب والإنصاف في ذلك والاستغفار للصحابة كما علمنا الله.

٤- عدم الاعتماد على ما ورد في كتب أهل البدع والروافض، وعدم الوثوق بها.

٥- لا يجوز للعامي ولا أنصاف المتعلمين مطالعة كتب الروافض وأهل البدع.

٦- أكثر ما ورد فيما شجر بين الصحابة لا يصح من قبل إسناده فهو إما ضعيف أو كذب أو منقطع لا يوثق بمن نقله ورواه.

٧- ينبغي إعدام تلك الروايات الباطلة؛ لأنها من العلم الذي لا ينفع والذي يحرم نشره وبثه.

ويقول رفاعة الطهطاوي –رحمه الله–: "وما ظنك بقوم اختارهم الله تعالى لصحبة رسوله –صلى الله عليه وسلم–، ولمواجهة خطابه في تنزيله، فما أحد من المؤمنين إلى يوم القيامة إلا وللصحابة في عنقه منن لا تحصى، وأياد لا تستقصى، لأنهم هم الذين حملوا إلينا عنه –صلى الله عليه وسلم– الحكم والأحكام، وبينوا الحلال والحرام، وفهموا الخاص والعام، وفتحوا الأقاليم والبلاد، وقهروا أهل الشرك والعناد"

الصحابة درجات

كما قررنا سلفا أنه يجب على كل مسلم حب الصحابة، وتوليهم، ومعرفة فضلهم، خصوصاً أفضلهم أبا بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم باقي العشرة

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

المباشرين بالجنة، وأهل بدر، وأهل بيعة الرضوان. ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكذا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم والإيمان، وأنهن أزواجه في الجنة، وحب آل البيت، كما أوصانا النبي –صلى الله عليه وسلم–، والحذر كل الحذر ممن سب الصحابة، أو قال: إنهم ارتدوا إلا ستة كما يقول الشيعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، كما وصفهم الله به في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} [١٢٧].

وطاعة النبي –صلى الله عليه وسلم– في قوله: (لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه).

ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع: من فضائلهم ومراتبهم فيفضلون من أنفق من قبل الفتح –وهو صلح الحديبية– وقاتل، على من أنفق من بعده وقاتل، ويقدمون المهاجرين على الأنصار، ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر –وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر–: (اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة كما أخبر به صلى الله عليه وسلم، بل قد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بالجنة كالعشرة وغيرهم من الصحابة.

ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– وعن غيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، ويثلثون بعثمان، ويربعون بعلي رضي الله عنهم، كما دلت عليه الآثار، وكما أجمع الصحابة –رضي الله عنهم– على تقديم عثمان في البيعه .. ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال البيهقي في «شعب الإيمان»: "وإذا ظهر أن حب الصحابة من الإيمان، فحبهم أن يعتقد فضائلهم ويعترف لهم بها ويعرف لكل ذي حق منهم حقه، ولكل ذي عنا في الإسلام عناه، ولكل ذي منزلة عند الرسول –صلى الله عليه وسلم– منزلته، وينشر محاسنهم ويدعو بالخير لهم، ويقتدي بما جاء في أبواب الدين عنهم ولا يتتبع زلاتهم وهفواتهم ولا يتعمد تهجين أحد منهم ببث ما لا يحسن عنه، ويسكت عما لا يقع ضرورة إلى الخوض فيه فيما كان بينهم وبالله التوفيق".

إن الواجب تربية الناس على حب الصحابة، وذكر فضلهم، وأي شيء وقع بينهم بعد ذلك هم فيه بين الأجرين أو أجر ومغفرة، ولا يعرض خلافهم هكذا على الملأ، فهذا مخالف لعقيدة أهل السنة والجماعة فيما شجر بين الصحابة وإشاعة تفاصيله من صنيع أهل البدع، وبهذا تعرف سبب تحذير السلف من مخالطة أهل البدع فقد أضعفت حب الصحابة في قلوب قوم فأصبحوا لا يرون في تقمص الكافر والفاسق شخصية خير البشر بعد الأنبياء تنقص لهم، فرحم الله بعض السلف إذ يقول لمبتدع أراد حواره "ولا نصف كلمة".

إن حُبّهُم دِينٌ وإيمَانٌ وإحْسَانٌ .. كل هذه تتبعض، ليست شيئاً واحداً، فالناس في حب الصحابة يختلفون، وأجرهم على قدر كثرة محبتهم ونصرتهم وفقههم لفضائلهم.

ولذا توَسَّطَ أهل السنة والجماعة في الحب بين طرفين: بين طرف المُفْرِطِينْ وطرف المتبَرِّئين.

أما الغلاة والمُفَرِّطُون في الحب فهم الذين جعلوا بعض الصحابة لهم خصائص الإلهية كما فعل طائفة مع علي –رضي الله عنه–، وكما فعل طائفة مع أبي بكر –رضي الله عنه–، أو غلو بما هو دون الإلهية بأن يجعلوا هذا الحب يقتضي انتقاص غيرهم، فيُحِبُّ أبا بكر وينتقص علياً، أو يحبّ علياً –رضي الله عنهم– وينتقص أبا بكر .. هذا إفراط وغلو.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فالوسط هو طريقة أهل السنة، فإنَّ الحب يقتضي موالاة الجميع، وأن لا يَغْلُوَ المسلم في أي صحابي؛ بل يُحِبُّهُم ويَوَدُّهُم ويذكرهم بالخير ولا يجعل لهم شيئا من خصائص الإلهية.

بل أجمع أهل العلم أنَّ من ادَّعَى في صحابيٍ أنَّ له شيئاً من خصائص الإله، أو أنَّهُ يُدْعَى ويُسْأَلْ كما يُعْتَقَد في علي -رضي الله عنه- ونحوه أنَّهُ كافر بالله العظيم.

وهذا الغلو وقع فيه كثير في الأمة بعد ذلك، فأُقِيْمَتْ المزارات والمشاهد والقبور والقباب على قبور الصحابة، كقبر أبي أيوبٍ الأنصاري قرب اسطنبول، وكقبر أبي عبيدة بن الجراح في الأردن، وكقبر عدد من الصحابة كالحسين والحسن وعلي إلى آخره في أمصارٍ مختلفة.

فجعلوا قبورهم من فَرْط المحبة أوثاناً يأتون فيسألون ويدعون ويستغيثون ويتقربون للصحابة، وهذا إفراط وليس هو الحب المأذون به؛ بل هذا حبٌ معه الشرك المُحَقَّقْ إذا وصل إلى سؤال الميت ودعائه والتقرب إليه.

وفي المقابل يكون فِعْلُ طائفةٍ ضالة أخرى تتبرأ من الصحابة جميعاً كفعل الزنادقة، أو تتبرأ من أكثر الصحابة كفعل الرافضة والخوارج، أو تتبرأ من طائفة من الصحابة كفعل النواصب ومن شابههم.. فهؤلاء تبرؤوا.

ومنهم من يعتقد أنَّهُ «لا حُبَّ ولا ولاء إلا بِبَرَاءْ»، يعني لا يصلح حب صحابي وولاء صحابي إلا بالتبرؤ ممن ضَادَّهْ. فيجعلون في ذلك أنَّ حب علي -رضي الله عنه- والولاء لعلي والحسن والحسين يقتضي بُغْضَ أبي بكر وبُغْضَ عمر وبُغْضَ عثمان، ومن سلب هؤلاء حقهم كفعل الرافضة عليهم من الله ما يستحقون.

لهذا كان مُعْتَقَدْ أهل السنة والجماعة في هذا أنَّ التبرؤ من الصحابة واعتقاد أنَّهُ لا موالاة إلا بالبراءة أنَّ هذا ضلالٌ وقد يوصل إلى الكفر.

لذا قال من كتبوا في العقيدة: (وَنُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُم، وَبِغَيْرِ الخَيْرِ يَذْكُرُهُم)

وهذا من مقتضى المحبة الوَسَطْ، ودين الله وسط بين الغالي والجافي، فإننا من ذَكَرَهُمْ بخير أحببناه ومن ذَكَرَهُمْ بغير الخير أبغضناه؛ لأنَّ من مقتضى المحبة والولاية أن يُحَبَّ من يُحِبُّهُمْ وأن يُبْغَضَ من يُبْغِضُهُمْ.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ولا يدعوك حب الصحابة إلى بخس عترة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، حقوقهم وحظوظهم فإن عمر لما كتبوا الدواوين، وقدموا ذكره، أنكر ذلك وقال: "ابدءوا بطرفي رسول الله -صلى الله عليه وآله-، وضعوا آل الخطاب حيث وضعهم الله". قالوا: فأنت أمير المؤمنين؟ فأبى إلا تقديم بني هاشم، وتأخير نفسه، فلم ينكر عليه منكر، وصوبوا رأيه، وعدوا ذلك من مناقبه.

واعلم أن الله أراد أن لا يسوي بين بني هاشم وبين الناس، لما أبانهم بسهم ذوي القربى، ولما قال: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء:٢١٤]؛ وقال تعالى: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} [الزخرف:٤٤]، وإذا كان لقومه في ذلك ما ليس لغيرهم، فكل من كان أقرب كان أرفع، ولو سواهم بالناس لما حرم عليهم الصدقة؛ وما هذا التحريم إلا لإكرامهم على الله تعالى. ولذلك قال للعباس حيث طلب ولاية الصدقات: (لا أوليك غسالات خطايا الناس وأوزارهم، بل أوليك سقاية الحاج والإنفاق على زوار الله). ولذا كان رباه أول ربا وضع. ودم ربيعة بن حارث أول دم أهدر، لأنهما القدوة في النفس والمال.

ولهذا قال علي -عليه السلام- على منبر الجماعة: "نحن أهل بيت لا يقاس بنا أحد". وصدق -صلوات الله عليه- كيف يقاس بقوم منهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والأطيبان علي وفاطمة، والسبطان الحسن والحسين، والشهيدان أسد الله حمزة وذو الجناحين جعفر، وسيد الوادي عبد المطلب، وساقي الحجيج العباس، وحليم البطحاء والنجدة والخير فيهم، والأنصار أنصارهم، والمهاجر من هاجر إليهم ومعهم. والصديق من صدقهم، والفاروق من فرق بين الحق والباطل فيهم، والحواري حواريهم، وذو الشهادتين لأنه شهد لهم ولا خير إلا فيهم ولهم ومنهم ومعهم، وقال عليه السلام فيما أبان به أهل بيته: (إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمَ الْخَلِيفَتَيْنِ مِنْ بَعْدِي: كِتَابَ اللهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ) [مصنف أبي شيبة: ٣٢٣٣٧]، ولو كانوا كغيرهم، لما قال عمر -رضي الله عنه- حين طلب مصاهرة علي: إني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة، إلا سببي ونسبي) [الطبراني، المعجم الكبير].

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

واعلم أن الرجل قد يتنازع في تفضيل ماء دجلة على ماء الفرات، فان لم يحتفظ، وجد في قلبه على شارب ماء دجلة رقة لم يكن يجدها، ووجد في قلبه غلظة على شارب ماء الفرات، لم يكن يجدها فالحمد لله الذي جعلنا لا نفرق بين أبناء نبينا ورسلنا، ونحكم لجميع المرسلين بالتصديق، ولجميع السلف بالولاية. ونخص بني هاشم بالمحبة، ونعطي كل امرئ قسطه من المنزلة.

المصادر

- شرح العقيدة الطحاوية للإمام أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي والمسمى بـ «إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل» شرحها الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
- «اعتقاد أهل السنة» .. للإمام أبي بكر بن قاسم الرحبي، إعداد: موسى بن محمد بن هجاد الزهراني
- «الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة» .. أبو القاسم إسماعيل ابن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني
- «فتاوى عبد الرزاق عفيفي» ص٣٢٠
- «المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام» جمع وإعداد الباحث في القرآن والسنة، علي بن نايف الشحود.
- «الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية» محماس بن عبد الله بن محمد الجلعود
- مجلة لغة العرب العراقية – مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية
- مسلسل الحسن والحسين ومعاوية رؤية فنية .. مقالات موقع الدرر السنية

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ذوق الصلاة في كلام العلماء الربانيين

الحمد لله، يجيب المضطر، ويكشف السوء، فارج الهم، كاشف الغم، وهو على كل شيء قدير، أحمده سبحانه، وأسأله الفرج القريب والنصر العزيز، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، أفضل الشاكرين، وقدوة العالمين –صلى الله عليه وسلم–، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الشاكرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد

** يحكى أنّ فأرةً رأت جملاً فأعجبها، فجرّت خطامه فتبعها، فلمّا وصلت إلى باب بيتها، وقف الجمل متأمّلا صُغر باب بيت الفأرة مقارنةً بحجمه الكبير جدًّا. فنادى الجمل الفأرة قائلاً:

إمّا ان تتخذي دارًا تليق بمحبوبك أو تتخذي محبوبًا يليق بدارك!

قال ابن القيم بعد أن أوردها في (بدائع الفوائد)، مخاطبًا كل مؤمن وَمؤمنة:

"إمّا أن تصلّي صلاةً تليقُ بمعبودك!، أو تتخذ معبودًا يليقُ بصلاتك"

من تعود على تأخير الصلاة،، فليتهيأ للتأخير في كُل أمور حياته!!.. زواج، وظيفة، ذُرية، عافية.

قالُ الحَسنُ البَصري: إذَا هَانَت عَليكَ صَلاتك فَمَا الذي يَعزُ عَليكْ؟!

بقدر ما تتعدل صلاتك تتعدل حياتك..

ألم تعلم أن الصلاة اقترنت بالفلاح "حي على الصـــلاة، حي على الفـلاح"، فكيف تطلب من الله التوفيق، وأنت لحقه غير مجيب.

إن أسعد أهل الأرض: من يعي أن الصلاة هي الصلة بالله وليست الحمل الذي نذهب لنرميه عن كاهلنا ونتملل!

{رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء}

يقول ابن تيمية: فلفظ الذوق يستعمل في كل ما يحس به ويجد ألمه أو لذته

قال –صلى الله عليه وسلم–:

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا)

** (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار)

قال ابن القيم: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحا، فاتهمه، فإن الرب تعالى شكور.

يعني أنه لابد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه وقوة انشراح وقرة عين فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول.

فالصلاة قرة عين الموحدين، ومحك أحوال الصادقين، وجعل الله تعالى حظ القلب منها أكمل الحظين وأعظمها، وهو إقباله على ربه وفرحة وتلذذه بقربه وتنعمه بحبه.

قال تعالى: {أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الزمر:٢٢]

فلله في كل جارحة من جوارح العبد عبودية تخصه، وطاعة مطلوبة منها، خلقت لأجلها، وهيئت لها .. فدعا الله سبحانه الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم، وهيأ لهم فيها أنواع العبادة لينال العبد من كل قول وفعل وحركة وسكون حظه من عطاياه.

والله تعالى جعل الصلاة سببا موصلا لقربه ومناجاته ومحبته والأنس به

وما بين صلاتين تحدث له الغفلة والجفوة والإعراض والزلات والخطايا، فيبعده ذلك عن ربه، وينحيه عن قربه، ويصير كأنه أجنبي عن العبودية، وربما ألقى بيده إلى أسر العدو فأسره وسجنه في سجن نفسه وهواه، فضاق صدره وجعل يعالج الهموم والغموم .. فاقتضت رحمة أن جعل في الصلاة خلاص من كل هذا.

الوضوء

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بالوضوء يتطهر العبد من الأوساخ الظاهرة، هذا مع طهارة القلب من أوساخه بالتوبة، لأن الوضوء له ظاهر وباطن، ولهذا يقرن الله تعالى بين التوبة والطهارة {إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة:٢٢٢]

وبعد الفراغ من الوضوء يقول المرء: (اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين)، وقال –صلى الله عليه وسلم– (من قال إذا فرغ من وضوئه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك؛ طبع عليهن وجعلت تحت العرش فلم تفض حتى يلقى بها يوم القيامة) فبالشهادة يتطهر من الشرك، وبالتوبة يتطهر من الذنوب، بالوضوء يتطهر من الأوساخ .. وتلك أعلى مقامات الطهارة.

ثم أمر العبد أن يستقبل القبلة بوجهة، ويستقبل الله تعالى بقلبه، فقال رسول اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–: (لا يزال اللَّهِ مقبلا على العبد في صلاته ما لم يلتفت، فإذا صرف وجهه انصرف عنه)

الله أكبر

ثم كبره بالتعظيم والإجلال وواطئ قلبه التكبير بلسانه، فكان الله تعالى في قبله أكبر من كل شيء، وصدق هذا التكبير بأنه لم يكن شيء يشغله عن الوقوف بين يديه.

أيضا التكبير يخرجه من لبس رداء الكبر المنافي للعبودية، ويمنعه من التفات قلبه إلى غير الله

دعاء الاستفتاح

ثم يقول في دعاء الاستفتاح: (سبحانك اللهم وبحمدك) فامتدح الله تعالى بما هو أهله، وخرج عن الغفلة التي هي حجاب بين العبد وربه، وأتي بالتحية اللائقة بملك الملوك وفي هذا من أدب العبودية ما يستجلب رضا الله تعالى ورحمته وعفوه وإسعافه بحوائجه.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

القراءة

فإذا شرع في القراءة قدم أمامها الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، لأن وقوف العبد بين يدي ربه من أعلى وأشرف المقامات، وكان الشيطان أحرص على صرفه عنه، فأمر العبد بالاستعاذة ليسلم منه، ويحيى قلبه ويستنير بما يتدبره من كلام سيده، خاصة وأن العبد أعجز عن صرف الشيطان عنه ولا طاقة له به، فأمر أن يلجأ إلى مولاه

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إذا هاش عليك كلب الغنم فلا تشتغل بمحاربته ومدافعته، وعليك بالراعي فاستغث به فهو يصرف عنك الكلب.

فإذا شرع في قراءة القرآن فقد قام في مقام مخاطبة ربه ومناجاته، فليحذر كل الحذر من التعرض لمقته وسخطه أن يناجيه ويخاطبه وهو معرض عنه ملتفت إلى غيره، وليستحضر جواب ربه له.

ففي الحديث القدسي: قال اللَّهِ – تبارك وتعالى –: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: (الحمد لله رب العالمين) قال: حمدني عبدي، فإذا قال: (الرحمن الرحيم) قال اللَّهِ: أثنى على عبدي [والثناء يكون بتكرار المحامد]، وإذا قال: (مالك يوم الدين) قال: مجدني عبدي [والتمجيد هو الثناء بصفات العظمة والجلال]– وقال مرة: فوض إلي عبدي – فإذا قال: (إياك نعبد وإياك نستعين) قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: (اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل

{الْحَمْدُ للّهِ ..} .. فيها إثبات كل كمال لله تعالى فعلا ووصفا واسما، وتنزيهه عن كل سوء فعلا ووصفا واسما

فهو محمود في أفعاله وأوصافه وأسمائه، منزه عن النقائص في أفعاله وأوصافه وأسمائه

فأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل

وأوصافه كلها أوصاف جمال وجلال

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وأسمائه كلها حسنى

وحمده قد ملأ الدنيا والآخرة، والسماوات والأرض، وما بينهما وما فيهما

فالكون كله ناطق بحمده.

{... رَبِّ الْعَالَمِينَ} .. فيها الإقرار بتفرده سبحانه بالربوبية، فهو رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومدبر أمورهم وموجدهم ومفنيهم، فهو وحده إلههم ومعبودهم وملجأهم ومفزعهم عند النوائب.

{الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ} .. فهذه عبودية خاصة، وهي شهود عموم رحمته وسعتها لكل شيء، ولاسيما الرحمة الخاصة بعباده الموحدين المؤمنين

فرحمته سبحانه وسعت كل شيء، كما أن حمده وسع كل شيء

{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} .. فيه إثبات الميعاد، وتفرد الرب فيه سبحانه بالحكم بين خلقه.

فعن ابن عباس –رضي الله عنهما– كان النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– إذا قام من الليل يتهجد قال: (اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك حق، وقولك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، والنبيون حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فأغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت)

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} .. فإذا قالها انتظر جواب ربه: (هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل)

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والقرآن يدور حول هاتين الكلمتين، بل يدور عليهما الخلق والأمر والثواب والعقاب في الدنيا والآخرة.

{اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} .. فيها إظهار ضرورته وفاقته ومضمونها: معرفة الحق، وقصده وإرادته، العمل به، الثبات عليه، الدعوة إليه، والصبر على المدعو وهذه الأمور بكمالها يستكمل العبد الهداية.

{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}

فبين سبحانه وتعالى أن سبيل أهل هذه الهداية مغاير لسبيل أهل الغضب وأهل الضلال، فانقسم الخلق إذا إلى ثلاثة أقسام بالنسبة إلى هذه الهداية:

١/ منعم عليهم بحصولها، واستمرار حظه من النعم بحسب حظه من تفاصيلها

٢/ ضال لم يعط هذه الهداية ولم يوفق إليها

٣/ مغضوب عليه، عرفها ولم يوفق للعمل بموجبها.

مشروعية التأمين

ثم شرع للمصلي التأمين عند هذا الدعاء تفاؤلا بإجابته وحصوله، ولهذا اشتد حسد اليهود للمسلمين عليه حين سمعوهم يجهرون به في صلاتهم.

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الأَشْعَثِ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ –رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا– فَحَدَّثَتْنِى قَالَتْ: بَيْنَمَا أَنَا قَاعِدَةٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– جَاءَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ فَاسْتَأْذَنَ أَحَدُهُمْ. وَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَفِيهِ عَنِ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ: (تَدْرِينَ عَلَى مَا حَسَدُونَا). قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: (فَإِنَّهُمْ حَسَدُونَا عَلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي هُدِينَا لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى الْجُمُعَةِ الَّتِي هُدِينَا لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الإِمَامِ آمِينَ).

وفي رواية: (لم تحسدنا اليهود بشيء ما حسدونا بثلاث: التسليم والتأمين واللهم ربنا لك الحمد) [صحيح الجامع]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّ يَهُودِيًّا مَرَّ بِأَهْلِ مَسْجِدٍ، وَهُمْ يَقُولُونَ: آمِينَ، قَالَ الْيَهُودِيُّ: وَالَّذِي عَلَّمَكُمْ آمِينَ، إِنَّكُمْ لَعَلَى الْحَقِّ.

الركوع

ثم شرع له رفع اليدين عند الركوع، تعظيما لأمر الله وزينة للصلاة وعبودية خاصة لليدين

ثم شرع معه التكبير الذي هو في انتقالات الصلاة من ركن إلى ركن، كالتلبية في انتقالات الحاج من مشعر إلى مشعر، فهو شعار الصلاة، ليعلم العبد أن سر الصلاة هو تعظيم الرب تعالى وتكبيره بعبادته وحده.

ثم شرع له أن يخضع للمعبود سبحانه بالركوع خضوعا لعظمته واستكانة لهيبته وتذللا لعزته، فثنى العبد له صلبه ووضع له قامته ونكس له رأسه وحنى له ظهره معظما له ناطقا بتسبيحه المقترن بتعظيمه، فاجتمع له خضوع القلب وخضوع الجوارح وخضوع القول على أم الأحوال.

الاعتدال من الركوع

ثم شرع له أن يحمد ربه ويثني عليه بآلائه عند اعتداله .. ولذلك الاعتدال ذوق خاص وحال يحصل للقلب سوى ذوق الركوع وحاله، وهو ركن مقصود لذاته كركن الركوع والسجود سواء، ولهذا كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يطيله كما يطيل الركوع والسجود ويكثر فيه من الثناء والحمد والتمجيد، وكان في قيام الليل يكثر فيه من قوله (لربي الحمد، لربي الحمد) يكررها.

السجود

ثم شرع له أن يكبر ويخر ساجدا، ويعطي في سجوده كل عضو من أعضائه حظه من العبودية، مسبحا له بعلوه في أعظم سفوله، لذلك يكون أقرب ما يكون من ربه

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فأشرف أفعال الصلاة السجود، وأشرف أذكارها القراءة، وأول سورة نزلت افتتحت بالقراءة وختمت بالسجود، ووضعت الركعة على ذلك، أولها قراءة وآخرها سجود.

الرفع من السجود

فشرع للعبد إذا رفع رأسه من السجود أن يجثو بين يدي الله راغبا إليه أن يرحمه ويغفر له .. فعن ابن عباس –رضي الله عنهما– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يقول بين السجدتين: (اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني وارزقني).

وفي رواية كان يقول بين السجدتين: (رب اغفر لي، رب اغفر لي) وجلس بقدر سجوده

فإن العبد محتاج بل مضطر إلى تحصيل مصالحه في الدنيا والآخرة، وقد تضمنها هذا الدعاء.

السجدة الثانية

ثم شرع له أن يعود ساجدا كما كان ولا يكتفي منه بسجدة واحدة كما الركوع وذلك لفضل السجود وشرفه وموقعه من الله، فأقرب ما يكون العبد من الله تعالى وهو ساجد، وهو أدخل في العبودية وأعرق فيها من غيره، ولهذا جعل خاتمة الركعة وما قبله مقدمات.

فمحله من الصلاة محل طواف الزيارة، وكما أن العبد أقرب ما يكون من الله وهو ساجد كذلك يكون أقرب في المناسك وهو طائف.

ولهذا قال بعض الصحابة لمن كلمه وهو في طوافه بأمر من الدنيا: "أتقول هذا ونحن نتراءى لله في طوافنا"

جلوس التشهد

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فلما قضى الصلاة وأكملها ولم يبق إلا الانصراف شرع له الجلوس بين يديه مثنيا عليه بأفضل «التحيات» التي لا تصلح إلا له ولا تليق بغيره.

التحيات لله

عن ابن مسعود رضي الله قال: "عَلَّمَنِي رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَكَفِّي بين كَفَّيْهِ «التَّشَهُّدَ» كما يُعَلِّمُنِي السُّورَةَ من الْقُرْآنِ: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النبي وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وهو بين ظَهْرَانَيْنَا فلما قُبِضَ قُلْنَا السَّلَامُ يَعْنِي على النبي صلى الله عليه وسلم" البخاري ومسلم.

وفي رواية: "فإنه إذا قال ذلك [يعني: السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ] أَصَابَ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ في السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ".

** قوله: "التحيات" يحتمل عدة معاني هي:

أ . المُلك وهذا من التفسير باللازم لأنه التحية للملوك، ولم يكن يحيا بها غير الملوك.

ب . البقاء، لأنها من الحياة.

ج . السلامة، أي السلامة من الآفات والنقائص.

د . العظمة.

وقيل: "إنها تجمع ذلك كله، وما كان بمعناه وهو أحسن" قاله ابن رجب رحمه الله.

وفي هذا من تعظيم الله ما يُرهب قلب المؤمن خشيةً لربه، فاجتمع في قلب المؤمن من تعظيمه لربه الهيئة واللفظ.

فالهيئة هي جلسة التشهد، فهي جلسة العبد بين يدي سيده، وهي تحمل في هيئتها من الذل والانكسار ما يليق بالعبد المذنب، كما تحمل من التعظيم لمن هو بين يديه ما يستحقه الله سبحانه وأكثر من ذلك.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

**جُمِعَ لفظ "التحيات" لأن الجمع أليق بمخاطبة الملوك، والله ملك الملوك سبحانه وتعالى، وليدخل في ذلك كل تحية في الوجود، فالله أولى بها سبحانه.

** ابتدأ بالتحية قبل ذكر الصلوات فقال: "التحيات لله والصلوات" فقدم ذكر التحيات على الصلوات؛ لأن التحية تتقدم على غيرها من عبارات الثناء والتمجيد.

** قوله: "لله" أي الله مختص بها، ومستحق لها سبحانه، وهي تفيد وجوب إخلاص العبادة له وحده، ولهذا –والله أعلم– قدمت بعد قوله "التحيات" فقال:" لله " ثم عطف عليها غيرها من "الصلوات والطيبات"، فَسِرُ هذا التقديم يكمن في وجوب الإخلاص وأهميته.

يقول الإمام ابن القيم

ولما كان من عادة الملوك أن يحيوا بأنواع التحيات من الأفعال والأقوال المتضمنة للخضوع لهم، والذل، والثناء عليهم وطلب البقاء، والدوام لهم، وأن يدوم ملكهم.

فمنهم: من يحيّي بالسجود، ومنهم من يحيي بالثناء عليه، ومنهم من يحيي بطلب البقاء والدوام له، ومنهم من يجمع له ذلك كلّه فيسجد له، ثم يثني عليه، ثم يدعي له بالبقاء والدوام.

وكان الملك الحق المبين، الذي كل شيء هالك إلا وجهه سبحانه أولى بالتحيات كلّها من جميع خلقه، وهي له بالحقيقة وهو أهلها؛ ولهذا فُسرت التحيات بالملك، وفسرت بالبقاء والدوام، وحقيقتها ما ذكرته، وهي تحيات المُلك والمَلِك والمليك.

فالله سبحانه هو المتصف بجميع ذلك، فهو أولى به فهو سبحانه المَلك، وله المُلك، فكل تحية تحي بها ملك من سجود أو ثناء، أو بقاء، أو دوام فهي لله على الحقيقة؛ ولهذا أتى بها مجموعة معرَّفة بالألف واللام إرادة للعموم، وهي جمع تحية، تحيا بها الملوك، وهي "تُفعُلة" من الحياة فإذا كان أصلها من الحياة، والمطلوب منها لمن تحي بها دوام الحياة، فذلك جميعه لا ينبغي إلا لله الحي القيوم الذي لا يموت.

والصلوات والطيبات

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** قوله: "والصلوات" أي الصلوات المفروضة والنافلة، وتحتمل الأدعية، لأن الصلاة في اللغة بمعنى الدعاء.

** قوله: "والطيبات" تشمل كل طيب من الأقوال والأفعال، فالله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً، ومن عمل عملاً أشرك فيه مع الله تركه الله وشركه، ومن أسمائه الطيب، وقال في كتابه {إليه يصعد الكلم الطيب}.

** قوله: "والطيبات" تَردُ على كل من وصف الله بوصفٍ لا يليق بالله؛ لأنه ليس من طيب الأقوال، وتَمحق كل عمل يُراد به غيرُ الله لأنه ليس من طيب الأفعال، فليتأمل الإنسان أقواله وأفعاله من حيث طيبها وعدمه.

** هذه الألفاظ تربي الإنسان على الإخلاص لله، وتعظيمه، فإن من تأمل ألفاظ هذا الدعاء وجدها تصرف العبادة والثناء لله وحده إعلاما بهذا الأصل.

ثم عطف عليها الصلوات بلفظ الجمع والتعريف؛ ليشمل ذلك كلّما أُطلق عليه لفظ الصلاة خصوصا وعموماً، فكلّها لله ولا تنبغي إلا له، فالتحيات له ملكاً، والصلوات له عبودية واستحقاقاً، فالتحيات لا تكون إلا لله، والصلوات لا تنبغي إلا له.

ثم عطف عليها بالطيِّبات، وهذا يتناول أمرين: الوصف والملك.

يقول الإمام ابن القيم

فأما الوصفُ: فإنه سبحانه طيِّب، وكلامه طيِّبٌ، وفعله كلّه طيب، ولا يصدر منه إلا طيِّب، ولا يضاف إليه إلا الطيِّب، ولا يصعد إليه إلا الطيّب...فالطيبات له وصفاً وفعلاً وقولاً ونسبةً.

عبودية التَّسليم على الأنبياء والصالحين

** قوله:" السلام عليك " يحتمل:

أ . أن يكون الدعاء للنبي صلى الله عليه وسلم بالسلامة من المكاره والنقص والعيب.

ب . ويحتمل أنه تبريك عليه باسم الله السلام.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ج . ويحتمل معناه التعويذ بالله والتحصين به، فإن السلام اسم له سبحانه تقديره: الله عليك حفيظ وكفيل، قاله الألباني رحمه الله.

** قوله: "عليك أيها النبي" مع أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي، أي أن الخطاب خطاب شاهد مخاطب، وفي هذا دليل على اتباعنا لألفاظ الأحاديث من غير تغيير ولا تبديل، فرحم الله أمةً حفظت دينها وألفاظها.

** في قوله: " فلما قُبض قلنا السلام يعني على النبي " يدل على جواز أن يقول المصلي في تشهده "السلام على النبي".

** في الحديث فضيلة الصلاح، فمن كان صالحا فقد حاز على فضل الدعاء له من إخوانه المصلين، ويتضمن الحث على تحصيل الصلاح.

** دل على أن العبودية لله أشرف منازل الصالحين، ولهذا والله أعلم وصفوا بها في هذا الحديث، فنقول: "عباد الله الصالحين" وعلى قدر تحقيق العبودية لله يكون الصلاح، وهذا أيضا من أسرار الاقتران بين العبادة والصلاح "عباد الله الصالحين" وقد جُمعت أيضا العبودية مع الرسالة للنبي –صلى الله عليه وسلم– «عبده ورسوله» وهذا يزيد مكان العبودية.

قال الترمذي الحكيم: "من أراد أن يَحظى بهذا السلام الذي يُسلِمُهُ الخلق في الصلاة فليكن عبداً صالحاً وإلا حُرِمِ هذا الفضل العظيم"

يقول الإمام ابن القيم

ثم شرع له أن يسلِّم على سائر عباد الله الصالحين، وهم عباده الذين اصطفى بعد الثناء، وتقديم الحمد لله فطابق ذلك قوله: {قُل الحمدُ للهِ وسلامٌ على عباده الذين اصطفى} [النمل :٥٩]

الشهادتين في التحيات

** في الحديث تسمية الشيء بجزئه الأهم، فالتحيات تسمى التشهد؛ لأن أهم ألفاظها لفظ الشهادتين في آخرها، وهذا عائد لمنزلة الشهادتين في الدين.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** جاء لفظ الشهادتين في آخرها إشارة إلى أن الأعمال ينبغي أن تختم بالشهادتين، ولهذا من كان آخر كلامه من الدنيا الشهادة دخل الجنة، كما ثبت في الأحاديث، فيناسب لفظ الشهادة التأخير.

يقول الإمام ابن القيم

ثم شرع له أن يشهد شهادة الحق التي بنيت عليها الصلاة، والصلاة حق من حقوقها، ولا تنفعه إلا بقرينتها وهي الشهادة للرسول –صلى الله عليه وسلم– بالرسالة، وختمت بها الصلاة، كما قال عبد الله بن مسعود: "فإذا قلت ذلك فقد قضيت صلاتك، فإن شئت فقم وإن شئت فاجلس".

فجعلت شهادة الحق خاتمة الصلاة. كما شرع أن تكون هي خاتمة الحياة. فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة."

وكذلك شرع للمتوضئ أن يختتم وضوءه بالشهادتين، ثم لما قضى صلاته أذن له أن يسأل حاجته.

** دعاء التشهد من أجمع الأدعية حيث جمع عدة أمور عظيمة: الثناء على الله بما هو أهله، ثم السلام على رسوله، ثم الدعاء لنفسه، ثم الدعاء لإخوانه، ثم الشهادتين، وهذا من أعجب ما فيه مع اختصار ألفاظه.

** تعدد صيغ التشهد تدل على الإنسان عليه أن يعمل بما عَلِم، من غير تخطئة لغيره إن كان معه دليل، فابن مسعود وابن عباس وأبو موسى رضي الله عنهم أجمعين كلٌ له تشهده الذي علّمه النبي صلى الله عليه وسلم، وكلٌ عمل وعلّم ما تعلمه من غير تخطئه لغيره، والاختلاف بين الألفاظ يسير.

** في تعليم عمر بن الخطاب رضي الله عنه للصحابة على المنبر دليل على الهدف الحقيقي من المنبر الإسلامي يوم الجمعة، وأنه أحد مصادر تعليم الناس.

** حكم التشهد: فقد اختلف أهل العلم في التشهد على قولين:

1. الجمهور إلى أنه سنة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما نسيه لم يرجع إليه كما في حديث ابن بحينة رضي الله عنه في الصحيح.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

2. وأحمد إلى أنه واجب، لأن النبي صلى الله عليه وسلم جبره بسجود سهو كما في حديث ابن بحينة رضي الله عنه أيضا.

الصلاة على النبيِّ

وشرع له أن يتوسل قبلها بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فإنها من أعظم الوسائل بين يدي الدعاء، كما في السنن عن فضالة بن عبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دعا أحدكم فليبدأ بحمد الله، والثناء عليه، وليصل على رسوله ثم ليسل حاجته).

ثم جعل الدعاء لآخر الصلاة كالختم عليها.

«كما صليت على إبراهيم» «كما باركت على إبراهيم»

فخص سيدنا إبراهيم من بين الرسل ليذكر اسمه في صلاة المسلمين إلى يوم القيامة

والسر في دعوة إبراهيم عليه السلام كما في سورة الشعراء {وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} [الشعراء٨٤]

يعني ذكر وثناء حسن في الناس من بعدي يذكرونني به إلى يوم القيامة فاستجاب الله تعالى لدعائه وقال سبحانه {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} [الصافات:٧٨] يعني وأبقينا على إبراهيم ذكرا جميلا وثناء حسنا في الناس من بعده إلى يوم القيامة.

فجاءت التحيات على ذلك، أولها حمدٌ لله، والثناء عليه ثم الصلاة على رسوله ثم الدعاء آخر الصلاة، وأَذِنَ النبي صلى الله عليه وسلم للمصلي بعد الصلاة عليه أن يتخير من المسألة ما يشاء.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

عثمان الخياط

سعيد بن عثمان بن عياش أبو عثمان الخياط، سمع بالعراق أبي عثمان المازي ومحمد بن المثنى السمسار صاحب بشر بن الحارث، ومحمد بن رزق الله الكلوذاني وسري السقطي، وسمع بدمشق أَحْمَد بْنُ أَبِي الْحَوَارِيِّ، وببيت المقدس طاهر المقدسي، وبمصر ذي النون المصري، مات في سنة أربع وتسعين ومائتين ٢٩٤هـ

وهو غير أبو الحسن عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط شيخ المعتزلة البغداديين الذي صنف كتاب «الاستدلال» ونقض فيه كتاب ابن الراوندي

** عن عُثْمَانَ الْخَيَّاطَ يَقُولُ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ يَقُولُ: "ثَلَاثَةٌ مِنْ عَلَامَاتِ التَّوْفِيقِ: الْوُقُوعُ فِي أَعْمَالِ الْبِرِّ بِلَا اسْتِعْدَادٍ لَهُ، وَالسَّلَامَةُ مِنَ الذَّنْبِ مَعَ الْمَيْلِ إِلَيْهِ وَقِلَّةُ الْهَرَبِ مِنْهُ، وَاسْتِخْرَاجُ الدُّعَاءِ وَالِابْتِهَالِ.

وَثَلَاثَةٌ مِنَ عَلَامَاتِ الْخِذْلَانِ: الْوُقُوعِ فِي الذَّنْبِ مَعَ الْهَرَبِ مِنْهُ، وَالِامْتِنَاعُ مِنَ الْخَيْرِ مَعَ الِاسْتِعْدَادِ لَهُ، وَانْغِلَاقُ بَابِ الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ

قوله: ثَلَاثَةٌ مِنْ عَلَامَاتِ التَّوْفِيقِ:

١/ الْوُقُوعُ فِي أَعْمَالِ الْبِرِّ بِلَا اسْتِعْدَادٍ لَهُ: أي: دخول أعمال البرّ عليك من غير قصد لها، كأن يولد في أسرة أو مجتمع عامر بالفضلاء والعلماء، أو تتهيأ له صحبة صالحة.

٢/ وَالسَّلَامَةُ مِنَ الذَّنْبِ مَعَ الْمَيْلِ إِلَيْهِ، وَقِلَّةُ الْهَرَبِ مِنْهُ: أي صرف المعاصي عنك مع شهوة الطلب لها.

٣/ وَاسْتِخْرَاجُ الدُّعَاءِ وَالِابْتِهَالِ: أي فتح باب اللجأ والافتقار إلى اللّه عزّ وجلّ في الشدة والرخاء، فمن الناس من يفتح له في العلم، ومن يفتح له يي العبادة وآخر في الصدقة .. وباب الدعاء والاستغاثة من أجل هذه الأبواب.

قال تعالى: {يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} [البقرة:٢٦٩] ومن يشاء الله تعالى إيتاءه الحكمة هو الذي يخلقه مستعدا إلى ذلك، من سلامة عقله واعتدال قواه، حتى يكون قابلا لفهم

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الحقائق منقادا إلى الحق إذا لاح له، لا يصده عن ذلك هوى ولا عصبية ولا مكابرة ولا أنفة، ثم ييسر له ذلك من حضور الدعاة وسلامة البقعة من العتاة، فإذا انضم إلى ذلك توجهه إلى الله بأن يزيد أسبابه تيسيرا ويمنع عنه ما يحجب الفهم فقد كمل له التيسير.

قوله: وَثَلَاثَةٌ مِنَ عَلَامَاتِ الْخِذْلَانِ:

١/ الْوُقُوعِ فِي الذَّنْبِ مَعَ الْهَرَبِ مِنْهُ: أي تيسر المعاصي مع الهرب منها.

٢/ وَالِامْتِنَاعُ مِنَ الْخَيْرِ مَعَ الِاسْتِعْدَادِ لَهُ: أي تعسر الخيرات عليك مع الطلب لها.

٣/ وَانْغِلَاقُ بَابِ الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ: أي غلق باب اللجأ والافتقار إلى الله عزّ وجلّ

وفي هذا المضمار يقول ابن حزم:

// وجدت أفضل نعم الله تعالى على المرء، أن يطبعه على العدل وحبه، وعلى الحق وإيثاره. وأما من طبع على الجور واستسهاله، وعلى الظلم واستخفافه، فلييأس من أن يصلح نفسه أو يُقَوِّم طباعه أبداً، وليعلم أنه لا يفلح في دين، ولا في خلق محمود.

// ليس بين الفضائل والرذائل، ولا بين الطاعات والمعاصي إلا نفار النفس وأنسها فقط. فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات، ونفرت من الرذائل والمعاصي، والشقي من أنست نفسه بالرذائل والمعاصي، ونفرت من الفضائل والطاعات، وليس هاهنا إلا صنع الله تعالى وحفظه.

** عن عُثْمَانَ الْخَيَّاطَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ يَقُولُ: "مَنْ وَثِقَ بِالْمَقَادِيرِ لَمْ يَغْتَمَّ".

قال تعالى: {وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن:١١]، قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلّم.

فإنه يجب على العبد الرّضا عن الله، بأفعاله وصفاته ومحبة أفعال الله، لأنّ الله تعالى يفعل ما يفعل عن حكمة عظيمة، كما قال سبحانه: {وَلَوْ أَرَادُوا الخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ القَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً} [التوبة:٤٦-٤٧]، فالله يقضي بحكمته ما يشاء، وله الحكمة البالغة، لا يُسْأَلُ عما يفعل وهم يسألون.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فإذاً تَلَخَّصَ من ذلك أنَّ: ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

// وعن عثمان الخياط قال سمعت السري يقول سمعت رجلا يسأل الفضيل قال له: يا أبا علي علمني الرضا؟ قال له الفضيل: يا بن أخي ارض عن الله، فرضاك عن الله يهب لك الرضا.

// يَقُولُ الْقَرَافِيُّ: اعْلَمْ أَنَّ السَّخَطَ بِالْقَضَاءِ حَرَامٌ إجْمَاعًا وَالرِّضَا بِالْقَضَاءِ وَاجِبٌ إجْمَاعًا بِخِلَافِ الْمَقْضِيِّ بِهِ، فَعَلَى هَذَا إذَا أُبْتُلِيَ الْإِنْسَانُ بِمَرَضٍ فَتَأَلَّمَ مِنْ الْمَرَضِ بِمُقْتَضَى طَبْعِهِ فَهَذَا لَيْسَ عَدَمَ رِضَا بِالْقَضَاءِ بَلْ عَدَمُ رِضَا بِالْمَقْضِيِّ، وَنَحْنُ لَمْ نُؤْمَرْ بِأَنْ تَطِيبَ لَنَا الْبَلَايَا وَالرَّزَايَا وَمُؤْلِمَاتُ الْحَوَادِثِ، وَلَمْ تَرِدْ الشَّرِيعَةُ بِتَكْلِيفِ أَحَدٍ بِمَا لَيْسَ فِي طَبْعِهِ، وَلَمْ يُؤْمَرْ الْأَرْمَدُ بِاسْتِطَابَةِ الرَّمَدِ الْمُؤْلِمِ وَلَا غَيْرِهِ مِنْ الْمَرَضِ، بَلْ ذَمَّ اللَّهُ قَوْمًا لَا يَتَأَلَّمُونَ وَلَا يَجِدُونَ لِلْبَأْسَاءِ وَقْعًا فَذَمَّهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ}، فَمَنْ لَمْ يَسْتَكِنْ وَلَمْ يَذِلَّ لِلْمُؤْلِمَاتِ وَيُظْهِرْ الْجَزَعَ مِنْهَا وَيَسْأَلْ رَبَّهُ إقَالَةَ الْعَثْرَةِ مِنْهَا فَهُوَ جَبَّارٌ عَنِيدٌ بَعِيدٌ عَنْ طُرُقِ الْخَيْرِ .. وَقَدْ حَزِنَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– لِمَوْتِ وَلَدِهِ إبْرَاهِيمَ وَرَمْيِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ بِمَا رُمِيَتْ بِهِ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ هَذَا كُلَّهُ مِنْ الْمَقْضِيِّ، وَالْأَنْبِيَاءُ عليهم السلام طِبَاعُهُمْ تَتَأَلَّمُ وَتَتَوَجَّعُ مِنْ الْمُؤْلِمَاتِ وَتُسَرُّ بِالْمَسَرَّاتِ.

** عن عُثْمَانَ الْخَيَّاطُ، حدثنا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْحَوَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ يَقُولُ: "وَاللهِ، لَا تَبْلُغُوا ذِرْوَةَ هَذَا الْأَمْرِ حَتَّى لَا يَكُونُ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ أَحَبَّ الْقُرْآنَ فَقَدْ أَحَبَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ".

// «أصول المحبة» يبين عماد الدين الأموي أصلاً من أصول المحبة ثم يدعمها بحكاية غزلية، فيقول:

"وأصل حال المحب أن يقطع تشوقه عن كل شيء سوى محبوبه، فمن نظر إلى سواه فهو محجوب من مولاه.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

يُحكى أن بعض الناس رأى امرأة جميلة فاشتغل قلبه بها، فقال لها: كلي بك مشغول، فقالت: إن كان كلّك بكلي مشغول، فكلي لك مبذول، لكن لي أخت لو رأيت حسنها وجمالها لم تذكرني، فقال: أين هي؟

فقالت: وراءك، فالتفت وراءه، فلطمته لطمة وقالت: يا كذاب، لو كنت صادقاً فيما قلت لم تلتفت إلى غيري"

// «حب القرآن» يقول سهل بن عبد الله: علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب القرآن حب النبي –صلى الله عليه وسلم–، وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة، وعلامة حب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة بُغض الدنيا، وعلامة بُغض الدنيا ألاَّ يدَّخر منها إلا زاداً وبلغة إلى الآخرة.

ومن علامات محبة النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– «حب القرآن» الذي أتى به، وهدى به واهتدى، وتخلق به حتى قالت عائشة –رضي الله عنها–: "إن خلق نبي الله كان القرآن"، أي كان دأبه التمسك به والتأدب بآدابه والعمل بما فيه من مكارم الأخلاق .. فجعلت عائشة –رضي الله عنها– القرآن نفس خلقه، مبالغة في شدة تمسكه به، وأنه صار سجية له وطبيعة كأنه طبع عليها.

وتمثيل حب القران بكثرة تلاوته له على الوجه المرضي فيها عند أهل الأداء، وليس المراد مطلق القراءة كذا قال الخفاجي، والصواب أن كثرة تلاوته تدل على حب القرآن والشغف به، وقد صح أن من يتعتع في قراءته له أجران فلا وجه لقصر محب القرآن على المقرئين فقط،

وإضافة إلى كثرة تلاوته ودوام قراءته، العمل بما فيه من أحكام ومواعظ، وتفهمه أي طلب فهمه في مواعظه وقصصه ووعده ووعيده وبيان أحوال أنبيائه وأوليائه وعاقبة أعدائه، وكذا التقيد بفهم معانيه.

هذا والسنة مليئة بالحث على تعلم القران وإتباعه، فصح عن عثمان –رضي الله عنه– عن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال: (خيركم من تعلم القران وعلمه).

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال ابن تيمية: "والعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم؟!"

ولهذا إذا أردت إن تعرف ما عندك وعند غيرك من محبة الله ورسوله فانظر محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإنه من المعلوم أن من أحب محبوبا كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه.

فمن هجر القرآن كان رسول الله –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– خصمه يوم القيامة قال تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً} [الفرقان: ٣٠]

** عن عثمان الخياط قال سمعت ذا النون يقول: ثلاثة من أعمال المراقبة: إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله.

قال: وثلاثة من أعلام الاعتزاز بالله: التكاثر بالحكمة وليس بالعشيرة، والاستعانة بالله وليس بالمخلوقين، والتذلل لأهل الدين في الله وليس لأبناء الدنيا.

قوله: ثلاثة من أعمال المراقبة:

١/ إيثار ما أنزل الله. وهذا ثمرة «محبّة التألّه» أي العلم بجمال الربّ وكماله وإنعامه وإحسانه؛ فالقلوب مجبولة على محبّة الكمال، وعلى محبّة من أحسن إليها، فمحبة التأله إذا استقرّت في القلب أورثت أهلها كمال الاتّباع والإيثار، وموافقة الربّ في محبوباته ومكروهاته ظاهرًا وباطنًا

// وعن عثمان الخياط حدثنا أحمد بن أبي الحواري حدثنا إسحاق بن إبراهيم أبو يعقوب حدثنا الهيثم بن عمران قال سمعت كلثوم بن عياض القشيري وهو على منبر دمشق ليالي هشام وهو يقول: من آثر الله آثره الله، فرحم الله عبدا استعان بنعمته على طاعته ولم يستعن بنعمته على معصيته، فإنه لا يأتي على صاحب الجنة ساعة إلا وهو

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

مزاد صنفا من النعيم لا يكون يعرفه، ولا يأتي على صاحب العذاب ساعة إلا وهو مستنكر لشيء من العذاب لم يكن يعرفه

٢/ وتعظيم ما عظم الله فالله تَعَالَى شرع تعظيم شعائره، ومنه التكرم بتكريم الله، وأن لا تبذل نفسك إلا في مرضاته، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} [الإسراء: ٧٠]

قال ابن حزم: لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل، في دعاء إلى حق، وفي حماية الحريم، وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى، وفي نصر مظلوم. وباذل نفسه في عرض دنيا، كبائع الياقوت بالحصى.

٣/ وتصغير ما صغر الله كالكفار والفسقة مهما عظمت أجسامهم وأموالهم وسلطانهم.

فإلى من يرتدون زى الشيوخ ويترحمون على الطغاة وأهل الضلال والظلم قال لهم أبو الوفاء بن عقيل شيخ الحنابلة: "إذا أردت أن تعلم محل الإسلام من أهل الزمان، فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع، ولا ضجيجهم في الموقف بلبيك، وإنما انظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة"

فضحتكم مواقفكم ولم تستركم ملابسكم

قوله: وثلاثة من أعلام الاعتزاز بالله:

١/ التكاثر بالحكمة وليس بالعشيرة: فالحكمة تنصرك في موضع النصرة بالحق، والعشيرة ربما تنصرك في الحق والباطل.

والحكمة تقصر عليك طريق الوصول، روى الإمام أحمد عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَوْمًا يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ: (مَنْ قَامَ إِذَا اسْتَقَلَّتِ الشَّمْسُ [الضحى] فَتَوَضَّأَ، فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، غُفِرَ لَهُ خَطَايَاهُ فَكَانَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ).

قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ: فَقُلْتُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَزَقَنِي أَنْ أَسْمَعَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَقَالَ لِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَكَانَ تُجَاهِي جَالِسًا: أَتَعْجَبُ مِنْ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

هَذَا؟ فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَعْجَب مِنْ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ، فَقُلْتُ: وَمَا ذَاكَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي؟ فَقَالَ عُمَرُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ رَفَعَ نَظَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ) حديث صحيح

٢/ والاستعانة بالله، وليس بالمخلوقين: والمقصد ألا يتعلق قلبه بمخلوق في تفريج أمره، بل هو لا يعدو كونه سببا، وما زال الخلق يحتاج بعضهم بعضا، ومسخر بعضهم لبعض، قال تعالى: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [الزخرف٣٢]

والفرج حقيقة لا يكون إلا من الله تعالي، قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً} [الفرقان:٥٨]

ويقول ابن حزم: من جالس الناس لم يعدم هماً يؤلم نفسه، وإنما يندم عليه في معاده، وغيظاً ينضج كبده، وذلاً ينكس همته، فما الظن بعد بمن خالطهم وداخلهم؟ .. والعز والراحة والسرور والسلامة في الانفراد عنهم، ولكن أجعلهم كالنار تدفأ بها، ولا تخالطها.

٣/ والتذلل لأهل الدين في الله، وليس لأبناء الدنيا: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة:٥٤]

وقد كان النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يقول قبل الصلاة: (سَوُّوا صُفُوفَكُمْ، وَحَاذُوا بَيْنَ مَنَاكِبِكُمْ، وَلِينُوا فِي أَيْدِي إِخْوَانِكُمْ، وَسُدُّوا الْخَلَلَ) [أحمد والطبراني].

// وعن عُثْمَانَ الْخَيَّاطَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ، بِمِصْرَ، يَقُولُ: "ثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الْإِسْلَامِ: النَّظَرُ لِأَهْلِ الْمِلَّةِ، وَكَفُّ الْأَذَى عَنْهُمْ، وَالْعَفْوُ عِنْدَ الْقُدْرَةِ عَنْ مُسِيئِهِمْ"

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

// يقول د. محمد أبو موسى –شيخ البلاغة–: كن لبنة في بناء ثقافة أمتك، وإلا فلا قيمة لوجودك.

// وعن سعيد بن عثمان الخياط يقول سمعت ذا النون يقول: "من أعلام الاستغناء بالله: التواضع للفقراء المتذللين، وترك تعظيم الأغنياء المكثرين، وترك المخالطة لأبناء الدنيا المتكبرين"

// ويقول ابن حزم: ثق بالمتدين وإن كان على غير دينك، ولا تثق بالمستخف وإن أظهر أنه على دينك.

// قال الأَوْزاعي: لا يكون في آخر الزمان شيء أعزُّ من أخ مؤنس، أو كسب درهم من حِلّه، أو سنة يعمل بها.

** عن عثمان الخياط يقول سمعت ذا النون يقول: "ثَلَاثَةٌ مِنْ أَعَلَامِ السُّنَّةِ: الْمَسْحُ عَلَى الْخُفَّيْنِ، وَالْمُحَافَظَةُ عَلَى صَلَوَاتِ الْجُمَعِ، وَحُبُّ السَّلَفِ".

// «السُّنَّة».. قال تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [آل عمران:١٠٦] يعني: يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودّ وجوه أهل البِدْعَة والفرقة، قاله ابن عباس، رضي الله عنهما.

قال أهل العلم: من علامات التوفيق لمريد الهُدى أن يوفق لعالم من علماء السنة، وأن يجافي أهل البدعة والمذمة، ولئن زلت به القدم فسرعان ما يعاود إلى الحق، فهو طالب حق، لا طالب شهرة ومال.. وهذا الطريق الذي لا يسلكه إلا الرجال.

١/ «الْمَسْحُ عَلَى الْخُفَّيْنِ»: أجمع العلماء على جواز المسح على الخفين من الجلد في السفر والحضر، وقد ألحق بهما جمهور العلماء الجوربين. وقال الشيعة والخوارج: لا يجوز وأنكروه.

٢/ «الْمُحَافَظَةُ عَلَى صَلَوَاتِ الْجُمَعِ»: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ –رضي الله عنه–: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلاَءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ. فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ –صلى الله عليه وسلم– سُنَنَ الْهُدَى. وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّى هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ. وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ، إِلاَّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَرَفَعَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ مَعْلُومٌ نِفَاقُهُ. وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ

٣/ «حب السلف»: وإجلالهم، والترحم عليهم، وذكرهم بالجميل، والإشادة بفضلهم وعلو شأنهم.

ولو قرأت يا أخي المسلم! في حياة السلف كما هو في كتاب (سير أعلام النبلاء) في ترجمة أدنى رجل من أهل العبادة والعلم والعمل وقست نفسك عليه لوجدت نفسك ضائعاً أمام أعمالهم؛ لأن السلف بلغوا المجد في كل باب من أبواب العلم والعمل، والزهد فنحن بجوار السلف لا شيء، وليس لنا من السلف إلا حب السلف، وأما العمل فبيننا وبينهم بون شاسع.

مع السلف،،،

// عن عُثْمَانَ الْخَيَّاطُ قَالَ: سَمِعْتُ سَرِّيَّ بْنَ الْمُغَلِّسِ يَقُولُ: مُرَّ بِعُتْبَةَ الْعَلَّامِ وَهُوَ يَأْكُلُ خُبْزَ الشَّعِيرِ بِمِلْحٍ جَرِيشٍ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ: فَقَالَ: "نَعَمْ، حَتَّى نُدْرِكَ الشِّوَى وَالْغُمُوسَ فِي الدَّارِ الْأُخْرَى".

// وعن عُثْمَانَ الْخَيَّاطُ، ثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْحَوَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ يَقُولُ: "مَا أَذْكُرُ مَتَى ذَهَبْتُ إِلَى الْبَيْتِ لِآكُلَ"

// وعن أَبِي عُثْمَانَ الْخَيَّاطُ، ثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْحَوَارِيِّ، ثَنَا أَبُو سُلَيْمَانَ قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: {أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ} [الحجرات: ٣] قَالَ: "ذَهَبَ بِالشَّهَوَاتِ مِنْ قُلُوبِهِمْ"

// عثمان الخياط عن أحمد بن أبي الْحَوَارِيِّ قال سمعت عوام بن سميع قال كان سليمان الخواص يمر باللحام يأخذ منه لقطة له، فمر به فإذا هو يكلم امرأة. قال تقول له نفسه: يا سليمان من أجل قطة تمسك عن الكلام. فجاء إلى منزله فأخرج القطة فطردها ثم صار من الغد إلى اللحام فوعظه

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** عن عُثْمَانَ الْخَيَّاطُ، قَالَ: سَمِعْتُ السَّرِيَّ، يَقُولُ: بَلَغَنِي عَنْ جَهْمِ بْنِ حَسَّانٍ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ: يَا أَبَا بَحْرٍ دُلَّنِي عَلَى أَحْمَدِ أَمْرٍ عَاقِبَةً، فَقَالَ لَهُ: "خَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ، وَكُفَّ عَنِ الْقَبِيحِ"، ثُمَّ قَالَ لَهُ: "أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَدْوَى الدَّاءِ؟" قَالَ: بَلَى، قَالَ: "اكْتِسَابُ الذَّمِّ بِلَا مَنْفَعَةٍ، وَاللِّسَانُ الْبَذِيءُ، وَالْخُلُقُ الرَّدِيءُ"

«خَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» وكان الإمام أحمد يقول: بر الوالدين كفارة الكبائر.

«اكْتِسَابُ الذَّمِّ بِلَا مَنْفَعَةٍ» يقول ابن حزم: احرص على أن توصف بسلامة الجانب، وتحفظ من أن توصف بالدهاء فيكثر المتحفظون منك، حتى ربما أضر ذلك بك، وربما قتلك.

** عن سَعِيدَ بْنَ عُثْمَانَ الْخَيَّاطَ قال: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ، يَقُولُ: "لَا تَثِقَنَّ بِمَحَبَّةِ مَنْ لَا يُحِبُّكَ إِلَّا مَعْصُومًا"

// يقول ابن حزم في «مداواة النفوس»: العقل والراحة هو إطراح المبالاة بكلام الناس، واستعمال المبالاة بكلام الخالق عز وجل، بل هذا باب العقل والراحة كلها.

من قدر أنه يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون.

// ويقول: من حقق النظر، وراض نفسه على السكون إلى الحقائق وإن آلمتها في أول صدمة كان اغتباطه بذم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه، لأن مدحهم إياه، إن كان بحق وبلغه مدحهم له، أسرى ذلك فيه العُجب، فأفسد بذلك فضائله، وإن كان بباطل فبلغه فسره، فقد صار مسروراً بالكذب، وهذا نقص شديد.

وأما ذم الناس إياه، فإن كان بحق فبلغه، فربما كان ذلك سبباً إلى تجنبه ما يعاب عليه، وهذا حظ عظيم، لا يزهد فيه إلا ناقص، وإن كان بباطل وبلغه فصبر، اكتسب فضلاً زائداً بالحلم والصبر، وكان مع ذلك غانماً، لأنه يأخذ حسنات من ذمه بالباطل، فيحظى بها في دار الجزاء، أحوج ما يكون إلى النجاة بأعمال لم يتعب فيها، ولا تكلفها، وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه إلا مجنون.

وأما إن لم يبلغه مدح الناس إياه، فكلامهم وسكوتهم سواء، وليس كذلك ذمهم إياه، لأنه غانم للأجر على كل حال، بلغه ذمهم أو لم يبلغه. ولولا قول رسول الله –

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

صلى الله عليه وسلم– في الثناء الحسن: (ذلك عاجل بشرى المؤمن) لوجب أن يرغب العاقل في الذم بالباطل، أكثر من رغبته في المدح بالحق، ولكن إذا جاء هذا القول، فإنما تكون البشرى بالحق لا بالباطل، فإنما تجب البشرى بما في الممدوح لا بنفس المدح.

ويقول أيضا: من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل المواساة، والبر، والصدق، وكرم العشيرة، والصبر، والوفاء، والأمانة، والحلم، وصفاء الضمائر، وصحة المودة.

ومن طلب الجاه والمال واللذات، لم يساير إلا أمثال الكلاب الكلبة، والثعالب الخلبة، ولم يرافق في تلك الطريق إلا كل عدو المعتقد، خبيث الطبيعة.

** عن سعيد بن عثمان الخياط يقول سمعت ذا النون يقول: إذا لم يكن في عملك حب حمد المخلوقين ولا مخافة ذمهم فأنت حكيم مخلص إن شاء الله.

قال: وسمعت ذا النون يقول: اعلموا أنه لا يصفوا لعامل عمل إلا بإخراج الخلق من القلب في عمله، وهو الإخلاص فمن أخلص لله لم يرج غير الله فكن على علم أنه لا قبول لعمل يراد به غير الله.

فحب الشهرة يدمر الإخلاص، ولا فكاك للعبد إلا بتجريد العمل لله .. قال الإمام سفيان الثوري: كنتُ إذا رأيتُ الرجالَ يَجتمعون إلى أحدٍ غَبِطْتُهُ. فلما ابْتُلِيتُ بها وَدِدْتُ أنِّي نَجَوْتُ منها كَفَافًا؛ لا عَلَيَّ ولا لِيَ. [حلية الأولياء، وسنده حسن]

** عن عُثْمَانَ الْخَيَّاطُ قَالَ: سَمِعْتُ السَّرِيَّ، يَقُولُ: «مَنِ اشْتَغَلَ بِمُنَاجَاةِ اللَّهِ أَوْرَثَتْهُ حَلَاوَةُ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى مَرَارَةَ مَا يُلْقِي إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ»

// وعن سعيد بن عثمان الخياط يقول سمعت ذا النون يقول: "ثلاثة من أعلام موت القلب: الأنس مع الخلق، والوحشة في الخلوة مع الله، وافتقاد حلاوة الذكر للقسوة"

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

// ومرَارَةَ مَا يُلْقِي إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ هي ما رواه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: (ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ)

وروى عن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولَ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ)

وروى أحمد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُحَدِّثُ نَفْسِي بِالشَّيْءِ لَأَنْ أَخِرَّ مِنْ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ قَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ)

قال أهل العلم: أي كيد الشيطان إلى الوسوسة التي لا يؤاخذ بها المرء ولم يمكنه من غير الوسوسة وإلا لسعى فيه كما يسعى في الوسوسة بل جعل ذلك في يد الإنسان، فلذلك امتنع من التكلم.

// ففي كل معصية يقوم الشيطان بأربعة أمور:

١/ إخفاء ما في المعصية من قبح ومفاسد.

٢/ مضاعفة الوهم في اللذّة المرجوّة. فإذا ما باشرها وذاقها وجدها أدنى بكثير مما كان يتصور.

٣/ إخفاء العاقبة الأليمة للمعصية والعقوبة المترتبة عليها في الدنيا والآخرة.

٤/ تمْنية النفس بالتوبة قبل الموت. وهو أمر غير مضمون؛ فلا العمر مضمون، ولا القلب مضمون أن يبقى يريد التوبة.

// وعن عُثْمَانَ الْخَيَّاطِ، عن إِسْحَاقُ بْنُ أَبِي إِسْرَائِيلَ، عن وَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ الْحَسَنِ، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَا تَقُولُ فِي الْعَبْدِ يُذْنِبُ الذَّنْبَ ثُمَّ يَتُوبُ؟، قَالَ: لَمْ يَزْدَدْ بِتَوْبَتِهِ مِنَ اللهِ إِلَّا دُنُوًّا، قَالَ: ثُمَّ عَادَ فِي ذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ؟، قَالَ: لَمْ يَزْدَدْ بِتَوْبَتِهِ إِلَّا شَرَفًا عِنْدَ اللهِ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ لِي: أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–؟، قُلْتُ: وَمَا قَالَ؟، قَالَ: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

السُّنْبُلَةِ، تَمِيلُ أَحْيَانًا، وَتَسْتَقِيمُ أَحْيَانًا، وَفِي ذَلِكَ تَكْبُرُ، فَإِذَا حَصَدَهَا صَاحِبُهَا حَمِدَ أَمْرَهُ كَمَا حَمِدَ صَاحِبُ السُّنْبُلَةِ بُرَّهُ ثُمَّ قَرَأَ: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: ٢٠١] " الْآيَةَ

** عن عثمان الخياط قال: سمعت ذا النون يقول: ثلاثة من أعلام الورع: ترك الشبهة باحتمال المضرة في المال والبدن، وبذل الفضل خوفا من دخول الخلل في الفريضة، والكف عن الفضول خشية فساد القلب.

** عن عثمان سعيد بن عثمان الخياط قال سمعت ذا النون يقول: لا يزال العارف ما دام في الدنيا مترددا بين الفقر والفخر، فإذا ذكر الله افتخر، وإذا ذكر نفسه افتقر.

** عن عُثْمَانَ الْخَيَّاطَ، قَالَ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ يَقُولُ: "ثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الْهُدَى: الِاسْتِرْجَاعُ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، وَالِاسْتِكَانَةُ عِنْدَ النِّعْمَةِ، وَنَفْيُ الِامْتِنَانِ عِنْدَ الْعَطِيَّةِ"

قوله: "ثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الْهُدَى:

١/ الِاسْتِرْجَاعُ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ

قال الفاروق عمر –رضي الله عنه–: ما أبالي على أي حال أصبحت، على ما أحب أم على ما أكره، ذلك بأني لا أدري الخيرة فيما أُحب أم فيما أكره.

٢/ وَالِاسْتِكَانَةُ عِنْدَ النِّعْمَةِ

روى الإمام أحمد عَنِ يزيد بْنِ عبد الله بن عُمَرَ عن أبيه عَنْ عُمَرَ – قَالَ: لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا رَفَعَهُ– قَالَ: "يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: مَنْ تَوَاضَعَ لِي هَكَذَا –وَجَعَلَ يَزِيدُ بَاطِنَ كَفِّهِ إِلَى الْأَرْضِ، وَأَدْنَاهَا إِلَى الْأَرْضِ– رَفَعْتُهُ هَكَذَا –وَجَعَلَ بَاطِنَ كَفِّهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَرَفَعَهَا نَحْوَ السَّمَاءِ–"

فيه: التعليم بالجارحة. البداية عندك والنهاية عند ربك. تواضعك له نهاية، ورفعة الله لك لا نهاية لها، فقرب الأرض في التواضع لا يساوي بعد السماء في الرفعة.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقالوا: «النِّعم إذا شُكرت قرَّت، وإذا كُفِرت فرَّت». والأصل في هذا قوله تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم:٧]

قال ابن تيمية: ومن لبس جميل الثياب إظهارا لنعمة الله، واستعانة على طاعة الله، كان مأجورا، ومن لبسه فخرا وخيلاء كان آثما فإن الله لا يحب كل مختال فخور.

٣/ وَنَفْيُ الِامْتِنَانِ عِنْدَ الْعَطِيَّةِ"

قال –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المسبل إزاره، والمنان الذي لا يعطي [أي غيره] شيئا إلا منه، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب)

قوله (والمنان) أي الذي يكثر المنة على غيره لإحسانه إليه، والمنة لا تليق إلا باللّه تعالى إذ هو الملك الحقيقي وغيره يعطي من ملك غيره فلم يجز له المنّ، فإذا منّ كأنه ادّعى لنفسه الملك والحرية وانتفى من العبودية ونازع اللّه صفات رب البرية فلا ينظر إليه نظر رحمانية.

قال الطيبي: جمع الثلاثة في قرن لأن المسبل إزاره هو المتكبر المرتفع بنفسه على الناس ويحتقرهم، والمنان إنما منّ بعطائه لما رأى من علوه على المعطى له، والحالف البائع يراعي غبطة نفسه وهضم صاحب الحق، والحاصل من المجموع احتقار الغير وإيثار نفسه، ولذلك يجازيه اللّه باحتقاره له وعدم التفاته إليه، كما لوح به: «لا يكلمهم اللّه»، وإنما قدم ذكر الجزاء مع أن رتبته التأخير عن الفعل لتفخيم شأنه وتهويل أمره، ولتذهب النفس كل مذهب ولو قيل المسبل والمنان والمنفق لا يكلمهم لم يقع هذا الموقع.

** عن عثمان الخياط يقول سمعت ذا النون يقول: ثلاثة من أعمال الكياسة: ترك المراء والجدال في الدين، والإقبال على العمل بيسير العلم، والاشتغال بإصلاح عيوب النفس غافلا عن عيوب الناس.

يقول ابن الجوزي: إن عزمت فبادر، وإن هممت فثابر، واعلم أنه لا يدرك المفاخر من رضي بالصف الآخر.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ويقول علي الطنطاوي: والوقت لا يضيق بعمل إذا عرفنا طريق استغلاله والانتفاع به، ولو أحصى الواحد منا ما يذهب من عمره هدرا في المقاهي وفي الأحاديث الفارغة، ومطالعة الصحف الجوفاء، والمجلات المؤذية، وقدر ما يمكن أن يعمل في مثل هذا الوقت من جليل الأعمال ونافعها لهاله الأمر ورأي شيئا عظيما.

وقال بعضهم: مطالعة الأخبار محرقة الأعمار

وقالوا: أنامل المرء في وسائل التواصل صورة من عقله.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

لغة الشكر خير من لغة الشكوى

الحمد لله معزّ من أطاعه واتقاه، ومذلّ من خالف أمره وعصاه، قاهر الجبابرة وكاسر الأكاسرة، لا يذل من والاه ولا يعز من عاداه، ينصر من نصره ويغضب لغضبه ويرضى لرضاه.

أحمده سبحانه وأشكره حمدًا وشكرًا يملآن أرضه وسماه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه ومصطفاه.

صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه والتابعين ولكل من نصره ووالاه

أما بعد:

شكر الله تعالى ... هو عرفان النعمة من المنعم، وحمده عليها، واستعمالها في مرضاته.

وهو من خلال الكمال، وسمات الطِّيبَة والنبل، وموجبات ازدياد النِّعم واستدامتها.

والشكر واجب مقدس للمنعم المخلوق، فكيف بالمنعم الخالق، الذي لا تحصى نَعماؤه ولا تُعدّ آلاؤه.

والشكر بعد هذا من موجبات الزلفى والرضا من المولى عز وجل، ومضاعفة نعمه وآلائه على الشكور.

والشكر لا يجدي المولى عز وجل، لاستغنائه المطلق عن الخلق، وإنما يعود عليهم بالنفع، لإعرابه عن تقديرهم للنعم الإلهية واستعمالها في طاعته ورضاه، وفي ذلك سعادتهم وازدهار حياتهم.

عن مضارب بن حزن قال: بينا أنا أسير من الليل إذا رجل يكبر، فألحقته بعيري، فقلت: من هذا المكبر؟ قال: أبو هريرة، قلت: ما هذا التكبير؟ قال: شكرا.

قلت: على مه؟ قال: على أني كنت أجيرا لبُسرة بنت غزوان بعقبة رجلي وطعام بطني، فكان القوم إذا ركبوا سقت لهم، وإذا نزلوا خدمتهم، فزوجنيها الله فهي امرأتي اليوم، فإذا ركب القوم ركبت، وإذا نزلوا خُدمت.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ومَن قرأ كتابَ الله وسنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بروحِ الشكر العارِفةِ بالله المعترفةِ بفضلِه ورحمتِه؛ كان أسعدَ الناسِ قلباً وأقواهم يقيناً وأعظمهم ثناءً وحمداً.

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: (الشاكرون أطيب الناس نفوساً، وأشرحهم صدوراً، وأقرهم عيوناً، فإن قلوبهم ملآنة من حمده والاعتراف بنعمه، والاغتباط بكرمه، والابتهاج بإحسانه، وألسنتهم رطبة في كل وقت بشكره وذكره، وذلك أساس الحياة الطيبة، ونعيم الأرواح، وحصول جميع اللذائذ والأفراح، وقلوبهم في كل وقت متطلعة للمزيد، وطمعهم ورجاؤهم في كل وقت بفضل ربهم يقوى ويزيد)

قال بن عيينة: كان لابن المنكدر جار مبتلى، فكان محمد إذا رفع جاره صوته بالبلاء، رفع صوته بالحمد.

وقال غسان بن المفضل الغلابي: حدثني بعض أصحابنا قال: جاء رجل إلى يونس بن عبيد فشكا إليه ضيقا من حاله ومعاشه واغتماما بذلك، فقال: أيسرك ببصرك مائة ألف؟ قال: لا. قال: فبسمعك؟ قال: لا. قال: فبلسانك؟ قال: لا. قال: فبعقلك؟ قال: لا. في خلال، وذكره نعم الله عليه، ثم قال يونس أرى لك مائين ألوفا وأنت تشكو الحاجة؟!

ولله دَرُّ صاحبِ الظِّلالِ حينَ قال: «مِنْ رَحمةِ الله أنْ تُحِسَّ بِرَحمةِ الله؛ فرحمةُ اللهِ تَضُمُّك وتَغْمُرُك وتَفِيضُ عَلَيْك؛ ولَكِنْ شُعُورُك بِوُجودِها هو الرَّحمةُ، ورَجاؤك فيها وتَطَلُّعُك إليها هو الرَّحمةُ، وثِقَتُك بها وتَوَقُّعُها في كلِّ أمْرٍ هو الرَّحمة... ورَحمةُ اللهِ لا تَعِزُّ على طالبٍ في أيِّ مكانٍ وفي أيِّ حالٍ؛ وَجَدَها إبراهيمُ – عليه السلام – في النارِ، ووَجَدَها يوسف – عليه السلام – في الْجُبِّ كما وَجَدَها في السِّجن. ووَجَدَها يونسُ – عليه السلام – في بطنِ الْحُوتِ في ظُلُماتٍ ثلاث. ووَجَدَها موسى – عليه السلام – في اليَمِّ وهو طِفْلٌ مُجَرَّدٌ مِنْ كلِّ قُوةٍ ومِن كلِّ حِراسةٍ، كما وَجَدَها في قَصرِ فرعون وهو عَدُوٌّ له مُتَرَبِّصٌ به ويَبحثُ عنه. ووَجَدَها أصْحابُ الكهفِ في الكهفِ حين افْتَقَدُوها في القُصُورِ والدُّورِ، فقال بعضُهم لِبَعضٍ:{فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته} [الكهف:١٦] ووَجَدَها رسولُ اللهِ –صلى الله عليه وسلم– وصاحبُه في الغارِ والقومُ يتبعونَهما ويَقُصُّون الآثار، ووَجَدَها كلُّ مَن آوَى إليها يائساً مِن كلِّ مَنْ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

سِواها؛ مُنقطِعاً مِن كلِّ شُبْهَةٍ في قُوةٍ ومِن كلِّ مَظِنَّةٍ في رَحمةٍ؛ قاصِداً بابَ اللهِ وَحْدَه دُونَ الأبواب».

رأى بكر بن عبد الله المزني حمالاً عليه حمله وهو يقول: الحمد لله، استغفر الله، قال: فانتظرته حتى وضع ما على ظهره وقلت له: أما تحسن غير هذا؟ قال: بلى أحسن خيراً كثيراً، أقرأ كتاب الله، غير أن العبد بين نعمة وذنب، فأحمد الله على نعمه السابغة واستغفره لذنوبي. فقلت: الحمال أفقه من بكر.

أقسام الشكر ووسائله

الشكر أقسام: شُكر قلبي، وشكر لساني، وشكر عملي.

– «شُكْرُ القلب»: هو الاعتقاد والإيمان بفضل الله سبحانه، والاعتراف الداخلي بنعمه وآلائه... يجب أن يبدأ بالشكر من الداخل أي من قناعات مطلقة ومتينة وفق تصور عقائدي، وأن يمزج بالنية الصادقة والخالصة، وأن يختلط بالروح والعقل والنفس، أي أن يكون إطارا للذات الإنساني، حتى يتحول إلى المرحلة الثانية وأن يبني الأساس الثاني.

سُئل المرتعش: أي الأعمال أفضل؟ فقال: رؤية فضل الله.

– «شُكْر اللسان»: هو ترديد الكلمات المُعَبِّرَة عن الاعتراف بالنعمة وقد قال القائل: «جُعِلَ الكلامُ على الفؤاد دليلاً»... يترجم هذه القوة الروحية والقناعة الصادقة إلى كلمات وعبارات للشكر بكل ثقة وحضور القلب، ويقول بكل اندفاع: (يا رب لك الحمد، كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك)

ولكي يستكمل مسيرة النعم تراه باستمرار يردد: (الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات) وإن افتقر إلى نعمة ما فتراه يقول: (الحمد لله على كل حال).

ولكن صاحب هذا الرسوخ الإيماني وهذه الأذكار الدائمة لا يتوقف عند هذا الحد لذا يتهيأ لبناء الأساس الثالث «شكر العمل» وذلك شوقا لرضا الله – سبحانه وتعالى– طمعا للأجر ولاستمرارية النعم، لأنه يتيقن ويؤمن بالقاعدة الربانية {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم:٧].

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال الأوزاعي: بلغني عن خالد بن معدان أنه كان يقول: « أكل وحمد، خير من أكل وصمت»

قال الجنيد: كنت بين يدي السري السقطي ألعب وأنا ابن سبع سنين، وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر، فقال لي: يا غلام ما الشكر؟ فقلت: ألا يعصي الله بنعمه، فقال لي: أخشى أن يكون حظك من الله لسانك. قال الجنيد: فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري لي.

– «شُكْرُ العمل»: هو حسن استعمال النعمة، والشكر عليها عمليًّا بالطاعة، والعبادة، والإنفاق لوجه الله تعالى، قال عز وجل: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ:١٣]

إنه شكر يتحول إلى ميادين العمل، ويحول كل ما أنعم الله عليه إلى حركة في الواقع، ويتعاون مع الآخرين، ويضحي بكل ما هو متاح – لذا تراه يتصدق بماله، ويفعل الخير بكل طاقاته، ويحرص على هداية الناس بكل نصيحة، ويمشي معهم في حاجاتهم.

عن محمد بن منصور أنه سئل: إذا أكلت وشبعت فما شكر تلك النعمة؟ قال: أن تصلي حتى لا يبقى في جوفك منه شيء.

قال ذو النون المصري أبو الفيض: الشكر لمن فوقك بالطاعة، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان والإفضال.

وإذا كانت هذه الأنواع كلها واجبة ومطلوبة، فلا شك أن الشكر العملي هو جوهرها وعمادها؛ لأن العمل بالطاعة ينشأ عن إيمان القلب، والألفاظ عنوان ظاهري على الاعتقاد الداخلي.

ولو اقتصر الإنسان على مُجرَّد التلفُّظ بكلمات تدُل على الشكر، دون وعْي لها أو تأثر بها، لمَّا كان ذلك كافيًا.

نصائح لاكتساب فضيلة الشكر والتحلي به:

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

١ – التفكر فيما أغدقه اللّه على عباده من صنوف النعم، وألوان الرعاية واللطف، وأن الإنسان في كل حالة من أحواله في نعمة، بل ولا يمكن أن يمر عليه لحظة في حياته إلا وهو يتقلب في نعم الله تعالى، وفي هذا استجابة لأمر الله تعالى بقوله: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ} [البقرة:٢٣١] وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} [فاطر:٣] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

٢– الضراعة إلى الله تعالى بأن يوزع عبده الضعيف شكر نعمته، والإعانة على القيام بهذه الوظيفة العظيمة التي لا قيام للعبد بها إلا بإعانة الله تعالى، والضراعة صفة أنبياء الله تعالى ورسله وعباده الصالحين. قال تعالى عن سليمان عليه الصلاة والسلام: {رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}[النمل:١٩].

وقال تعالى عن العبد الصالح: {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [الأحقاف:١٥].

وقد أوصى النبي –صلى الله عليه وسلم– معاذ بن جبل –رضي الله عنه– بهذا الدعاء العظيم فقال له وقد أخذ بيده: «يا معاذ، والله إني لأحبك، ثم أوصيك يا معاذ لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «أتحبون أن تجتهدوا في الدعاء؟ قولوا: اللهم أعنا على شكرك وذكرك وحسن عبادتك».

٣– أن يعلم الإنسان أن الله تعالى يسأله يوم القيامة عن شكر نعمه. هل قام بذلك أو قصّر، قال تعالى:{ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [التكاثر:٨]، قال ابن كثير رحمه الله: (أي: ثم لتسألن يومئذٍ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ماذا قابلتم به نعمه من شكر وعبادة).

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : «إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة [يعني العبد] أن يقال: ألم نُصحَّ جسمك، ونرويك من الماء البارد».

٤– أن يعلم الإنسان يقيناً أن النعم إذا شكرت قرت وزادت، وإذا كفرت فرت وزالت، قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم:٧]

فمتى أراد العبد دوام النعم وزيادتها فليلزم الشكر. وبدونه لا تدوم نعمة.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: عليكم بملازمة الشكر على النعم، فقلَّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم.

فعلى ذي النعمة أن ينظر إليها وإن قلت بعين التعظيم وإظهار الفاقة لأنها من الله تعالى، وقليله لا يقال له قليل. وقد أوصلها إليك فضلاً منه وامتناناً لا باستحقاق منك.

ومن الجهل بالنعمة أن يراها الإنسان يسيرة لا تستحق الشكر وبإمكانه أن ينالها، وهذا فهم سقيم، فإن كل مطلوب يريده الإنسان لن يكون إلا بتيسير من الله مهما كان صغيراً، فإذا تحقق فهو من نعم الله عليه، لأن حصوله مصلحة لهذا المخلوق الضعيف الذي لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً.

٥– أن يفكر الإنسان في حاله، ويتأمل حياته قبل حصول هذه النعمة، وكيف كانت حاله آنذاك. وينظر إلى حاله لو كان فاقداً لها، فإن كان غنياً فإلى حال فقره، وإن كان صحيحاً فإلى حاله يوم كان مريضاً، وإن ملك بيتاً فإلى حاله يوم كان لا يملك بل كان يستأجر أو في بيت ضيق لا يرتضيه، وهكذا كل نعمة ينظر إلى وجود ضدها ليعرف بذلك قدرها فيشكرها.

٦– أن ينظر الإنسان إلى من دونه في أمور الدنيا. فإذا فعل ذلك استعظم ما أعطاه الله تعالى وفضّله به على غيره، فلم يعب نعمة ولم ينتقص عطية، فقام بمحبة الله تعالى وشكره، وتواضع لربه، وفعل الخير، فكان من الشاكرين.

وهذا ما أرشد إليه النبي –صلى الله عليه وسلم– بقوله: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

إن الإنسان إذا وضع نصب عينيه هذا المعنى الجليل الذي اشتمل عليه هذا الحديث الشريف رأى أنه يفوق كثيراً من الخلق في العافية وتوابعها، وفي الرزق وتوابعه مهما بلغت بالحال، فيزول همه وقلقه، ويزداد سروره واغتباطه بما هو فيه من نعم الله التي فاق فيها غيره ممن هو دونه فيها.

وما أحسن ما قاله بعض السلف: (لَنِعمُ الله علينا فيما زوى عنا من الدنيا أفضل من نعمه علينا فيما بسط لنا منها، وذلك أن الله لم يرضَ لنبيه الدنيا، فلأَنْ أكون فيما رضي الله لنبيه وأحبَّ له، أحبُّ من أن أكون فيما كرهه له وسخطه)

٧- وما يساهم في علاج تقصير الناس في الشكر التواصي بشكر نعم الله والقيام بحقها، فإن تذكير الناس بالشكر أمر مطلوب، لاسيما من صاحب كلمة مسموعة، كخطيب جمعة وإمام مسجد وغيرهما من واعظ ومحاضر.

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: (تذاكر النعم شكر).

وقد كان السلف من هذه الأمة من الصحابة والتابعين يلهجون بشكر الله تعالى وحمده، والثناء عليه، عند كل لُقِيٍّ واجتماع.

وما ذلك إلا لاستنارة قلوبهم، ومعرفتهم لنعمة الله تعالى عليهم، بل إن بعضهم كان يتقصد لقاء أخيه، ويسأله عن حاله مع قرب العهد بينهما وما مقصوده من سؤاله أو السلام عليه إلا أن يسمع منه حمد الله تعالى والثناء عليه سبحانه.

وقد جاء ذلك في هدي النبي –صلى الله عليه وسلم– وسيرته الشريفة. فقد ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «قال النبي –صلى الله عليه وسلم– لرجل: كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أحمد الله إليك يا رسول الله. فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : هذا الذي أردتُ منك»

ومعنى (أحمد الله إليك): أحمد الله معك، أو أشكر معك أياديه ونعمه. فـ (إلى) بمعنى (مع) .

وعن أنس بن مالك –رضي الله عنه– قال: سمعت عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– سلم على رجل، فرد عليه السلام. وقال للرجل: كيف أنت؟ قال الرجل: أحمد الله إليك، قال عمر: هذه أردت منك.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وعن علقمة بن مرثد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إنْ كنا لعلنا أن نلتقي في اليوم مراراً، يسأل بعضنا بعضاً عن حاله، وإنْ نريد بذلك [أي ما نريد بذلك] إلا الحمد لله عز وجل.

وهذا العلاج الذي وصفناه إنما ينفع صاحب القلب المبصر الذي يتأمل في نعم الله تعالى. أما القلب البليد الذي لا يعد النعمة نعمة إلا إذا نزل به البلاء فسبيل صاحبه أن ينظر أبداً إلى من دونه، لعل الله تعالى أن يوقظه من رقدة الغفلة فيرى نعم الله ويقوم بشكرها.

وأول مراتب سعادة العبد أن تكون له أذن واعية، وقلب يعقل ما تعيه الأذن، فإذا سمع وعقل تذكر فضل الله عليه. كلما تجددت له نعمة جدد لها شكراً. فهذا على خير وإلى خير.

أقوال في الشكر

- قال علي بن أبي طالب –رضي الله عنه–: «النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله، حتى ينقطع الشكر من العبد».
- قال الحسن البصري: «إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر، فإذا شكروه كان قادراً على أن يزيدهم، وإذا كفروه كان قادراُ على أن يبعث نعمته عليهم عذاباً».
- قال مطرف بن عبد الله: «نظرت في العافية والشكر فوجدت فيهما خير الدنيا والآخرة، ولأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر».
- قال عون بن عبد الله: «قال بعض الفقهاء: إني نظرت في أمري، لم أر خيراً إلا شرا معه، إلا المعافاة والشكر، فرُب شاكر في بلائه، ورُب معافى غير شاكر، فإذا سألتم الله فاسألوهما جميعا».
- قال مخلد بن الحسين: «كان يقال: الشكر ترك المعاصي».
- قال ابن رجب: «كل نعمة على العبد من الله في دين أو دنيا يحتاج إلى شكر عليها، ثم التوفيق للشكر عليها نعمة أخرى تحتاج إلى شكر ثان، ثم التوفيق

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

للشكر الثاني نعمة أخرى يحتاج إلى شكر آخر، وهكذا أبدا فلا يقدر العباد على القيام بشكر النعم، وحقيقة الشكر الاعتراف بالعجز عن الشكر».

كفران النعم

أما كفران النعم، فإنه من سمات النفوس اللئيمة الوضيعة، ودلائل الجهل بقيمة النعم وأقدارها، وضرورة شكرها. وهذه صفة أكثر الخلق، كما قال جل جلاله في ثلاثة مواضع من كتابه: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ}، وفي موضعين: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ}.

وهذا التصوير الرباني لواقع الناس يشعر بالحسرة الشديدة على العباد المنكرين الجاحدين، وحقاً إن الإنسان لظلوم كفار، يلبس ثياب النعمة فتكسوه من شعره إلى أخمص قدميه: صحة وعافية ومالاً وولداً وأمناً، ثم لا يلوي على صاحبها ومسبغها بالشكر والعرفان.

عن سفيان: {نستدرجهم} قال: نسبغ عليهم النعم، ونمنعهم الشكر

والجاحِدُ .. لا يهدأ له بالٌ .. ولا يرتاحُ له قلبٌ ولا ذِهنٌ؛ لأنَّه يشعرُ بألَمِ المعصيةِ وعُقدةِ الذنبِ ووَخزِ الضميرِ؛ ولأنه كذلك يرى نفسَه أهلاً لأن يُنعِمَ الله عليه بأكثرَ من هذه النعم! فكلُّ ذلك يُنغِّصُ عليه حياتَه ويُفسِد عليه سَعادتَه، ويُشعره دائماً بقلةِ ما هو فيهِ وانعِدامِ السعادة والهناء. ولو أُعطِيَ الدنيا كلَّها لم يُرضِه ذلك؛ كما قال -صلى الله عليه وسلم-: «ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع»!.

وكذلك مَن يجحد نِعَمَ الله عليه؛ يُحْرَم نعمةَ الطمأنينة ولذةَ الشعورِ بالسعادة الحقيقية التي لا تكتمل إلا برضوانِ اللهِ عن العبدِ وإقبالِ العبدِ على ربِّه بالمحبة والرضا والذل والطاعة.

شكر الناس

ومن نعم الله تعالى على العبد نِعمٌ يسوقها له بواسطة عباد الله تعالى، كما أجرى إحسانه تعالى إلينا على يد رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وكما ساق خيره لنا بواسطة والدَيْنَا ومربِّينا من المرشدين العارفين بالله تعالى.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فعلى المؤمن أن يشكر الله تعالى لأنه المنعم الحقيقي الذي سخر الناس لجلب الخير إليه، قال تعالى: {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ} [النحل: ٥٣].

وعلى المؤمن أن يشكر أيضاً من جعله الله تعالى سبباً لنعمه، لذا قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس».

وقال العلامة الخطابي رحمه الله تعالى، شارحاً لهذا الحديث: (هذا الكلام يتأول على وجهين: أحدهما: أن مَنْ كان من طبعه وعادته كفران نعمة الناس، وتركُ الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة الله وتركُ الشكر له سبحانه. الوجه الآخر: أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس، ويكفر معروفهم، لاتصال أحد الأمرين بالآخر).

فأيسر الشكرين شكر العباد، فمَنْ ضيَّع شكر العباد، كان لشكر الله عز وجل أضيع.

إن الحياة قائمة على الأخذ والعطاء، فكما نأخذ لابد وأن نعطي، وكما نعطي لابد وأن نأخذ، لنحظى بـ (الشكر) على ما أقدمنا عليه، فنحن وحين نأخذ لابد وأن (نَشكُر)، وحين نعطي فلاشك بأننا سوف (نُشكر)، وما أجمل الشكر الذي يعرب معنى التقدير خير إعراب، ويوضح موقع ووقع الفعل الذي أقدمنا عليه، فيعزز رغبتنا بامتداد رقعة الإقدام على الفعل الذي سبق وأن فعلناه، فللشكر قيمة تسحر النفوس وتذيب كل الكتل الثلجية التي تُعسر المعاملات اليومية التي تفرزها حياتنا اليومية كل يوم، قيمة تبث في نفس مرسلها ونفس مستقبلها الفرحة التي تُلزم الابتسامة على البحث عن سكن تسكن من خلاله ذاك الوجه وكل وجه يستقبلها.

إن العلاقات التي توجد بين البشر يجب تتويجها ببعض اللمسات الرقيقة والتي من المستحيل أن تحكمها أية قواعد، فهي تنبع من داخل الإنسان، والإكثار من ممارستها يجعلها من إحدى سمات الشخصية، بل وجزءاً لا يتجزأ منها، ويصبح كل شخص مديراً للعلاقات العامة.

ولكي لتستطيع إيصال الشكر بفعالية عليك إتباع الخطوات التالية:

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

١- انطق كلمة «شكراَ» بصوت واضح ومسموع: هذا من شأنه أن لا يدع أي مجال للشك في عقل المستمع أنك تعني شكره حقاَ. كن سعيدا بأنك تقولها. عندما يسمعك الآخرون تعبر عن شكرك، فإن هذا يضاعف من قوة تأثير عبارة الشكر.

٢- انظر إلى الشخص: فالتواصل البصري مع الشخص الآخر يؤكد إخلاصك له، وأن تربت بيدك خفيفاَ على مرفق الشخص الآخر سوف يؤكد ذلك شكرك، ويجعل من السهل تذكره أكثر.

٣- استخدم اسم الشخص عند شكره: إضافة صيغة شخصية على شكرك أشد تأثيرا من جملة «إنني أشكرك» مجردة.

٤- أرسل رسالة شكر مكتوبة: تعد هذه الطريقة أفضل طريقة للشكر، عندما يسمح الموقف بذلك، ويليها في قوة التأثير تقديم الشكر وجها لوجه، ثم الشكر عن طريق الهاتف.

كن صادقاَ عندما تشكر شخصاَ ما، وابحث عن فرص لشكر الآخرين ولو كان على أمور بسيطة، ولا تنس أن تكون مخلصاَ في تعبيرك عن الامتنان.

الشكر يعزز الصحة

لغة الشكر تعزز الصحة وتريح الأعصاب وتزيد من مناعة الجسم... كذلك قال «روبرت إيمونسن» الباحث في علم النفس في جامعة كاليفورنيا: أن الشعور المتواصل بالامتنان والتقدير لدى الإنسان، يحقق نتائج مفيدة له من الناحية الجسدية والنفسية. وأن الأشخاص الذين يشعرون بالامتنان، عادة ما يتمتعون بصحة أفضل من غيرهم، كما تقل لديهم الأعراض المرضية، ولديهم طاقة كبيرة، ولهم علاقات اجتماعية أوسع، إضافة إلى تمتعهم بروابط زوجية أقوى، وربما بمدخول مادي أكبر، مقارنة بأشخاص من غير الشاكرين!

وأضاف الباحث - وفقاَ لما نقلته صحيفة «ماكلاتشي تريبيون» الأميركية-: إن الشاكرين يخلدون إلى النوم بسهولة، ويناموون بعمق ولفترات أطول، ويستيقظون هانئي البال.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ونوه الباحث بأن زيادة مستويات الشعور بالشكر والامتنان تزيد من مستويات «إميونوجلوبولين أ **immunoglobulin A**» في الحنجرة والأنف، الأمر الذي يزيد من مقدرة الجسم على مقاومة العدوى الخبيثة. كما أشار إلى دور الامتنان في تقليل هرمون التوتر في الجسم.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

محطات بين الشبهة والشهوة

«الشبهة» و «الشهوة» .. هما أصلا الشرّ في الوجود الإنساني، وهما من أمراض القلوب الخطيرة، اللذان ينافيان الخشية من الله تعالى، لذلك قال بعض العلماء: "أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه، ولم تزل الشبهة يقينه".

والشُّبْهَة في اللغة هي: الالتباس والاختلاط، وشُبِّهَ عليه الأَمْرُ تَشْبيهًا: لُبِّسَ عليه، وجمعها شُبَه وشُبُهات.

وفي الاصطلاح: التباس الحق بالباطل واختلاطه حتى لا يتبيَّن، وقال بعضهم: هي ما يشبه الثابت وليس بثابت، وقال الأخفش في الاختيارين :وإنما سميت الشبهة شبهة، لأنها تشبه الحق والباطل، ليست بحق واضح، ولا باطل لا شك فيه. هي بين ذلك.

وقد عرفها ابن القيم رحمه الله فقال: "الشُّبْهَة: وَارِد يرد على الْقلب يحول بَينه وَبَين انكشاف الحق" [مفتاح دار السعادة]

أما الشهوة فهي تقديم الهوى على طاعة الله ومرضاته، كمن يقع في العشق المحرم، ومن يتلذذ بشرب المسكرات، أو يجمع الأموال بالربا.. يقول ابن القيم: "دخل الناس النار من ثلاثة أبواب: باب شبهة أورثت شكا في دين الله، وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته، وباب غضب أورث العدوان على خلقه". [الفوائد]

ومرض الشبهة والشهوة، كلاهما مذكور في القرآن، قال تعالى: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [الأحزاب:٣٢]. فهذا مرض الشهوة، وقال تعالى: {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً} [البقرة:١٠]. وقال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة:١٢٥]. فهذا مرض الشبهة، وهو أشد من مرض الشهوة، ففتنة الشُّبْهَة أخطر؛ لأنها إذا تمكنت في القلب قلَّ أن ينجو منها أحد، لاعتقاده أنه على الصواب والمخالف هو

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

المخطئ، ولذا قال ابن تيمية رحمه الله: (واتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في الشهوات).

إن الشبهة يتدين بها صاحبها، وتبقى في نفسه، وتترسخ في فكره وقناعته، بخلاف الشهوة التي تطرأ وتزول، ويقر مقترفها في خاصة نفسه بقبحها وحرمتها، ولكن غلبه هواه ونفسه الأمارة بالسوء، وهو قد يندم ويتوب ويستغفر ويأتي بالحسنات المكفرة .. الصلاة إلى الصلاة مكفرات، رمضان إلى رمضان مكفرات، العمرة مكفرة، الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة.

وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله: "القلب يتوارده جيشان من الْبَاطِل: جَيش شهوات الغي، وجيش شُبُهَات الْبَاطِل، فأيما قلب صغا إليها وركن إليها تشربها وامتلأ بهَا، فينضح لِسَانه وجوارحه بموجبها، فَإِن اشرب شُبُهَات الْبَاطِل تَفَجَّرَتْ على لِسَانه الشكوك والشُّبُهَات والإيرادات، فيظن الْجَاهِل أن ذَلِك لسعة علمه، وَإِنَّمَا ذَلِك من عدم علمه ويقينه" [مفتاح دار السعادة].

قال أهل العلم: "واجتماع الشهوة مع الشبهة يقوي الدافع إلى الشبهة ويورث فساد العلم والفهم، لأن العقل الصريح لا يمكن أن يناقض النقل الصحيح أبداً، وهذه قاعدة مضطردة.. كل عقلٍ صريح فإنه لا يمكن أن يخالف النقل الصحيح في الكتاب والسنة".

(العقل الصريح): يعني الخالص من داءين عظيمين هما الشبهة والشهوة .. الشبهة ألا يكون عنده علم، والشهوة ألا يكون له إرادةٌ صالحة، لأن كل الانحرافات عن الحق لا تخرج عن أحد هذين السببين:

وهما الشبهة والشهوة، إما جهل وإما سوء إرادة.

ومن أمثلة مرض الشبهة، قوله جل وعلا: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [الحج:٥٢-٥٣].

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

يقول الشيخ محمد الحسن الددو: جبهة الشيطان لها جيشان، أحدهما: جيش الشهوات، والآخر: جيش الشبهات، والناس مقسومون بين هذين الجيشين، منهم أسارى الشهوات، ومنهم أسارى الشبهات، فالمأسورون بالشهوة ينقسمون إلى قسمين؛ لأن الشهوة نفسها تنقسم إلى قسمين: إلى شهوة حسية وشهوة معنوية، فالشهوة الحسية كشهوة البطن والفرج، والشهوة المعنوية كحب الرئاسة وحب الانتقام وحب الشهرة والظهور وغير ذلك.

والشبهة كذلك تنقسم إلى قسمين: شبهة في التعامل مع الله، وشبهة في التعامل مع الناس، فالشبهة في التعامل مع الله تنقسم إلى قسمين: شبهة عقدية تتعلق بالتصور والعلم، يلقيها الشيطان للإنسان، ولا يزال الشيطان بابن آدم يقول له: من خلق كذا، من خلق كذا، حتى يقول له: فمن خلق الله؟! فهذه شبهات الشيطان في المجال العقدي.

والنوع الثاني من الشبهة في التعامل مع الله: الشبهة في التعامل معه في العبادة، فما يصيب الناس من الوسواس في الطهارة وفي الصلاة، وكذلك ما يعرض لهم من شُبه الأعذار عن الازدياد من الخير؛ هي من شبهات الإنسان التي تحول بينه وبين الازدياد من الطاعة قبل أن يفوت الأوان.

والنوع الثاني من أنواع الشبهات: الشبهات في التعامل مع الناس، وهي تنقسم إلى قسمين؛ لأن الإنسان فيها بين إفراط وتفريط: فالنوع الأول من الشبه في التعامل مع الناس: شبهة الإفراط؛ فيقدس الناس ويحترم بعضهم احتراماً كبيراً، حتى يضفي عليهم صفة من صفات الإلهية أو يعتبرهم بمثابة معصومين، ويستسلم بين يديهم حتى يكون كالميت بين يدي غاسل، وهذه لاشك مبالغة، فالإنسان يقدَّر ولا يقدس، وهو عرضة للقبول والرد، يمكن أن تحسن خاتمته ويمكن أن تسوء.

والنوع الثاني من الشبه في التعامل مع الناس: هو شبهة التفريط؛ بأن يظن الإنسان بالناس ظن السوء، فهذا يتهمه بالشرك، وهذا يتهمه بالبدعة، وهذا يتهمه بالفسوق، وهذا يتهمه بالتقصير، وهو دائماً مقوم للناس، قد شغل وقته بتقويم الآخرين، وكل ما له من الاهتمام هو في مستويات الناس، وهذا النوع على خطر

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

عظيم، ولذلك فقد أخرج مالك في الموطأ (أنه بلغه أن عيسى بن مريم كان يقول: لا تكثروا الكلام في غير ذكر الله فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله، ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد، وإنما الناس مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية).

وقال ابن القيم – رحمه الله –: "الفتنةُ نوعان: فتنة الشبهات – وهي أعظم الفتنتين –، وفتنة الشهوات، وقد يجتمعان للعبد، وقد ينفرد بإحداهما.

ففتنةُ الشبهات من ضعفِ البصيرة وقلَّة العلم، ولاسيَّما إذا اقترنَ بذلك فسادُ القصد وحصولُ الهوى، فهنالك الفتنةُ العُظمى والمصيبةُ الكبرى، فقل ما شئتَ في ضلالِ سيءِ القصد الحاكم عليه الهوى لا الهُدى، مع ضعف بصيرته وقلَّة علمه بما بعثَ اللهُ به رسولَه، فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ} [النجم: ٢٣]، وقد أخبر الله سبحانه أن اتباعَ الهوى يُضِلُّ عن سبيل الله؛ فقال: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص: ٢٦].

وهذه الفتنة مآلُها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنةُ المنافقين وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم ..

ولا يُنجِّي من هذه الفتنة إلا تجريدُ إتباع الرسول وتحكيمُه في دِقِّ الدين وجِلِّه، ظاهرِه وباطنِه، عقائدِه وأعمالِه، حقائقِه وشرائعِه، فيُتلقَّى عنه حقائقُ الإيمان وشرائعُ الإسلام، وما يُثبِتُه لله من الصفات والأفعال والأسماء وما ينفيه عنه، كما يُتلقَّى عنه وجوبُ الصلوات وأوقاتُها وأعدادُها، ومقاديرُ نُصُب الزكاة ومُستحقِّيها، ووجوبُ الوضوء والغُسلِ من الجنابة، وصومُ رمضان؛ فلا يجعلُه رسولاً في شيءٍ دون شيءٍ من أمور الدين؛ بل هو رسولٌ في كل شيءٍ تحتاجُ إليه الأمةُ في العلم والعمل، لا يُتلقَّى إلا عنه، ولا يُؤخَذ إلا منه ..

وأما النوع الثاني من الفتنة: ففتنةُ الشهوات، وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتَيْن في قوله: {كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ} [التوبة: ٦٩]؛ أي: تمتَّعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها، والخَلاَق: هو النصيبُ المُقدَّر، ثم قال: {وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا}، فهذا الخوضُ بالباطل، وهو الشُّبُهات.

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصُلُ به فسادُ القلوب والأديان من الاستمتاعِ بالخَلاقِ والخوض بالباطل؛ لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلُّم به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح؛ فالأول: هو البدع وما والاها، والثاني: فسقُ الأعمال ..

وأصلُ كل فتنةٍ إنما هو من تقديم الرأيِ على الشرع، والهوى على العقل؛ فالأولُ: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصلُ فتنة الشهوة.

ففتنةُ الشُّبُهات تُدفَع باليقين، وفتنةُ الشهوات تُدفَعُ بالصبر، ولذلك جعل سبحانه إمامةَ الدين منوطةً بهذين الأمرين؛ فقال: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: ٢٤]، فدلَّ على أنه بالصبر واليقين تُنالُ الإمامةُ في الدين ..

فبكمال العقل والصبر تُدفَعُ فتنةُ الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تُدفَعُ فتنةُ الشُّبهة، والله المستعان". [إغاثة اللهفان:٢/١٦٧]

قال أهل العلم: "من المعلوم أن من دار في خلده شيء من الغلط ثم استقر، أو استمالته الشهوة إلى ما لا يحل وعاود ذلك واستمر؛ يقوى ذلك في اعتقاده حتى تعود الشهوة شبهة. والغلط في اعتقاده صواباً، فيبقى منافحاً عن غلطه، وعن الشّبهة التي نشأت عن شهوته، وبهذا اصطاد الشيطان أكثر الخلق، وأمرَّ في مذاقهم الفاسد حلاوة طعم الشرع والحق".

نماذج وأمثلة

– قال ابن الخطيب: اعلم أنَّ إنكار البعث يتولد تارة من الشُّبهة، وأخرى من الشَّهوة، فأما تولده من الشبهة فهو ما حكاه الله عز وجل بقوله: {أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ}، وتقديره: أنَّ الإنسان هو هذا البدن، فإذا مات وتفرقت أجزاؤه،

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

واختلطت بأجزاء التراب، وتفرَّقت بالرِّياح في مشارق الأرض ومغاربها، فيكون تمييزها بعد ذلك محالاً.

وهذه الشبهة ساقطة من وجهين:

الأول: لا نُسلِّمُ أن الإنسان هو هذا البدن، بل هو شيء مدبرٌ لهذا البدن، فإذا فسد هذا البدن بقي هو حيّاً كما كان، وحينئذ يعيد الله -تبارك وتعالى- أي بدن أراد، فيسقط السؤال، وفي الآية إشارة إلى هذا، لأنه سبحانه أقسم بالنفس اللوامة، ثم قال تعالى جل ذكره: {أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ}، وهو تصريح بالفرق بين النفس والبدن.

الثاني: سلَّمنا أنَّ الإنسان هو هذا البدن، لكنه سبحانه عالم بالجزئيات، فيكونُ عالماً بالجزء الذي هو بدن زيدٍ، وبالجزء الذي هو بدن عمرو، وهو تعالى قادر على كلِّ الممكنات، فيلزم أن يكون قادراً على تركيبها ثانياً، فزال الإشكال.

وأما إنكار البعث بناءً على الشَّهوةِ فهو قوله تعالى: {بَلْ يُرِيدُ الإنسان لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} .. ومعناه أن الإنسان الذي يميل طبعه للشَّهوات واللَّذات والفكرةُ في البعث تنغصها عليه فلا جرم ينكره.

- قال ابن القيم في [كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء]: "والتحقيق في السماع أنه مركب من شبهة وشهوة، وهما الأصلان ذم الله من يتبعهما ويحكمهما على الوحي الذي بعث به أنبياءه ورسله.

قال تعالى: {إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم: ٢٣]. فالظن الشبهة، وما تهوى الأنفس الشهوة، والهدى الذي جاءنا من ربنا مخالف لهذا.

قال تعالى: {كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الُّدنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [التوبة: ٦٩].

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فالاستمتاع بالخلاق -وهو النصيب- هو الشهوة، والخوض هو الكلام بمقتضى الشبهة، فهذان الداءان هما داء الأولين والآخرين إلا من عصم الله وقليل ما هم، وهذا السماع قد تركب أمره من هذين الأصلين.

فأما الشبهة التي فيه فهي تعلق أهله بالشبهة التي يستندون إليها في فعله، كقولهم حضره سادات المشايخ ومن لا يطعن عليه، وأقره النبي -صلى الله عليه وسلم- في بيته، وسمع الحداء وهو ضرب من سماع الغناء وسمع الشعر وأجاز عليه .. وما هو صريح في الدلالة فكذب موضوع على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

ومن الشبهة التي فيه أن الروح متى سمعت ذكر المحبة والمحبوب والقرب منه ورضاه حرك ذلك لما في قلبه شيء من المحبة الصادقة، وهذا أمره لا يمكن دفعه، فهذا نصيب الشبهة منه.

وأما الشهوة فهي نصيب النفس منه، فإن النفس تلتذ بسماع الغناء وتطرب بالألحان المطربة، وتأخذ بحظها الوافر منه، حتى ربما أسكرها وفعل فيها ما لا يفعله الخمر. فإن الطباع تنفعل للسماع والصورة، والخمرة تسكر النفوس بها أتم سكر. ولهذا قال الله تعالى في اللوطية لما أخذهم العذاب {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الحجر: ٧٢].

- قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: ٢٢٠]

المصلح: هو من يأتي بالإصلاح عملا، والمفسد: هو من يأتي بالإفساد فعلا، وحال كل منهما ظاهرة للعيان، وإنما أيقظ الله تعالى القلوب إلى ذكر علمه بذلك لتلاحظ اطلاعه على العمل، وتتذكر جزاءه عليه فتراقبه فيما خفي منه، لعلها تأمن من مزالق الشهوة، وتسلم من مزال الشبهة؛ فإن شهوة الطامع تولد لصاحبها شبهة أكل مال اليتيم، كما يأكل صاحبها مال أخيه الضعيف، ولا عاصم من ذلك إلا بمراقبة الله تعالى وتقواه. [تفسير المنار]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ولما كانت الشُّبُهَات بهذه الخطورة كان السلف رحمهم الله يحرصون على البعد عنها وعن المجالس التي تورد فيها الشُّبُهَات، جاء في كتاب السنة لعبد الله بن أحمد، وغيره: "دخل رجلان من أصحاب الأهواء على محمد بن سيرين فقالا: يا أبا بكر نحدثك بحديث قال: لا. قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله عز وجل. قال: لا. لتقومان عني أو لأقومن. قال: فقام الرجلان فخرجا. فقال بعض القوم: يا أبا بكر ما كان عليك أن يقرأ آية من كتاب الله عز وجل؟ فقال محمد بن سيرين: إني خشيت أن يقرأ آية عليَّ فيحرفانها فيقر ذلك في قلبي" [القدر للفريابي]

العلاج

قال ابن القيم: "قال لي شيخُ الإسلام، وقد جعلتُ أُورِدُ عليه إيرادًا بعد إيراد: لا تجعلْ قلبَك للإيرادات والشُّبُهَات مثل السفنجة فيتشربَها، فلا ينضح إلا بِها، ولكنِ اجعلْه كالزجاجة المصمتة، تمرُّ الشُّبُهَات بظاهرِها ولا تستقرُّ فيها، فيراها بصفائه، ويدفعُها بصلابته، وإلاَّ فإذا أَشْرَبْتَ قلبَك كُلَّ شُبهةٍ تمرُّ عليها، صارَ مقرًّا للشُّبهات، –أو كما قال–، فما أعلمُ أنِّي انتفعتُ بوصيَّة في دَفْع الشُّبُهَات كانتفاعي بذلك" [مفتاح دار السعادة].

يقول الشيخ محمد المختار الشنقيطي: "أما مرض الشبهة فإنه مرضٌ يأتي بسبب ضعف الإيمان، فالشبهات ترد على الإنسان بضعف إيمانه، فيغذي إيمانه، أولاً: بسؤال الله أن يصرفها عنه، وأن يثبته على الإيمان الذي يحول بينه وبين هذه الشبهات، فأول علاج لمن بلي بالشبهات والشكوك والوساوس والأذية في قلبه وفي صدره، أن يستعيذ بالله جل وعلا، لأن الله يقول في كتابه: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [فصلت:٣٦] فأمر الله بالاستعاذة إذا حصلت الشبهة، فأكثر من الاستعاذة فإن الله يعيذ من استعاذ.

أما الأمر الثاني: فأن تأخذ بالأسباب التي تبعد الشبهة عنك، فإذا كانت الشبهة من جليس سوء فابتعد عنه وإياك أن تجلس معه؛ لأن الله أمرك أن تقوم إذا ذكر الله بما لا يليق به في مجالس الظالمين {وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأنعام:٦٨]؛ فلا يجوز للإنسان أن يجلس في المجالس التي تثار فيها الشبه ويضعف فيها الإيمان.

أما الأمر الثالث من الأسباب التي تعين على انصراف الشبهة: أن تأخذ بالأسباب التي تزيد في الإيمان، ومن أعظم ذلك تلاوة القرآن وتدبره، أن تختار لتلاوة كتاب الله أنسب الأوقات، وأن تقبل على كلام الله وأنت تحس كأن الله يخاطبك، وكأن الله يناديك، وكأن الله يوصيك، فإذا استشعرت بهذا الشعور دخلت الآية إلى سويداء قلبك وتغلغلت إلى جنانك وكان لها أطيب الأثر على جوارحك وأركانك، وكف الله بها عنك الوساوس والشكوك، القرآن فيه الحجج وفيه الآيات، وهذه الحجج والآيات تقوي القلب، وتجعل فيه الحصانة والقوة من هذه الشبهات التي ترد على القلب.

أما مرض الشهوة فابتدئ بأسبابها، فما كان من أسباب تثير الشهوة فابتعد عنها، غض البصر عن الحرام، وعن استماع الفحش والآثام، واجعل جوارحك سليمة عن مظآن الريب والفتن؛ فإن ذلك يعصم الله به قلبك، فإن الإنسان إذا حفظ سمعه وبصره صانه الله عن الشهوات، ولم يجد الشيطان عليه سبيلاً أن يعلق قلبه بها، ثم خذ بالأسباب التي تزيد في إيمانك حتى تقوى على البعد من الشهوات، وقال بعض العلماء: إن عقوق الوالدين، وقطيعة الرحم من أعظم الأسباب التي توقع الإنسان في الانتكاسة بشهوة أو شبهة، فيبتعد الإنسان عن عقوق الوالدين وأذية الوالدين، وقطع الأرحام، لأن الله تعالى يقول: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ} [محمد:٢٢ – ٢٣] قال: أصمهم فلا ينتفعون بموعظة، وأعمى أبصارهم فلا يهتدون ببصيرة –نسأل الله السلامة والعافية– وكل ذلك بسبب قطيعة الرحم، فأكثر ما يقع الإنسان في شهوة أو شبهة إما بذنب بينه وبين الله وإما بذنب بينه وبين عباد الله.

ونسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجيرنا من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن، والله تعالى أعلم".

وعلاج الشبهة –أيضا– يكون بالعلم، ولا مصدر صحيح للعلم إلا قال الله تعالى وقال رسوله –صلى الله عليه وسلم–، كما قال ابن القيم عليه رحمة الله:

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

العلم قال الله قال رسوله .. قال الصحابة ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف .. سفاهة بين الرسول وبين قول فقيه

وإذا كان العلم هو علاج الشبهات، فإن علاج الشهوات تقوى الله.

فبالعلم تنزاح الشبهات عن القلوب. وبقوى الله تعالى تنزاح الشهوات .. فاستحضار مراقبة المولى عز وجل، ومخافة الله عز وجل، وكل ما يمكن أن تجمعه كلمة تقوى الله هي علاج الشهوات، أما علاج الشبهات فهو طلب العلم المستمد من الكتاب والسنة وإجماع أهل العلم.

وقالوا: "بالبصر النافذ تندفع الشبهة، وبالعقل الكامل تندفع الشهوة، والورع يمنع السطو على الحقوق بدافع الشهوة أو الشبهة".

يقول العلامة السعدي: إن الله عز وجل أمتن على عباده بنعم كثيرة، ومن أفضل وأعظم ما منَ الله تعالى به على عبده هو العلم النافع، لأن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر. وضابط العلم النافع هو ما أزال عن القلب شيئين:

الأول: الشبهة. والثاني: الشهوة.

لأن الشبهات تورث الشك، وأما الشهوات فتورث درن القلب وقسوة القلب. وتثبط البدن عن الطاعات.

إذا أزال العلم النافع الشبهة والشهوة حل محل الأول اليقين الذي هو ضد الشك، وحل محل الثاني الإيمان التام الذي يوصل العبد لكل مطلوب المثمر للأعمال الصالحة. وكلما ازداد الإنسان علماً حصل له كمال اليقين وكمال الإرادة وكمال الخشية قال الله عز وجل: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر:٢٨]، وإذا كان العلم بهذه المنزلة وبهذه المثابة فإنه ينبغي للإنسان أن يحرص على طلبه وأن يستزيد من طلب العلم، ولذلك لم يسأل النبي صلى الله عليه وسلم المزيد من شيء إلا من العلم قال الله عز وجل: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً} [طه:١١٤]. [شرح منظومة القواعد الفقهية للسعدي]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وعلاج الشبهات يكون أيضا باليقين بأخبار الله، فإن الله قد أخبرنا عن نفسه، وناره، والبعث، والملائكة، والجن .. فهل أحد أصدق من الله تعالى؟ {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً} [النساء:٨٧] {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً} [النساء:١٢٢] {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً} [الأنعام:١١٥] صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام، لا مبدل لكلمات الله.

فعلينا أن نتلقى الأخبار الإلهية باليقين، واليقين هو منتهى درجات التصديق، أي أن يستيقن القلب ويثبت ويطمئن على هذا الكلام أنه حق، فالله يقول في القرآن الكريم: {فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} [الذاريات:٢٣] (الحق) البعث.

ويقول في آية أخرى: {وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [يونس:٥٣] إنه حق: أي البعث.

ويقول: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [التغابن:٧] .. إن كان مستحيلاً بالنسبة لكم فهو يسير عند الله.

وحتى نتغلب على مرض الشهوة علينا أن نتسلح بسلاح الصبر، الصبر على أوامر الله، والصبر عن المحرمات، والشجاعة كما يقولون: "صبر ساعة" .. اصبر قليلاً، فأنت لو لم تصبر على مر التعلم لا يمكن أن تنجح، ولو لم تصبر على تعب السعي لا يمكن أن تجمع المال الذي يغنيك عن ذل السؤال.

إذن لماذا لا تصبر على الدين؟

تصبر على كل شيء إلا على الدين! فلا بد من الصبر، ولهذا فإن الصبر من الدين بمنزلة الرأس من الجسد، ولا دين لمن لا صبر له، كما أنه لا حياة لمن لا رأس له.

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الصبر في أكثر من تسعين موضعاً، وأمر الله به، وأمر به الرسول، يقول الله للرسول: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

[الأحقاف:٣٥] {وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}
[النحل:٩٦] {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: ١٠]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

مكارم الأخلاق

مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم .. سنة الأنبياء، وصراط العقلاءِ، ومختار النبلاءِ، ومجد الفضلاء .. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ) [البيهقي]

وقد أدرك حكيم العرب (أكثم بن صيفي) سر دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- .. فقد روى الحافظ أبو يعلى: أن أكثم بن صيفي بلغه مخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- فأراد أن يأتيه، فأبى قومه أن يدعوه وقالوا: أنت كبيرنا لم تكن لتخُف إليه، قال: فليأته من يبلغه عني ويبلغني عنه، فانتدب رجلان، فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فقالا: نحن رسل أكثم بن صيفي، وهو يسألك من أنت وما أنت؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: أما من أنا فأنا محمد بن عبد اللّه، وأما ما أنا فأنا عبد اللّه ورسوله، قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإحسان وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل:٩٠]، قالوا: ردد علينا هذا القول، فردد عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكثم فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكي النسب، وسطاً في مضر - أي شريفاً - وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعهن أكثم قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن مَلائمها، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا فيه أذناباً. [أي أسرعوا إلى اتّباعه تكون لكم فضيلة الأسبقية، ولا تتأخروا فتكونوا أذناباً مؤخرين].

وساحة الأخلاق الكريمة لا يرتادها إلى ذوي النفوس الجليلة .. فقد أخرج ابن عساكر عن سعيد بن العاص: "لو أن المكارم كانت سهلة لسابقكم إليها اللئام، لكنها كريهة مرة، لا يصبر عليها إلا من عرف فضلها".

يقال أن من تمام ثبات القلب أن ينعس في المعركة، قال تعالى: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ} [الأنفال:١١]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ومشاهير الشجعان في الإسلام كانوا ينعسون وسط المعركة علامة على قوة قلوبهم، وقد ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» عن (شبيب بن يزيد) الخارجي البطل الكبير وهو من قوادهم أنه ما سُمع بأشجع منه بعد الصحابة، كان في ستين رجلاً يلقى ثلاثة آلاف فيهزمهم، وكان ينعس قبيل المعركة على بغلته، وهذا من شجاعة قلبه ومن حماسته ينعس والصفوف أمامه، حتى إن زوجته واسمها غزالة كانت مثله في ثبات القلب، دخلت الكوفة، فأرهبت الكوفة كلها، والحجاج كان أمير الكوفة في ذاك الوقت، فلما دخلت من باب الكوفة الشرقي خرج هو من الغربي، فدخلت بعمود في يديها تضرب باب الإمارة وتقول للحجاج: اخرج يا عدو الله، ثم ارتقت منبر الجامع، فخطبت خطبة، فقال أحد المسلمين للحجاج: يا ذليل تقتل علماء المسلمين وتقتل ضعفاء المسلمين، ولما أتت غزالة الخارجية هربت منها.

وقال شاعر الخوارج الشهير (عمران بن حطان) في الحجاج حين دخلت غزالة الخارجية مسجد الكوفة:

أسد علي وفي الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جوانح طائر

صَدَعت غزالة قلبه بفوارس ... صدع الزجاجة ماله من جابر

وكان عمران بن حِطّان من رؤوس الخوارج، قيل عنه: مفتي الخوارج وزاهدها وشاعرها وخطيبها الأكبر، وهو الذي مدح ابن مُلْجِمٍ لقتله على بن أبى طالب في أبيات قال فيها:

يا ضربة من تقيّ ما أراد بها .. إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره حيناً فأحسبه .. أوفى البرية عند الله ميزانا

فعارضه شاعر أهل السنة فقال:

يا ضربة من شقي ما أراد بها .. إلا ليبلغ من ذي العرش خسرانا

إني لأذكره حيناً فألعنه .. لعناً وألعن عمران بن حطّانا

ومعلوم أن شر الذين يبغضون علي –رضي الله عنه– هم الخوارج الذين كفَّروه، واعتقدوا أنه مرتد عن الإسلام، واستحلُّوا قتله تقرباً إلى الله تعالى.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فأخذ الحجّاج يطارد عمران بن حطان ويطلبه طويلاً حتى ظفر به. فقال للحارس: اضرب عنق ابن الفاعلة. فقال عمران: بئسَ ما أدَّبك أهلُكَ يا حجاجُ، أكنتَ أمِنتَ أن أُجيبك بمثل ما لَقيتَني به؟ أبعدَ الموت منزلةٌ أصانعُك عليها؟

فأَطرق الحجاجُ استحياءً، وقال: خلُّوا عنه، فخرج إلى أصحابه. فقالوا: ما أطلقكَ إلا اللهُ، فارجعْ إلى حربِه معنا. فقال: هَيهاتَ، غلَّ يداً مُطلقُها، واسترقَّ رقبةً مُعتقها. ثم قال:

أأُقاتل الحجَّاجَ عن سُلطانهِ ... بيدٍ تُقرُّ بأنَّها مَولاتهُ

إني إذا لأخو الدناءة والذي ... عفَّتْ على عرْفانِه جَهَلاتُهُ

ماذا أقولُ إذا وقفتُ موازياً ... في الصفِّ واحتجَّتْ له فَعَلاتُهُ

وتدَّثَ الأكفاءُ[ترامو بالكلام]أنَّ صنائعاً ... غُرستْ لديَّ فحنْظلتْ نَخَلاتُهُ

وفي حرب البسوس الشهيرة قاد الْحَارِثِ بْنِ عُباد قبائل بكر لقتال تغلب وقائدهم مُهَلْهِلِ بْنِ رَبِيعَةَ [الزير سالم] الذي قتل ولد الحارث «بُجَيْرَ» حين أرسله ليصلح بين بكر وتغلب .. قتل بجير وقال: (بؤ بشسع نعل كليب) [أي أنت تساوي نعل كليب، ولا يكفيني في كليب إلا قتل آل مرّة جميعا]، فأسر الحارث مهلهلاً وهو لا يعرفه فقال له: دلني على مهلهل بن ربيعة وأخلي عنك، فقال له: عليك العهد بذلك إن دللتك عليه، قال: نعم. قال: فأنا هو، فجز ناصيته وتركه. وهذا وفاء نادر ورجولة تستحق الإكبار.

كما حُكي أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة باني الخورنق [من أفخم قصوره] جعل لنفسه في كل سنة يومين (نعمه وبؤسه) فإذا خرج فأول من يطلع عليه في يوم نعمه يعطيه مائة من الإبل ويغنيه، وفى يوم بؤسه يقتله.

وكان سبب اتخاذه يوم البؤس من عامه أنه كان له (عمرو بن مسعود) و(خالد بن نضلة) نديمين يستلذ حديثهما. فبينما هو ذات يوم يشرب معهما، جرت على لسانه أبيات شعر. فقال: قولا على هذه العروض، فقالا، فساء الملك بعض قولهما، وقد سكر فقتلهما. فلما صحا دعا بهما فأخبر بشأنهما فاشتد ندمه وكثر أسفه عليهما، واتخذ يوم قتلهما يوم البؤس من عامه.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ثم إن النعمان خرج يوما في صيد، فهاجت ريح رعبت الناس وخلعت القلوب وانقطع من أصحابه وألجأه المبيت إلى رجل من طيء يقال له (عمرو بن الأخنس) فلم يأله إكراماً لما رأى من جماله وشارته وتضوع من طيب رائحته، ولم يعرفه، حتى إذا أصبح غشيته الخيل فارتاع الرجل فقال: لا ترع، أنا النعمان فأقدم علي أمولك. فتوانى الرجل وألحت عليه امرأته فخرج يريد النعمان فصادفه يوم بؤسه وقد ركب فأمر بذبحه، فقال له: أنا الطائي أبو مثواك ليلة الريح، وإنما جئت لوفاء موعدك. فأدناه النعمان ورحب به وقال: أوصني بكل أرب لك ووطر، غير أنه لابد من القتل. فقال له الطائي: ما لي حاجة ولا أرب دون نفسي، فهب لي نفسي. فقال: لابد من القتل، فقال الطائي: إن لي وصايا وديوناً وعندي ودائع لا يعلمها أحد غيري، فدعني حتى ألحق بأهلي وأوصيهم بما أريد وأرجع إليك، قال: فمن يكفل بك؟ فسأل الطائي عن أكرم الناس عليه، فقيل له: (شريك بن عمير)، وهو ابن عمه وصهره، فاهتز لذلك شريك ومضى إلى النعمان فكفل له به، فأجل له النعمان وضمنه شريكاً بدمه، فانطلق الطائي إلى أهله وأوصاهم وودعهم ولبس أكفانه وتحنط، وأقبل يريد النعمان.

ولما أصبح النعمان يوم أجل الطائي دعا شريك ليقتله فقال له: أيها الملك اجعل لي يومي هذا إلى انقضائه، ووطن شريك نفسه على القتل وودع أهله، فلم يلبثوا أن طلع عليهم الطائي في أكفانه متحنطاً، فاشتد تعجب النعمان منه وقال: ما أدري أيكما أكرم، فأخبرني يا طائي ما حملك على الوفاء وأنت تعلم أنك مقتول، قال: حملني على ذلك ديني، قال: وما دينك؟ قال: النصرانية، فوصف له الدين وتوحيد الله تعالى، فظهر له صحة ما وصف، وقبله بفطنته وتنصر، وقال: لا بؤس ولا يوم بؤس بعد هذا، ووصل الطائي وأحسن إليه.

وحكاية كسرى (أبرويز) مع (النعمان بن المنذر) من عجب العجاب، فإن والده (المنذر بن النعمان) احتضن جد كسرى أبرويز (بهرام بن يَزدَجِرد) فقام بتربيته ورعايته ولما مات أبوه (يَزدَجِرد) أراد عظماء المملكة حجب الملك عنه فجهز (المنذر) عشرة آلاف –وقيل ثلاثين ألف– فارس من فرسان العرب وذوي البأس والنجدة بقيادة

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ابنه (النعمان) ووجههم إلى (المدائن) مما جعل الفرس يذعنون للأمر ويتوجون (بهرام) ملكاً عليهم. فكان الجزاء أن قتل حفيده (أبرويز) (النعمان بن المنذر) وسلبه ملكه!!.

فإنه لما غضب كسرى من النعمان لأنه طلب الزواج من ابنته، أرسل إليه يطلبه فلم يستطع أي حي من أحياء العرب أن يحميه من كسرى، فاضطر النعمان أن يمتثل للأمر، فأودع أسلحته [وكان في جملة وديعته "ألف شكة ويقال أربعة آلاف شكة، والشكة السلاح] وحرمه إلى هانئ بن مسعود الشيباني، ورحل إلى كسرى فبطش به، حيث وضع في يده القيد وزج به في سجن من سجونه المظلمة حتى هلك، ويقال أنه قتله تحت أقدام الفيلة، وولي على الحيرة بدلا منه إياس بن قبيصة الطائي، ثم أرسل إلى هانئ يطلب منه ودائع النعمان فأبى، فسير إليه كسرى جيشاً لقتاله فجمع هانئ قومه آل بكر وخطب فيهم فقال: يا معشر بكر، هالك معذور، خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد.

وانتصر على الفرس في موقعة «ذي قار»، فهذا الرجل احتقر حياة الذل والاستكانة، ورأى الموت شرفاً في ساحة العز.

ومن القصص الدالة على وفاء العرب، قصة وفاء السَمَوْأل بأدرع امرئ القيس .. فامرؤ القيس كان من أشهر شعراء العرب على الإطلاق. يماني الأصل، وكان أبوه ملك أسد وغطفان. وأمه أخت المهلهل الشاعر، فلقنه المهلهل الشعر، فقاله وهو غلام، وجعل يشب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب، فبلغ ذلك أباه، فنهاه عن سيرته فلم ينته. فأبعده إلى حضرموت، موطن آبائه وعشيرته، وهو في نحو العشرين من عمره. فأقام زهاء خمس سنين، ثم جعل يتنقل مع أصحابه في أحياء العرب، يشرب ويطرب ويغزو ويلهو، إلى أن ثار بنو أسد على أبيه وقتلوه، فبلغ ذلك امرأ القيس وهو جالس للشراب فقال: "رحم الله أبي! ضيعني صغيرا، وحمّلني دمه كبيرا، لا صحو اليوم، ولا سكر غدا! اليوم خمر وغدا أمر!".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ونهض من غده فلم يزل حتى ثأر لأبيه من بني أسد، وقال في ذلك شعراً كثيراً. وكانت حكومة فارس ساخطة عليه فأوعزت إلى المنذر ملك العراق بطلب امرئ القيس، فابتعد، وتفرق عنه أنصاره، فطاف قبائل العرب حتى انتهى إلى السَمَوْأل، فأجاره. ثم رأى أن يستعين بالروم على الفرس. فقصد الحارث بن أبي شمر الغساني والي بادية الشام فسيره هذا إلى قيصر الروم في القسطنطينية، فولاه فلسطين، ولقبه «فيلارق» أي الوالي، فرحل يريدها. فلما كان بأنقرة ظهرت في جسمه قروح، وما لبث أن توفي؛ ولذلك عُرف بذي القروح، وكذلك: الملك الضليل.

أما السَمَوْأل الأزدي فشاعر جاهلي حكيم. من سكان خيبر (في شمال المدينة) كان يتنقل بينها وبين حصن له سماه (الأبلق). أشهر شعره لاميته التي مطلعها:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم.. عرضه، فكل رداء يرتديه جميل

وهي من أجود الشعر

من وفائه أن امرأ القيس لما أراد الخروج إلى قيصر استودع السموأل دروعا فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك الشام (الحارث بن أبى شمر الغسانى) فتحرز منه السموأل، فأخذ الملك ابنا له وكان خارجا من الحصن، فصاح الملك بالسموأل فأشرف، فقال: "هذا ابنك في يدي، وقد علمت أن امرأ القيس ابن عمي ومن عشيرتي وأنا أحق بميراثه، فإن دفعت إلي الدروع وإلا ذبحت ابنك"، فقال أجلني فأجله فجمع أهل بيته نساءه فشاورهم، فكل أشار عليه أن يدفع الدروع ويستنقذ ابنه، فلما أصبح أشرف عليه، فقال: "ليس إلى دفع الدروع سبيل، فاصنع ما أنت صانع" فذبح الملك ابنه وهو مشرف ينظر إليه ثم انصرف الملك بالخيبة راجع.

وكانت العرب أمة نشأت على الأنفة، فلم تخضع لحكومة أجنبية ولم تألف الرق والعبودية واستعباد الإنسان للإنسان مثل الأمم المعاصرة لهم، الذين حرموا من إبداء الرأي فضلاً عن النقد وإبداء الملاحظة، يأنفون من الذل ويأبون الضيم والاستصغار والاحتقار.

قال عنترة:

لا تسقني ماء الحياة بذلة ... بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ماء الحياة بذلة كجهنم ... وجهنم بالعز أطيب منزل

روي أنه جلس (عمرو بن هند) ملك الحيرة لندمائه وسألهم: هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه خدمة أمي؟ قالوا: نعم أم عمرو بن كلثوم الشاعر الصعلوك.

فدعا الملك عمرو بن كلثوم لزيارته، ودعا أمه لتزور أمه، وقد اتفق الملك مع أمه أن تقول لأم عمرو بن كلثوم بعد الطعام: ناوليني الطبق الذي بجانبك، فلما جاءت قالت لها ذلك فقالت: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت عليها الكرة وألحت، فصاحت ليلى أم عمرو بن كلثوم: واذلاه يا لتغلب.

فسمعها ابنها فاشتد به الغضب فرأى سيفاً للملك معلقاً بالرواق فتناوله وضرب به رأس عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب وانتهبوا ما في الرواق، ونظم قصيدة يخاطب بها الملك قائلاً:

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا .. فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِيْنَا

بِأَيِّ مَشِيْئَةٍ عَمْرُو بْنَ هِنْدٍ .. نَكُوْنُ لِقَيْلِكُمْ فِيْهَا قَطِيْنَا

بِأَيِّ مَشِيْئَةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ .. تُطِيْعُ بِنَا الوُشَاةَ وَتَزْدَرِيْنَا

تَهَدَّدُنَا وَتُوْعِدُنَا رُوَيْداً .. مَتَى كُنَّا لأُمِّكَ مَقْتَوِيْنَا

فَإِنَّ قَنَاتَنَا يَا عَمْرُو أَعْيَتْ .. عَلى الأَعْدَاءِ قَبلَكَ أَنْ تَلِيْنَا

[القيل هو الملك دون الملك الأعظم، والقطين هم الخدم، والقتو خدمة الملوك]

إلى أن يقول في آخر معلقته: ...

إذا ما المَلْك سام الناس خسفاً ... أبينا أن نقر الذل فينا

وعن خلق الصدق يروى العرب بيتا خالدا من الشعر والنحويون زادوه خلودا:

إِذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا ... فَإِنَّ القَوْلَ مَا قَالَتْ حذَامِ

وقصته أن (عاطس الحميري) سار إلى الريان في جموع من العرب –خثعم وجعفي وهمدان– فلقيهم الريان في عشرين حياً من أحياء –ربيعة ومضر– فاقتتلوا وصبروا لا يُوَلي أحد منهم دُبُرَه، وفي الليل رجع عاطس الحميري إلى معسكره وهرب الريان تحت ليلته فسار ليلته وفي الغد ونزل الليلة الثانية فلما أصبح عاطس الحميري ورأى خلاءَ معسكرهم أتبعهم جملةً من حماة رجاله وأهل الغناء منهم فجدُّوا في

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

إتباعهم فانتبه القطا في إسرائهم من وقع دوابهم فمرت على الريان وأصحابه عرفاً عرفاً فخرجت حذام بنت الريان إلى قومها فقالت :

أَلا يَا قَوْمَنَا ارْتَحِلُوا وَسِيرُوا ... فَلَوْ تُرِكَ القَطَا لَيْلاً لَنَاما

فقال ديسم بن ظالم الأعصري :

إِذَا قَالَتْ حَذامِ فَصَدِّقُوهَا ... فَإِنَّ القَوْلَ مَا قَالَتْ حذَامِ

فارتحلوا حتى اعتصموا بالجبل، ويئس منهم أصحاب عاطس فرجعوا عنهم

قال أبو تمام:

إذا جَارَيْتَ في خُلُقٍ دَنِيئاً .. فأنتَ ومنْ تجارِيه سواءُ

رأيتُ الحرَّ يجتنبُ المخازي .. ويَحْمِيهِ عنِ الغَدْرِ الوَفاءُ

وما مِنْ شِدَّةٍ إلاَّ سَيأْتي .. لَها مِنْ بعدِ شِدَّتها رَخاءُ

لقد جَرَّبْتُ هذا الدَّهْرَ حتَّى .. أفَادَتْني التَّجَارِبُ والعَناءُ

إذا ما رأسُ أهلِ البيتِ ولى .. بَدا لهمُ مِنَ الناسِ الجَفاءُ

يَعِيش المَرْءُ ما استحيَى بِخَيرٍ .. ويبقى العودُ ما بقيَ اللحاءُ

فلا واللهِ ما في العيشِ خيرٌ .. ولا الدُّنيا إذا ذَهبَ الحَياءُ

إذا لم تخشَ عاقبةَ الليالي .. ولمْ تستَحْي فافعَلْ ما تَشاءُ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

من حكم الفرس

روى الدينوري في المجالسة وجواهر العلم، عن ابْنُ قُتَيْبَةَ؛ قَالَ: قَالَ بَعْضُ حُكَمَاءِ الْفُرْسِ:

(لِلْعَادَةِ سُلْطَانٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ)، (وَمَا اسْتُنْبِطَ الصَّوَابُ بِمِثْلِ الْمُشَاوَرَةِ)، (وَلا حُصِّنَتِ النِّعَمُ بِمِثْلِ الْمُوَاسَاةِ)، (وَلا اكْتُسِبَتِ الْبَغْضَاءُ بِمِثْلِ الْكِبْرِ)

(لِلْعَادَةِ سُلْطَانٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ)

** على العموم لا يستطيع التفلت من سلطان العادة إلا من أخذ الله بيده. ألا ترى إلى موسى عليه السلام كيف خاف من عصاه لما رآها في صورة الحية، لولا تثبيت الله تعالى له. وهل كان خوفه ذاك إلا من نتائج حكم العادة؟

** وبقدر ما تقوى الإرادة، يضعف سلطان العادة، حيث يتم هجر كثير من العادات السيئة.

** قال تعالى: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين} [آل عمران:١٣٩]، قال أهل العلم: ليس ذلك من خلال الأمنيات، والرغبات، وإنما من خلال السنن التغيرية، التي شرعها الله وأرادها، وفطر الناس عليها، وزودهم بآلياتها، بكل ما تقتضيه من الإعداد الروحي والمادي، ليكون الإنسان هو وسيلة التغيير وهدفه، في آنٍ واحد.

** تأمل نجاح تجربة تحريم الخمر عهد الصحابة مع تدرجها لوأد سلطان العادة مع ما امتزج بها من رسوخ الإيمان وفقه الانقياد، وبالمقارنة فشل نفس التجربة وأمثالها من تعاطي التدخين في أزمنتنا المعاصرة مع تعدد فتاوى التحريم وإجماع أهل الطب وإلزام الشركات بتصوير كوارثه الصحية على كل علبه سجائر ولا يفوتنا العبارة الشهيرة «التدخين ضار جدا بالصحة».

** يقول الشيخ سلمان العودة:

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

إن الشجاعة معنى كبير، وسر خطير، وقد أصبحنا نعشقها ونفرح بمن يتحلى بها، إنها هي من أسباب كون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يستطيعون تحطيم سلطان العادة، وطاغوت العرف، ويَتَحَدَون أقوامهم وأممهم، ويصبرون ويصابرون على رغم من قلة الناصر والمعين، وكثرة المعاند والمخالف، وعلى رغم التلبيس والتدليس.

فما الذي جعل رجلاً نبيا كموسى عليه السلام يقف أمام طاغية متألهٍ متجبر كفرعون! ويقول له: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً} [الإسراء:١٠٢].

ما هو الذي جعل رجلاً نبياً مختاراً -كإبراهيم عليه الصلاة والسلام- يحطم الأصنام وهو يعد فتىً في مقتبل العمر! ثم يقول لقومه وعلى رأسهم النمرود الطاغية الأكبر: {أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [الأنبياء:٦٧].

ما الذي جعل رجلاً -كمحمد صلى الله عليه وسلم- يجمع قومه، وفيهم أبو لهب وأبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف والملأ من المستكبرين، ثم يقف بين أيديهم منذراً محذراً (إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا).

ثم ما الذي جعل المجددين يستطيعون أن يصبروا على عملهم، ويجاهدوا ويعلنوها صريحة قوية مدوية؟! لماذا وقف عمر بن عبد العزيز وتحدى كل الأمور المعتادة في بني أمية، الذين كان واحداً منهم وينتسب إليهم، وكانوا يخشون أن يغير ملكهم، أو عادتهم وميراثهم، فيقف عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- نصيراً للحق مدافعاً عنه، قائماً على الظلم، محارباً له، راداً للحقوق إلى أهلها، لا يأمر بخير إلا فعله، وكاد الأمر أن يتم؛ لولا السم.

ما الذي جعل رجلاً -كالإمام أحمد بن حنبل- يقف فيقارع الظالمين في مسألة خلق القرآن! ويصبر على عقيدته التي ورثها عن الأنبياء والمرسلين، ويصابر عليها، ويرضى بالسجن والجلد، والتعذيب والمطاردة والتضييق والحرمان من التدريس، من التعليم، من المحاضرات، من الإفتاء ومن غير ذلك، حتى أذن الله تعالى له بالفرج

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وكتب له الذكر الحسن، حتى أنه -رحمه الله- كان يستاء من ذلك ويكره الشهرة أشد الكراهية.

ما الذي جعل رجلا -كالإمام ابن حزم- يقف ويتحدى من حوله، ويصبر ويصابر! فإذا قيل له: يا رجل تَحَفَّظ ولا تتعجل! أنشأ يقول:

قالوا: تحفظ فإن الناس قد كثرت أقوالهم وأقاويل الورى محن

فقلت: هل عيبهم لي غير أني لا أدين بالدجل

إذ في دجلهم فتنوا وإنني مولع بالحق لست إلى سواه أنحو ولا في نصره أهن

دعهم يعضوا على صم الحصى كمداً من مات من غيظه منهم له كفن

ما الذي جعل رجلاً -كالإمام ابن تيمية رحمه الله- يصبر ويجهر بكلمة الحق، ويتحمل الأذى في سبيلها! فيسجن لمرات ويؤذى بل ويضرب أحياناً في الشارع، وهو إلى ذلك كله مجاهر معلن لا ينثني للرياح أبداً.

ما الذي جعل رجلاً -كالإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب- يقوم في بيئة قد انتشر فيها الشرك بألوانه، والبدع والخرافات، والكهنة، والسحرة وغير ذلك، وألوان المخالفات! فيقوم جاهراً بكلمة الحق، مجاهراً صابراً في ذات الله عز وجل، حتى نصره الله تعالى، وأصبح ما جاء به الإمام محمد بن عبد الوهاب من الحق هو الظاهر، كما قال الله عز وجل: {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [الصف:١٤].

ما الذي جعل رجلاً -كالإمام الشوكاني- ينتصر للحق ويناضل في سبيله، ويلقى ما يلقى فيموت هو، ويبقى ذكره في الآخرين!

وهكذا .. إن الشجاعة قوة في القلب، تجعل صاحبها لا يستوحش من الطريق، ولا ينفر من الوحدة، ولا يتخلى عن الحق مهما كلفته التضحيات، ولا ينافق ولا يجامل أو يحابي أو يداهن في دين الله عز وجل، إنه لا مكان في التاريخ للجبناء والمرتزقة والمطبلين أبداً، فإن الناس يركلونهم ويركضونهم، ويبقى الحق هو الذي تعشقه النفوس، وتتطلع إليه القلوب، وقد قال الله عز وجل {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات:١٧١-١٧٣].

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

(وَمَا اسْتُنْبِطَ الصَّوَابُ بِمِثْلِ الْمُشَاوَرَةِ)

** قال الله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} [آل عمران:١٥٩]

واختلف العلماء لأي معنى أمر الله نبيه بمشاورة أصحابه مع كونه كامل الرأي، تام التدبير، على ثلاثة أقوال:

١/ أحدها: ليستن به من بعده، وهذا قول الحسن، وسفيان بن عيينة.

٢/ الثاني: لتطيب قلوبهم، وهو قول قتادة، والربيع، وابن إسحاق. ومقاتل ... قال الشافعي –رضي الله عنه–: نظير هذا قوله –صلى الله عليه وسلم– (البكر تُستأمر في نفسها) إنما أراد استطابة نفسها، فإنها لو كرهت، كان للأب أن يزوجها، وكذلك مشاورة إبراهيم عليه السلام لابنه حين أُمر بذبحه.

٣/ الثالث: للإعلام ببركة المشاورة، وهو قول الضحاك.

** ومن فوائد المشاورة أن المشاور إذا لم ينجح أمره. علم أن امتناع النجاح محض قدر، فلم يلم نفسه، ومنها أنه قد يعزم على أمر، فيبين له الصواب في قول غيره، فيعلم عجز نفسه عن الإحاطة بفنون المصالح .. قال علي –رضي الله عنه–: الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه، والتدبير قبل العمل يؤمنك من الندم.

** قال الطرطوشي في كتابه «سراج الملوك» في المشاورة والنصيحة:

اعلموا أن المستشير وإن كان أفضل رأياً من المشير فإنه يزداد برأيه رأياً، كما تزداد النار بالسليط ضوءاً، فلا تقذفن في روعك أنك إذا استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك، فيمنعك ذلك عن المشاورة، فإنك لا تريد الرأي للفخر به ولكن للانتفاع به، وإن أردت الذكر كان أفخر لذكرك وأحسن عند ذوي الألباب لسياستك أن يقولوا: "لا ينفرد برأيه دون ذوي الرأي من إخوته".

ولا يمنعك عزمك على إنفاذ رأيك وظهور صوابه لك عن الاستشارة، ألا ترى أن إبراهيم الخليل –عليه السلام– أُمر بذبح ابنه عزمة لا مشورة فيها، فحمله حسن الأدب وعلمه بموقعه في النفوس على الاستشارة فيه، فقال لابنه: {قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى} [الصافات١٠٢]. وهذا من أحسن ما يرسم في هذا الباب.

وقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: الرأي الفرد كالخيط السحيل [الغَزْل الذي لم يُبْرَم]، والرأيان كالخيطين، والثلاثة الآراء كالثلاثة لا تكاد تنقطع.

وروي أن رومياً وفارسياً تفاخرا. فقال الفارسي: نحن لا نملك علينا من يشاور. وقال الرومي: ونحن لا نملك علينا من لا يشاور.

وقال بزرجمهر: إذا أشكل الرأي على الحازم كان بمنزلة من أضل لؤلؤة فجمع ما حول مسقطها فالتمسها فوجدها، كذلك الحازم بجمع وجوه الرأي في الأمر المشكل ثم يضرب بعضها ببعض حتى يخلص له الصواب.

وكان يقال: من كثرت استشارته حمدت إمارته.

وفي حكم الهند قال بعض الملوك: إن الملك الحازم يزداد برأي الوزراء الحزامة، وكما يزداد البحر بمواده من الأنهار، وينال بالحزم والرأي ما لا يناله بالقوة والجند، ولم تزل حزمة الرجال يستحلون مرائر قول النصحاء، كما يستحلي الجاهل المساعدة على الهوى.

قال المأمون لطاهر بن الحسين: صف لي أخلاق المخلوع، يعني أخاه الأمين. فقال: كان واسع الصدر ضيق الأدب، يبيح من نفسه ما تأباه همم الأحرار، ولا يصغي إلى نصيحة، ولا يقبل مشورة، يستبد برأيه فيرى سوء عاقبته ولا يردعه ذلك عما يهم به.

قال: فكيف كانت حروبه؟ قال: يجمع الكتائب بالتبذير ويفرقها بسوء التدبير.

فقال المأمون: لذلك ما حل محله. أما والله لو ذاق لذاذة النصائح، واختار مشورات الرجال وملك نفسه عند شهوتها ما ظُفر به.

وقال بعضهم: إنفاذ الملك الأمور بغير روية كالعبادة بغير نية، ولم تزل العقلاء على اختلاف آرائهم يشهدون العيوب، ويستشيرون صواب الرأي من كل أحد حتى الأمة الوكعاء.[حمقاء]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

هذا وكان عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– يقول: "رحم الله امرأً أهدى إلي عيوبي".

وكان يقال: من أعطي أربعاً لم يمنع أربعاً: من أعطي الشكر لم يمنع المزيد، ومن أعطي التوبة لم يمنع القبول، ومن أعطي الاستخارة لم يمنع الخيرة، ومن أعطي المشورة لم يمنع الصواب.

وقال بعضهم: خمير الرأي خير من فطيره، وتقديمه خير من تأخيره.

وقال صاحب كتاب التاج: إن بعض ملوك العجم استشار وزراءه، فقال بعضهم: لا ينبغي للملك أن يستشير منا أحداً إلا خالياً، فإنه أموت للسر وأحزم للرأي وأجدر للسلامة، وأعفى لبعضنا من غائلة بعض.

وكان بعض ملوك العجم إذا شاور مرازبته فقصروا في الرأي، دعا الموكلين بأرزاقهم فعاقبهم فيقولون: تخطئ مرازبتك وتعاقبنا؟ فيقول: نعم لم يخطئوا إلا لتعلق قلوبهم بأرزاقهم وإذا اهتموا أخطئوا.

وكانوا إذا اهتموا بمشاورة رجل بعثوا إليه بقوته وقوت عياله لسنة ليتفرغ لبه.

وكان يقال: النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت، وإذا شاورت فاصدق الخبر تصدقك المشورة، ولا تكتم المستشار فتؤتى من قبل نفسك.

وقال بعض ملوك العجم: لا يمنعك شدة بأسك في باطنك، ولا علو مكانك في نفسك من أن تجمع إلى رأيك رأي غيرك، فإن أصبت حمدت وإن أخطأت عذرت، فإن في ذلك خصالاً منها إن وافق رأيك رأي غيرك ازداد رأيك شدة عندك، وإن خالفه عرضته على نظرك، فإن رأيته معتلياً لما رأيته قبلته، وإن رأيته متضعاً استغنيت عنه. وذلك أنه يجدد لك النصيحة ممن شاورته وإن أخطأ، وتمحض لك مودته وإن قصر، ولو لم يكن من فضيلة المشورة إلا أنك إن أصبت مستبداً سلبت فائدة الإصابة بألسنة الحسدة.

وقال قائل: هذا اتفاق ولو فعل كذا لكان أحسن، وإذا شاورت فأصبت حمد الجماعة رأيك لأنهم لنفوسهم يحمدون، وإن أخطأت حمل الجماعة خطأك لأنهم عن أنفسهم يكافحون.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

واعلم أن القول الغليظ يستمع لفضل عاقبته كما يتكاره شرب الدواء المر لفضل مغبته.

وقال أعرابي: ما عثرت قط حتى عثر قومي. قيل له: وكيف ذلك؟ قال: لا أفعل شيئاً حتى أشاورهم.

وقيل لرجل من عبس: ما أكثر صوابكم يا بني عبس! فقال: نحن ألف رجل وفينا حازم واحد، ونحن نطيعه فكأنا ألف حازم.

وكان ابن أبي هبيرة أمير البصرة يقول: اللهم إني أعوذ بك من صحبة من غايته خاصة نفسه، والانحطاط في هوى مستشيره.

وفي حكم الهند: من التمس من الإخوان الرخصة عند المشورة، ومن الأطباء عند المرض، ومن الفقهاء عند الشبهة، أخطأ الرأي وازداد مرضاً وحمل الوزر.

وقالت الحكماء: لا تشاور معلماً، ولا راعي غنم، ولا كثير القعود مع النساء، ولا صاحب حاجة يريد قضاءها، ولا خائفاً، ولا من يرهقه أحد السبيلين.

وقالوا: لا رأي لحاقب ولا لحازق ولا لحاقن، ولا تشاور من لا توفيق عنده... الحازق: هو الذي ضغطه الخف الضيق، والحاقب: هو الذي يجد في بطنه درأ.

وقالوا: من شكا إلى عاجز أعاره عجزه وأمده من جزعه.

ومن لطيف ما جرى في الاستشارة أن زياداً بن عبيد الله الحارثي استشاره عبد الله بن عمر في أخيه أبي بكر أن يوليه القضاء، فأشار به فبعث إلى أبي بكر فامتنع عليه، فبعث زياد إلى عبيد الله يستعين به على أبي بكر، فقال أبو بكر لعبيد الله: أنشدك الله أترى لي القضاء؟ قال: اللهم لا. قال زياد: سبحان الله استشرتك فأشرت علي به ثم أسمعك تنهاه. فقال: أيها الأمير استشرتني فاجتهدت لك الرأي ونصحتك ونصحت للمسلمين، واستشارني فاجتهدت له رأيي ونصحته.

وروي أن الحجاج بعث إلى المهلب يستعجله في حرب الأزارقة، فكتب له المهلب: إن من البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره. أهـ

والمشورة هي في مواضع الفكر والاجتهاد وليس فيما أثبتته نصوص الشريعة والأحكام. فهذه محلها الانقياد لها والقول (سمعنا وأطعنا)

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** المواساة من «الأسوة»، أصلها الهمزة، فقلبت واوا تخفيفًا. وهي المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق.

** جعلت الشريعة من الانتزاع انتزاعا مندوبا إليه غير واجب، وذلك أنواع المواساة بالصدقات والعطايا والهدايا والوصايا وإسلاف المعسر بدون مرابات، وليس في الشريعة انتزاع أعيان المملوكات من الأصول، فالانتزاع لا يعدو انتزاع الفوائد بالعدالة والمساواة.

** قال تعالى: {فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الروم:٣٨]

فجماع حق هؤلاء الثلاثة المواساة بالمال، فدل على أن ذلك واجب لهم. وكان هذا في صدر الإسلام ثم نسخ بفرض الزكاة، ثم إن لكل صنف من هؤلاء الثلاثة حقا؛ فحق ذي القربى يختلف بحسب حاجته؛ فللغني حقه في الإهداء توددا، وللمحتاج حق أقوى.

والظاهر أن المراد ذو القرابة الضعيف المال الذي لم يبلغ به ضعفه مبلغ المسكنة بقرينة التعبير عنه بالحق، وبقرينة مقابلته بقوله: {لِتَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ} [الروم: ٣٩] على أحد الاحتمالات في تفسيره.

وأما إعطاء القريب الغني فلعله غير مراد هنا وليس مما يشمله لفظ {حَقَّهُ} وإنما يدخل في حسن المعاملة المرغب فيها.

وحق المسكين: سد خلته.

وحق ابن السبيل: الضيافة كما في الحديث (جائزته يوم وليلة) والمقصود إبطال عادة أهل الجاهلية إذ كانوا يؤثرون البعيد على القريب في الإهداء والإيصاء حبا للمدحة، ويؤثرون بعطاياهم السادة وأهل السمعة تقربا إليهم، فأمر المسلمون أن يتجنبوا ذلك.

** قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت وَوَاسَانِي بنفسه وماله فهل أنتم تَاركو لي صاحبي) [البخاري عن أبى الدَّرْدَاءِ]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** خرَّج مسلمٌ وأبو داود عن أبي سعيدٍ الخدري، قال: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ، مَعَ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- إِذْ جَاءَ رَجُلٌ على راحِلَةٍ، فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِيناً وَشَمَالاً، فَقَالَ النبيُّ -صلى الله عليه وسلم-: (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ على مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ على مَنْ لاَ زَادَ لَهُ)، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ مَا ذَكَرَ؛ حتى رُئِينَا أنَّهُ لاَ حَقَّ لأَحَدَ مِنَّا فِي فَضْلٍ.

** عن أبي موسى -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم) [النسائي]

** عن أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: (طَعَامُ الاثْنَيْنِ كَافِي الثَّلاثَةِ، وَطَعَامُ الثَّلاثَةِ كَافِي الأَرْبَعَةِ) [البخاري]

** قال تعالى: {وإمّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً}، الآية: [٢٨].

وهو تأديب عجيب، وقول لطيف بديع، فإنه تعالى قال: {وإمّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا}: أي لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر الغنى والقدرة فتحرمهم، وإنما يجوز له أن يعرض عنهم عند عجز يعرض، وعند عائق يعرض، وأنت عند ذلك ترجو من الله فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل، فإن قعد بك الحال عن المواساة {فَقُل لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً}، يعمل في مسرة نفسه عمل المواساة فتقول: الله يرزق، والله يفتح بالخير.

قال الحسن: حقه المواساةُ في اليُسْر، وقولٌ مَيْسُورٌ في العُسْرِ.

** قال تعالى: {فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً} [الكهف:٧٧] أبوا أن يضيفوهما وذلك لؤم، لأن الضيافة كانت شائعة في الأمم من عهد إبراهيم عليه السلام، وهي من المواساة المتبعة عند الناس، ويقوم بها من ينتدب إليها ممن يمر عليهم عابر السبيل ويسألهم الضيافة، أو من أعد نفسه لذلك من كرام القبيلة، فإباية أهل قرية كلهم من الإضافة لؤم لتلك القرية.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وفي الآية مشروعية ضيافة عابر السبيل إذا نزل بأحد من الحي أو القرية.

فعن أبي شريح الكعبي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة [أي منيحته وعطيته وإتحافه بأفضل ما يقدر عليه يوم وليلة] والضيافة ثلاثة أيام [يعني من غير تكلف كالتكلف الذي في اليوم الأول] فما كان بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل له [أي الضيف] أن يثوي عنده حتى يحرجه [أي يقيم عند من أضافه حتى يحرجه أي يوقعه في الحرج والضيق].

واختلف الفقهاء في وجوبها فقال الجمهور: الضيافة من مكارم الأخلاق وهي مستحبة وليست واجبة. وهو قول مالك وأبي حنيفة والشافعي وحمد بن عبد الحكم من المالكية: الضيافة حق على أهل الحضر والبوادي.

لأن الضيافة من مكارم الأخلاق لا واجبة لقوله (جائزته) والجائزة تفضل وإحسان

وقال الليث وأحمد: الضيافة فرض يوما وليلة عملا بالحديث.

وأجاب الجمهور عن هذا وما أشبهه أن هذا كان في صدر الإسلام حين كانت المواساة واجبة، وبأنه محمول على ضيافة المضطرين

** أخي الكريم: من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل المواساة، والبر، والصدق، وكرم العشيرة، والصبر، والوفاء، والأمانة، والحلم، وصفاء الضمائر، وصحة المودة.

(وَلا اكْتَسَبْتَ الْبَغْضَاءُ بِمِثْلِ الْكِبْرِ)

** ثبت في مسند الإمام أحمد عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا دخل في الصلاة يقول (اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخة ونفثه) .. «همزه»: الموتة وهو الخنق الذي هو جنس من الجنون والصرع يعتري الإنسان فإذا أفاق عاد إليه عقله كالنائم والسكران، «نفثه»: الشعر، نفخه: «الكبر».

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** ومن أسماء الله تعالى الحسنى «المتكبر»: وهي صفة لا تنبغي إلا له تعالى، لأن ما سواه عز وجل ضئيل، فالكبير هو العظيم في كل شيء عظمة مطلقة، وهو الذي كبر وعلا في ذاته وصفاته وأفعاله عن كل من سواه، فله علو الذات وعلو القهر وعلو الشأن، واسم الله الكبير يدل على ذات الله وعلى صفة العظمة والكبر بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى صفة الكبر وحدها بدلالة التضمن، ويدل باللزوم على الحياة والقيومية، والقدرة والقوة، والعزة والعظمة، وكل ما يلزم لقيام العظمة المطلقة وما يترتب عليها، واسم الله الكبير دل على صفة من صفات الذات.

والمتكبر هو العظيمُ المتعالي القاهِرُ لعُتَاةِ خَلقِهِ إذا نازعوه، فإذا نازعوه العظمة قصمهم، والمتكبر أيضا هو الذي تكبر عن كل سوء وتكبر عن ظلم عباده، وتكبر عن الشرك في العبادة فلا يقبل من العبادة إلا ما كان خالصا له، وعند مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)، وأصل الكبر والكبرياء الامتناع، والكبرياء في صفات الله مدح وفي صفات المخلوقين ذم، فلا كبرياء لسواه، وهو المتفرد بالعظمة والكبرياء، وكل من رأى العظمة والعجب والكبرياء لنفسه على الخصوص دون غيره كانت رؤيته خاطئة كاذبة باطلة، لأن الكبرياء لا يكون إلا لله، والأكرمية مبنية على الأفضلية في تقوى الله.

والتاء في اسم الله المتكبر تاء التفرد والتخصص لأن التعاطي والتكلف والكبر لا يليق بأحد من المخلوقين، وإنما سمة العبد الخضوع والتذلل، قال تعالى:

{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِين} [الزمر: ٦٠]

{وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} [غافر: ٢٧]

{الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} [غافر: ٣٥]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وعند الترمذي وحسنه الألباني من حديث عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةِ الْخَبَالِ).

** وعند البخاري من حديث حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ الْخُزَاعِيَّ أنه سَمِع النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ، أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ)، والعتل: هو الشديد الجافي الغليظ من الناس، والجواظ: هو الجموع المنوع الذي يجمع المال من أي جهة ويمنع صرفه في سبيل الله

وفي رواية صحيحة عند أحمد من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاص: (كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ)، والجعظري هو الفظ الغليظ المتكبر، وقيل هو الذي ينتفخ بما ليس عنده.

** وعن سَلمة بنِ الأكوع –رضي الله عنه–: أنَّ رَجُلاً أَكَلَ عِنْدَ رَسُول الله –صلى الله عليه وسلم– بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: (كُلْ بِيَمِينكَ) قَالَ: لا أسْتَطيعُ. قَالَ: (لا اسْتَطَعْتَ) مَا مَنَعَهُ إلاَّ الكِبْرُ، فمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ. [رواه مسلم]

** وفي صحيح مسلم كتاب الإيمان من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ –رضي الله عنه– أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قَالَ: (لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ)، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ)

وفي رواية أحمد في مسند عبد الله بن مسعود، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَيُعْجِبُنِي أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي غَسِيلاً وَرَأْسِي دَهِيناً وَشِرَاكُ نَعْلِي جَدِيداً وَذَكَرَ أَشْيَاءَ حَتَّى ذَكَرَ عِلاَقَةَ سَوْطِهِ أَفَمِنَ الْكِبْرِ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (لاَ ذَاكَ الْجَمَالُ إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَازْدَرَى النَّاسَ).

والكبر يتضمن الصلف والتعالي والجفاء والرعونة والدناءة .. وكلها خصال كفيلة بنفرة الخلق ومباينتهم وافتقار معونهم وقد الحاجة للمعونة ومن يعش وحده لا تستقيم حياته

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

اعلم يا بني

ما أجل الكلمات الدافئة التي امتزجت بكل معاني الإخلاص عندما تخرج من قلب أغلى الناس وأحن الخلق وأعطف البشر .. «الوالد» الذي فطره الله تعالى على حب دفين لأبنائه لا يعرف المصانعة ولا التملق ولا النفاق، إنها الكنوز الحقيقية والنصائح النورانية التي يكون الولد في أمس الحاجة إليها لقلة خبرته وضعف حيلته وندره الناصح المشفق.

- اعلم يا بني وفقك الله للصواب: أنه لم يتميز الآدمي بالعقل إلا ليعمل بمقتضاه، فاستحضر عقلك، واعمل فكرك، واخل بنفسك .. تعلم بالدليل أنك مخلوق مكلف، وأن عليك فرائض أنت مطالب بها، وأن الملكين يحصيان ألفاظك ونظراتك، وأن أنفاس الحي خطاه إلى أجله، ومقدار اللبث في الدنيا قليل، والحبس في القبور طويل، والعذاب على موافقة الهوى وبيل.

فأين لذة أمس؟! رحلت وأبقت ندما .. وأين شهوة النفس؟! كم نكست رأسا، وزلت قدما، وما سعد من سعد إلا بخلاف هواه، ولا شقي من شقي إلا بإيثار دنياه.

فاعتبر بمن مضى من الملوك والزهاد، أين لذة هؤلاء وأين تعب أولئك؟ بقي الثواب الجزيل، والذكر الجميل للصالحين، والمقالة القبيحة والعقاب الوبيل للعاصين، وكأنه ما جاع من جاع، ولا شبع من شبع.

واعلم أن الكسل عن الفضائل بئس الرفيق، وحب الراحة يورث من الندم ما يربو على كل لذة، فانتبه واتعب لنفسك.

واعلم أن طلب الفضائل نهاية مراد المجتهدين، ثم الفضائل تتفاوت، فمن الناس من يرى الفضائل الزهد في الدنيا، ومنهم من يراها التشاغل بالتعبد، وعلى الحقيقة فليست الفضائل الكاملة إلا الجمع بين العلم والعمل، فإذا حصلا رفعا صاحبهما إلى تحقيق معرفة الخالق سبحانه وتعالى، وحركاه إلى محبته وخشيته والشوق إليه، فتلك

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الغاية المقصودة وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، وليس كل ما يريد مرادا ولا كل طالب واجدا، ولكن على العبد الاجتهاد، وكل ميسر لما خلق له، والله المستعان.

• واعلم يا بني: أن من تفكر في الدنيا قبل أن يوجد رأى مدة طويلة، فإذا تفكر فيها بعد أن يخرج منها رأى مدة طويلة، وعلم أن اللبث في القبور طويل، فإذا تفكر في يوم القيامة علم أنه خمسون ألف سنة، فإذا تفكر في اللبث في الجنة أو النار علم أنه لا نهاية له، فإذا عاد إلى النظر في مقدار بقائه في الدنيا –فرضنا ستين سنة مثلا– فإنه يمضي منها ثلاثون سنة في النوم، ونحو من خمس عشر في الصبا، فإذا حسب الباقي كان أكثره في الشهوات والمطاعم والمكاسب، فإذا خلص ما للآخرة وجد فيه من الرياء والغفلة كثيرا، فبماذا تشتري الحياة الأبدية، وإنما الثمن هذه الساعات؟

فانتبه يا بني لنفسك، واندم على ما مضى من تفريطك، واجتهد في لحاق الكاملين مادام في الوقت سعة، واسق غصنك ما دامت فيه رطوبة، واذكر ساعتك التي ضاعت فكفى بها عظة، ذهبت لذة الكسل فيها، وفاتت مراتب الفضائل، وقد كان السلف الصالح رحمهم الله تعالى يحبون كل فضيلة ويبكون على فوات واحدة منها .. قال إبراهيم بن أدهم: دخلنا على عابد مريض، وهو ينظر إلى رجليه ويبكي، فقلنا: ما لك تبكي؟ فقال: ما اغبرتا في سبيل الله .. وبكى آخر، فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: على يوم مضى ما صمته، وعلى ليلة ذهبت ما قمتها.

فاعلم يا بني أن الأيام تبسط ساعات، والساعات تبسط أنفاس، وكل نفس خزانة، فاحذر أن يذهب نفس بغير شيء، فترى في القيامة خزانة فارغة فتندم ولا ينفعك الندم.

• كتب علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– إلى ولده الحسين: من عبد الله علي أمير المؤمنين الوالد الفاني، الذام للدنيا، الساكن مساكن الموتى، إلى الولد المؤمل ما لا يدرك، السالك سبيل من قد هلك، عرضة الأسقام، ورهينة الأيام، وأسير المنايا، وقرين الرزايا، وصريع الشهوات، ونصب الآفات، وخليفة الأموات

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

يا بني إن بقيت أو فنيت فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل، وعمارة قلبك بذكره، والاعتصام بحبله، فإن الله يقول: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [آل عمران: ١٠٣] وأي سبب يا بني أوثق من سبب بينك وبين الله عز وجل.

أحيي قلبك بالموعظة، ونوره بالحكمة، وقوه بالزهد، وذلله بالموت، وقرره بالفناء، وحذره صولة الدهر وتقلب الليالي، وأعرض عليه أخبار الماضين، وسر في ديارهم وآثارهم، فانظر ما فعلوا، وأين حلوا، فإنك تجدهم قد انتقلوا من دار الغرور ونزلوا دار الغربة، وكأنك عن قليل يا بني قد صرت كأحدهم، فبع دنياك بآخرتك، ولا تبع آخرتك بدنياك، ودع القول فيما لا تعرف، والأمر فيما لا تكلف، ومر بالمعروف بيدك ولسانك وكن من أهله، وأنكر المنكر بيدك ولسانك وباين من فعله، وخض الغمرات إلى الحق، ولا تأخذك في الله لومة لائم، واحفظ وصيتي فلا خير في علم لا ينفع، واعلم أنه لا غنى بك عن حسن الارتياد مع بلاغك من الزاد، فإن أصبت من أهل الفاقة من يحتمل عنك زادك فيوافيك به في معادك فاغتنمه، فإن أمامك عقبة كئودا لا يجاوزها إلا أخف الناس حملا.

وأجمل في الطلب، وأحسن في المكسب، فرب طلب قد جر إلى حرب، وإنما المحروب من حرب دينه، والمسلوب من سلب يقينه، واعلم أنع لا غنى يعدل الجنة، ولا فقر يعدل النار .. والسلام عليك ورحمة الله.

سل الأيام ما فعلت بكسرى — وقيصر والقصور وساكنيها
أما استدعتهم للموت طُرا — فلم تدع الحليم ولا السفيها
دنت نحو الدني بسهم خطب — فأصمته ولم تدع الوجيها
أما لو بيعت الدنيا بفلس — أنِفتُ لعاقل أن يشتريها

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الإحسان عبادة الأبرار

الإحسان مستق من «الحُسن» الذي هو الجمال والبهاء لكل ما يصدر من العبد من خطرات ونبرات وتصرفات، وهو أعلى مقامات الرفعة الإنسانية والمفتاح السحري لكل أزماتها وجسر سعادتها الأبدية، وكفى الإحسان شرفا أن البشرية جمعاء اتفقت على حبه ومدحه وأجمعت على كره ضده من كافة صنوف الإساءة، ولذلك أولى الإسلام الإحسان عناية بالغة وجعله أسمى هدف تصبو إليه نفوس العابدين، وهو طريق الوصول لمحبة الله تعالى ومعيته ورحمته، بل ورؤيته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، في جنة الخلد، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

من أبلغ الأقوال في الإحسان قول من أوتي جوامع الكلم –صلى الله عليه وسلم–: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» [البخاري ومسلم]

ففي هذه الكلمات النبوية الجامعة من مقتضيات المراقبة والخشية والإنابة والإتقان والإتباع وصفاء السريرة .. ما فيه صلاح الدنيا والآخرة. فبين –صلى الله عليه وسلم– أن الإحسان على مرتبتين متفاوتتين، (أعلاهما) عبادة الله كأنك تراه، وهذا «مقام المشاهدة»، وهو أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته لله تعالى بقلبه حيث يتنور القلب بالإيمان وتنفذ البصيرة في العرفان حتى يصير الغيب كالعيان، وهذا هو حقيقة مقام الإحسان. ولذلك لما خطب عروة إِلَي ابن عمر ابنته وهما في الطواف لم يجبه بشيء، ثم رآه بعد ذلك فاعتذر إِلَيْهِ، وقال: «كنا في الطواف نتخايل الله بين أعيننا».[الحلية، أبو نعيم]

(الثاني): «مقام المراقبة» وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إياه واطلاعه عليه وقربه منه، فإذا استحضر العبد هذا في عمله وعمل عليه فهو مخلص لله تعالى؛ لأن استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلى غير الله تعالى وإرادته بالعمل، قال الحارث المحاسبي: «أوائل المراقبة علم القلب بقرب الرب»، وقال

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بعض السَّلف: «من عمل لله عَلَى المشاهدة فهو عارف، ومن عمل عَلَى مشاهدة الله إياه فهو مخلص».

ويتفاوت أهل هذين المقامين بحسب نفوذ البصائر لذلك قال النووي –رحمه الله–: (وهذا القدر من الحديث أصل عظيم من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصديقين، وبغية السالكين، وكنز العارفين، ودأب الصالحين).

وقالوا أيضا في الإحسان: «فعل الخيرات على أكمل وجه». «تحسين الظاهر والباطن». «الإتيان بغاية ما يمكن من تحسين العمل المأمور به، ولا يترك شيئاً مما أمر به». «امتلاء القلب بحقيقة الألوهية كأنه يشاهد الله عياناً». «مراعاة الخشوع والخضوع».

وبالجملة فالإحسان هو الذي خُلقنا من أجله، قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ} ثم بيّن الحكمة فقال: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [الملك:٢].

والإحسان ذروة الأعمال، وهو أن تقدم الفعل من غير عوض سابق، بل يساء إليك ولا يسعك إلا أن تقدم الإحسان، كما فعل يوسف الصديق عليه السلام {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} [يوسف: ٤٦–٤٨] فعاملهم بالإحسان فلم يعبر لهم الرؤيا فقط بل أعطاهم الحل معه {فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ}.

بل إن الذي يستلفت النظر في قصة يوسف عليه السلام كثرة تكرار صفة الإحسان، فكان محسنا مع ربه ومع الناس –وهما متلازمان– فقد سمى الله قصته {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ} [يوسف:٣] أي من أحسنه.

ورتب على الإحسان إيتاءه الحكم والعلم مع الشباب {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [يوسف:٢٢]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ووصفه السجناء بذلك {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف:٣٦]

وبه مكنه الله تعالى في الأرض {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف:٥٦]

وقال له إخوته وهم لا يعرفونه {قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف:٧٨]

وقال عن نفسه وأخيه {قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف:٩٠]

ثم أثنى على ربه بإحسانه إليه {وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [يوسف:١٠٠]

فلم يذهب إحسانه سدى، فكل إحسان يفعله العبد حتى فيمن لا يستحقون لابد أن يكافئه عليه الله تعالى: {هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن:٦٠] فاصنع المعروف في أهله وفي غير أهله، فإن صادف أهله فهو أهله، وإن لم يصادف أهله فأنت أهله.

والإحسان خير مكانة يتبوأها العبد لأنه إن أساء وسعه بعده الإيمان ثم الإسلام، أما من يعيشون على الحد الأدنى للإسلام فهو مع النقص مهدد بكفر الاعتقاد أو كفر النعمة.

قال ابن تيمية: (جعل النبي صلى الله عليه وسلم الدين ثلاث درجات: أعلاها الإحسان، وأوسطها الإيمان، ويليه الإسلام. فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وليس كل مؤمن محسنا، ولا كل مسلم مؤمنا ..)، ثم قال: (وأما الإحسان فهو أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه من الإيمان، والإيمان أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه من الإسلام، فالإحسان يدخل فيه الإيمان، والإيمان يدخل فيه الإسلام، والمحسنون أخص من المؤمنين، والمؤمنون أخص من المسلمين).

وخلق الإحسان يتسع ليشمل القول والعمل والعبادات والمعاملات.. فهو إكسير الحياة الذي يحيلها طيبة متآلفة، لذلك جعل الله تعالى رحمته ومحبته جائزة المحسنين

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران:١٣٤] {إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف:٥٦]

كما أن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، ولذلك قال –صلى الله عليه وسلم–: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» [الترمذي]

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم** فطالما استعبد الإنسان إحسان

وأعظم ثمرات الإحسان قوله تعالى: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس:٢٦] الحُسْنَى: أي البالغة الحسن في كل شيء، من جهة الكمال والجمال، وهي الجنة، وقد ثبت عن النبي في صحيح مسلم تفسير الزيادة المذكورة في هذه الآية الكريمة بأنها النظر إلى وجه الله الكريم في الجنة، ولا يخفى ما بين هذا الجزاء وذلك الإحسان من المناسبة، فالمحسنون الذين عبدوا الله كأنهم يرونه، جزاهم على ذلك العمل النظر إليه عياناً في الآخرة {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}[الرحمن:٦٠] وعكس هذا ما أخبر الله به عن الكفار في الآخرة بقوله: {كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين:١٥] {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}[النجم:٣١]

إن الإحسان هو الأمارة الدالة على الفوز والنجاة. فمن كان من أهل السعادة، عمل عمل المحسنين، ومن كان من أهل الشقاء عمل عمل المسيئين. فهو طريقك وهدفك ومحل كدك ونصبك..

روى الطبراني عن أبي سلمة عن معاذ –رضي الله عنه– قال: قلت: يا رسول الله أوصني. قال: «اعبد الله كأنك تراه، واعدد نفسك في الموتى، واذكر الله عند كل حجر وعند كل شجر، وإذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة، السر بالسر والعلانية بالعلانية» [حسن لغيره، الألباني]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الأخوة الصادقة .. عز الدنيا والآخرة

من مقومات المجتمع المسلم ودعائم نهضته ودليل خيريته أن تتصف سلوكيات أفراده بقيم وأخلاق تضمن لهم حياة يسودها الحب والتراحم والتعاون والتسامح والإيثار والبذل والعطاء، وحب الخير للغير .. فلا قيمة لحياة ولا سعادة ولا راحة لإنسان يعيش في مجتمع تسوء فيه الأخلاق، وتضمحل فيه القيم، ويسود الشر بديلاً عن الخير، وتطغى الرذيلة، وتتلاشى الفضيلة، وتمتلئ القلوب بالحقد والغل والحسد والضغائن، وتظهر فساد ذات البين وسوء الظن، وتضعف أواصر المحبة والأخوة والتعاون والتسامح من حياة الأفراد. والله جلا وعلا عندما خلق الخلق دلهم على أسباب سعادتهم في الحياة الدنيا والآخرة، وحذرهم من طرق الفساد والضلال والانحراف، فقال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [النحل:٩٧]

أخوك هو نفسك

قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات:١٠] فمن بصائر القرآن وأنواره في البناء التربوي والاجتماعي أن مكانة الأخ المسلم هي مكانة النفس.

قال تعالى: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ} [النور:١٢] والمرء غالبا يظن بنفسه خيرا، فالمقصود هنا: (ظنوا بإخوانهم)، والمعنى: كما لا يحب الإنسان أن يظن به غيره إلا خيراً، كذلك يجب أن يظن الأمر ذاته بغيره، فلا يظن به سوءا، ولا يتكلم عنه إلا خيراً، كما لا يحب أن يتكلم أحدٌ عنه إلا بالخير ..

قال الطبري: "وهذا عتاب من الله تعالى ذكره أهل الإيمان به فيما وقع في أنفسهم من إرجاف من أرجف في أمر عائشة بما أرجف به، يقول لهم تعالى ذكره: هلا أيها الناس إذ سمعتم ما قال أهل الإفك في عائشة ظن المؤمنون منكم والمؤمنات بأنفسهم خيرا .. وقال: {بأنفسهم}، لأن أهل الإسلام كلهم بمنزلة نفس واحدة، لأنهم أهل ملة واحدة".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال تعالى: {فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً} [النور:٦١] والإنسان إذا دخل على بيت أحد من الناس فإنه يسلم عليهم، وليس على نفسه، فقد قال الله في البداية: {لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا}[النور:٢٧] فجعل الله أهل البيوت بمثابة الأنفس، وقد روى الطبري عن الحسن وابن زيد في قوله: {فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ} قال: إذا دخل المسلِّمُ سُلِّم عليه، كمثل قوله: (وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) إنما هو: لا تقتل أخاك المسلم.

وقال تعالى: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُم}[الحجرات:١١] والإنسان عندما يلمز لا يمكن أن يلمز نفسه إنما يلمز غيره، إلا أن الله جعل الغير بمثابة النفس، ولذا قال الطبري: "وقوله {وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} يقول تعالى ذكره: ولا يغتب بعضكم بعضا أيها المؤمنون، ولا يطعن بعضكم على بعض .. فجعل اللامز أخاه لامزاً نفسه، لأن المؤمنين كرجل واحد فيما يلزم بعضهم لبعض من تحسين أمره، وطلب صلاحه، ومحبته الخير".

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم هذا وفصله، ففي مسلم عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قال رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وآله وسلم–: (مثل الْمؤمنينَ في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الْجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الْجسد بالسهر والحمى).

وفي البخاري عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

حب الخير للغير

كان أنس بن مالك رضي الله عنه إذا أصبح دهن يده بدهن طيب لمصافحة إخوانه.

ومن سلامة صدر ابن عباس رضي الله عنهما أنه شتمه رجل فرد عليه قائلًا: "أتشتمني وفيّ ثلاث خصال؛ إني لا آتي على آية إلاّ تمنيت أن جميع الناس يعلمون

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

منها ما أعلم، ولا سمعت بقاضٍ عادل إلاّ فرحت ودعوت له وليس لي عنده قضية، ولا سمعت بالغيث في بلد إلاّ حمدت الله وفرحت، وليس لي ناقة ولا شاة".

قال أبو سليمان الداراني: "إني لأضع اللقمة في فم أخٍ من إخواني فأجد طعمها في حلقي."

وقال محمد بن مناذر: "كنت أمشي مع الخليل بن أحمد فانقطع شسعي فخلع نعله، فقلت ما تصنع؟! قال أواسيك في الحفاء" أي لا يريد أن يمشي منتعلًا وأخوه بلا نعل.

وقال مجاهد: "صحبت ابن عمر أريد أن أخدمه، فكان هو الذي يخدمني".

ونقل الإمام المناوي عن أحدهم قوله: "لي ثلاثين سنة في الاستغفار عن قولي الحمد لله، وذلك أنه وقع ببغداد حريق، فاستقبلني رجل فقال نجا حانوتك، فقلت الحمد لله. فمذ قلتها وأنا نادم، حيث أردت لنفسي خيراً دون المسلمين".

أخوة العلماء الربانيين

قال الفاروق عمر رضي الله عنه: "ما حاججت أحدًا إلاّ وتمنيت أن يكون الحق على لسانه".

وهذا الشافعي رحمه الله يقول عنه يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة.

وكان الشافعي حينما يحدث عن أحمد –وهو من تلاميذه– فلا يسميه تكريمًا له، وإنما يقول: حدثنا الثقة من أصحابنا أو أخبرنا الثقة من أصحابنا".

ويذكر الإمام أحمد عن ابن راهويه وكان يخالفه في أمور فيقول: "لم يعبر الجسر إلى خرسان مثل إسحاق بن راهويه، وإن كان يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضًا"

وكان الوزير ابن هبيرة رحمه الله، ممن نال العلم والفقه والوزارة معاً، وكان له مجلس حافل بالعلماء من أرباب المذاهب الأربعة، وبينما هو في مجلسه إذ ذكر مسألة من مفردات الإمام أحمد –يعني أن الإمام أحمد تفرد في هذه المسألة عن

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأبي حنيفة-، فقام فقيه من فقهاء المالكية يقال له أبو محمد الأشيري فقال: بل قال بهذا الإمام مالك، فقال ابن هبيرة: "هذه الكتب" وأحضرها، وإذا هي تنص على أن هذه المسألة من مفردات الإمام أحمد، فقال أبو محمد الأشيري: بل قال بذلك الإمام مالك، فتكلم العلماء الذين حضروا هذا المجلس، فقالوا: بل هي من مفردات الإمام أحمد، قال: بل قال بذلك الإمام مالك، فغضب ابن هبيرة وقال: أبهيمة أنت؟، أما تسمع هؤلاء العلماء يصرحون بأنها من مفردات الإمام أحمد، والكتب شاهدة بذلك، ثم أنت تصر على قولك.

فتفرق المجلس، فلما انعقد المجلس في اليوم الثاني جاء الفقيه المالكي وحضر كأن شيئاً لم يكن، وجاء ابن هبيرة، وجاء العلماء، فأراد القارئ على عادته أن يقرأ ثم يعلق الوزير ابن هبيرة، فقال له: قف، فإن الفقيه الأشيري قد بدر منه ما بدر بالأمس، وحملني ذلك على أن قلت له ما قلت، فليقل لي كما قلت له، فلست بخير منكم، ولا أنا إلا كأحدكم، فضج المجلس بالبكاء، وتأثروا جداً من هذه الأخلاق العالية الرفيعة، وارتفعت الأصوات بالدعاء والثناء، وجعل هذا الخصم الأشيري يعتذر ويقول: أنا المذنب، أنا الأولى بالاعتذار، والوزير ابن هبيرة يقول: القصاص القصاص، فتوفق أحد العلماء وقال: يا مولانا إذا أبى القصاص فالفداء، فقال الوزير له: حكمه يحكم بما شاء، احكم بما تريد، فقال هذا الفقيه: نعمك علي كثيرة فأي حكم بقي لي، فقال: قد جعل الله لك الحكم علينا بما ألجأتنا به إلى الافتيات عليك، فقال: عليّ بقية دين منذ كنت بالشام، فقال الوزير ابن هبيرة: يعطى مائة دينار لإبراء ذمته وذمتي، فأحضر له المال، وقال له ابن هبيرة: عفا الله عنك وعني، وغفر الله لك ولي".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الأدب تمام العقل والفضل

«الأدب» .. تلك الملكة التي تَعصِم من قامَت به عمَّا يَشينه، كما قال الزبيدي، أو هو معرفة النفس ورُعوناتها، وتجنُّب تلك الرُّعونات، كما أشار ابن المبارك، فالأدب رياضة النَّفس على محاسن الأخلاق والعادات وجميل الصفات، وعدَّه بعض الحكماء أحد أربعة أمور بها يسود العبد، وهي: "العلم، والأدب، والفقه، والأمانة".

بل لا يتم عقل المرء إلا بالأدب، فعن عامر بن قيس قال: "إذا عَقَلَكَ عقلُك عما لا ينبغي فأنت عاقل". فالأدب جمال الباطن والظاهر، وشرف في كل حال ومجال ..

قال شبيب بن شيبة: "أطلبوا الأدب فإنه مادة العقل، ودليل المروءة، وصاحب الغربة، ومؤنس في الوحشة، وحلية في المجلس، ويجمع لكم القلوب المختلفة".

وعن عمران الخزاعي قال: سمعت الحسن يقول: "ما تمّ دين عبد قط حتى يتم عقله".

إذا تم عقل المرء تمت أموره ** وتمت أياديه وتم ثناؤه

عن أبي رزين قال: قيل للعباس –رضي الله عنه–: أنت أكبرُ أو النبي –صلى الله عليه وسلم–؟ قال: "هو أكبر، وأنا ولدتُ قبله".

ولما قدم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– المدينة، نزل على أبي أيوب –رضي الله عنه–، فنزل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– السفل، ونزل أبو أيوب العلو، فلما أمسى، وبات؛ جعل أبو أيوب يذكر أنه على ظهر بيتٍ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أسفل منه، وهو بينه وبين الوحي، فجعل أبو أيوب لا ينام يحاذر أن يتناثر عليه الغبار، ويتحرك فيؤذيه، فلما أصبح غدا إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال: يا رسول الله! ما جعلت الليلة فيها غمضًا أنا ولا أم أيوب، فقال: (ومم ذاك يا أبا أيوب؟) قال: ذكرت أني على ظهر بيتٍ أنت أسفل مني، فأتحرك، فيتناثر عليك الغبار، ويؤذيك تحركي، وأنا بينك وبين الوحي.

وعن أبي أيوب –رضي الله عنه– قال: لما نزل عليَّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قلت: بأبي وأمي إني أكره أن أكون فوقك، وتكون أسفل مني، فقال رسول الله

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

صلى الله عليه وسلم: (إن أرفق بنا أن نكون في السُّفل لما يغشانا من الناس)، فلقد رأيت جرَّة لنا انكسرت، فأهريق ماؤها، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة [كساء له خمل] لنا، وما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء فَرَقًا [خوفا] من أن يصل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– منا شيء يؤذيه.

ولما أذنت قريش لعثمان –رضي الله عنه– في الطواف بالبيت حين وجَّهه النبي –صلى الله عليه وسلم– إليهم في قصة الحديبية، أبى –رضي الله عنه–، وقال: "ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله –صلى الله عليه وسلم_".

الأدب خير نسب

قال أهل العلم: الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والنسب، لأن من ساء أدبه ضاع نسبه، ومن ضل عقله ضل أصله، وقالوا: زكِ قلبك بالأدب كما تزكي النار بالحطب، وحسن الأدب يستر قبيح النسب.

حكي أن رجلا تكلم بين يدي المأمون فأحسن، فقال: ابن من أنت؟ قال: ابن الأدب يا أمير المؤمنين، قال: "نِعم النسب انتسبت إليه"، ولهذا قيل: المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد.

وقال بعض الحكماء: من كثر أدبه كثر شرفه وإن كان وضيعا، وبعد صيته وإن كان خاملا، وساد وإن كان غريبا، وكثرت حوائج الناس إليه وإن كان فقيرا.

حسن الأدب

من حسن الأدب أن لا تنازع من فوقك، ولا تقول ما لا تعلم، ولا تتعاطى ما لا تنال، ولا يخالف لسانك ما في قلبك، ولا قولك فعلك، ولا تدع الأمر إذا أقبل، وتطلبه إذا أدبر.

قال ابن المقفع: ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى الأدب الذي هو لقاح عقولنا، فإن الحبة المدفونة في الثرى لا تقدر أن تطلع زهرتها ونضارتها إلا بالماء الذي يعود إليها من مستودعها.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

حكى المبرّد: "سأل المأمونُ يحيى بن المبارك عن شيءٍ، فقال: لا، وجعلني الله فداك يا أمير المؤمنين. فقال: لله دَرُّك، ما وُضِعَتْ واوٌ قطُّ وضعًا أحسن منها في هذا الموضع. ووصله وحمله"

وروي أن الرشيد كان في داره حزمة خيزران، فقال لوزيره الفضل بن الربيع: ما هذه؟ فقال: عروق الرماح يا أمير المؤمنين. ولم يُرِدْ أن يقول الخيزران، لموافقته اسم أُمِّ الرشيد.

قال ابن القيم: "وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب، فانظر إلى الأدب مع الوالدين كيف نجى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة، والإخلال به مع الأم تأويلا وإقبالا على الصلاة كيف امتحن صاحبه بهدم صومعته وضرب الناس له ورميه بالفاحشة. وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان".

قال الحجاوي رحمه الله: "مثل الإيمان كمثل بلدة لها خمسة حصون: الأول من ذهب، والثاني من فضة، والثالث من حديد، والرابع من آجر، والخامس من لَبِن، فما زال أهل الحصن متعاهدين حصن اللبن، لا يطمع العدو في الثاني، فإذا أهملوا ذلك؛ طمعوا في الحصن الثاني، ثم الثالث حتى تخرب الحصون كلها. فكذلك الإيمان في خمسة حصونٍ: اليقين، ثم الإخلاص، ثم أداء الفرائض، ثم السنن، ثم حفظ الآداب، فما دام يحفظ الآداب ويتعاهدها؛ فالشيطان لا يطمع فيه، وإذا ترك الآداب؛ طمع الشيطان في السنن، ثم في الفرائض، ثم في الإخلاص، ثم في اليقين".

الأدب نور العقل

ما استنارت العقول بمثل الأدب، ولا فتح لها باب العلم إلا به، ولذلك قال عمر –رضي الله عنه–: "تأدّبوا ثم تعلّموا" .. قالوا لأن بالأدب يفهم العلم، وبالعلم يصلح العمل، وبالعمل تنال الحكمة.

قال الأحنف بن قيس: الأدب نورُ العقل، كما أن النار نور البصيرة.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال عبد الله بن المبارك: "لا ينبل الرجل بنوع من العلم، ما لم يزين علمه بالأدب".

وقال أبو عبد الله البلخي: "أدب العلم أكثر من العلم."

وقال ابن سيرين رحمه الله: "كانوا [أي الصحابة] يتعلمون الهدي [أي السيرة والهيئة والطريقة والسَّمْت] كما يتعلمون العلم". وقال بعضهم لابنه: "يا بني، لأن تتعلم بابًا من الأدب أحب إليَّ من أن تتعلم سبعين بابًا من أبواب العلم".

وقال الحسن البصري رحمه الله: "إن كان الرجل ليخرج في أدب نفسه السنتين ثم السنتين".

وقال ابن المبارك رحمه الله: "تعلمت الأدب ثلاثين سنة، وتعلمت العلم عشرين سنة".

قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله: "الحكايات عن العلماء أحب إليَّ من كثير من الفقه؛ لأنها آداب القوم وأخلاقهم".

حكى ابن سلام قائلا: مددت رجلي تجاه الكعبة فجاءتني امرأة فقالت: إنك من أهل العلم لا تجالسه إلا بالأدب وإلا محا اسمك من ديوان القرب.

وقال القاسمي رحمه الله: "أدب النفس ممدوح بكل لسان، ومتزَّين به في كل مكان، وباقٍ ذكره مدى الأزمان، وكل من أعار الوجود نظرة البصير؛ علم أن حاجة المرء إلى تأديب نفسه من أهم الحاجات، وإذا كان الرجال بالأعمال؛ فإن الأعمال هي آثار الآداب والأخلاق والشهادات فحسب، فإن العلم آلة تديرها الأخلاق، وتسيرها الآداب.

خير ما ورث الرجال بنيهم ** أدب صالح وحسن الثناء

هو خير من الدنانير والأوراق ** في يوم شدة أو رخاء

تلك تفنى والدين والأدب ** الصالح لا يفنيان حتى اللقاء

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الاستثمار الأمثل

التجارة مع الله رابحة ربح لا يعرف مقداره ومذاقه إلا كبار العباد، وصفوة الطائعين .. سبحانه، يشكر اليسير من العمل ويمحو الكثير من الزلل، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، قال تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة ٢٦١-٢٦٢]

"إن الدستور لا يبدأ بالفرض والتكليف .. إنه يستجيش المشاعر والانفعالات الحية في الكيان الإنساني كله .. إنه يعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية المعطية الواهبة، صورة الزرع هبة الأرض أو هبة الله، الزرع الذي يعطي أضعاف ما يأخذه، ويهب غلاته مضاعفة بالقياس إلى بذوره، يعرض هذه الصورة الموحية مثلا للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله.

{مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ} إن المعنى الذهني للتعبير ينتهي إلى عملية حسابية تضاعف الحبة الواحدة إلى سبعمائة حبة! أما المشهد الحي الذي يعرضه التعبير فهو أوسع من هذا وأجمل، وأكثر استجاشة للمشاعر، وتأثيرا في الضمائر .. إنه مشهد الحياة النامية، مشهد الطبيعة الحية، مشهد الزراعة الواهبة، ثم مشهد الحياة العجيبة في عالم النبات: العود الذي يحمل سبع سنابل، والسنبلة التي تحوي مائة حبة!

وفي موكب الحياة النامية الواهبة يتجه بالضمير البشري إلى البذل والعطاء. إنه لا يعطي بل يأخذ، وإنه لا ينقص بل يزداد .. وتمضي موجة العطاء والنماء في طريقها. تضاعف المشاعر التي استجاشها مشهد الزرع والحصيلة .. إن الله يضاعف لمن يشاء. يضاعف بلا عدة ولا حساب. يضاعف من رزقه الذي لا يعلم حدوده، ومن رحمته التي لا يعرف أحد مداها {وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} واسع ..لا يضيق عطاؤه ولا يكف

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ولا ينضب. عليم .. يعلم بالنوايا ويثبت عليها، ولا تخفى عليه خافية" [في ظلال القرآن / سيد قطب ص ٣٠٦]

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (ما تصدق أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل، كما يربي أحدكم فَلوه أو فصيله) [الترمذي وابن ماجة]

وفي رواية: (إن الله تعالى يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد) [الترمذي]

قال المناوي: (إن اللّه يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه) كناية عن حسن قبولها لأن الشيء المرضي يتلقى باليمين عادة ذكره القاضي، وقال غيره ذكر اليمين لأنها عرفاً لما عز، والشمال لما هان، واللّه تعالى منزه عن الجارحة (فيربيها لأحدكم) يعني يضعف أجرها أي يزيد في كمية عينها فيكون أثقل في الميزان (كما يربي أحدكم) تمثيل لزيادة التفهيم (مهره) صغير الخيل، وفي رواية فلوه: وهو المهر، وقيل كل عظيم من ذات حافر، وفي رواية فصيله، وذلك لأن دوام نظر اللّه إليها يكسوها نعت الكمال حتى ينتهي بالتضعيف إلى حال تقع المناسبة بينه وبين ما قدم نسبة ما بين المهر إلى الخيل، وخصه بضرب المثل لأنه يزيد زيادة بينة ولأن الصدقة نتاج عمله ولأنه حينئذ يحتاج للتربية وصاحبه لا يزال يتعهده وإذا أحسن القيام به وأصلحه انتهى إلى حد الكمال وكذا عمل الآدمي لاسيما الصدقة التي يحاذيها الشيطان ويتشبث بها الهوى ويقتفيها الرياء فلا تكاد تخلص إلى اللّه إلا موسومة بنقائص لا يجبرها إلا نظر الرحمن، فإذا تصدق العبد من كسب طيب مستعد للقبول فتح لها باب الرحمة فلا يزال نظر اللّه إليها يكسبها نعت الكمال ويوفيها حصة الثواب حتى تنتهي بالتضعيف إلى نصاب تقع المناسبة بينه وبين ما قدم من العمل وقوع المناسبة بين اللقمة كما أشار إليه بقوله (حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد) الجبل المعروف قال في الكشاف: "هذا مثل ضرب لكون أصغر صغير يصير بالتربية أكبر كبير". وخص التربية بالصدقة وإن كان غيرها من العبادات يزيد أيضاً بقبوله رمزاً إلى أن الصدقة فرضاً كانت

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أو نفلاً أحوج إلى تربية اللّه وزيادة الثواب ومشقتها على النفوس بسبب الشح وحب المال [فيض القدير]

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (بينا رجل بفلاة من الأرض، فسمع صوتا في سحابة: اسق حديقة فلان. فتنحى ذلك السحاب. فأفرغ ماءه في حرة. فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله. فتتبع الماء. فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته. فقال له: يا عبد الله! ما اسمك؟ قال: فلان. للاسم الذي سمع في السحابة. فقال له: يا عبد الله! لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان. لاسمك. فما تصنع فيها؟ قال: أما إذ قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثا، وأرد فيها ثلثه" [مسلم]

وعن أبي أمامة –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر) [صحيح الجامع: ٣٧٩٧]

الصنائع جمع صنيعة وهي ما اصطنعته من خير، وهذا تنويه عظيم بفضل المعروف وأهله. قال علي كرم اللّه وجهه: "لا يزهدك في المعروف كفر من كفر فقد يشكره الشاكر أضعاف جحود الكافر"، وقال الماوردي: "فينبغي لمن قدر على ابتداء المعروف أن يعجله حذراً من فوته، ويبادر به خيفة عجزه، ويعتقد أنه من فرص زمانه وغنائم إمكانه، ولا يمهله ثقة بالقدرة عليه، فكم من واثق بقدرة فاتت فأعقبت ندماً، ومعول على مكنة زالت فأورثت خجلاً، ولو فطن لنوائب دهره وتحفظ من عواقب فكره لكانت مغارمه مدحورة ومغانمه محبورة"، وقيل: من أضاع الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها (وصدقة السر تطفئ غضب الرب) والسر ما لم يطلع عليه إلا الحق تعالى، وذلك لأن إسراره دليل على إخلاصه لمشاهدة ربه وهي درجة الإحسان وفي القرآن: {إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف:٥٦] فبنور الإخلاص ورحمة الإحسان أطفأ نار الغضب.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال تعالى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ:٣٩] .. قال ابن كثير: يخلفه عليكم في الدنيا بالبذل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب.

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (قال الله عز وجل: أنفق أنفق عليك) [البخاري ومسلم] أي أعطيك خلفه بل أكثر منه أضعافاً مضاعفة.

وقال –صلى الله عليه وسلم– لبلال –رضي الله عنه–: (أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا) [صحيح الجامع: ١٥١٢]

وإنما أمره بذلك لأنه تعالى وعد على الإنفاق خلفاً في الدنيا وثواباً في العقبى، فمن أمسك عن الإنفاق خوف الفقر فكأنه لم يصدق اللّه ورسوله. وقال الطيبي: وما أحسن ذكر العرش في هذا المقام.

وقال الغزالي: قال سفيان: ليس للشيطان سلاح كخوف الفقر، فإذا قبل ذلك منه أخذ بالباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظنَّ بربه ظنَّ السوء.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– أَنَّ النَبِي–صلى الله عليه وسلم– قَالَ: (ما مِنْ يَوِمٍ يُصْبِح الْعِبادُ فِيهِ إلا مَلَكَانِ يَنزِلانِ فَيَقولُ أَحَدُهمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ اللَّهُمَّ أَعط مُمْسِكًا تَلَفًا) [البخاري ومسلم]

خير أمة أخرجت للناس

● قال الأعمش: كنت يوما عند عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– فأتي باثنين وعشرين ألف درهم، فلم يقم من مجلسه حتى فرقها، وكان إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به، وكان كثيرا ما يتصدق بالسكر، فقيل له في ذلك فقال: إني أحبه وقد قال الله تعالى: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران:٩٢]

● كان طلحة بن عبيد الله –رضي الله عنه– يغل بالعراق أربعمائة ألف، ويغل بالسراة عشرة آلاف دينار أو أكثر، وكان لا يدع أحدا من بني تيم عائلا إلا كفاه وقضى دينه، ولقد كان يرسل إلى عائشة –رضي الله عنها– كل سنة بعشرة آلاف، وقضى عن فلان التيمي ثلاثين ألفا.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

● السيد السبط، ريحانة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وسيد شباب أهل الجنة: الحسن بن على رضي الله عنهما: قيل له: من الجواد ؟ قال: الذي لو كانت له الدنيا له فأنفقها لرأى على نفسه بعد ذلك حقوقا. وكان –رضي الله عنه– يعطي الرجل الواحد مائة ألف، وعن على –رضي الله عنه– أنه خطب فقال: إن الحسن قد جمع مالا، وهو يريد أن يقسمه بينكم، فحضر الناس، فقام الحسن فقال: إنما جمعته للفقراء فقام نصف الناس.

● عن أم ذرة قالت: بعث ابن الزبير إلى عائشة بمال في غرارتين يكون مائة ألف، فدعت بطبق، فجعلت تقسم في الناس، فلما أمست قالت: هاتي يا جارية فطوري. فقالت أم ذرة: يا أم المؤمنين، أما استطعت أن تشتري لنا لحما بدرهم؟ قالت: لا تعنفيني، لو كنت ذكرتيني لفعلت.

● قال حرملة: كان الليث بن سعد يصل الإمام مالك بمائة دينار في السنة، فكتب مالك إليه: علي دين، فبعث إليه بخمسمائة دينار، وسمعت ابن وهب يقول: كتب مالك إلى الليث: إني أريد أن أدخل بنتي على زوجها، فأحب أن تبعث لي بشيء مع عصفر، فبعث إليه بثلاثين حملا عصفرا، فباع منه بخمسمائة دينار، وبقى عنده فضلة.

وجاءت امرأة إلى الليث فقالت: يا أبا الحارث، إن ابنا لي عليل، واشتهى عسلا، فقال يا غلام، أعطها مرطا من عسل [المرط عشرون ومائة رطل]

وقال عبد الله بن صالح: صحبت الليث عشرين سنة، لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس.

وكان رحمة الله تعالى عليه له كل يوم أربعة مجالس، منها مجلس لحوائج الناس، لا يسأله أحد فيرده، كبرت حاجته أو صغرت، وكان يطعم الناس في الشتاء الهرائس بعسل النحل وسمن البقر، وفي الصيف سويق اللوز في السكر.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الاستقامة سبيل السلامة

"أعظم الكرامة لزوم الاستقامة" كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فالاستقامة منهج جليل ومعنى نبيل، وطريق واضح قويم، وهي أقصر السبل للحق المبين.

والاستقامة من المعاني الجليلة الجامعة كالبر والمروءة والإحسان والمعروف .. لذلك نجد تعريفاتها تتنوع فقال عمر –رضي الله عنه–: "أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعلب". وقال الربيع بن خيثم رحمه الله: "الإعراض عما سوى الله". ولكي لا يأخذ البعض هذه المفاهيم ويجنحوا للتكلف والتشدد نجد شيخ الإسلام الهروي رحمه الله يعرفها بقوله: "الاجتهاد في اقتصاد".

عن عبد الله بن عمرو –رضي الله عنهما– قال: إن معاذ بن جبل أراد سفراً فقال: يا رسول الله، أوصني؟ قال: (اعبد الله لا تشرك به شيئاً). قال: يا رسول الله، زدني. قال: (إذا أسأت فأحسن). قال: يا رسول الله، زد. قال: (استقم ولتحسن خلقك). [صحيح: رواه الحاكم ووافقه الذهبي]

قال السِّرِّي السَّقطي – رحمه الله تعالى –: "خمس من كن فيه فهو شجاع بطل: استقامة على أمر الله ليس فيها روغان. واجتهاد ليس معه سهو. وتيقظ ليس معه غفلة. ومراقبة الله في السر والجهر ليس معه رياء. ومراقبة الموت بالتأهب" [الحلية: ١٠/١١٧].

مراتب الاستقامة

باب الاستقامة الدعاء والتضرع، والسعيد من وفقه الله تعالى، ولذلك أمرنا الوهاب المنان بقراءة الفاتحة في كل ركعة، لما فيها من سؤال الصراط المستقيم المخالف لأصحاب الجحيم. وقال تعالى في شأن موسى وأخيه عليهما السلام: {قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} [يونس: ٨٩]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أما سبيل الاستقامة فهو لزوم معالم وشعائر الدين الباطنة والظاهرة، العقدية والعملية، فعن سفيان بن عبد الله الثقفي -رضي الله عنه- قال: قلتُ: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: «قل آمنتُ بالله ثم استقم». [مسلم]

قال ابن عاشور: {ثم} للتراخي الرتبي: وهو الارتقاء والتدرج، فإن مراعاة الاستقامة أشق من حصول الإيمان لاحتياجها إلى تكرر مراقبة النفس، فأما الإيمان فالنظر يقتضيه واعتقاده يحصل دفعة لا يحتاج إلى تجديد ملاحظة.

قال ابن القيم في «الوابل الصيب»: "الأمر الذي يستقيم به القلب تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي، فإن الله تعالى ذم من لا يعظم أمره ونهيه، قال سبحانه وتعالى: {مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً} [نوح:١٣]".

أما آفات وكبوات الطريق من التقصير والتفريط فليس لها إلا الاستغفار، قال تعالى: {فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ} [فصلت:٦] فالإنسان عرضة للنقص لكن يجبر ذلك بالاستغفار لله الواحد القهار.

الاستقامة الدين كله

الاستقامة ركن عظيم يشمل الدين كله، لذلك قصرت همم الخلق أن يمسكوا بكافة أطرافه، فعَنْ عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: "لَوْ صَلَّيْتُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَالْحَنَايَا، وَصُمْتُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَالْأَوْتَارِ، ثُمَّ كَانَ الِاثْنَانِ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ الْوَاحِدِ، لَمْ تَبْلُغُوا الاسْتِقَامَةَ" أي الاستقامة الكاملة، وكأنه أخذ هذا المعنى من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» [رواه أحمد]

قال المناوي: استقيموا على الطريق الحسنى وسددوا وقاربوا فإنكم لن تطيقوا الإحاطة في الأعمال ولابد للمخلوق من تقصير وملال، وكأن القصد به تنبيه المكلف على رؤية التقصير وتحريضه على الجد لئلا يتكل على عمله، ولهذا قال القاضي: "أخبرهم بعد الأمر بذلك أنهم لا يقدرون على إيفاء حقه والبلوغ إلى غايته

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

لئلا يغفلوا عنه، فكأنه يقول لا تتكلفوا على ما تأتون به ولا تيأسوا من رحمة الله ربكم فيما تذرون عجزاً وقصوراً لا تقصيراً".

(واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة) أي فإن لم تطيقوا ما أمرتم به من الاستقامة فحق عليكم أن تلزموا بعضها وهو «الصلاة» الجامعة لكل عبادة من قراءة وتسبيح وتكبير وتهليل، وإمساك عن كلام البشر والمفطرات، وهي معراج المؤمن ومقربته إلى جناب حضرة الأقدس، فالزموها وأقيموا حدودها لاسيما مقدمتها التي هي شطر الإيمان فحافظوا عليها فإنه لا يحافظ عليه إلا مؤمن راسخ القدم في التقوى.

وقال –صلى الله عليه وسلم–: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم» [مسلم] وهذا في المستحبات لا الوجبات التي قد تسقط مع العجز.

ولذلك قيل: "الاستقامة لا يطيقها إلاَّ الأكابر لأنَّها الخروج عن المعهودات، ومفارقة الرُّسوم والعادات، وهي الخصلة الَّتي بها كملت المحاسن".

عن خارجة بن مصعب، قال: "صحبت عبد الله بن عون أربعاً وعشرين سنة، فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة ! [سير أعلام النبلاء ٦/٣٦٦]

وقال الإمام ابن دقيق العيد –رحمه الله–: "ما تكلمت كلمة، ولا فعلت فعلاً، إلا وأعددت له جواباً بين يدي الله – عز وجل –". [طبقات الشافعية ٩/٢١٢]

ثمرات وخيرات

قال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ الله} [القصص: ٥٠] فإن لم يكن في الاستقامة إلا طمأنينة النفس وصلاح الأحوال لكفى، بل يبشر الله عباده المستقيمين على دينه بأعظم بشارة تتمناها النفس، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ} [فصلت: ٣٠-٣٢] أي تتنزل عليهم الملائكة عند الموت وعند الخروج من القبر.

وذكر (التنزل) هنا للتنويه بشأن المؤمنين أن الملائكة ينزلون من علوياتهم لأجلهم، فأما أعداء الله فيجدون الملائكة حاضرين في المحشر يزعونهم ولا يتنزلون

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

لأجلهم {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} [فصلت:١٩] فثبت للمؤمنين بهذا كرامة ككرامة الأنبياء والمرسلين.

{أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} ولما كان الخوف مما يتوقع من المكروه أعظم من الحزن على الفائت قدمه، ثم لما وقع الأمن لهم، بشروا بما يؤولون إليه من دخول الجنة، فحصل لهم من الأمن التام والسرور العظيم بما فعلوا من الخير.

قال محمد بن علي الترمذي: تتنزل عليهم ملائكة الرحمة، عند مفارقة الأرواح الأبدان، ألا تخافوا سلب الإيمان، ولا تحزنوا على ما كان من العصيان، وأبشروا بدخول الجنان، التي تُوعدون في سالف الأزمان {وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ} [الروم:٤٤]

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأحقاف:١٣-١٤] فنفى عنهم الخوف من المستقبل، والحزن على ما سلف ومضى، ووعدهم صدقا الجنة. وقوله: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ} تدل على الاختصاص بالجنة ولم يقل (أولئك في الجنة، أو أولئك لهم الجنة).

نصيحة غالية

قال تعالى: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [هود:١١٢] فذكر سبحانه شيئين بعد الاستقامة: لزوم التوبة ومجافاة الطغيان، لأن الذي يعرض للعبد ويحرفه عن الاستقامة إما الذنب وإما البدعة أو الغلو.

فالحمد لله الذي هدنا لشرعه القويم، قال تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا} [الأنعام:١٦١] .. (قِيَمًا) أي: أي معتدلاً مستقيماً لا عوج فيه، ولا غلو فيه ولا جفاء، ولا جحود فيه ولا جمود، ولا إفراط ولا تفريط، ولا اعوجاج، إنما هو أمر مستقيم شرع معتدل، وسط في كل شيء.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الإنسان بين الحياة والموت

نعمة الاستخلاف في الأرض والعيش في أرجائها والمشي في مناكبها فتنة وابتلاء، وليس أعظم من فتنة النعماء وامتحان السراء، لأن الرخاء ينسى، والمتاع يُلهي، والثراء يطغي، في دنيا مستطابة في ذوقها، معجبة في منظرها، مؤنقة في مظهرها، الفتنة بها حاصلة، وعدم السلامة منها غالبة، قال صلى الله عليه وسلم: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» [رواه مسلم]

قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}[الملك:٢] أي ليبلوكم أيكم له أطوع، وإلى مرضاته أسرع، وعن محارمه أورع.

يقول على الطنطاوي رحمه الله: ثلاثون سنة ما خرجت منها إلا بشيء واحد، هو أني رأيت الحياة كمائدة القمار، فمن الناس من يخسر ماله ويخرج ينفض كفه، ومنهم من يخرج مثقلا بأموال غيره التي ربحها، ومنهم من يقوم على الطريق يمسح الأحذية، ومن يمد إليه حذاءه ليمسحه له، ومن ينام على السرير، ومن يسهر في الشارع يحرس النائم، ومن يأخذ التسعة من غير عمل، ومن يكد ويدأب فلا يبلغ الواحد، وعالم يخضع لجاهل، وجال يترأس العلماء، ورأيت المال والعلم والخلق والشهادات قسما وهبات، فرب غني لا علم عنده، وعالم لا مال لديه، وصاحب شهادات ليس بصاحب علم، وذي علم ليس بذي شهادات، ورب مالك أخلاق لا يملك معها شيئا، ومالك لكل شيء ولكن لا أخلاق له، ورأيت في مدرسي المدارس من هو أعلم من رئيس الجامعة، وبين موظفي الوزارة من هو أفضل من الوزير .. ولكنه الحظ، أو هي حكمة الله لا يعلم سرها إلا هو، ابتلانا بخفائها لينظر: أنرضى أم نسخط. (١)

من الذي أمننا في الدور؟ من الذي أرخى علينا الستور؟ من الذي صرف عنا البلايا والشرور، والفتنة حولنا تدور؟ أليس هو الرحيم الغفور؟ فما لنا قد كثرت منا العثار، وقل منا الاعتبار والادكار؟ ما لنا لبسنا ثوب العصيان والغفلة والنسيان؟ غرنا بالله الغرور، برجاء رحمته عن خوف نقمته، وبرجاء عفوه عن رهبة سطوته (٢)

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

عن ابن السماك يحدث قال: بينما صياد في الدهر الأول يصطاد السمك، إذ رمى بشبكة في البحر فخرج فيها جمجمة إنسان، فجعل الصياد ينظر أليها ويبكي، ويقول: عزيز فلم تترك لعزك، غنى فلم تترك لغناك، فقير فلم تترك لفقرك، جواد فلم تترك لجودك، شديد فلم تترك لشدتك، عالم فلم تترك لعلمك .. يردد هذا الكلام ويبكي.

ولدتك إذ ولدتك أمك باكيا ... والقوم حولك يضحكون سرورا

فاعمل ليوم تكون فيه إذا بكوا ... في يوم موتك ضاحكا مسرورا

كلكم يبكي لنفسه

كان بالبصرة عابد حضرته الوفاة .. فجلس أهله يبكون حوله فقال لهم أجلسوني، فأجلسوه فأقبل عليهم وقال لأبيه: يا أبت ما الذي أبكاك؟ قال: يا بني ذكرت فقدك وانفرادي بعدك. فالتفت إلى أمه، وقال: يا أماه ما الذي أبكاك؟ قالت: لتجرعي مرارة ثكلك، فالتفت إلى الزوجة، وقال: ما الذي أبكاك؟ قالت: لفقد برك وحاجتي لغيرك، فالتفت إلى أولاده، وقال: ما الذي أبكاكم؟ قالوا: لذل اليتم والهوان من بعدك، فعند ذلك نظر إليهم وبكى.

فقالوا له: ما يبكيك أنت؟ قال أبكي لأني رأيت كلا منكم يبكى لنفسه لا لي. أما فيكم من بكى لطول سفري؟ أما فيكم من بكى لقلة زادي؟ أما فيكم من بكى لمضجعي في التراب؟ أما فيكم من بكى لما ألقاه من سوء الحساب؟ أما فيكم من بكى لموقفي بين يدي رب الأرباب؟ ثم سقط على وجهه فحركوه، فإذا هو ميت.

ملوك الدنيا

قال معاوية –رضي الله عنه– عند موته لمن حوله: أجلسوني .. فأجلسوه .. فجلس يذكر الله، ثم بكى، وقال: الآن يا معاوية، جئت تذكر ربك بعد الانحطام والانهدام، أما كان هذا وغض الشباب نضير ريان؟! ثم بكى وقال: يا رب، يا رب، ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي .. اللهم أقل العثرة، واغفر الزلة، وجد بحلمك على من لم يرج غيرك، ولا وثق بأحد سواك .. ثم فاضت روحه رضي الله عنه.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ويروى أن الخليفة عبد الملك بن مروان لما أحس بالموت قال: ارفعوني على شرف، ففعل ذلك، فتنسم الروح، ثم قال: يا دنيا ما أطيبك! إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لحقير، وإن كنا منك لفي غرور!

ولما أحتضر أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، نظر إلى أهله يبكون حوله فقال: جاء هشام إليكم بالدنيا وجئتم له بالبكاء، ترك لكم ما جمع وتركتم له ما حمل، ما أعظم مصيبة هشام إن لم يرحمه الله.

ولما مرض هارون الرشيد ويئس الأطباء من شفائه، وأحس بدنو أجله، قال: أحضروا لي أكفانا فأحضروا له، فاختار منها واحدا .. ثم قال: احفروا لي قبرا .. فحفروا له .. فنظر إلى القبر وقال: ما أغنى عني مالية ... هلك عني سلطانيه!

وحينما حضر الخليفة المأمون الموت قال: أنزلوني من على السرير. فأنزلوه على الأرض، فوضع خده على التراب، وقال: يا من لا يزول ملكه .. ارحم من قد زال ملكه.

وقال المعتصم عند موته: لو علمت أن عمري قصير هكذا ما فعلت!

إنه الموت

قال مطرف: إن هذا الموت أفسد على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيما لا موت فيه.

وقال الحسن: فضح الموت الدنيا فلم يترك فيها لذي لب فرحا.

وقال سفيان: لو أن البهائم تعقل من الموت ما تعقلون ما أكلتم منها سمينا.

وقال الأوزاعي: جئت إلى بيروت أرابط فيها، فلقيت سوداء عند المقابر، فقلت لها: يا سوداء، أين العمارة؟ قالت: أنت في العمارة، وإن أردت الخراب فبين يديك.

همة ترقيك

يقول على الطنطاوي: وجدت على نضد إبريقا من البلور الصافي طويل العنق واسع البطن، فيه نحلة قد دخلت ولم تستطع الخروج، فهي تتحفز وتتجمع وتثب متقدمة بقوة وبأس، فيضرب الزجاج رأسها ويردها، فتعاود الكرة وهي لا تبصر الجدار وإنما تبصر ما وراءه، فتحسب أنه ليس بينها وبين الفضاء حجاب. فجعلت أنظر إليها

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وهي تعمل دائبة، كلما ضربت مرة عادت تحاول أخرى لا تقف ولا تستريح، حتى عددت عليها أكثر من أربعين مرة، تجد الصدمة كل مرة فلا تعتبر ولا تدرك الحقيقة، ولا ترفع رأسها لتبصر الطريق وتعلم أن سبيل الفضاء وباب الحرية هو من «فوق» لا عن يمين ولا عن شمال.(٣)

المصادر

(١) من حديث النفس، على الطنطاوي، ص ١١٦

(٢) فتنة الاستخلاف في الأرض، صلاح البدير، إمام وخطيب المسجد النبوي

(٣) من حديث النفس، على الطنطاوي، ص ٢٤٧

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الأيام والليالي .. مطية لا تتوقف

«فقه الوقت» الشغل الشاغل للفضلاء، وإنما تعرف همة الرجل بقدر معرفته بمتطلبات وقته، واستثمار أيام عمره فيما يعود عليه نفعه في العاجل والآجل، خاصة وأن أيام العمر تمضي شئنا أم أبينا، والليالي تسري رضينا أم سخطنا .. قال بعض الحكماء: "من كانت الليالي والأيام مطاياه، سارت به وإن لم يسر".

وقال أحد العلماء: "إنما الدنيا إذا فكرت فيها ثلاثة أيام: يوم مضى لا ترجوه، ويوم أنت فيه ينبغي لك أن تغتنمه، ويوم لا تدري هل أنت من أهله أم لا فلعلك تموت قبله، فأما أمس فحكيم مؤدِّب، وأما اليوم فصديق مودع، وإن كان قد فجعك بنفسه فقد أبقى في يديك حكمته، فخذ الثقة بالله والتوكل عليه ثم بالعمل واترك الغرور بالأمل قبل حلول الأجل".

وما هذه الأيامُ إلاَّ مراحِلُ *** يحثُّ بها داعٍ إلى الموتِ قاصدُ
وأعجَبُ شيءٍ لو تأمَّلت أنَّها *** مَنازِلُ تُطوى والمُسافِرُ قَاعِدُ

قال تعالى: {وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر:١-٢] قال ابن عباس: "العصر هو الزمن". وقال الرازي: "أقسم الله بالعصر لما فيه من الأعاجيب، ولأن العمر لا يقوم نفاسة وغلاء".

قال الإمام ابن القيّم: مثل أهل الدنيا في غَفْلتهم، مثل قومٍ رَكِبوا سفينة، فانتهتْ بهم إلى جزيرة، فأمَرَهم الملاَّح بالخروجِ لقضاء الحاجة، وحذَّرهم الإبطاءَ، وخوَّفهم مرورَ السفينة، فتفرَّقوا في نواحي الجزيرة، فقَضَى بعضُهم حاجته، وبَادَرَ إلى السفينة، فصَادَف المكان خاليًا، فأخَذَ أوْسَعَ الأماكن وألْيَنَها وأوْفَقَها لِمُراده، ووقَف بعضُهم في الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة، ويسمع نَغَمات طيورها، ويُعجبه حُسْنُ أحجارها، ثم حدَّثَتْه نفسُه بفَوْت السفينة، وسرعة مُرورها، وخَطَرِ ذَهابها، فلم يصادِفْ إلاَّ مكانًا ضَيِّقًا، فجلس فيه، وأكبَّ بعضُهم على تلك الحجارة المستحسنة، والأزهار الفائقة، فحمل منها حملَه، فلمَّا جاء لَم يجدْ في السفينة إلاَّ مكانًا ضعيفًا، وزاده حمله ضِيقًا، فصارَ محمولُه ثقلاً عليه ووبالاً، ولَم يَقْدِرْ على نبذه، بل لَم يجدْ من حملِه بُدًّا،

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ولَم يجدْ له في السفينة موضعًا، فحَمَله على عاتقه، ونَدِم على أخْذه، فلم تنفعْه النَّدَامة، ثم ذَبُلَتِ الأزهار وتغيَّرت رائحتُها، وآذاه نتنُها، وتولج بعضُهم في تلك الغياض، ونَسِي السفينة، وأبعد في نزهته؛ حتى إنَّ الملاَّح نادَى الناسَ عند دَفْع السفينة، فلم يَبلغْه صوتُه؛ لاشتغاله بملاهيه، فهو تارة يتناول من الثمر، وتارة يشمُّ تلك الأنوار، وتارة يعجب من حُسن الأشجار، وهو على ذلك خائفٌ من سَبُع يخرج عليه، غير منفكٍّ من شوك يتشبَّثُ في ثيابه، ويدخل في قَدَميه، أو غُصن يجرحُ بَدَنه، أو عوسج يَخرِق ثيابه ويَهتك عورته، أو صوت هائل يُفزعه، ثم من هؤلاء مَن لَحِق السفينة ولَم يَبقَ فيها موضع، فماتَ على الساحل، ومنهم مَن شَغَله لَهْوه، فافترسته السباع، ونَهشتْه الحَيَّات، ومنهم مَن تاه، فهامَ على وجْهه حتى هَلك.

فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة، ونسيانهم مَوردَهم وعاقبةَ أمرهم، وما أقبح بالعاقل أن تَغرَّه أحجار ونبات يصير هشيمًا، قد شَغَل بالَه وعوَّقه عن نجاته ولَم يَصحبْه!".

لقي أحد السلف أخا له فقال له: أترضى حالتك التي أنت عليها للموت؟ قال: لا. قال: فهل عرضت عليها توبة من غير تسويف؟ قال: لا. قال: فهل تعلم دارا تعمل فيها غير هذه؟ قال: لا. قال: فهل للإنسان نفسان إذا ماتت إحداهما عمل بالأخرى؟ قال: لا. قال: فهل تأمن هجوم الموت على حالتك هذه؟ قال: لا. قال: فما أقام على ما أنت عليه عاقل.

قال التاج السبكي عن سليم الرازي أحد أئمة الشافعية: "كان رحمه الله من الورع على جانب قوي، يحاسب نفسه على الأوقات، ولا يدع وقتا يمضي بغير فائدة، إما ينسخ أو يدرس أو يقرأ"

قال ابن عساكر: "ولقد حدثني عنه شخنا أبو الفرج الإسفراييني أنه نزل يوما إلى داره ورجع، فقال: قد قرأت جزءا في طريقي".

قال أبو الفرج: وحدثني المؤمل بن الحسن أنه رأى سليما خفي عليه القلم، فإلى أن قطه جعل يحرك شفتيه، فعلم أنه يقرأ بإزاء إصلاحه القلم، لئلا يمضي عليه زمان وهو فارغ".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال قتادة: اعلموا أن طول العمر حجة، فنعوذ بالله أن نعير بطول العمر، قال تعالى: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ} [فاطر:٣٧]

وقال يحيى بن معاذ الرازي: "الفوت [ضياع الوقت] أشد من الموت، لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق".

وقال ابن القيم: " وإذا أراد الله بالعبد خيرا أعانه بالوقت، وجعل وقته مساعدا له، وإذا أراد به شرا جعل وقته عليه، وناكده وقته، فكلما أراد التأهب للمسير لم يساعده الوقت، والأول كلما همت نفسه بالقعود أقامه الوقت وساعده".

ومن جهل قيمة وقته فسيأتي عليه حين يعرف فيه قدره ونفاسته وقيمة العمل فيه، ولكن بعد فوات الأوان، وفي هذا يذكر القرآن موقفين للإنسان يندم فيهما على ضياع وقته حيث لا ينفع الندم.

- الموقف الأول: «ساعة الاحتضار»، حين يستدبر الإنسان الدنيا ويستقبل الآخرة، ويتمنى لو منح مهلة من الزمن، وأخر إلى أجل قريب ليصلح ما أفسده ويتدارك ما فات. قال تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [المؤمنون:٩٩-١٠٠]
- الموقف الثاني: «يوم القيامة»، حين توفى كل نفس ما عملت، وتجزى بما كسبت، ويدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، هناك يتمنى أهل النار لو يعودون مرة أخرى إلى الحياة ليبدءوا من جديد أعمالا صالح .. هيهات هيهات لما يطلبون، فقد انتهى زمن العمل وجاء زمن الجزاء، قال تعالى: {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنعام:٢٧]

عن مجاهد قال: "ما من يوم إلا يقول: ابن آدم، قد دخلت عليك اليوم ولن أرجع إليك بعد اليوم، فانظر ماذا تعمل في. فإذا انقضى طواه، ثم يختم عليه فلا يفك حتى يكون الله هو الذي يفض ذلك الخاتم يوم القيامة".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فالحذر الحذر من ضياع الأوقات ولصوص الأعمار، والانتباه قبل أن يأتي يوم قال الله تعالى فيه: {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا} [النحل:١١١] .. أي تعتذر وتخاصم عن نفسها، لا تتفرغ لغيرها، ولو كان أقرب قريب، وهذا من شدة الهول. قال ابن عباس في هذه الآية: لا تزال الخصومة بالناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد، وليس أحد بِمَلُومٍ في هذه المواقف على قول نفسي نفسي، فالأمر شديد، والموقف رهيب.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

البكاء من خشيه الله

أهل المعاصي ليسوا من الله في شيء، فقد اجتمعت على قلوبهم الذنوب حتى صارت قلوباً قاسية كالحجارة أو أشد قسوة، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي، أما أهل الإيمان فهم أهل الله وخاصته الذين ما تركوا لله طاعة إلا شمروا عن ساعد الجد لأدائها، وما علموا بشيء فيه رضا لله إلا فعلوه راغبين راهبين، فأورثهم الله نور الإيمان في قلوبهم، فصارت قلوبا لينه من ذكره تعالى، وقادت جوارحهم للخشوع، فما تكاد تخلوا بالله إلا فاضت أعينهم من الدمع من كمال خشيته، وكانت تلك الدموع أكبر حائل يحول بين صاحبها وبين النار.

أثنى الله في كتابة الكريم في أكثر من موضع على البكائين من خشيته تعالى، فقال جل شأنه: {وقرءاناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا} [الإسراء:١٠٦-١٠٩]

وقال تعالى: {أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذريه آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذريه إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا} [مريم:٥٨]

وعن أبى هريرة –رضي الله عنه– قال رسول الله: –صلى الله عليه وسلم–: «لا يلج النار رجل بكى من خشيه الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم» [رواه الترمذي].

قال المباركفوري: قوله (لا يلج) من الولوج أي لا يدخل (رجل بكى من خشيه الله) فإن الغالب من الخشية امتثال الطاعة واجتناب المعصية (حتى يعود اللبن في

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الضرع) هذا من باب التعليق بالمحال، كقوله تعالى: {حتى يلج الجمل في سم الخياط} [الأعراف: ٤٠].

وروى الترمذي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشيه الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».

قال المباركفوري: (عينان لا تمسهما النار) أي لا تمس صاحبهما، فعبر بالجزء عن الجملة، وعبر بالمس إشارة إلى امتناع ما فوقه بالأولى (عين بكت من خشيه الله) وهى مرتبه المجاهدين مع النفس التائبين عن المعصية سواء كان عالماً أو غير عالم (وعين باتت تحرس في سبيل الله) وهى مرتبة المجاهدين في العبادة، وهى شاملة لأن تكون في الحج أو طلب العلم أو الجهاد أو العبادة، والأظهر أن المراد به الحارس للمجاهدين لحفظهم عن الكفار.

وعن أبى هريرة -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «سبعه يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» [متفق عليه].

قال القرطبي: وفيض العين بحسب الذاكر وما ينكشف له، فبكاؤه خشيه من الله تعالى حال أوصاف الجلال، وشوقاً إليه سبحانه حال أوصاف الجمال.

وروى ابن أبى الدنيا عن حمزة الأعمى قال: ذهبت بي أمي إلى الحسن، فقالت: يا أبا سعيد، ابني هذا قد أحببت أن يلزمك، فلعل الله أن ينفعه بك. قال: فكنت أختلف إليه. فقال لي يوما: يا بني أدم الحزن على خير الآخرة لعله أن يوصلك إليه، وابك في ساعات الليل والنهار في الخلوة لعل مولاك أن يطلع عليك فيرحم عبرتك فتكون من الفائزين.

ومن أقوال الحسن البصري: بلغنا أن الباكي من خشيه الله لا تقطر من دموعه قطره حتى تعتق رقبته من النار.

وقال أيضاً: لو أن باكيا بكى في ملأ من خشية الله لرحموا جميعا، وليس شيء من الأعمال إلا له وزن إلا البكاء من خشية الله فإنه لا يقوم الله بالدمعة منه شيء.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال: ما بكى عبد إلا شهد عليه قلبه بالصدق أو الكذب.

وقال أبو جعفر الباقر: ما اغرورقت عين عبد بمائها إلا حرم الله وجه صاحبها على النار، فإن سالت على الخدين لم يرهق وجهه قتر ولا ذله، وما من شيء إلا وله جزاء إلا الدمعة، فإن الله يكفر بها بحور الخطايا، ولو أن باكيا بكى من خشية الله في أمه رحم الله تلك الأمة.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: لأن أدمع دمعه من خشيه الله عز وجل أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار.

وقال كعب الأحبار: لأن أبكى من خشية الله فتسيل دموعي على وجنتي أحب إلى من أن أتصدق بوزني ذهبا.

وعن أبى معشر قال: رأيت عون بن عبد الله في مجلس أبى حازم يبكى ويمسح وجهه بدموعه، فقيل له: لم تمسح وجهك بدموعك؟ قال: بلغني أنه لا تصيب دموع الإنسان مكانا من جسده إلا حرم الله عز وجل ذلك المكان على النار.

وبالتأمل في سيرة هؤلاء الصالحين الباكين من خشية الله تعالى نجد أنهم اشتركوا في صفة واحدة على تنوع عباداتهم واجتهاداتهم في طاعة الله تعالى، تلك الصفة هي «الإخلاص» المنافي للرياء، فلقد كانوا رضي الله عنهم أبعد الناس عن أن يراهم أحد حال البكاء حرصاً منهم أن لا يدخل العُجْب قلوبهم فتبطل عبادتهم، وتراهم شددوا بلسان الحال والمقال على هذه الصفة ابتغاء نيل الأجر كاملاً غير منقوص من رب العالمين لا من مدح المادحين.

قال الحسن البصري: إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عبرته فيردها فإذا خشي أن تسبقه قام.

وقال سيفان: إذا استكمل العبد الفجور ملك عينيه يبكى بهما متى يشاء.

وقال عبد الكريم بن رشيد: كنت في حلقه الحسن فجعل رجل يبكى وارتفع صوته. فقال الحسن: إن الشيطان ليبكى هذا الآن.

وكان أيوب السختيانى في ثوبه بعض الطول لستر الحال، وكان إذا وعظ فرقَّ فَرَقَ من الرياء، فيمسح وجهه ويقول: ما أشد الزكام.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال ابن الجوزى: كان ابن سيرين يتحدث بالنهار ويضحك، فإذا جاء الليل فكأنه قتل أهل القرية.

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا الليل هزتني إليك المضاجع
أقضي نهاري بالحديث وبالمنى يجمعني والهم بالليل جامع

وقال حماد بن زيد: دخلنا على محمد بن واسع في مرضه نعوده، قال: فجاء يحيى البكاء يستأذن عليه فقالوا: يا أبا عبد الله هذا أخوك أبو سلمه على الباب قال: من أبو سلمه؟ قالوا: يحيى. قال: من يحيى؟ قالوا: يحيى البكاء. قال حماد: وقد علم أنه يحيى البكاء، فقال: شر أيامكم يوم نسبتم فيه إلى البكاء.

وعن القاسم بن محمد قال: كنا نسافر مع ابن المبارك فكثيراً ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي بأي شيء فضل هذا الرجل علينا حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة، إن كان يصلى آنا نصلى، وإن كان يصوم آنا نصوم، وإن كان يغزو فآنا نغزو، وإن كان يحج آنا لنحج، قال: فكنا في بعض مسيرتا في طريق الشام ليله نتعشى في بيت إذ طفئ السراج، فقام بعضنا فأخذ السراج وخرج يستصبح، فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج، فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع، فقلت في نفسي بهذه الخشية فضل هذا الرجل علينا، ولعله حين فقد السراج فصار إلى ظلمه ذكر القيامة.

وهذا شيخ الإسلام محمد بن أسلم الطوسي يقول عنه خادمه أبو عبد الله: كان محمد يدخل بيتا ويغلق بابه ويدخل معه كوزاً من ماء، فلم أدر ما يصنع حتى سمعت ابناً صغيراً له يبكى بكاءه فنهته أمه، فقلت لها ما هذا البكاء؟ فقالت إن أبا الحسن يدخل هذا البيت فيقرأ القرآن ويبكى فيسمعه الصبي فيحاكيه، فكان إذا أراد أن يخرج غسل وجهه فلا يرى عليه أثر البكاء.

من هنا نجد أن السلف الصالح أدرك حقيقة الإيمان، وحققوه في حياتهم قولاً وعملاً، وكانت سيرتهم العطرة زاداً يشحذ الهمم الراكدة، وينير القلوب التي أظلمتها المعاصي، ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نقتطف بعضاً من سيرتهم ونسبح لحظات في جو إيماني مع خير الناس على وجه الأرض.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

– كان محمد بن المنكدر ذات ليله قائم يصلى إذ استبكى فكثر بكاؤه حتى فزع له أهله فسألوه: ما الذي أبكاك؟ فاستعجم عليهم، فتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبى حازم وأخبروه بأمره فجاء أبو حازم إليه فإذا هو يبكى فقال: يا أخي ما الذي أبكاك؟ قد رعت أهلك، فقال له: إني مرت بي آية من كتاب الله عز وجل قال: ما هي؟ قال: قول الله تعالى: {وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون} قال فبكى أبو حازم معه واشتد بكاؤهما، فقال: بعض أهله لأبى حازم جئناك لتفرج عنه فزدته، فأخبرهم ما الذي أبكاهما.

– وعن مهران بن عمرو الأسدي قال سمعت الفضيل بن عياض عشية عرفه بالموقف، وقد حال بينه وبين الدعاء البكاء، يقول: واسوأتاه وافضيحتاه وإن عفوت.

– وروى أحمد بن سهل قال: قدم علينا سعد بن زنبور فأتيناه، فحدثنا قال: كنا على باب الفضيل بن عياض فاستأذنا عليه فلم يؤذن لنا فقيل لنا إنه لا يخرج إليكم أو يسمع القرآن، قال: وكان معنا رجل مؤذن وكان صيتا فقلنا له: اقرأ فقرأ {ألهاكم التكاثر} ورفع بها صوته، فأشرف علينا الفضيل وقد بكى حتى بل لحيته بالدموع ومعه خرقه ينشف بها الدموع من عينيه وأنشأ يقول

بلغت الثمانين أو جزتها ... فماذا أؤمل أو أنتظـر
أتى ثمانون من مولـدي ... وبعد الثمانين ما ينتظر
عَّلتني السنون فأبلينني ... .

قال ثم خنقته العبرة وكان معنا على بن خشرم فأتمه لنا يقول

علتني السنون فأبلينني ... فرقت عظامي وكل البصر

– وعن سفيان قال: كان سعيد بن السائب الطائفي لا تكاد تجف له دمعه، إنما دموعه جاريه دهره، إن صلى فهو يبكي، وإن طاف فهو يبكي، وإن قرأ في المصحف فهو يبكي، وإن لقيته في طريق فهو يبكي، قال سفيان: فحدثوني أن رجلاً عاتبه على ذلك فبكى، ثم قال: إنما ينبغي أن تعذلني وتعاتبني على التقصير والتفريط، فإنهما قد استوليا على، قال الرجل: فلما سمعت ذلك انصرفت وتركته.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

– وقال الثوري: جلست ذات يوم أحدث ومعنا سعيد بن السائب الطائفي فجعل سعيد يبكي حتى رحمته فقلت: يا سعيد ما يبكيك وأنت تسمعني أذكر أهل الخير وفعالهم؟ فقال: يا سفيان وما يمنعني من البكاء إذا ذكرت مناقب أهل الخير وكنت عنهم بمعزل؟ قال سفيان: حق له أن يبكى.

– وقال أبو مُسهر كان الأوزاعي رحمه الله يحيى الليل صلاه وقرآنا وبكاء، وأخبرني بعض إخواني من أهل بيروت أن أمه كانت تدخل منزل الأوزاعي وتتفقد موضع مصلاه فتجده رطباً من دموعه في الليل.

– وعن القاسم بن محمد البغدادي قال كنت جار معروف الكرخي فسمعته ليله في السحر ينوح ويبكى وينشد:

أي شيء تريد منى الذنوب	شغفت بي فليس عنى تغيب
ما يضر الذنوب لو أعتقتني	رحمه لي فقد علاني المشيب

– قال الحارث بن سعيد كنا عند مالك بن دينار وعنده قارئ يقرأ: {إذا زلزلت الأرض زلزالها} فجعل مالك ينتفض وأهل المجلس يبكون حتى انتهى القارئ إلى {فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره} فجعل مالك يبكى ويشهق حتى غشي عليه فحمل بين القوم صريعاً.

– وروى أحد أقرباء رباح بن عمرو القيسي قال: كنت أدخل عليه في المسجد وهو يبكي، وأدخل عليه البيت وهو يبكي، فقلت له: أنت دهرك في مأتم، فبكى ثم قال: يحق لأهل المصائب والذنوب أن يكونوا هكذا.

– أتى الحسن البصري بكوز من ماء ليفطر عليه فلما أدناه إلى فيه بكى، وقال: ذكرت أمنية أهل النار قولهم {أن أفيضوا علينا من الماء} وذكرت ما أجيبوا به {إن الله حرمهما على الكافرين}.

– وعن إبراهيم بن الأشعث قال: كنا إذا خرجنا مع الفضيل في جنازة لا يزال يعظ ويذكر ويبكي حتى لكأنه يودع أصحابه ذاهب إلى الآخرة حتى يبلغ المقابر فيجلس فكأنه بين الموتى، يجلس من الحزن والبكاء حتى يقوم وكأنه رجع من الآخرة يخبر عنها.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

- وعن عاصم قال: سمعت شقيق بن مسلمه يقول وهو ساجد: رب اغفر لي، رب اغفر لي، إن تعف عنى تعف عنى تطولا من فضلك، وإن تعذبني تعذبني غير ظالم لي. قال: ثم يبكى حتى أسمع نحيبه من وراء المسجد.

- وصلى تميم الداري ليله حتى أصبح أو قارب الصبح وهو يقرأ آية ويرددها ويبكى {أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات}.

ذاك والله هو الإيمان الحق الذي ليس بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقة العمل، وهؤلاء هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وإن لم يكن هؤلاء أولياء الله فليس لله ولى.

ذاك الإيمان الصادق تجسد في هؤلاء الصالحين في أحسن صورة فكونوا به أطهر حضارة على وجه الأرض، وحملوه إلى كل الآفاق ففتحوا به البلاد، وفتحوا معها قلوب العباد، وحطموا الطواغيت، ونشروا كلمة التوحيد.

والسؤال الذي يفرض نفسه الآن: أين نحن من هؤلاء؟ وما سر هذه الانتكاسة التي يمر بها العالم الإسلامي؟ ولكن حياة هؤلاء الصالحين تشير ببساطة إلى موضع الخلل في حياتنا.

إنها ظاهرة ضعف الإيمان في القلوب.

إنها المادية التي طغت علينا في كل شيء.

إنه التشبث الأعمى بالحياة، ونسيان رب الحياة، ألا فلنعود إلى الله كما عادوا، لكي ننهض بأمتنا كما نهضوا، {وما النصر إلا من عند الله} [آل عمران:١٢٦]

المصادر

١- تحفه الأحوذى — المباركفـــورى

٢- صفـة الصفـوة — ابـــن الجـوزى

٣- صـلاح الأمـه — د/ سيـد العنانـى

٤- إيقاظ أولى الهمم — عبد العزيز السلمان

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

التجاوب أمارة المحبة

أسمى مراتب محبة الله تعالى أن يتفقد العبد أوامره سبحانه فيأتيها ومناهيه فيجافيها .. أن يتجاوب العبد مع نداءات الله تعالى له حين يناديه ويدعوه فيلبيه .. أن يأتي إليه بحب طمعا في جنته قبل الخوف من ناره..

أن يستجيب استجابة فريدة كاستجابة الرعيل الأول من السلف الصالح، حين دعاهم الله في أكثر من موقف فكان منهم أعاجيب لا تنم إلا على صدق المحبة: {أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ} {مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً} {فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} ..

نداءات خالدات وتصرفات نيرات نعيشها لحظات لعلها تجلو قسوة القلوب وتنير ظلمة العقول.

ألا تحبون أن يغفر الله لكم

قال تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [النور: ٢٢]

قال ابن كثير: "وهذه الآية نزلت في الصديق، حين حلف ألا ينفع مِسْطَح بن أثاثة بنافعة بعدما قال في عائشة ما قال [أي إبان حادثة الإفك].. فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه – شرع تبارك وتعالى، وله الفضل والمنة، يعطف الصديق على قريبه ونسيبه، وهو مسطح بن أثاثة، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكينا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد ولق ولقة تاب الله عليه منها، وضرب الحد عليها.

وكان الصديق، رضي الله عنه، معروفا بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب. فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: {أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

غَفُورٌ رَّحِيمٌ} أي: فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك. فعند ذلك قال الصديق: بلى، والله إنا نحب – يا ربنا – أن تغفر لنا. ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبدا، فلهذا كان الصديق هو الصديق رضي الله عنه وعن بنته".

وفي بعض الروايات أن الصديق رضي الله عنه أنفقَ عليه ضعف ما كان ينفق عليه من قبل.

{أُوْلُوا الْفَضْلِ} أي في الدين، وهذه شهادة من الله جلّ جلاله لِسيّدنا الصِّديق؛ الذي ما طلعَت شمس على رجل بعد نبيّ أفضل من أبي بكر، وهذا ما قالهُ بعض العلماء إنَّه أفضل الصحابة على الإطلاق.

{أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ} خاطبه الله تعالى بصيغة الجمع تعظيما لشأنه وتكريما لقدره .. قال الإمام الفخر الرازي رحمه الله: فانْظر إلى الشخص الذي كنَّاهُ الله سبحانه وتعالى مع جلاله بِصيغة الجمع، كيف يكون علُوّ شأنه عند الله؟

إنه الإيمان الصادق الذي حول الإساءة إلى إحسان، والإعراض إلى رغبة عارمة في المغفرة، وهكذا يصنع الإيمان بالمرء من الأعاجيب التي يقف الإنسان أمامها مشدوها وتجاه أحداثها مبهورا.

القرض الحسن

قال تعالى: {مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} [الحديد: ١١]

قال ابن كثير: "عن عبد اللّه بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: {مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ} قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول اللّه، وإن اللّه ليريد منا القرض؟ قال: (نعم يا أبا الدحداح) قال: أرني يدك يا رسول اللّه، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي، وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال: فجاء أبو الدحداح، فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عزَّ وجلَّ.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وفي رواية أنها قالت له: ربح بيعك يا أبا الدحداح، ونقلت منه متاعها وصبيانها، وإن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: (كم من عِذْق رَدَاح في الجنة لأبي الدحداح) .. العذق: القنو من النخل، والعنقود من العنب، ورداح: ضخم، مخصب".

هكذا يكون رد الفعل، ويكون الرجال، ويكون الشوق إلى البذل في غير تردد ولا استجابة لرغبات النفس الطامحة للشح وإمساك المال .. هكذا كانوا، ولذلك أتت منهم الأعاجيب التي فتحوا بها قلاع الجبابرة وأملاك الأكاسرة والقياصرة، ونشروا التوحيد، وعبّدوا الناس لرب الناس، فرضي الله عنهم أجمعين.

فهل أنتم منتهون

قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} [المائدة:٩١]

روي أنه لما نزل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى} [النساء:٤٣] قال عمر رضي الله عنه: "اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا"، فلما نزلت هذه الآية قال عمر: "انتهينا يا رب" وأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- مناديه أن ينادي في سكك المدينة، ألا إن الخمر قد حرمت؛ فكسرت الدنان، وأريقت الخمر حتى جرت في سكك المدينة.

يقول الشيخ سفر الحوالي: "في أمريكا حرمت الخمر سنوات؛ ثم اضطرت أن تبيحها لما رأت انهماك الناس وإقبالهم عليها في المصانع وفي البيوت، فالدستور الأمريكي لم يتغير فيه إلا مادتين فقط مدة عمر هذا الدستور، هما: المادة التي حرمت الخمر، والمادة التي ألغت التحريم، وبقية الأمور ثابتة.

ومن الغرائب عن الشيوعيين -وهم الذين يتزعمون الجبهة الشرقية-ما جاء في كتاب ميخائيل جورباتشوف «إعادة البناء» يقول -فيما معنى كلامه-: إن الخمر فتكت بشبابنا، ونريد أن نقضي على مشكلة الخمور والإدمان، وقد بذلنا جهوداً في ذلك، وقد اقترح البعض عدة تشريعات لمنع الخمر، وقد فكرنا في ذلك، ولكن هذا لا يجدي؛ لأنه ما إن فُكِّرَ في اتخاذ هذا الإجراء حتى انتشرت صناعة الخمور الجوفية، فصنعوها في البيوت، إذاً فلا فائدة من ذلك ..

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فالقضية ليست قضية وعي، ولا قضية ثقافة، ولا قضية أن الناس يرون شعارات براقة فيتركون ما حرم الله، إنما المسألة مسألة إيمان وقع في القلوب".

الخشوع لله

قال تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد:١٦]

عن ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربعُ سنين.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن .

وقيل: كثر المزاح في بعض شباب الصحابة فنزلت.

وعن أبي بكر رضي الله عنه: إنَّ هذه الآية قُرئت بين يديه، وعنده قوم من أهل اليمامة، فبكوا بكاءً شديداً، فنظر إليهم فقال: «هكذا كنا حتى قست قلوبنا»

وهذه الآية أيضاً كانت سبب توبة الفُضيل بن عياض .. يقول ابن عساكر في سبب توبته: كان الفضيل شاطراً، يقطع الطريق في مفازة، بين «أبيورد ومرو»؛ فربما كان ينتمي إلى أبيورد، وقيل كان يقطع على أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جاريةً، فبينما هو يرتقي الجدران إليها سمع قارئاً يتلو {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [الحديد١٦]، فقال: يا رب قد آن؛ فرجع فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها رفقة سابلة، فقال بعضهم لبعض: نرحل الليلة، وقال قوم: بل نبقى هنا حتى نصبح؛ فإنَّ «فضيلاً» على الطريق يقطع علينا، ولما كان الله سبحانه قد أراد هدايته {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ الله يَهْدِي مَن يَشَاءُ} فقد تاب الفضيل وأمّنهم، وجاور الحرم حتى مات. وقيل إنه قال: ففكرتُ وقلتُ: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين ها هنا يخافونني، وما أرى الذي ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إنني قد تُبْتُ إليك وجعلت توبتي مجاورة بيتك.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال عنه «إبراهيم بن الأشعث»: ما رأيت أحداً كان خوف الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله أو ذُكر عنده أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن وفاضت عيناه وبكى حتى يرحمه من يحضره، وكان دائم الحزن شديد الفكرة، ما رأيت يريد إلا الله بعلمه وعمله، وأخذه وعطائه، ومنعه وبذله، وبغضه وحبه، وخصاله كلها غيره، كنا إذا خرجنا معه في جنازة لا يزال يعظ ويذكّر ويبكي، كأنه مودع أصحابه، ذاهب إلى الآخرة، حتى يبلغ المقابر، فيجلس مكانه بين الموتى من الحزن والبكاء، حتى يقوم وكأنه رجع من الآخرة يخبر عنها.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

التوفيق .. رزق الأبرار

العبد المؤمن في حله وترحالة لا يستغني إطلاقا عن معية الله تعالى وهدايته ومدده، وهذا عين الفلاح الذي يقابله الخذلان والبوار جراء سخط العزيز الجبار على أهل الضلال، فالله جل شأنه إذا غضب على عبد لا يبالي به في أي واد هلك، وفي الحديث النبوي الشريف: «إِنَّكَ إِن تَكِلنِي إلى نفْسي تَكِلني إلى ضَعْفٍ، وَعَوْرَةٍ، وَذَنْبٍ، وَخَطِيئَةٍ، وَإِنِّي لا أَثِقُ إلا بِرحمتِكَ، فَاغْفِرْ لِي ذُنوبِي كُلَّهَا، إِنَّهُ لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إِلا أنتَ، وَتُبْ عليَّ إِنَّكَ أنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» [رواه أحمد (٥ / ١٩١) عن زيد بن ثابت]

قال أبو داود للإمام أحمد بن حنبل: جمعت هذا العلم لله؟ فقال: "لله عزيز، ولكن حبب إلي أمر ففعلته" .. وتلك إشارة جامعة لنعمة «التوفيق» الذي هو من أجل نعم رب العالمين لعباده المخلصين.

والتوفيق جعل الشيء وفقا لآخر، أي طبقا له، ولذلك عرفوه بأنه خَلْق القدرة الداعية إلى الخير والطاعة، وقال الراغب: "والاتفاق مطابقة فعل الإنسان القدر، ويقال ذلك في الخير والشر، يقال: اتفق لفلان خير، واتفق له شر. والتوفيق نحوه لكنه يختص في التعارف بالخير دون الشر".

وحقيقة «التوفيق» إمداد الله تعالى العبد بعونه وإعانته وتسديده وتيسير أموره وتسخير الأسباب المعينة عليها.

والتوفيق بيده سبحانه هو لا بيد من سواه. وأعظم التوفيق: التوفيق إلى الحق وقبوله، وإلى الخير والعمل به، وتلك نعمة لا يملكها إلا رب العباد، ومقلب القلوب والأبصار، والذي يحول بين المرء وقلبه .. قال تعالى: {وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بْاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود:٨٨] فالله تعالى يوفّق من يشاء، ويخذل من يشاء ..

التوفيق: فَضْل لأَنَّهُ إعانة. وأما الخذلان: فهو سلب الإعانة ..

التوفيق إعطَاءٌ، مَنٌّ، كَرَمٌ، .. وأما الخذلان فهو عَدْلٌ وسلبٌ.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وعن أبي سليمان الضَّبِّي، قال: "كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز إلى خراسان فيها الأمر والنهي فيكتب في آخرها: وما كنت في ذلك إلا كما قال العبد الصالح: {وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بْاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}".

وأما قوله تعالى: {والله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} أي لا يوفقهم للإيمان، مثل قوله: {والله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالمين}، {والله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}..

فالهداية المنفية: هداية التوفيق، أما هداية البيان والإرشاد فهذه موجودة، فالله هدى كل النّاس مؤمنهم وكافرهم ببيان معالم طريق الخير من طريق الشر.. أما هداية التوفيق والإيمان فهي خاصة بالمؤمنين.

حتى فتنة الدجال آخر الزمان لا ينجو منها إلا أهل التوفيق الذين لا يغترون ولا ينخدعون بما معه من الدلائل المكذوبة، مع ما سبق لهم من العلم بحاله، ولهذا يقول المؤمن الذي يقتله الدجال ثم يحييه: "ما ازددت فيك إلا بصيرة ".

بل إن دخول الجنَّة بسبب الأعمال، ثمّ التوفِيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها، وقبولها برحمة اللَّه تعالى وفضله.

وجاء في الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله بعبدٍ خيرا استعمله» قالوا: يا رسول الله، وكيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح قبل الموت ثم يقبضه عليه» [أحمد والترمذي]

قال المناوي: "وتفريغ المحل شرط لدخول غيث الرحمة، فمتى لم يفرغ المحل لم يصادف الغيث محلاً قابلاً للنزول، وهذا كمن أصلح أرضه لقبول الزرع ثم يبذر .. فإذا طهر العبد تعرض لنفحات رياح الرحمة ونزول الغيث في أوانه، وحينئذ يكون جديراً بحصول الغلة " [فيض القدير]

ومن أَسماء الله تعالى الحسنى «الباسِط» فهو الذي يَبْسُطُ الرزق لعباده بجُوده ورحمته، ويوسّعه عليهم ببالغ حكمته، كما قال تعالى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ:٣٩] {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} [الشورى:٢٧].

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

لذلك ندعوه بدعاء المسألة كما ورد عند أحمد وصححه الألباني من حديث عَبْدِ اللَّهِ الزُّرَقِيِّ -رضي الله عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو: (اللَّهُمَّ لاَ قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلاَ بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلاَ هَادِىَ لِمَا أَضْلَلْتَ، وَلاَ مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلاَ مُعْطِىَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلاَ مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، وأعوذ بك مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ منا).

أما دعاء العبادة فهو أثر الإيمان باسمه «الباسط» على الموحد، فأعلاه بسط الإيمان حيث يفرح بتوفيق الله، ويثق في وعد بالنجاة، وأن رحمته واسعة مبسوطة على العباد، فيبادره العبد إلى الزيادة الإيمانية المستمرة بإقباله عليه جل شأنه، فالله يقبض القلوب بإعراضها، ويبسطها بإقبالها، والبسط الحقيقي من جهة التوفيق الإلهي للعبد في بلوغه درجة الإيمان، فالبسط على هذا نور ينبسط على القلب يخلقه اللَّه فيه، قال تعالى: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [التغابن: ١١]

والله عز وجل قرن بسط الرزق بالإيمان، فقال عز من قائل: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [لأعراف: ٩٦]

وباب التوفيق الأعظم هو التبرؤ من حولك وقوتك .. فإن العبد لا حَوْلَ له ولا قوة إلا بالله، فإنْ نسيَ ذلك وتعلق بغير الله، أو أُعجِب بنفسه، فَرَآها أهلاً للنجاح على وجهِ الإستقلال والتشبث بالأسباب وحدها، خابَ وخسِرَ في سَعْيِه، ويُخْشى أن يُعَجِّلَ اللهُ عقوبتَه، لِيُرِيَه خَيْبَتَهُ وعجزة قبل موتِه والعياذ بالله.

أما الدعاء فهو من أعظم الأسباب لحيازة التوفيق، خاصة إذا اقترن بالتوكل على الله تعالى وبذل الداعي الوسائل التي تقربه من محبة الله تعالى، وفي الحديث القدسي الصحيح: (فإذا أحْبَبْتُهُ، كُنتُ سَمْعَهُ الذي يسمع به، وبَصَرَه الذي يُبصِرُ به، ويده التي يبطش بها، وَرِجْلَه التي يمشي بها، وإن سَأَلني لأُعْطِيَنَّه، ولَئِن استعاذني لأُعِيذَنَّه) [رواه البخاري]

والعلماء أجمعوا على أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قَالَ غِذَاء بْنُ عِيَاضٍ رحمه الله: "مَنْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ الْهَوَى وَاتِّبَاعُ الشَّهَوَاتِ، انْقَطَعَتْ عَنْهُ مَوَادُّ التَّوْفِيقِ".

وقيل لحكيم: ما الشيء الذي لا يستغني عنه المرء في كل حال؟ فقال: "التوفيق .. من حرم التوفيق، فأقطع ما يكون إذا اجتهد".

وقال شقيق بن إبراهيم: أغلق باب التوفيق على الخلق من ستة أشياء: اشتغالهم بالنعمة عن شكرها. ورغبتهم في العلم وتركهم العمل. والمسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة. والاغترار بالصالحين وترك الإقتداء بأفعالهم. وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها. وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها.

يقول الشيخ الشعراوي: "وهكذا نعلم أن هناك فرقاً بين العمل؛ وبين التوفيق في العمل؛ لأن جوارحك قد تنشغل بالعمل؛ ولكن النية قد تكون غير خالصة؛ عندئذ لا يأتي التوفيق من الله. أما إن أقبلت على العمل؛ وفي نيتك أن يوفقك الله سبحانه لتؤدي هذا العمل بإخلاص؛ فستجد الله تعالى يصوِّب لك أيَّ خطأ تقع فيه؛ وستنجز العمل بإتقان وتشعر بجمال الإتقان، وفي الجمال جلال".

فعلينا معاشر المسلمين أن نبتهل ونتضرع إلى ربنا أن يُثبتنا، وأن لا يزيغنا، وأن لا يُحوِّل قلوبنا إلا لما يرضيه جل وعلا .. فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أن كل إنسان قلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن جل وعلا يصرفه كيف يشاء .. فيا مقلب القلوب، مثبت من شاء، ومضل من شاء، وهادي من شاء، ومضل من شاء؛ ثبت قلوبنا على دينك، ولذا أثنى جل وعلا على عباده الراسخين في العلم بأنهم يقولون: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} إلى أن قال عنهم: {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً} [آل عمران: ٧- ٨]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الجدل.. رؤية نفسية

** رَوَى الحاكم والترمذي عَنْ أَبِي أُمَامَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ–: (مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الجَدَلَ) ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ– هَذِهِ الآيَةَ: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} [الزخرف:٥٨] .. قال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن بطرقه وشواهده

** قال الأَوْزَاعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى: بَلَغَنِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ بِقَوْمٍ شَرّاً أَلْزَمَهُمُ الْجَدَلَ، وَمَنَعَهُمُ الْعَمَلَ.

** وروى البيهقي عَنْ مَعْرُوفٍ الْكَرْخِيِّ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرَاً فَتَحَ عَلَيْهِ بَابَ الْعَمَلِ، وَأَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَ الْجَدَلِ، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ شَرّاً أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَ الْعَمَلِ، وَفَتَحَ عَلَيْهِ بَابَ الْجَدَلِ.

** يقول الشيخ عبد العزيز الطريفي: وأعظم ما يُحيل الإنسان عن الحق، ويُحيده عنه، هو كثرة مخالطة الباطل حساً ومعنى، بلا معرفة سابقة بالحق محكمة، وكما جاء في الأثر: "كثرة النظر في الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب"، ولهذا جاءت النصوص في الوحيين بالتحذير من الخوض في الباطل وإدامة النظر فيه أو الجلوس بين المُبطلين: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً} [النساء:١٤٠]، لأن القلب يُشرب الفكرة والرأي شيئاً فشيئاً، حتى تستحكم منه، لذا قال الله تعالى بعد ذلك مبيناً المآل: {إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ} [النساء:١٤٠] أي حالكم سيكون كحالهم، وهذا سبب أكثر الانحراف في البشر، لذا قال المشركون لما سئلوا: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ} [المدثر:٤٢] قالوا: {وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ} [المدثر:٤٥]، وروى أحمد عن ابن مسعود قال: أكثر الناس خطايا أكثرهم خوضاً في الباطل.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقد رأيت من يُكثر مطالعة الباطل أكثر من الحق ككتابات الصحف ومقالات ولقاءات إعلامية وغيرها ويوغل فيها، تُذهب بمعرفة الحق من قلبه من حيث لا يشعر، فالعقل والنقل يدل على أنه ما من فكرة أو عقيدة ولو كانت موغلة في الشر، إلا ولها قبول ولو كان كامناً دقيقا في النفوس.

وإعمال العقل المتجرد في سبر الحقائق وفحصها بلا مؤثر نادر جدا، وكثيرا ما يظن الإنسان أنه اعتقد ما يراه حقا بالعقل المتجرد، ودوافع النفس الدقيقة الأخرى مجتمعة أقوى من دافع العقل.

فالشرع ما منع من مجالسة المبطلين ضعفاً في الحق الذي جاء به، ولكن صوناً للعقل أن تغلبه دوافع النفس فتختلط بالعقل ويتدثر بها، لذا نجد كثيراً من الناس بلغوا حداً مفرطاً من العقل والذكاء يعبدون البقر والحجر بل الفأر، فضلاً عما فوقها من دركات الفكر والرأي، بسبب المخالطة الحسية والمعنوية.

ومزلة الأفهام أن يظن كثير من الناس أنه توصل لقناعة عقلية قاطعة في شيء، والحق غير ذلك، فالعقل الصحيح لا يتنافر إطلاقاً مع النقل الصريح.

ومن كوامن النفس، وبواطنها الخفية إذا اندفعت بقوة بلا تجرد إلى تقرير مسألة أو دفع حجة قوية، الإغضاء عن نقض ما تقرره النفس من وجوه أخرى، فكفار قريش يعترضون على محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كونه بشرًا مثلهم فقالوا: {وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ} [المؤمنون:٣٤] بينما لم تلفت نفوسهم إلى إلههم «الحجر»، فرضي المشركون بالإله الحجر، وردوا نبوة النبي لأنه بشرا لأن النفس منشغلة في صد محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والطعن في نبوته، على أي وجه كان منصرفةً عن طلب الحق، كحال من يُفتش في كُتب السنة ليقف على نص مشتبه، ويضع أُصبعيه في أذنيه عن سماع دِرَّة عُمر على رؤوس الرجال وهو يُفرقهم عن النساء، كما رواه الفكهاني في «تاريخ مكة» وهذا النحو ليس من طرائق أهل العدل والعلم والإيمان.

** ويقول أيضا: وفطرة البشر لا تُحب أن يخالف الإنسان قوله فعله، فكثير من الذين يقعون في بعض المخالفات، ويمارسونها إذا ورد إليهم أقوال متعارضة ولو كان أحدها

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

شاذاً يسبق إلى أذهانهم القول الموافق لفعلهم فتميل النفس له وتؤيده لهذا الدافع النفسي الكامن، الذي يتغالب مع العقل المتجرد ويغلبه كثيراً دون شعور لأن النفس لا تحب أن تقول ما لا تفعل.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الجهل .. داء الأمم

ما شقت أمة بمثل شقائها بجهلها، فالجهل آفة تنخر في كل كيان الأمة، وهو رأس الآفات ومصدر البليات، وشرره وشره يطال الأمة في إيمانها وهويتها وإنتاجها، وضرره على العمل الصالح كبير وعظيم، فقد يأتي عليه بالبطلان والفساد، وقد يتسبب بنقصه وعدم إتمامه على الوجه المطلوب، وقد يتسبب بتركه بالكلية، وقد يجعل صاحبه يرتكب البدع والخرافات معتقداً أنها أعمال صالحات يتقرب بها إلى ربه جل وعلا.

قال المناوي: "ينبغي للعاقل أن ينفي عن نفسه رذائل الجهل بفضائل العلم، وغفلة الإهمال بإسقاط المعاناة، ويرغب في العلم رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه، ولا يلهيه عن طلبه كثرة مال وجدة، ولا نفوذ أمر وعلو قدر، فإن من نفذ أمره فهو إلى العلم أحوج، ومن علت منزلته فهو بالعلم أحق".

قال الصحابي الجليل أبو ذر –رضي الله عنه–: "العالم والمتعلم شريكان في الخير، وسائر الناس لا خير فيهم، كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك"، ويقصد بالرابع الجاهل

وقال الحسن البصري: "لا فقر أشد من الجهل، ولا مال أعود من العقل، ولا عبادة كالتفكر، ولا حسب كحسن الخلق، ولا ورع كالكف".

وقال الأوزاعي –رحمه الله–: سأل رجل ابن مسعود –رضي الله عنه– أي العمل أفضل؟ قال: العلم، فكرر عليه ثلاثاً كل ذلك يقول العلم، ثم قال: ويحك إن مع العلم بالله ينفعك قليل العمل وكثيره، ومع الجهل بالله لا ينفعك قليل العمل ولا كثيره.

يقول الإمام ابن القيم –رحمه الله–: "فلو ظهرت صورة العلم للأبصار لزاد حسنها على صورة الشمس والقمر، ولو ظهرت صورة الجهل لكان منظرها أقبح منظر، بل كل خير في العالم فهو من آثار العلم الذي جاءت به الرسل ومسبب عنه، وكذلك كل خير يكون إلى قيام الساعة وبعدها في القيامة، وكل شر وفساد حصل في العالم

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ويحصل إلى قيام الساعة وبعدها في القيامة، فسببه مخالفة ما جاءت به الرسل في العلم والعمل". [مفتاح دار السعادة:١/١١٦]

الجهل ظلام وخراب

لا أبشع من ظلمة الجهل، لأنها تستحيل صاحبها أعمى وإن كان مبصرا، ومتخبطا وإن كان رزينا، متهورا وإن كان عاقلا .. قال تعالى: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأنعام:١٢٢]

والجهل من أمارات خراب الدنيا وقيام الساعة .. قال –صلى الله عليه وسلم–: (إن من ورائكم أياما ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الْهَرْجُ: القتل) [الترمذي]

وفي رواية: (إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرْج. والهرج: القتل). [متفق عليه]

(ينزل فيها الجهل) يعني به الموانع المانعة عن الاشتغال بالعلم (ويرفع فيها العلم) بموت العلماء، فكلما مات عالم يرفع العلم بالنسبة إلى فقد حامله، وينشأ عن ذلك الجهل بما كان ذلك العالم ينفرد به عن بقية العلماء (ويكثر فيها الهرْج) القتل، وأصله لغة الفتنة والاختلاف والاختلاط كما في الصحاح، وكثيراً ما يسمون الشيء باسم ما يؤول إليه.

قال الجوهري: أصل الهرج الكثرة في الشيء، يعني حتى لا ينتهي.

وذكر صاحب المحكم معاني أخر للهرج منها سعة القتل وكثرة القتل والاختلاط والفتنة في آخر الزمان وكثرة النكاح وكثرة الكذب وكثرة النوم وعدم الإتقان للشيء.

وقال –صلى الله عليه وسلم–: (إن مِنْ أشراط السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ، وَتُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا) [رواه الشيخان عن أنس]

وفي رواية: (إن من أشراط الساعة، أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويفشو الزنا، ويشرب الخمر، ويذهب الرجال، وتبقى النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد). [متفق عليه]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ولفظ رواية البخاري (القيم الواحد) ولامه للعهد، إشعاراً بما هو المعهود من كون الرجال قوّامين على النساء، والقيم ما يقوم بأمرهنّ، فكنى به عن اتيانهنَّ له لطلب النكاح حلالا أو حراماً، وخص هذه الأمور الخمسة بالذكر لإشعارها باختلاف الأمور التي يحصل بحفظها صلاح المعاش والمعاد، وهي:

الدين لأن رفع العلم يخل به، والعقل لأن شرب الخمر يخل به، والنسب لأن الزنا يخل به، والنفس والمال لأن كثرة الفتن تخل بهما.

والمراد بالعلم هنا علم الكتاب والسنة وما يتفرع عنهما، وهو الموروث عن الأنبياء -عليهم السلام- وبخاصة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكلما بعد الزمان عن عصر النبوة قَلَّ العلم وكثر الجهل بصورة عامة.

قال -صلى الله عليه وسلم-: (يأتي على الناس زمان لا يُدْري فيه ما صلاة؟ ما صيام؟ ما صدقة؟) [الطبراني]

وأخرج ابن ماجه والحاكم عن حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يُدْرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، وليسري على كتاب الله عز وجل في ليلة لا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس، الشيخ الكبير العجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة «لا إله إلا الله» فنحن نقولها، فقال له صلةُ: ما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صياماً ولا صدقة ولا نسكاً؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثاً، كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة فقال: يا صلة، تنجيهم من النار، تنجيهم من النار، ثلاثة). [صحيح ابن ماجه:٣٢٧٣]

ويمكن أن يراد برفع العلم «مطلق العلم» للحديث الذي أخرجه النسائي بسند صحيح عن عمرو بن تغلب -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن من أشراط الساعة: أن يفشو المال ويكثر، وتفشو التجارة، ويظهر الجهل، ويبيع الرجل البيع، فيقول: لا. حتى أستأمر تاجر بني فلان، ويلتمس في الحي العظيم الكاتب لا يوجد).

تقسيم رائع

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال الإمام العلامة الراغب الأصفهاني، في كتابه الرائع «الذريعة إلى مكارم الشريعة»:

في أنواع الجهل .. الإنسان في الجهل على أربعة منازل:

(الأول): من لا يعتقد اعتقاداً لا صالحاً ولا طالحاً، فأمره في إرشاده سهل إذا كان له طبع سليم، فإنه كلوح أبيض لم يشغله نقش، وكأرض بيضاء لم يلق فيها بذر، ويقال له باعتبار العلم النظري غُفل، وباعتبار العلم العملي غُمر، ويقال له: سليم الصدر.

(الثاني): معتقد لرأي فاسد، لكنه لم ينشأ عليه، ولم يترب به، واستنزاله عنه سهل، وإن كان أصعب من الأول؛ فإنه كلوحٍ يحتاج فيه إلى محو وكتابة، وكأرضٍ يحتاج فيها إلى تنظيف، ويقال له: غاوٍ وضال.

(الثالث): معتقد لرأي فاسد قد ران على قلبه، وتراءت له صحته، فركن إليه لجهله وضعف نحيزته، فهو ممن وصفه الله تعالى بقوله: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ} [الأنفال:٢٢]، فهذا ذو داء أعيا الأطباء، فما كل داء له دواء، فلا سبيل إلى تهذيبه وتنبيهه، كما قيل لحكيم يعظ شيخاً جاهلاً: ما تصنع؟ فقال: أغسل مسحاً لعله يبيض!!

(الرابع): معتقد اعتقاداً فاسداً عرف فساده، أو تمكن من معرفته، لكنه اكتسب دنية لرأسه، وكرسياً لرئاسته، فهو يحامي عليها، فيجادل بالباطل ليدحض به الحق، ويذم أهل العلم ليجر إلى نفسه الخلق، ويقال له: فاسق ومنافق، وهو من الموصوفين بالاستكبار والتكبر في نحو قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ}[المنافقون:٥]، وقوله: {إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ} [النحل:٢٢]، فنبه تعالى أنهم ينكرون ما يقولونه ويفعلونه لمعرفتهم ببطلانه، ولكن يستكبرون عن التزام الحق، وذلك حال إبليس فيما دعي إليه من السجود لآدم عليه السلام.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الحب مطية لا يضل راكبها

الحب منشأ كل خير، وأنبل الحب حب الله تعالى، فهو شعور مقدَّس ومقدَّم على الخوف وعلى الرجاء، هو رأس الإيمان ولسان الميزان .. والحب مطية لا يضل راكبها، والعبادة بالحب وإن قلت أفضل من العبادة بالخوف وإن عظمت، ولذلك ترى في عبادة المحبين من الروح ما لا ترى في غيرهم.

والمحب لا يحس بالتعب في مرضاة الله تعالى، فما أن ينصب قدميه بين يدي رب الأرباب إلا قرت عينه وسكنت نفسه وأنس بخالقه .. لا يحس بطول قيام ولا جوع صيام ولا غرامة نفقة ولا جهد مرابطة «لا مشقة مع المحبة».

المحبّون لا يرغبون في الخلاص ولو برحت بهم الآلام .. عن عائشة –رضي الله عنها– أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقالت عائشة لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: (أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا) فلما كثر لحمه صلى جالسا، فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع [رواه البخاري]

قال أبو هلال العسكري:

دعا لومي فلومكما معاد ** وقتل العاشقين له معادُ

ولو قتل الهوى أهل التصابي ** لما تابوا ولو ردوا لعادوا

يقول ابن القيم –رحمه الله–: "إنما يجد المشقة في ترك المألوفات والعوائد من تركها لغير الله، فأما من تركها صادقا مخلصا من قلبه لله فإنه لا يجد في تركها مشقة إلا في أول وهلة ليمتحن أصادق هو في تركها أم كاذب، فإن صبر على تلك المشقة قليلا استحالت لذة".

وللمحب همة عاليه فيما لم يؤمر به لزوما من صنوف النوافل، ويشتاق للعبادة شوق الظمآن للماء البارد .. فالمحب لا يزال في الترقي، فهو متعطش للزيادة على الدوام، كما قال النقشبندي رحمه الله:

وذو الصبابة لو يسقي على عدد ** الأنفاس والكون كأس ليس يرويه

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وما يعرف فضل المرء المحب إلا بالمستحبات .. فمن يقوم الليل استحالة أن يهمل في أداء الفرائض الخمس المكتوبة، ومن يصوم اثنين وخميس استحالة أن يترك صوم رمضان.

والمحب يؤثر رضا الله تعالى على هوى نفسه. لذلك أعظم الله الجزاء لأحبائه، فقال تعالى: {وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} [النساء:١٠٠] قال جمهور المفسرين: "أبهم الأجر لعظم الجزاء". فترك الديار ليس بالأمر الهين خاصة وأن النفس تتعلق بجذورها، لكن حب الديار هان أمام محبة الله تعالى ورضاه.

وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً} [النساء:٦٦] فساوى الخروج من الديار بالقتل الذي فيه ذهاب الروح، لأن الإنسان من الصعب عليه ترك ملاعب الصبا وأرض الآباء والأجداد، ولكن لا يسهل هذا إلا في حق المحبين.

عذابُهُ فيكَ عَذبٌ ... وبُعدُهُ عنكَ قُربُ
وأنتَ عَندي كَروحي ... بلْ أنتَ مَنها أحبُّ
وأنتَ للعينِ عينٌ ... وأنتَ للقَلبِ قلبُ
حسبي مِنَ الحبَّ أني ... لما تحبُّ أُحِبُّ

والحب داعية الانقياد، ولذلك قالوا: «المحب كالجمل الأنف إذا قيد انقاد». فالانقياد هو أمارة الحب الوحيدة التي ذكرها الله تعالى في كتابه: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [آل عمران:٣١]

والمحب الصادق لا يركب مركب طبعه الرديء (الغضوب، الفوضوي، الثرثار، الفضولي، الحسود ...) فلا يحتج على سرعة غضبه –مثلا– بأنه عصبي، وانظر إلى عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– قبل البعثة كان من أغلظ الناس وأشدهم فصار بعد الإسلام من أكثر الناس بكاء من خشية الله عز وجل، بل عمر تاريخه بامتداده الجاهلي قال الناس عنه: «لا يسلم ابن الخطاب حتى يسلم حماره» معتبرين بهذه

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

المقولة عن يأسهم من ترويضه بالإسلام وسخريتهم من مجرد احتمال تفكيره به وفي الوقت نفسه من عناده وبطشه، فصار بالإسلام الصحابي عمر مضرب المثل في العدل والحزم .. إنه الحب الذي يروض الطبع العسير والخلق الذميم، فالحياة بالحب من أجل ثمرات هذا الدين التي أحيا الله تعالى بها القلوب وقوم بها السلوك.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إن الله تعالى قال: (من عادي لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي سمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه) [رواه البخاري].

كان أحمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو الفتوح الواعظ أخو الإمام أبي حامد .. كان من أحسن الناس كلاما في الوعظ، وأرشقهم عبارة، مليح التصرف فيما يورده، حلو الاستشهاد، أظرف أهل زمانه وألطفهم طبعا .. قرأ المقرئ بين يديه بالمدرسة التاجية: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[الزمر:٥٣] فقال: شرفهم بياء الإضافة إلى نفسه بقوله: يا عبادي، ثم أنشد:

وهان على اللوم في جنب حبها ** وقول الأعادي إنه لخليع

أصم إذا نوديت باسمي وإنني ** وإذا قيل لي يا عبدها لسميع

والمحبة أعظم منة من الله تعالى، قال جل ذكره: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة:٥٤] فقدم محبته تعالى على محبتهم، فلولا محبة الله لعبده ما اجتباه ولا اصطفاه ولا أحبه، فلله الفضل في الأولى والآخرة.

والشطط في المحبة والمغالاة فيها يخرج العبد عن جادة الاستقامة، وهذا عين الغبن، ومن ذلك قول سمنون المحب:

فليس لي في سواك حظ * فكيفما شئت فاختبرني

فابتلي بحصر البول فصار يطوف ويقول لأطفال الكتاب: "ادعوا لعمكم الكذاب".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الحق قديم

الحق قديم ولا يؤثر في قدمه احتجابه .. وقديماً قالوا: «العود أحمد»، وفي خطاب عمر إلى أبي موسى –رضي الله عنهما– يوصيه بالتراجع عن الخطأ عندما يلوح له الصواب، فيقول: "ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق، فإن الحق قديم لا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل".

قال السرخسي –رحمه الله– معقباً على كلام الفاروق –رضي الله عنه–: "وليس هذا في القاضي خاصة، بل هو في كل من يبين لغيره شيئا من أمور الدين، الواعظ والمفتي والقاضي في ذلك سواء، إذا تبين له أنه زل فليُظهر رجوعه عن ذلك، فزلة العالم سبب لفتنة الناس .. وقوله: «الحق قديم»؛ يعنى هو الأصل المطلوب، ولأنه لا تنكتم زلة من زل، بل تظهر لا محالة، فإذا كان هو الذي يظهر على نفسه كان أحسن حالاً" [المبسوط : ١٦ / ٦٢] .

وقال أمير المؤمنين علي –رضي الله عنه–: "الحق قديم لا يخلق، وإن لكم في الحق سعة، ومن ضاق عنه الحق فالباطل عنه أضيق".

وقال بعض أهل العلم: "إن الشريعة ثابتة، لكن الفقه اجتهادي، ولذا كان للشافعي قولان، وغيّر تلاميذ أبي حنيفة ثلثي مذهب إمامهم، وتعددت الروايات عن الإمام أحمد في المسألة الواحدة، ولم يكونوا يخرجون بذلك عن كلمة عمر الشهيرة «ذاك على ما قضينا، وهذا على ما نقضي» وقوله لأبي موسى: «ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ثم هديت فيه إلى رشدك أن تراجع الحق، فإن الحق قديم»، وجاء رجل للإمام أحمد بكتاب قال: سميته «اختلاف العلماء»، فقال له الإمام أحمد: لا تسمه اختلاف العلماء، سمه: «كتاب السعة»".

ليس من أخطأ الصواب بمخط ... أن يؤب لا ولا عليه ملامة
إنما المخطئ المسيء إذا ما ... ظهر الحق لجّ يحمي كلامه
حسنات الرجوع تذهب عنه ... سيئات الخطا وتنفي الملامة

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

إن الأوبة إلى الحق سلوك نبيل، وفضيلة لا تدانيها فضيلة .. تجرد عن الهوى، وإذعان للحق، وقبوله للصواب ممن كان صغيراً أو كبيراً؛ فإن الحق أكبر من كل الناس، والحق أكبر من كل كبير.

والمسلم الحق عادلا في أقواله وأفعاله؛ لأن الحق قديم في تراثه، والعدل عريق في مجتمعه، والإنصاف مقدس في معتقده.

وما إصرار المخطئ على خطئه بعد قيام الحجة عليه، ووضوح المحجّة بين يديه، إلا ضرب من ضروب المكابرة، لا يصير إليها إلا مخذول أخذته العزّة بالإثم، فآثر العاجل على الآجل، وهذا حال علماء السوء الذين ابتليت بهم الأمّة قديماً وحديثاً، ولهؤلاء خطر داهمٌ تتعيّن مقابلته بالنكير والتحذير.

روى مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: (يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي، ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس).

وروى أحمد وغيره بإسناد حسن عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه قال لكعب: إني أسألك عن أمر فلا تكتمني. قال: والله لا أكتمك شيئاً أعلمه. قال: ما أخوف شيءٍ تخافه على أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- ؟ قال: أئمة مضلون. قال عمر: صدقت، قد أسر ذلك إليَّ وأعلمنيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وقال عبد الله بن المبارك -رحِمَه الله-:

وهل أفسد الدين إلا .. الملوك وأحبار سوء ورهبانها

ومثل (أحبار/علماء) السوء كما روي عن المسيح عليه السلام: كمثل صخرة وقعت في فم النهر، لا هي تشرب ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع، أو كمثل قناة الحُش ظاهرها جص وباطنها نتن، أو مثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام. [إحياء علوم الدين: ١/٧٤].

يقول الشوكاني -رحمه الله-: "من آفات التعصب الماحقة لبركة العلم أن يكون طالب العلم قد قال بقول في مسألة كما يصدر ممن يفتي أو يصنف يناظر غيره ويشتهر ذلك القول عليه؛ فإنه يصعب عليه الرجوع إلى ما يخالفه وإن علم أنه الحق،

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وتبين له فساد ما قاله، ولا سبب لهذا الاستصعاب إلا تأثير الدنيا على الدين؛ فإنه قد يسول له الشيطان أو قد تسول له نفسه الأمارة بالسوء، أن ذلك ينقصه ويحط من رتبته، ويخدش في تحقيقه ويغض من رئاسته، وهذا تخيل مختل وتسويل باطل؛ فإن الرجوع للحق يوجب له من النبالة والجلالة وحسن الثناء ما لا يكون في التصميم على الباطل، بل ليس في التصميم على الباطل إلا محض النقص والإزراء بصاحبه، والاستصغار لشأنه؛ فإن منهج الحق واضح كالمنار يفهمه أهل العلم ويعرفون براهينه، وقد قال أهل العلم في ذلك مقالات كثيرة، ومن شأن الصحابة في مشورتهم، وقصة عمر -رضي الله عنه- في المرأة التي ماتت وتركت زوجاً وأماً وأخوة لأم وأخوة أشقاء في الميراث، فقضى للأم بالثلث فاحتج عليه الإخوة الأشقاء، وقالوا: إن الأخوة من الأم ورثوا لأمهم وهي أمنا، وهب أن أبانا كان حماراً أو كان حجراً ملقاً في اليم أي كأنه ما كان، فما كان من عمر إلا أن أشرك بينهم، فقيل له قد قضيت في أول العام بخلاف هذا، فقال: «ذاك على ما قضينا، وهذا على ما نقضي».

وعن يزيد بن عميرة قال: كان معاذُ لا يجلس مجلساً للذكر إلاَّ قال: الله حَكَمٌ قِسْطٌ، هلَكَ الْمُرتابون، إنَّ مِنْ ورائكم فِتَناً يَكثرُ فيها المالُ، ويُفتحُ فيها القرآنُ، حتى يَأخُذَهُ المؤمنُ والمنافقُ، والرَّجلُ والمرأةُ، والصغيرُ والكبيرُ، والعبدُ والْحُرُّ، فيوشِكُ قائلٌ أنْ يقول: ما للناس لا يَتَّبعوني وقدْ قرأتُ القرآنَ، ما هُمْ بمُتَّبِعيَّ حتَّى أبتدعَ لَهم غيرَهُ، فإيَّاكم وما ابتُدعَ فإنَّ ما ابتُدع ضلالةٌ، وأُحذِّركم زَيْغَةَ الحكيمِ، فإنَّ الشيطانَ قد يقولُ كلمةَ الضلالةِ على لسان الحكيم، وقد يقولُ المنافقُ كلمةَ الحقِّ، قالَ: قلتُ لمعاذ: ما يُدرينِي رحمكَ الله أنَّ الحكيمَ قد يقولُ كلمةَ الضلالةِ، وأنَّ المنافقَ قدْ يقولُ كلمةَ الحقِّ، قال: بلى، اجتنب مِنْ كلام الحكيمِ المشتبهاتِ التي يُقالُ لها: ما هذه [يعني: أنك تستنكرها]، ولا يَثْنِينَّكَ ذلكَ عنه، فإنه لعلَّه أنْ يُراجع، وتلَّقَ الحقَّ إذا سمعته، فإنَّ على الحقِّ نوراً.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الخشية .. زاد الفقيه

الأمور لا تعتبر إلا بمقاصدها، وكل عمل ليس له ثمرة فهو عبث وسدى، ومن الغبن أن ينفق المرء سنون عمره فيما لا جدوى منه، وإنما شرف العلم لأن يشرف العمل ويعلي قدره، ولو العلم لما قامت أمم وشيدت حضارات، فالعلم زينة الدنيا إذا خالط إيمانا راسخا رسوخ الجبال، لذلك نالت المذلة لكل من رفعه العلم ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فالعلماء المتقون هم ورثة الرسل وصفوة البشر ودعامة التقدم، فعلم يبارك الله في ثمرته خير من ملء الأرض ذهبا وفضة.

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (من يرد الله به خيرا يفقه في الدين) [رواه ابن ماجة]

قال مجاهد: الفقيه من يخاف الله عز وجل.

وعن الربيع بن أنس قال: من لم يخش الله تعالى فليس بعالم.

وعن علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– قال: ألا أخبركم بالفقيه، من لم يقنط الناس من رحمة الله، ومن لم يؤمنهم من مكر الله، ولم يرخص لهم في المعاصي، ولم يدع القرآن رغبة إلى غيره.

وقال ابن مسعود –رضي الله عنه–: كفى بخشية الله علما، وكفى بالاغترار به جهلا.

وقال أيضا: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية.

وروي عن عمر أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري: إن الفقه ليس بكثرة السرد، وسعة الهذر، وكثرة الرواية، وإنما الفقه خشية الله عز وجل.

وقيل لسعد بن إبراهيم: من أفقه أهل المدينة ؟ قال أتقاهم لربه عز وجل.

وقال الحسن البصري: العالم من خشي الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه، ثم تلا قوله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} [فاطر:٢٨].

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال سفيان الثوري عن أبي حيان التيمي عن رجل قال: كان يقال العلماء ثلاثة: عالم بالله، عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله، ليس بعالم بالله، فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله تعالى ويعلم الحدود والفرائض، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض، والعالم بأمر الله ليس العالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله عز وجل.

وقال أحد العلماء: إن كمال علم العالم ثلاثة، ترك طلب الدنيا بعلمه، ومحبة الانتفاع لمن يجلس إليه، ورأفته بالناس. وروي عن مطر الوراق قال: سألت الحسن عن مسألة فقال فيها، فقلت يا أبا سعيد: يأبى عليك الفقهاء، فقال الحسن: ثكلتك أمك يا مطر، الفقيه الورع الزاهد المقيم على سنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الذي لا يسخر بمن أسفل منه، ولا يهزأ بمن فوقه، ولا يأخذ على علم علمه الله إياه حطاما.

وعن الحسن قال: الفقيه المجتهد في العبادة، الزاهد في الدنيا، المقيم على سنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–.

وعنه أيضا أنه قال: الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير في دينه، المجتهد في العبادة.

وعن وهب بن منبه قال: الفقيه العفيف المتمسك بالسنة أولئك أتباع الأنبياء.

وقال غيره: إن الفقيه كل الفقيه من فقه في القرآن وعرف مكيدة الشيطان.

وقال الفضيل بن عياض: إنما الفقيه الذي أنطقته الخشية، إن قال قال بالكتاب، وإن سكت سكت بالكتاب، وإن اشتبه عليه شيء وقف عنده ورده إلى عالمه.

وعن الحسن قال: إنا لنجالس الرجل فنرى إن به عيا، وما به عي وإنه لفقيه مسلم أسكتته الخشية.

وقال الشعبي: لسنا بعلماء ولا فقهاء، ولكننا قوم قد سمعنا حديثا فنحن نحدثكم بما سمعناه، إنما الفقيه من ورع عن محارم الله، والعالم من خاف الله عز وجل.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

واستفتى رجل الشعبي فقال أيها العالم أفتني، فقال: إنما العالم من يخاف الله.

وعن جابر أنه تلا قوله تعالى: {وما يعقلها إلا العالمون} [العنكبوت: ٤٣] فقال: العالم الذي عقل عن الله أمره، فعمل بطاعة الله واجتنب سخطه.

وسئل عبد الله بن المبارك هل للعلماء علامة يعرفون بها؟ قال: علامة العالم من عمل بعلمه، واستقل كثير العلم والعمل من نفسه، ورغب في علم غيره، وقبل الحق من كل من أتاه به، وأخذ العلم حيث وجده، فهذه علامة العالم وصفته، قال المروذي: فذكرت ذلك لأبي عبد الله أحمد بن حنبل فقال هكذا هو.

وقيل لابن المبارك: كيف يعرف العالم الصادق؟ فقال: الذي يزهد في الدنيا، ويعقل أمر آخرته.

وقال الزهري: لا نثق للناس بعمل عامل لا يعلم، ولا نرضى لهم بعلم عالم لا يعمل.

وقال الحسن: كان الرجل إذا طلب بابا من العلم لم يلبث أن يرى أثر ذلك في تخشعه وبصره ولسانه ويده وزهده وصلاته وبدنه، وإن كان الرجل ليطلب الباب من العلم فلهو خير له من الدنيا وما فيها.

وروي عن أحد العلماء أنه قال: أدركت الفقهاء بالمدينة يقولون: لا يجوز للرجل أن ينصب نفسه للفتوى، ولا يجوز أن نستفتي إلا الموثوق في عفافه وعقله وصلاحه ودينه وورعه وفقهه وحلمه ورفقه وعلمه بأحكام القرآن والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ، عالما بالسنة والآثار وبمن نقلها والمعمول به منها والمتروك، عالما بوجوه الفقه التي فيها الأحكام، عالما باختلاف الصحابة والتابعين، فإنه لا يستقيم أن يكون صاحب رأي وليس له علم بالكتاب والسنة والأحاديث والاختلاف، ولا صاحب حديث ليس له علم بالفقه والاختلاف ووجوه الكلام فيه، وليس يستقيم واحد منهما إلا بصاحبه، ومن كان من أهل العلم والفقه والصلاح بهذه المنزلة إلا أن طعمته من الناس وحاجته منزلة بهم، وهو محمول عليهم، فليس بموضع الفتوى ولا موثوق في فتواه ولا مأمون على الناس فيما اشتبه عليهم.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم في شيء من الدين إلا تبعا لما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولا يتقدم بين يديه، بل ينظر ما قال، فيكون قوله تبعا لقوله وعمله تبعا لأمره، فهكذا كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين رضي الله عنهم أجمعين.

قال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

ولقد أجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب، فالعلم النافع هو ما باشر القلب فأوجب لها السكينة والخشية والإخبات لله والتواضع والانكسار، فعن أسماء بنت أبي بكر الصديق -رضي الله عنها- قالت: كان أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا قرئ عليهم القرآن كما نعتهم الله تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم، قيل لها: فإن أناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشيا عليه، فقالت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وقال سعيد بن عبد الرحمن الجمحي: مر ابن عمر برجل من أهل القرآن ساقط، فقال ما بال هذا، قالوا إنه إذا قرئ القرآن عليه وسمع ذكر الله سقط، فقال ابن عمر إنا لنخشى الله وما نسقط، ثم قال: إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم، وما كان هذا صنيع أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم-.

وقال عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه-: ذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرئ عليهم القرآن، فقال بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطا رجليه، ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره، فإن رمى بنفسه فهو صادق.

المصادر

- آفات العلم محمد بن سعيد بن رسلان
- موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز السلمان
- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن
- تفسير القرآن العظيم ابن كثير

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الخوف من الله تعالى

الحمد لله الذي جعل الخوف منه مفتاحا للهداية، ووقى أهله من الضلال والغواية، وجعلهم في الآخرة أهل الأمن والرحمة، وأصحاب السرور والنضرة، فجنة الفردوس مأواهم، لخوفهم من ربهم ومولاهم {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} [السجدة:١٧]

قال ابن الوزير: أما الأمان فلا سبيل إليه، بل الخوف واجب، وهو شعار الصالحين.

وقال ابن القيم: الخوف علامة صحة الإيمان، وترحله من القلب علامة ترحل الإيمان منه.

وقال أيضا: فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه، وتدارك فارطه، واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل على حياة قلبه وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته، فإن العبد على جناح سفر، إما إلى الجنة وإما إلى النار، فإذا طال عمره وحسن عمله كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة، فإنه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أجل وأفضل، وإذا طال عمره وساء عمله كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه، ونزولا له إلى أسفل، فالمسافر إما صاعد وإما نازل.

ومن أقواله: من حصلت له اليقظة بلا غفلة واستغرقت أنفاسه فيها استحلى ذلك، فإنه لا أحلى من الحضور في اليقظة، فإنه ينبغي أن يخاف المكر، وأن يسلب هذا الحضور واليقظة والحلاوة، فكم مغبوط بحاله انعكس عليه الحال، ورجع من حسن المعاملة إلى قبيح الأعمال، فأصبح يقلب كفيه ويضرب باليمين على الشمال

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: وبعض الناس يقول: «يا رب إني أخافك، وأخاف من لا يخافك» وهذا كلام ساقط لا يجوز، بل على العبد أن يخاف الله وحده، ولا يخاف أحد، لا من يخاف الله، ولا من لا يخاف الله، فإن من لا يخاف الله أخس

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وأذل من أن يخاف، فإنه ظالم، وهو من أولياء الشيطان، فالخوف منه قد نهى الله عنه.

وقال بعضهم: العاقل لا يخرج عن هذه الأحرف الثلاثة (الأول) أن يكون خائفا لما سلف منه من الذنوب (الثاني) لا يدري ما ينزل به ساعة بعد ساعة (الثالث) يخاف من إبهام العاقبة لا يدري ما يختم له.

وعن عبد الله العمري الزاهد قال: إن من غفلتك عن نفسك إعراضك عن الله، بأن ترى ما يسخطه فتجاوزه، ولا تأمر ولا تنهى عن المنكر خوفا ممن لا يملك لك ضرا ولا نفعا، من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافة المخلوقين نزعت منه الهيبة، فلو أمر بعض ولده لاستخف به.

وروي أن عبد الله بن محيريز رأى على خالد بن يزيد بن معاوية جبة خز، فقال: أتلبس الخز؟! قال: إنما ألبس لهؤلاء وأشار إلى الخليفة، فغضب وقال: ما ينبغي أن يعدل خوفك من الله بأحد من خلقه.

وقرأ الحسن قوله تعالى: {فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون} [الأنعام:٤٤] فقال: مكر بالقوم ورب الكعبة، أعطوا حاجتهم ثم أخذوا.

وقال قتادة: بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوما قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون.

والشهوات لا تنقمع بشيء كما تنقمع بنار الخوف، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات، فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات، وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى.

قيل: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها.

وقيل: الناس على الطريق ما لم يزل الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقيل: ما فارق الخوف قلبا إلا خرب.

وقال أبو حفص: الخوف سراج في القلب، به يبصر ما فيه من الخير والشر، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل، فإنك إذا خفته هربت إليه.

وقيل: الخشية ملاك الأمر، من خشي الله أتى منه كل خير، ومن أمن اجترأ على كل شر.

وقيل: ما للعبد صاحب خير من الخوف والهم فيما مضى من ذنوبه وما ينزل به.

وعن عمرو بن عثمان المكي قال: اعلم أن العلم قائد، والخوف سائق، والنفس حرون بين ذلك جموح خداعة رواغه، فاحذرها وراعها بسياسة العلم، وسقها بتهديد الخوف يتم لك ما تريد .

قال عمر –رضي الله عنه– عند الموت: والله لو أن لي طلاع [ملأها] الأرض ذهبا لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه.

ويروى عنه أنه قال: لو مات جمل ضياعا على جانب الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه يوم القيامة.

وكان رحمة الله عليه يدخل يده في دبرة البعير ويقول: إني لخائف أن أسأل عما بك.

وقال عبد الله بن عامر بن ربيعة: رأيت عمر أخذ تبنة من الأرض فقال: يا ليتني هذه التبنة، ليتني لم أك شيئا، ليت أمي لم تلدني.

وقال أنس: خرجت مع عمر فدخل حائطا فسمعته يقول ـ وبيني وبينه جدار ـ عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ! والله لتتقين الله بني الخطاب أو ليعذبنك.

وعن ابن عمر –رضي الله عنه– قال: ما رأيت عمر غضب قط فذكر الله عنده أو خوف أو قرأ عنده إنسان آية من القرآن إلا وقف عما يريد.

وكان عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– يقول: وددت أن الله غفر لي ذنبا من ذنوبي ودعيت عبد الله بن روثة.

وبكى عبد الله بن رواحة –رضي الله عنه– فبكت امرأته، فقال: ما لك؟ قالت: بكيت لبكائك، فقال: إني قد علمت أني وارد النار، وما أدري أناج منها أم لا.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وعن شداد بن أوس أنه كان إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم، فيقول: اللهم إن النار أذهبت مني النوم، فيقوم فيصلي حتى يصبح.

وقال عطاء الخفاف: ما لقيت سفيان الثوري إلا باكيا، فقلت: ما شأنك؟ قال: أتخوف أن أكون في أم الكتاب شقيا.

وقال إبراهيم بن الأشعث: ما رأيت أحدا كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله أو ذكر عنده أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن وفاضت عيناه وبكى حتى يرحمه من يحضره.

وعن مزيد بن حوشب قال: ما رأيت أخوف من الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز، كأن النار لم تخلق إلا لهما.

وقال شيبان لهارون الرشيد عندما قال له الرشيد عظني فقال: لأن تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمن خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف، قال الرشيد: فسر لي هذا، قال: من يقول لك أنت مسئول عن الرعية فاتق الله أنصح لك ممن يقول أنتم أهل بيت مغفور لكم، وأنتم قرابة نبيكم، فبكى الرشيد حتى رحمه من حوله.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الدنيا في عيون الحكماء والفضلاء

من أشد الغبن وأجهل الجهل أن يهتم المرء بالفاني على الباقي، وبالترحال عن الحل، وبالزوال عن الخلد .. والدنيا جبلت على الفناء، وخلطت بالكادورات، فما حلوها صاف، وما نعيمها خال، بل لابد من المنغصات، ولا مفر من العقبات والكبوات.

هذا وليس المقصود من أحاديث ذم الدنيا أن نُعقّد على الناس أمورهم ومعايشهم، حتى ترى الرجل الذي منّ الله عليه بشيء منّ متاع الدنيا وبسطة الرزق يجلس في مثل هذه المحاضرات مكسوف البال، مطأطئ الرأس، وكأنه المقصود بالكلام، أو كأنه ارتكبا جرما يستحي منه .. وهذا تقدير فاحش وفهم قاصر، فما ذكر أهل الفضل مناقص الدنيا إلا للاعتبار، وتذكرة لمن بها منهمكا، وفي هواها منغمسا، ولحبها شغوفا ولآخرته عبوسا، وكأن له مع الخلد في حطامها موعدا ولفراقها مجانبا.

وما زال النجباء يزرعون ويتاجرون ويعمرون، وفي كل مضمار خير لهم سبق، وفي كل بر لهم يد، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، لكن معقد القضية وملخص الأمر أن أهل الصلاح جعلوا الدنيا في أيديهم لا في قلوبهم وشتان بين الفريقين.

وحول هذا المعنى يقول يونس بن ميسرة الجيلاني: "ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد اللّه تعالى أوثق منك بما في يديك، وأن يكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء، وأن يكون ذامّك ومادحك في الحقّ سواء".

هذه هي حقيقة الدنيا .. إقبال وإدبار، فرح وحزن، شدة ورخاء، سقم وعافية، إلا أن الله تعالى لطيف بعباده، رحيم بخلقه، فتح لهم باباً يتنفسون منه الرحمة، وتنزل منه على قلوبهم السكينة والطمأنينة، ألا وهو: الأنس به والتعلق بجنابه جل وعلا .. فلا يزال المؤمن بخير ما تعلق قلبه بربه ومولاه.. {وَإِنَ الدارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَو كَانُوا

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

يَعلَمُونَ} [العنكبوت/٦٤] أما هذه الدنيا فنكد وتعب وهمٌّ: {لَقَد خَلَقنَا الإِنسانَ في كَبَدٍ} [البلد/٤].

قال بعض السلف: "الدنيا دنيئة، وأدنى منها قلب من يحبّها".

وروي عن عليّ كرّم اللّه وجهه: "الدنيا جيفة، فمن أرادها فليصبر على مزاحمة الكلاب".

ويقول أبو العلاء المعري: "الدنيا إذا أقبلت بلت، وإذا أدبرت برت، وإذا حلت أوحلت، وإذا جلت أوجلت، وكم من ملك رفعت له علامات، فلما علا مات".

وإنما تهلك الدنيا صاحبها كمدا وغما لأنها إذا أقبلت عليه خلعوا عليه مِن صفات الكمال ما ليس فِيه أصلا، فإذا أدبرت عنه الدنيا لا يسأل عنه سائل.

يقول الأديب إبراهيم عبد القادر المازني: "قد أعرف لماذا أقرأ، وما يستهويني من الكتب ويُغريني بالاطلاع، فإنَّ أقلَّ ما في ذلك أنه نقلة إلى عالم غير دنيانا الحافلة بالمنغِّصات المائجة بالمتعبات، ولكني والله لا أدري لماذا أكتب؟ ولست أراني أفدت شيئًا، ولا لي أملٌ في شيء، وأحسبَنِي بين الكتّاب الوحيد الذي يعيش بلا أمل جاد أو طمع مستحث؛ بل لعلِّي الكاتب الوحيد الذي يعتقد أنَّ الدنيا لا تخسر شيئًا – وقد تكسب – إذا خلتْ رقعتها من الأدباء والشعراء، واعتقادي هذا فرع من أصل أعمَّ وأشْمل، هو أنَّ الدنيا لا تنقص إذا قضت الحياة نفسُها نَحبها، فلا إنسان، ولا حياة، ولا نبات، وقد تغير زمن كنت فيه مجنونًا كشيللي [تأتي بمعنى سخريه لعدم فهم الشيء أو عدم الاستطاعة على فعله]، فالآن صار جنوني بهوان الحياة وغرور الإنسان، وعبث العيش كله، وما لقيتُ نعماءَ أو أصابَنِي ضرَّاء إلا قلت كما قال سليمان بن داود: (باطل الأباطيل، الكل باطل)؛ حتَّى لقد هممت أن أسمِّي كتابًا لي: (باطل الأباطيل)، كما سميت آخر (قبض الريح)، وثالثًا (حصاد الهشيم)، فليس إيثاري لهذه الأسماء عن تواضع كما توهم البعض، بل عن نُزُوع إلى الاستخفاف حتى بالنفس، وعن شعور قوي بمرارة الهوان الذي أجده لهذه الحياة وكل مظاهرها".

يقول الشيخ عائض القرني: "إذا كانت الحياة في البساط والسياط والسلطة والسطوة، فأين أصحابها بعد موتهم {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً}

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

[مريم:٩٨]؟ .. عاصر الشافعي خمسة ملوك، عاشوا أغنياء وهو فقير، هم في حشمٍ وخدم وهو في غربة وعزلة، بقي وذهبوا، ذكر ونسوا، عاش وماتوا؛ لأنه أمات الدنيا في حياته، وأحيا الآخرة قبل وفاته، وهم أشربوا في قلوبهم عجل العاجلة، وأخروا في بطاقة أعمالهم الآخرة، ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف".

وفي مقدمة كتاب ذم الدنيا من (إحياء علوم) الدين كتب أبو حامد الغزالي يقول: "الحمد لله الذي عرف أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها، حتى نظروا في شواهدها وآياتها، ووزنوا بحسناتها سيئاتها، فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها، ولا يفي مرجوها بمخوفها، ولا يسلم طلوعها من كسوفها، ولكنها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها، ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين في وصالها، ثم هي فرارة عن طلابها شحيحة بإقبالها، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها، إن أحسنت ساعة أساءت سنة، وإن أساءت مرة جعلتها سُنّة، فدوائر إقبالها على التقارب دائرة، وتجارة بنيها خاسرة بائرة، وآفاتها على التوالي لصدور طلابها راشقة، ومجاري أحوالها بذل طالبيها ناطقة، فكل مغرور بها إلى الذل مصيره، وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره، شأنها الهرب من طالبها، والطلب لهاربها، ومن خدمها فاتته، ومن أعرض عنها واتته، لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات، ولا ينفك سرورها عن المنغصات، سلامتها تعقب السقم، وشبابها يسوق إلى الهرم، ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم، فهي خداعة مكارة طيارة فرارة، لا تزال تتزين لطلابها حتى إذا صاروا من أحبابها كشرت لهم عن أنيابها، وشوشت عليهم مناظم أسبابها، وكشفت لهم عن مكنون عجائبها، فأذاقتهم قواتل سمامها، ورشقتهم بصوائب سهامها، بينما أصحابها منها في سرور وإنعام، إذ ولت عنهم كأنها أضغاث أحلام، ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد، وورارتهم في أكفانهم تحت الصعيد، إن ملكت واحدا منهم جميع ما طلعت عليه الشمس جعلته حصيدا كأن لم يغن بالأمس، تُمنى أصحابها سرورا، وتعدهم غرورا، حتى يأملون كثيرا ويبنون قصورا، فتصبح قصورهم قبورا، وجمعهم بورا، وسعيهم هباء منثورا، ودعاؤهم ثبورا، هذه صفتها، وكأن أمر الله قدرا مقدورا".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ويقول أيضا: "الفائزين المقربين هم علماء الآخرة ولهم علامات: فمنها أن لا يطلب الدنيا بعلمه، فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها، وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها، ويعلم أنهما متضادتان، وأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى، وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ، فبقدر ما تصب منه في الآخر حتى يمتلئ يفرغ الآخر".

وقال بعض الحكماء: "انظر إلى الدنيا نظر الزاهد المفارق لها، ولا تتأملها تأمل العاشق الْوَامِقِ بها".

وسئل علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– عن الدنيا فقال: "تَغُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ".

وسأل بعض خلفاء بني العباس جليسا له عن الدنيا فقال: "إذا أقبلت أدبرت".

وقال عمرو بن عبيد: "الدنيا أمد والآخرة أبد".

وقال أَنُوشِرْوَانَ: "إن أحببت أن لا تغتم فلا تقتن ما به تهتم".

ولما قتل بَزَرْجَمْهَرُ وجد في جيب قميصه رقعة فيها مكتوب: "إذا لم يكن جد ففيم الكد، وإن لم يكن للأمر دوام ففيم السرور، وإذا لم يرد الله دوام ملك ففيم الحيلة".

وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته: "إن الدنيا ليست بدار قراركم، دار كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها الظعن عنها، فكم من عامر موثق عما قليل يخرب، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، إنما الدنيا كفيء ظلال، قلص فذهب، بينا ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قرير العين إذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه .. إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر، إنها تسر قليلا وتحزن طويلا".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الرجولة الأمنية الغالية

الرجولة أصل عظيم من أصول التربية على هذا الدين والإيمان به والدعوة إليه، وحيثما توجد الرجولة، وحيثما تكون البطولة، فإنه يكون عز الدين ومنعته، وغلبة الحق وقيام الدعوة إلى الله، وإحياء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويجب أن نفرق بين مجرد الذكورة وبين الرجولة؛ فإن الله عز وجل خلق الزوجين الذكر والأنثى، لكن ليس كل الذكور رجالاً.

للرجولة في القرآن وصف آخر فيه زيادة على مجرد الذكورة؛ فالله تبارك وتعالى بدأ بأنبيائه في هذا الوصف، فقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ} [الأنبياء:٧] رجالاً مواقفهم رجولية واضحة لمواجهة الفساد، والشرك، والطغيان، والانحراف، والجور، والظلم وكل ما من شأنه أن يخدش أمراً مما أنزله الله.

ولذلك كانت تلك المواقف البطولية، التي لا يفقها إلا أعظم الرجال وأقواهم وأشجعهم: مثل وقوف إبراهيم الخليل –عليه السلام– أمام النمرود، ووقوف موسى –عليه السلام– أمام فرعون، ووقوف نوح –عليه السلام– أمام أمة عاتية ماكرة ألف سنة إلا خمسين عاماً، ووقوف هود –عليه السلام– أمام أمة مستكبرة متجبرة يبنون بكل ريع آية يعبثون، وإذا بطشوا؛ بطشوا جبارين، وكل الأمم لا يقف لدعوتها ويتصدى لجبروتها إلا رجال.

وأعظم هؤلاء الرجال هو خيرة الله ومصطفاه من خلقه محمد –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، مواقفه عظيمة في الدعوة والجهاد في سبيل الله، إذ يخبر أصحابه –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أنه لولا أن يشق عليهم لما بقي خلف سرية تخرج في سبيل الله، ولما تخلف عنها قط!!

وقال أصحابه رضوان الله عليهم "كنا إذا حمي الوطيس [أي اشتدت المعركة] احتمينا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقد تمثل هذا الأمر يوم حنين إذ أقبلت هوازن وما أدراك ما هوازن؟! وقد أعدت وأجلبت؛ حتى قال بعض مسلمة الفتح ممن لم يتمكن الإيمان في قلبه: "لن يردهم اليوم إلا البحر"! وقال الآخر: بطل السحر اليوم!

ومع ذلك وقف -صلوات الله وسلامه عليه- وقد كاد أن يتولى أكثر المسلمين، وقف -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو ينادي: (يا أصحاب بدر! يا أصحاب الشجرة!) حتى اجتمعوا إليه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو ثابت في مكانه، ثم تحولت المعركة لصالح المسلمين، وانتصروا بفضل الله تعالى.

وهناك الكثير من المواقف العظيمة في حياته -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وحياة أصحابه الكرام في اليرموك، والقادسية، ونهاوند، وغيرها، لا تعد ولا تحصى.

من أين تنبع الرجولة؟

الله تبارك وتعالى عندما بعث محمداً -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، استجاب له الشباب، وكفر به الشيوخ؛ وإذا أردت أن تعرف دليلاً واضحاً على ذلك، فانظر كم عاش أصحابه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من بعده، عاشوا أربعين سنة وخمسين سنة ونحو ذلك، فهذا دليل على أنهم لو كانوا من جيله أو قريباً من جيله -كالصديق رضي الله عنه- لتوفي أكثرهم في حياته -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ بل كان أكثرهم شباباً!

ولا سبيل لهؤلاء بالرجولة إلا بالانتقال من البيت إلى المسجد!!

إذن الرجل -أولاً- يتلقى مبادئ الرجولة من المسجد، فقد ترى رجلاً عظيم الجثة؛ لو قلت له: قم إماما للجماعة في قرية فقط وألقِ كلمة، أو تقدم صل بالناس [وهو مجرد ذكر ليس برجل] يخاف ولا يستطيع!! لكن لو أتيت إلى رجل من هؤلاء الرجال -حفظة القرآن- فإنه يتقدم ويصلي بنا ويقرأ الأجزاء الطويلة! أليس هذا رجلاً؟! هذه الرجولة من أين تعلمها؟ من المسجد، ولو قلت له: قم اخطب الجمعة، لقام وخطب! وهكذا تربى الصحابة الكرام على هذه الرجولة، وتنافسوا فيها.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فالرجولة إنما تنمو إذا اقترنت بإحياء المساجد، وبإقامة الدين، وبتحفيظ كتاب الله تبارك وتعالى، وبالأمر بالمعروف، وبالنهي عن المنكر، وبالدعوة إلى الله عز وجل، هنالك يكون محضن الرجولة.

كان مسجد رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هو دار الحكم، ودار القضاء، ومقر القيادة العسكرية، ومقر الفتوى، والعلم، ومقر ذوي الصدقات، والتبرعات، وغيرها، عدِّد ما شئت من ضرورات الأمة وأساسيات حياتها، أين تجدها؟! إنها في المسجد!!

وعلى مدار التاريخ الإسلامي نجد من المسجد تخرج آلاف الحفاظ والفقهاء والحكماء والبلغاء وعلماء اللغة والأدب.

المساجد أعظم حصن ضد نار الشهوات وفتنة الشبهات وأمواج الدياثة العاتية

لذلك ليس ببعيد عن هذا الموضوع وصف الله تعالى لرواد المساجد من رجال وشباب وأطفال بل ونساء بوصف الرجولة في قوله تعالى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ} [النور:٣٦-٣٧].

رجال ومواقف

** اشتهر السلطان العثماني «سليم الأول» رغم قوته بملابسه البسيطة، ويروى أنه رأى ابنه سليمان متزينا لأقصى درجة فقال له موبخاً: "يا بني لقد تزينت كثيرا لدرجة انك لم تترك شيئا لأمك"... وهى نصيحة لها مغزى للشباب.

وكان وزرائه يتعجبون من إصراره على ملابسه القديمة، وفى يوم قالوا للصدر الأعظم: "بلغ السلطان أن سفير البندقية قادم للقائه، وأننا نريد أن نغير ملابسنا فوافقهم السلطان"، وفى اليوم المقرر لحضور سفير البندقية لبس الوزراء كلهم ملابس جديدة، ولكنهم اندهشوا عندما شاهدوا السلطان جالساً على العرش بملابسه القديمة، ولفت انتباههم أن السلطان يضع سيفه البتار على درجة العرش، وكان لمعان السيف في ضوء النهار المنبعث من النافذة يبهر العيون، فلما شاهدوا ذلك خجلوا وسكتوا في حيرة.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وبعد انتهاء لقاء السفير، قال السلطان سليم للصدر الأعظم: "اذهب إلى السفير وقل له كيف وجدت السلطان؟".

فذهب إليه وعاد فقال يا مولاي: إن السفير يقول: "إن شعاع وبريق سيفكم جعل عينيه لا تستطيع حتى رؤية السلطان نفسه".

ابتسم السلطان سليم وقال: "طالما أن سيفنا بتار وبراق فإن بريقه سيجعل أعين الكفار لا تنظر إلى شيء إلا إليه، ولكن لا سمح الله إن أصبح سيفنا غير بتار وبراق فإن الكفار سيروننا أذلاء، وسينظرون إلينا من هضبة عالية باحتقار"

هذا الفهم يحتاجه كل مسلم، ولا يفقهه إلا الرجال الذين لا تخدعهم المظاهر الجوفاء، من الشكل والهيئة والمنظرة الفارغة والإعلام ونظرة المجتمع الدولي .. تلك المفاهيم التي أصابتنا بالخواء والتميع في المواقف.

** ولد القائد «أحمد باشا الجزار» في البوسنة ونشأ وترعرع في حضن الدولة العثمانية، وترقى في المراتب، ولما ظهر من شجاعته عينه السلطان «سليم الثالث» والياً على عكا، وأوكل إليه مهمة الدفاع عنها، فبدأت حياة جديدة للبطل أحمد باشا الذي مرَّغَ أنف نابليون في وحل عكا [من أقدم المدن الفلسطينية التاريخية] وحطم أحلامه في الشرق حيث حاصر نابليون عكا في ١٨ أذار ١٧٩٩م وهو على يقين كامل بأنَّ المدينة ستسقط في يده خلال أيام قليلة خاصةً بعد انتصاره المدوي في مصر.

لكن القائد أحمد باشا قال كلماته التي خطها التاريخ: "لن يمر نابليون وجنوده إلى مخادع نساء عكا، وباقي بلاد يقال فيها، الله أكبر للصلاة ... نحن لن نهزم وسنقهر الأعداء بالإسلام وبنداء الله أكبر"

وأتم الله له ما أراد ببركة رجولته وغيرته على الإسلام وأهله.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

السداد في القول .. منحة الرب لأوليائه

السداد في القول من شيم الأبرار، وشعار الأطهار، وتوفيق من العزيز القهار، القائم على كل نفس بما كسبت، وهو ثمرة مجاهدة طويلة، ومذاكرة للعلم مديدة، فالعلم يهذب المنطق ويجلو الفكرة ويسدد البيان، فالحمد لله الذي خلق فهدى وأنعم فأجزل النعم.

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه الحكيم مخاطبا عباده المؤمنين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٦٩-٧٠]، ويقول سبحانه: {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً} [النساء: ٩]

هاتان الآيتان الكريمتان اختصتا بمصطلح قرآني وأدب رباني لم يرد في غيرهما من آيات الذكر الحكيم، وهو خلق «السداد في القول».

وفي اللغة: السداد والسدد: الاستقامة. والسَّدادُ: إصابةُ القَصد. وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض. قال ابن فارس: "ومن ذلك السَّديد، ذُو السَّداد، أي الاستقامة كأنّه لا ثُلْمة فيه". فالسداد بالمعنى العام هو التوفيق للصواب وإصابة القصد في القول والعمل.

غير أننا إذا تأملنا نصي ورود المصطلح نلاحظ أنهما يشتركان في أمور هي:

- ارتباط السداد بالقول في الآيتين معا.
- الدعوة إلى القول السديد مسبوقة في النصين بالدعوة إلى التقوى.
- أن المأمور بالسداد هم المؤمنون لا غيرهم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا} أي: في كل ما تأتون وما تذرون، لاسيما في ارتكاب ما يكرهه {قَوْلاً سَدِيداً} أي: قويماً حقاً صواباً.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال القاشاني: السداد: في القول، الذي هو الصدق والصواب، هو مادة كل سعادة، وأصل كل كمال؛ لأنه من صفاء القلب وصفاؤه يستدعي جميع الكمالات، وهو وإن كان داخلاً في التقوى المأمور بها، لأنه اجتناب من رذيلة الكذب، مندرج تحت التزكية التي عبر عنها بالتقوى، لكنه أفرد بالذكر للفضيلة، كأنه جنس برأسه، كما خص جبريل وميكائيل من الملائكة.

والقول يكون بابا عظيما من أبواب الخير ويكون كذلك من أبواب الشر. وفي الحديث: (وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم) [أحمد والترمذي] فبالقول السديد تشيع الفضائل والحقائق بين الناس فيرغبون في التخلق بها، وبالقول السيئ تشيع الضلالات والتمويهات فيغتر الناس بها ويحسبون أنهم يحسنون صنعا.

{يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} فجعل صلاحَ الأعمال وغفران الذنوب متوقفاً على سداد القول. وذكر {لَكُمْ} مع فعلي {يُصْلِحْ} {يَغْفِرْ} للدلالة على العناية بالمتقين أصحاب القول السديد كما في قوله تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: ١].

{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} "والطاعة بذاتها فوز عظيم. فهي استقامة على نهج الله. والاستقامة على نهج الله مريحة مطمئنة. والاهتداء إلى الطريق المستقيم الواضح سعادة بذاته، ولو لم يكن وراءه جزاء سواه. وليس الذي يسير في الطريق الممهود المنير وكل ما حوله من خلق الله يتجاوب معه ويتعاون كالذي يسير في الطريق المقلقل المظلم وكل ما حوله من خلق الله يعاديه ويصادمه ويؤذيه! فطاعة الله ورسوله تحمل جزاءها في ذاتها؛ وهي الفوز العظيم، قبل يوم الحساب وقبل الفوز بالنعيم. أما نعيم الآخرة فهو فضل زائد على جزاء الطاعة. فضل من كرم الله وفيضه بلا مقابل. والله يرزق من يشاء بغير حساب". [في ظلال القرآن]

قال -صلى الله عليه وسلم-:

(لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ) [أحمد] فالتحرّي في المنطق منهج الصادقين، وطريقة المؤمنين الصالحين، ومن

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

علامات فضل الإنسان وصلاحه: «صلاحُ قوله وفعله»، ومن لم يعتنِ بما يقول ويعاتب نفسه على زلات لسانه فهو ناقص الدين والعقل والتجربة.

قال أبو جعفر محمد بن يعقوب: كل صواب من القول ورث فعلا صحيحا فهو حكمة.

ومن الأدعية التي يرجى نفعها في هذا الأمر ما علمه النبي –صلى الله عليه وسلم– عليا –رضي الله عنه– أن يدعو به: (اللهم اهدني وسددني، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، وبالسداد سداد السهم). وفي رواية: (اللهم إني أسألك الهدى والسداد) [مسلم].

قال القاضي: أمره بأن يسأل اللّه الهداية والسداد، وأن يكون في ذلك مخطراً بباله أن المطلوب هداية كهداية من ركب متن الطريق وأخذ في المنهج المستقيم، وسداداً كسداد السهم نحو الغرض، والمعنى أن يكون في سؤاله طالباً غاية الهدى ونهاية السداد.

نماذج طيبة

كان الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله رجلاً صالحًا عاقلاً، وقورًا كاملاً، مفرط الذكاء، وأكثر ما كان من صفاته بعد سيادته في العلم وانقطاعه له ما كان من زهده وورعه؛ إذ كان متقللاً من الدنيا جدًّا، متقشفًا متعبدًا، صبورًا على خشونة العيش وضيقه، وكان يقول: "إني لأغلق عليَّ بابي فما يجاوزه همي"

وليس أدل على ذلك مما حكاه عنه تلميذه النضر بن شميل حيث قال: "أقام الخليل في خُصٍّ من أخصاص البصرة، لا يقدرُ على فَلْسَيْنِ، وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال" أي كان الناس يأكلون الدنيا بعلمه – رحمه الله –، كان بعضهم إذا أخذوا العلم عنه قربهم الحاكم وصاروا من حاشيته.

أرسل الأمير إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي – رحمه الله – ليخبره إن كان يريد منه أن يصله بشيء، فقال له الخليل: "أنا مستغنٍ عنك بالذي أغناك عني".. فانظر إلى بليغ قوله وسداد رأيه رحمه الله.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ومن حكايات زهده أن سليمان بن عليٍّ والي البصرة وجَّه إليه يلتمس منه الشخوص إليه وتأديب أولاده نظير راتب يُجرِيه عليه، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزًا يابسًا، وقال: ما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة لي في سليمان. فقال الرسول: فماذا أبلغه عنك؟ فأنشأ يقول:

أبلغ سليمان أني عنه في سعةٍ *** وفي غِنًى غير أني لست ذا مالِ

سخَّي بنفسيَ أني لا أرى أحدًا *** يموت هزلاً ولا يبقي على حالِ

والفقر في النفس لا في المال نعرفه *** ومثل ذاك الغنى في النفس لا المالِ

فالرزق عن قَدَرٍ لا العجز ينقصه *** ولا يزيدك فيه حَوْلُ محتال

فقطع عنه سليمان الراتب، فقال الخليل:

إن الذي شقَّ فمي ضامن *** للرزق حتى يتوفاني

حرمتني خيرًا قليلاً فما *** زادك في مالك حرماني

فبلغت سليمان، فأقامته وأقعدته، وكتب إلى الخليل يعتذر إليه، وأضعف راتبه، فقال الخليل:

وزَلَّة يكثر الشيطان إن ذكرت *** منها التعجب جاءت من سليمانا

لا تعجبَنَّ لخيرٍ زلَّ عن يده *** فالكوكب النحس يسقي الأرض أحيانا

ومن ذلك أيضا ما رواه ابن الجوزي في أخبار الظراف والمتماجنين: قال ثمامة: "دخلت إلى صديق أعوده، وتركتُ حماري على الباب، ولم يكن معي غلامٌ يحفظه ثم خرجت، وإذا فوقه صبيٌّ، فقلتُ: أركبتَ حماري بغير إذني؟ قال: خفت أن يذهب فحفظته لك. قلت: لو ذهب كان أحب لي من بقائه. قال: إن كان هذا رأيك فيه، فاعمل على أنه قد ذهب، وهبه لي، واربح شكري. فلم أَدْرِ ما أقول"

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

السمت الحسن شعار الأبرار

كنز هذه الأمة وثروتها الحقيقة في أبرارها.. إنهم التجسيد الحقيقي لقيمها ومُثلها ، وهؤلاء الأخيار ما فاقوا عوام الناس بفاخر ثيابهم، ولا بحسن طلعتهم، ولا بكرائم أموالهم، وإنما بصالح أعمالهم وحسن سيرتهم حتى اشتهروا بسمة أهل الخير التي هي أعظم جائزة لهم في الدنيا وما عند الله في الآخرة خير لمن اتقى

فعن عبد الله بن سرجس –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قال –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (السمت الحسن، والتؤدة، والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءا من النبوة) [١]

والسمت الحسن هو حسن الهيئة والمنظر، وأصل السمت الطريق ثم استعير للزي الحسن والهيئة المثلى في الملبس وغيره من السيرة المرضية والطريقة المستحسنة، وفي الفائق: السمت أخذ المنهج ولزوم المحجة

قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأعراف:٢٦]

قال ابن عباس –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما–: ولباس التقوى هو السمت الحسن في الوجه.

وقال تعالى: { مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} [الفتح:٢٩]،

قال ابن عباس –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما– يعني السمت الحسن.

وقال مجاهد وغير واحد يعني: الخشوع والتواضع.

وقال ابن أبي حاتم عن منصور عن مجاهد { سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} قال: الخشوع، قلت ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه، فقال: ربما كان بين عيني من هو أقسى قلبا من فرعون.

وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، وقد أسنده ابن ماجة في سننه عن جابر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قال رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار) [٢] والصحيح أنه موقوف

وقال بعضهم: إن للحسنة نورا في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس.

وقال أمير المؤمنين عثمان –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: ما أسر أحد سريرة، إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه، وفلتات لسانه.

والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله عز وجل ظاهره للناس، كما روي عن عمر بن الخطاب –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته.

فالصحابة رضي الله عنهم خلصت نياتهم، وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم.

وقال مالك –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا { ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ} ثم قال { وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ } (٣)

وقال عبد الله بن مسعود: والله ما رزق الله تعالى منافقا هديا ولا سمتا

وهذه الأمة على مدار تاريخها غنية بأبرارها من السلف الصالح الذين تستروح القلوب بذكرهم، وتمتلئ النفوس فخرا بسيرتهم، في عصر الأقزام الذين ضخمهم الإعلام المزيف قسرا في أعين جيل متعطش للقم ولنصر حقيقي يشفي صدور قوم مؤمنين

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فعن أبي كثير بن يحيى قال: قدم سليمان بن عبد الملك المدينة وعمر بن عبد العزيز عامله عليها، فصلى بالناس الظهر، ثم فتح باب المقصورة واستند إلى المحراب واستقبل الناس بوجهه فنظر إلى صفوان بن سليم عن غير معرفة، فقال يا عمر من هذا الرجل ؟ ما رأيت سمتا أحسن منه، قال: يا أمير المؤمنين هذا صفوان بن سليم، قال يا غلام كيس فيه خمسمائة دينار، فأتى بكيس فيه خمسمائة دينار، فقال لخادمه: ترى هذا الرجل القائم يصلي فوصفه للغلام حتى أثبته، قال فخرج الغلام بالكيس حتى جلس إلى صفوان، فلما نظر إليه صفوان ركع وسجد ثم سلم وأقبل عليه، فقال: ما حاجتك ؟ قال أمرني أمير المؤمنين ـ وهو ذا ينظر إليك وإلي ـ أن ادفع إليك هذا الكيس فيه خمسمائة دينار، وهو يقول استعن بهذه على زمانك وعلى عيالك . فقال صفوان للغلام: ليس أنا بالذي أرسلت إليه، فقال له الغلام: ألست صفوان بن سليم ؟، قال بلى أنا صفوان بن سليم، قال فإليك أرسلت، قال اذهب فاستثبت فإذا استثبت فهلم، فقال الغلام فامسك الكيس معك وأذهب، قال لا إن أمسكت فقد أخذت، ولكن اذهب فاستثبت وأنا ههنا جالس، فولى الغلام وأخذ صفوان نعليه وخرج فلم ير بها حتى خرج سليمان من المدينة (٤)

وهذا ابن سكينة الذي يقول عنه الذهبي: الشيخ الإمام العالم الفقيه المحدث الثقة المعمر القدوة الكبير، شيخ الإسلام مفخرة العراق، ضياء الدين بن سكينة البغدادي الشافعي، وسكينة هي والدة أبيه ، قال ابن النجار: شيخنا ابن سكينة شيخ العراق في الحديث والزهد وحسن السمت وموافقة السنة والسلف، عمر حتى حدث بجميع مروياته، وقصده الطلاب من البلاد، وكانت أوقاته محفوظة لا تمضي له ساعة إلا في تلاوة أو ذكر أو تهجد أو تسميع، وكان إذا قرئ عليه منع من القيام له أو لغيره، وكان كثير الحج والمجاورة والطهارة، لا يخرج من بيته إلا لحضور جمعة أو عيد أو جنازة، ولا يحضر دور أبناء الدنيا في هناء ولا عزاء، يديم الصوم غالبا، ويستعمل السنة في أموره، ويحب الصالحين، ويعظم العلماء، ويتواضع للناس، وكان يكثر أن يقول [أسأل الله أن يميتنا مسلمين] وكان ظاهر الخشوع، غزير الدمعة ويعتذر من البكاء ويقول [قد كبرت ولا أملكه] وكان الله قد ألبسه رداء جميلا من

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

البهاء وحسن الخلقة وقبول الصورة ونور الطاعة وجلالة العبادة، وكانت له في القلوب منزلة عظيمة، ومن رآه انتفع برؤيته، فإذا تكلم كان عليه البهاء والنور، لا يشبع من مجالسته، ولقد طفت شرقا وغربا ورأيت الأئمة والزهاد فما رأيت أكمل منه ولا أكثر عبادة ولا أحسن سمتا، صحبته قريبا من عشرين سنة ليلا ونهارا وتأدبت به وخدمته وقرأت عليه بجميع رواياته وسمعت منه أكثر مروياته وكان ثقة حجة نبيلا علما من أعلام الدين (٥)

الهوامش

(١) رواه الترمذي - كتاب البر والآداب والصلة - باب ما جاء في التأني والعجلة رقم ٢٠١٠ ورواه أبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني ٢/٣٣٦ رقم ١١٠٥ ، وعلاء الدين على المتقي في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال رقم ٦٣٧٦، والحديث حسنه الألباني انظر حديث رقم: ٣٦٩٢ في صحيح الجامع السيوطي / الألباني ، وقال أيضا في صحيح الترغيب والترهيب رقم ١٦٩٦ (حسن صحيح)

(٢) ضعيف: ضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم ٥٨١٦ (٣) تفسير ابن كثير - آخر تفسير سورة الفتح بتصرف (٤) صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/١٥٢ (٥) سير أعلام النبلاء للذهبي ج٢١ ص ٥٠٤

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

السيادة .. قمة دونها الصعاب

«السيادة» صفة تدل في مجملها على المقدم على غيره جاهاً أو مكانة أو منزلة أو غلبة أو قوة أو رأياً أو أمراً، والسيادة في حياة المسلم رسالة مضمونها العبودية لله تعالى والسيادة على كل شيء سواه، حياة عزيزة بإيمانها تأبى الدونية وتتعالى على النقائص، حياة ملؤها العزة والكرامة والإيباء ونكران الضيم والمذلة والهوان. والسيادة ليست دعوى تُقال ولا صفة تُمنح، بل هي مكرمة مزيجها البذل والعطاء واستعذاب المشاق في سبيل علو النفس ورفعتها.

السيد الله تبارك وتعالى

عن مطرف قال: قال أبي: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا: أنت سيدنا، فقال: (السيد الله تبارك وتعالى) [رواه أبو داود]

أي: السؤدد على الحقيقة إنما هو لله عز وجل؛ لأنه المتصف بذلك على الإطلاق، فهو الذي الخلق خلقه، والملك ملكه، وهو المتفضل بكل النعم، وهو الذي يتصرف في الخلق كيف يشاء، وهو صاحب السؤدد على الحقيقة، وغيره ممن حصل سؤدداً إنما هو سؤدد ناقص وغير كامل؛ ولهذا فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر عن نفسه بأنه سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام، وهو سيدهم في الدنيا والآخرة صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، ولكن السؤدد الذي يليق بالإنسان للرسول صلى الله عليه وسلم منه الحظ الأكبر والنصيب الأوفر، وأما السؤدد الكامل على الحقيقة فهو لله عز وجل؛ ولهذا قال: (السيد الله) أي: الله هو المتصف بهذا على الحقيقة، وهذا لا يعني ألا يقال لغيره عز وجل: سيد؛ لأن النبي نفسه قال: (أنا سيد ولد آدم)، فأخبر عن نفسه بأنه سيد، وقال عن سعد بن معاذ سيد الأوس: (قوموا إلى سيدكم)، وجاءت نصوص تدل على إطلاق ذلك على المخلوق، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لحمايته جناب التوحيد، ولحرصه على ألا يحصل غلو يؤدي إلى

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

محذور أرشد عليه الصلاة والسلام وبين أن السيد هو الله، وأن السؤدد الحقيقي إنما هو لله سبحانه وتعالى. [شرح سنن أبي داود للعباد]

روي أنه قرأ قارئ {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ} وفي الحاضرين أبو الوفاء بن عقيل، فقال له قائل: يا سيدي، هب أنه أنشر الموتى للبعث والحساب وزوج النفوس بقرنائها بالثواب والعقاب، فلم هدم الأبنية وسير الجبال ودك الأرض وفطر السماء ونثر النجوم وكور الشمس؟

فقال: إنما بني لهم الدار للسكني والتمتع وجعلها وجعل ما فيها للاعتبار والتفكر والاستدلال عليه بحسن التأمل والتذكر، فلما انقضت مدة السكنى وأجلاهم من الدار خربها لانتقال الساكن منها.

فأراد أن يعلمهم بأن الكونين كانت معمورة بهم، وفي إحالة الأحوال وإظهار تلك الأهوال، وبيان المقدرة بعد بيان العزة، وتكذيب لأهل الإلحاد وزنادقة المنجمين وعباد الكواكب والشمس والقمر والأوثان، فيعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، فإذا رأوا آلهتهم قد انهدمت، وأن معبوداتهم قد انتثرت وانفطرت، ومحالها قد تشققت ظهرت فضائحهم وتبين كذبهم، وظهر أن العالم مربوب محدث مدبر له رب يصرفه كيف يشاء، تكذيبا لملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم فكم لله تعالى من حكمة في هدم هذه الدار ودلالة على عظم عزته وقدرته وسلطانه وانفراده بالربوبية وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره وإذ عانها لمشيئته فتبارك الله رب العالمين. [بدائع الفوائد لابن القيم]

السيادة رسالة

يقول بن القيم في كتاب الفوائد: "إن الإنسان هو الغاية التي خلق الله سبحانه لأجلها ما سواه من السماوات والأرض والقمر والنجوم والبر والبحر، وأن الله سبحانه وتعالى جمع ما فرقه في العالم في آدم، فهو العالم الصغير، وفيه ما في العالم الكبير، وأن الإنسان هو خلاصة الوجود وثمرته".

ويقول الإمام محمد عبده عن منظومة حياة المسلم: «عبد لله وحده، وسيد لكل شيء بعده» .. فيعيش المسلم في دوحة الإيمان حياة الأسياد التي تأبى التذلل للخلق

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

مهما علت مناصبهم وتضخمت ثرواتهم .. يعيش المؤمن سيدا متسما بما يتسم به الأسياد من غزارة في المعرفة وسعة في الثقافة ووفرة في الخبرة .. سيدا برجولته وحلمه وشجاعته وكرمه وحيائه وعفافه وطهره .. سيدا يتصرف كما يتصرف الأسياد في إيثارهم وبذلهم.

ولا يتصور أحد أن حياة الأسياد تلك حياة سهلة ميسورة، ففي السيادة مشقة وتعب وعناء، كما قال الماوردي: "إلا من تسهلت عليه المشاق رغبة في الحمد، وهانت عليه الملاذ حذرا من الذم، ولذلك قيل: سيد القوم أشقاهم"

وعن مشقة السيادة قال المتنبي

لولا المشقة ساد الناس كلهم .. الجود يفقر والإقدام قتال

وهذه السيادة تبدأ مع أول يوم في حياة المسلم .. تبدأ مع الولادة والرضاعة .. فمنذ لحظة الولادة التي يكون فيها الآذان أول ما يطرق سمعه. ومروراً بالعقيقة التي يسمي فيها الطفل ويصير له نصيب من اسمه، ويقص فيها من شعره ليوزن ذهب يتصدق به، فتحدد علاقته بالذهب من خلال الشعر المتساقط منه، ليبقي المسلم طول عمره بعد ذلك مالكاً للمادة وسيداً عليها لا يعلوه أي قيمة مادية مهما بلغت.

سادة الناس

– عن أبي بكرة –رضي الله عنه– قال: بينا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب جاء الحسن، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين) [البخاري:٧١٠٩] قال الحافظ في الفتح: وفيه منقبة للحسن بن علي فإنه ترك الملك لا لقلة لا لذلة ولا لعلة، بل لرغبته فيما عند الله لما رآه من حقن دماء المسلمين، فراعى أمر الدين، ومصلحة الأمة.

– يروى أن أبا سفيان سأله الناس: بم سدت الناس؟ قال: "ما خالفت أحداً إلا أبقيت بين وبينه شعرة لعلي أرجع إليه".

– عن عبد الملك بْن عمر، قال: وفد أسماء بْن خارجة إِلى عبد الملك بن مروان، فلما دخل عليه، قال له: بأي شيء سدت الناس؟ قال: هُوَ من غيري أحسن مِنْهُ مني. قَالَ: عزمت عليك لتخبرني، قال: ما تقدمت جليسا لي بركبة لي قط، ولا

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

سألني أحد قط إلا رأيت لَهُ الفضل علي لمساءلته إياي، ولا دعوت أحدا قط إِلَى طعام إلا رأيت لَهُ بذلك الفضل علي.

– قيل لقيس بن عاصم: بم سدت قومك؟ قال: ببذل القرى، وترك المرا، ونصرة المولى.

– من كلام سهل بن هارون: من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب، ومن ترك الأمر الذي لعله أن يبلغ به حاجته مخافة ما لعله أن يوقاه فليس ينال جسيماً.

– قال سعيد بن العاص: ما شاتمت رجلاً مذ كنت رجلاً لأني لا أشاتم إلا أحد رجلين: إما كريم فأنا أحق من احتمله، وإما لئيم فأنا أولى من رفع نفسه عنه.

– قال الكلبي: قال لي خالد بن عبد الله بن يزيد: ما تعدون السؤدد؟ فقلت: أما في الجاهلية فالرياسة، وأما في الإسلام فالولاية، وخير من ذا وذاك التقوى، فقال لي: صدقت، كان أبي يقول: لم يدرك الأول الشرف إلا بالفعل، ولا يدركه الآخر إلا بما أدرك به الأول. قلت: صدق أبوك، ساد الأحنف بحلمه، وساد مالك بن مسمع بمحبة العشيرة له، وساد قتيبة بدهائه، وساد المهلب بهذه الخلال. فقال لي: صدقت، كان أبي يقول: خير الناس للناس خيرهم لنفسه، وذاك أنه إذا كان كذلك أبقى على نفسه من السرق لئلا يقطع، ومن القتل لئلا يقاد، ومن الزنا لئلا يحد، فسلم الناس منه لإبقائه على نفسه.

– قال عدي بن حاتم: السيد الأحمق في ماله، الذليل في عرضه، المطرح لحقده، المعني بأمر جماعته، وأحسن القول ما قارنه الفعل.

– قال رجل للأحنف: لم سودك قومك وما أنت بأشرفهم بيتاً، ولا أصبحهم وجهاً، ولا أحسنهم خلقاً؟ قال: بخلاف ما فيك يا بني، قال: وما ذاك؟ قال: بتركي من أمرك ما لا يعنيني، كما عناك من أمري ما لا يعنيك.

– قال عمرو بن العاص لدهقان نهر تيري: بم ينبل الرجل عندكم؟ قال: بترك الكذب فإنه لا يشرف من لا يوثق بقوله، وبقيامه بأمر أهله فإنه لا ينبل من يحتاج أهله إلى غيره، وبمجانبة الريب فإنه لا يعز من لا يؤمن أن يصادف على سوءة، وبالقيام بحاجات الناس فإنه من رجي الفرج عنده كثرت غاشيته

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الشهرة .. بين المنحة والمحنة

«الشهرة» من السلوكيات التي التبس بها كثير من المفاهيم المغلوطه، ولحقها الذم في كل حال، رغم أنها ليست مذمومة على الإطلاق، فلولا المشاهير ما انتشر العلم ولا عم الفضل، ولا تناقلت الأجيال الخبرات والإنجازات، وإنما كان ذم الشهرة من جانب أثرها على القلب، لأن الإنسان كلما زادت شهرته، صارت التبعة على قلبه أكبر، من جهة المجاهدة على الإخلاص، والتجرد لله تعالى، ومكابدة القلب على تخليصه من حظوظه.

«إذا كانت الشهرة قد تكذب، فإن الأعمال لا تكذب» .. فكثير من العلماء الذين ذموا الشهرة كانوا أنفسهم من المشاهير الذين نشروا العلوم وخدموا البشرية ودعوا إلى الله تعالى، وعبدوا الخلق للحق جل وعلا، وقمعوا البدع وتصدوا للانحرافات والتجاوزات، وقديما قالوا: «من عرف الخلق جدير أن يتحامى، ومن عرف الحق عسير أن يتعامى».

قال الإمام النووي في كتاب القضاء من كتاب «روضة الطالبين»: "وأما من يصلح -أي للقضاء- فله حالان، أحدهما: أن يتعين للقضاء، فيجب عليه القبول، ويلزمه أن يطلبه ويشهر نفسه عند الإمام إن كان خاملا، ولا يعذر بأن يخاف ميل نفسه وخيانتها، بل يلزمه أن يقبل ويحترز، فإن امتنع، عصا".

وقال أيضا: "وأما الطلب، فإن كان خامل الذكر، ولو تولى، اشتهر وانتفع الناس بعلمه، استحب له الطلب على الصحيح".

وكانت الشهرة بالعلم وطلب الحديث -الذي به تنقل السنن النبوية عبر الأجيال- أحد شروط قبول رواية الراوي، وإلا كان ذلك مما يقدح في صحة ما يرويه؛ لدخوله في عداد المجاهيل ومستوري الحال.

وكتب ابن المبارك إلي سفيان الثوري -رحمهم الله-: "بث علمك، واحذر الشهرة"

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه (٢٦٤٢) من حديث أبي ذر –رضي الله عنه– أنه قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: الرجل يعمل العمل لا يريد به إلا وجه الله، فيحبه الناس وفي رواية (فيثني عليه الناس) فقال صلى الله عليه وسلم: «تلك عاجل بشرى المؤمن».

قال النووي في شرحه: " قال العلماء معناه هذه البشرى المعجلة له بالخير وهي دليل على رضاء الله تعالى عنه ومحبته له فيحببه إلى الخلق، ثم يوضع له القبول في الأرض، هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم وإلا فالتعرض مذموم".

ولذلك كان ذم الشهرة يأتي لمن جعلها غاية لا وسيلة، وبذل ماء الوجه وقيم النفس وثوابت الدين من أجل التزلف من الناس أو ذوي سلطان. وهؤلاء الذين يأكلون على كل الموائد من أجل عرض زائل أو منصب فان أو وجاهة منقطعة بانقطاع الأجل، لا ينعمون بالشهرة الحقيقية، فسنة الله في الخلق أن الجزاء من جنس العمل، لذلك قال الفضيل بن عياض: "من أحبَّ أن يُذكر لم يذكر، ومن كره أن يُذكر ذُكر". وقيل لأبي بكر بن عياش: إن أناسا يجلسون في المسجد، ويُجلس إليهم؟ فقال: "من جلس للناس جلس الناس إليه، ولكن أهل السنة يموتون ويبقى ذكرهم، وأهل البدع يمتون ويموت ذكرهم" .. قال شيخ الإسلام ابن تيمية معلقا على هذه المقولة النفيسة: "لأن أهل السنة أحيَّوا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان لهم نصيب من قوله تعالى: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} وأهل البدع شنأوا ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان لهم نصيب من قوله تعالى: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}.

وعلى هذا الأصل تفهم عبارات السلف الصالح ومواقفهم التي تناولت موضوع الشهرة، فما زال الصادقون من العُلَمَاء والصالحين يكرهون الشهرة ويتباعدون عن أسبابها، ويحبون الخمول، ويجتهدون عَلَى حصوله خشية الرياء وحملا للنفس على التواضع لا تنكرا لنشر الخير وزهدا في بذل المعروف.

قال ابن مسعود: "كونوا ينابيع العِلْم مصابيح الظلام، جُددُ القلوب، خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء، وتخفون على أهل الأرض".

وقال مخلد بن الحسين: "ما أحبَّ الله عَبْدٌ فأحب أن يعرف الناس مكانه".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال أحمد بن أبي الحواري: "من عبد الله على المحبة لا يحب أن يرى خدمته سوى محبوبه".

وكان بشر يقول في دعائه: "اللهم إنك تعلم أن الذل أَحَبّ الي من العز، وأن الفقر أَحَبّ الي من الغنى، وأني لا أوثر على حبك شيئًا. فسمعه رجل فأخذه البكاء، فَقَالَ: اللهم أنت تعلم أني لو علمت أن هذا ها هنا لم أتكلم".

وسئل يوسف بن الحسين: "ما بال المحبين يتلذذون بالذل في المحبة؟!

فأنشأ يقول:

ذُلُّ الفتى في الحبِّ مكرمةٌ ... وخضوعه لحبيبه شرفُ

وكان أيوب السختياني يقول: ما صدق عبدٌ إلا أَحَبّ أن لا يُشعر بمكانه. ولما اشتهر بالبصرة كان إذا خرج إِلَى موضع يتحرى المشي في الطرقان الخالية، ويجتنب سلوك الأسواق والمواضع التي يعرف فيها.

وكان سفيان الثوري لما اشتهر يقول: "وددت أن يدي قُطعت من إبطي، وأني لم أشتهر ولم أُعرف".

ولما اشتهر ذكر الإمام أحمد، اشتد غمه وحزنه، وكثر لزومه لمنزله، وقل خروجه في الجنائز وغيرها، خشية اجتماع الناس عليه. وكان يقول: "طوبى لمن أخمل الله ذكره". وكان يقول: "لو قدرت عَلَى الخروج من هذه المدينة –يعني بغداد– لفعلت حتى لا أذكر عند هؤلاء" يعني الملوك. وقال لتلميذه المروذي: "قل لعبد الوهاب: أخمل ذكرك، فإني قد بليت بالشهرة". وكان إذا مشي معه أحد من أقاربه يعرفه الناس، أبعده عنه لئلا يعرف به، وكان لا يدع أحدًا يمشي معه في الطريق ولا يتبعه، فإن تبعه أحد وقف حتى ينصرف الذي معه.

ورأى عمر قومًا يتبعون رجلاً فعلاهم بالدِّرة وقال: "إن خفق النعال خلف الأحمق، قل ما يُبقي من دينه".

ومشى قومٌ مع معروف إِلَى بيته، فلما دخل قال لهم: مشيُنا هذا كان ينبغي لنا أن نتقيه، أليس جاء في الخبر: "أنَّه فتنة للمتبوع مذلة للتابع".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وكان علقمة يكثر الجلوس في بيته فقِيلَ لَهُ: ألا تخرج فتحدث الناس. فَقَالَ: أكره أن يوطأ عقبي ويقال: هذا علقمة، هذا علقمة.

ودخل ابن محيريز على رجل من البزازين يشتري شيئا، فقال له رجل حاضر: أتعرف هذا؟ هذا ابن محيريز، فقال ابن محيريز : "إنما جئنا لنشتري بدراهمنا ليس بديننا".

ودخلَ رجلٌ عَلَى داودَ الطائيّ فسألهُ ما جاء به؟ فَقَالَ: جئت أزورك. فَقَالَ: أمَّا أنتَ فقد أصبتَ خيرًا حيثُ زُرتَ في الله، ولكن أنا أنظرُ ماذا لقيتُ غدًا إذا قيل لي: من أنتَ حتَّى تُزارَ؟ من الزهَّادِ أنتَ؟ لَا والله. من العُبَّادِ أنتَ؟ لَا واللَّه. من الصالحينَ أنت؟ لَا واللَّه .. وَعدَّدَ خصالَ الخيرِ عَلَى هذا الوجهِ، ثُمَّ جعَل يُوبِّخُ نفسُه، فيقول: "يا دَاودُ! كنتَ في الشَّبيبةِ فاسقًا، فلمَّا شِبتَ صِرتَ مُرَائيًا، والمُرائي أشرُّ من الفَاسقِ".

كم بين حال هؤلاء الصادقين وبين من يسعى في ظهوره بكل طريق وسبيل، فهو يتنقل بين الفضائيات ويتصدر المحافل مدعيا أنه خبير أو محلل أو مفكر أو باحث أو فقيه، وتارة أخرى بإظهارِ الأعمالِ والأقوالِ والكراماتِ ليزار وتُلتمَسَ بركتُهُ ودُعاؤُه، وتقبيل يدُهُ وهُو مُحبٌّ لذلك ويُقِيمُ عليهِ ويفرح به أو يسعى في أسبابه، لكن إذا حقت الحقائق تبين الخالص من البهرج، والغث من السمين، والجيد من الردئ.

وها هنا نُكتةٌ دقيقة، وهي أن الإنسانَ قد يذُمُّ نفسهُ بين الناسِ يُريدُ بذلك أن يُرِي أَنه مُتواضعٌ عندَ نفسه، فيرتفعُ بذلكَ عندَهُم ويمدحُونَهُ بهِ، وهذا من دَقائقِ أبوابِ الرِّياءِ وقد نَبَّه عليهِ السلفُ الصالحُ.

قال مُطَرَّفُ بنُ عبدِ الله بن الشِّخِّير: كَفى بالنفس إِطراءً أَن تَذُمَّهَا عَلَى الملأ، كأنك تُرِيدُ بذمِّها زينتَهَا، وذلك عند الله سَفَهٌ.

إن الشهرة الزائفة قاصمة الظهر وفانية المجد ومهلكة الأمم والجماعات، وهي أحد المصائب التي يفرح بها العدو، وأعظم المكائد التي يسعها إليها الحاقدون والمتربصون لهذه الأمة.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الشيب .. النذير العريان

شعرات بيضاء تتسرب إلى سواد اللحية والرأس .. قليلة لكنها مقلقة، وبيضاء لكن الجميع لا يحبونها .. إنها أمارة الكبر وعلامة الكهولة ونذير لأيام العمر التي تسرب منها الكثير دون أن ندري. خاصة وأن هذه الشعرات لها أخوات سرعان ما يظهرن تباعا، وقرينات ربما غطين سواد الرأس في سرعة خاطفة.

والشيب رسالة لا يقرؤها إلا الفطناء، ولا ينتبه لها إلا أهل العقل والرشد، فتراهم يلتفتون لأحوالهم ويصححون مسارهم ليحسن مآلهم، أما الغافلون فهم لا ينتبهون، وإن انتبهوا رأوا في الشيب سنة عابرة وظاهرة ماضية في البشر، ورأى بياض رأسه وما اعتبر.

من نام في ليل الشاب ضلالة ... سيوقظه صبح المشيب إلى الرشد

قال تعالى: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ} [فاطر:٣٧]

أي: أَوَلَم نعمركم تعميراً يتذكر فيه المتذكر. وهو متناول لكل عمر يتمكن منه المكلّف من إصلاح شأنه، والتدبُّر في آياته، وإن قصُر، إلا أن التوبيخ في المتطاول أعظم. وقيل: هو ثماني عشرة سنة. وقيل: ما بين العشرين إلى الستين، وقيل: أربعون. وروي أن العبد إذا بلغ أربعين سنة ولم يتب، مسح الشيطان على وجهه. وقال: "وجه لا يُفلح أبداً"، وقيل: ستون. وعنه صلى الله عليه وسلم: «العمر الذي أعذر الله فيه ابن آدم ستون سنة»، وفي البخاري عنه عليه السلام: «أعذر الله إلى أمريء أخر أجله حتى بلغ ستين سنة». [البحر المديد: ٥/١٨٧]

{وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ} قال بعض أهل التفسير: النذير: الأنبياء، كل نبي نذير أمته. لكن جمهور أهل التفسير على أن النذير: «الشيب»، قاله ابن عباس، وعكرمة، وسفيان، ووكيع، والحسن بن الفضل، والفراء، والطبري.

قال أبو العباس: "كانت العرب تذكر الشيب في أشعارها إمّا مدحاً وإما ذمّاً، وشعرهم في ذمه أكثر منه في مدحه. ويروى أنه قيل: ما بالُ شِعركم في الشيب أحسن أشعاركم في سائر أقوالكم؟ قالوا: لأنا نقوله وقلوبنا قَرِحة".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال يونس النحوي: "ما بكت العربُ على شيء بكاءها على الشباب، وما بلغت كُنْهَ ما يستحق"

ويروى أن بعضهم رأى يوماً شيبة في رأسه فقال: "شر بديل، وخير مبدول".

قال أبو العتاهية:

الشيبُ كُرهٌ وكُرهٌ أن يفارقني .. أعْجِب بشيء على البغضاءِ مَودود

يمضي الشبابُ وقد يأتي له خلَفٌ .. والشيب يذهب مفقوداً بمفقود

وقال علي بن جبلة:

ألقى عصاهُ وأرخى من عِمامته .. وقال ضيفٌ فقلت الشيب قالَ أجَلْ

فقلتُ أخطأتَ دارَ الحيّ قال ألا .. تمّت لك الأربعون الحول ثم نزَلْ

للهِ شيبٌ رمى قلبي بلَوعته .. كأنما اعْتَمَّ منهُ مَفرِقي بجبَلْ

ولأبي العتاهية:

يا خاضبَ الشيبِ بالحِنّاءِ تستُرَهُ .. سلِ المليكَ له سِتراً من النارِ

لن يرحلَ الشيبُ عن دارٍ ألمَّ بها .. حتى يُرحِّلَ عنها صاحبَ الدارِ

وقال الهيثم بن عدي: لقي رجل الهيثمَ بنَ الأسود فقال له: كيف تجدك يا أبا العُريان؟ قال: أجدني صالحا، وأصبحت على ذاك قد ابيض مني ما كنت أحب أن يسود، واسودّ مني ما أحب أن يبيضّ، واشتد مني ما كنت أحب أن يلين، ولان مني ما كنت أحب أن يشتد.

النذير العريان

قال القرطبي: يقال إن ملكاً من اليونان استعمل على ملبسه أمة أدّبها بعض الحكماء، فأرته يوماً المرآة فرأى في وجهه شعرة بيضاء فقصها، فأخذتها الأمة وقبلتها ووضعتها بكفها وأصغت إليها. فقال الملك: أي شيء تصغين؟! قالت: سمعت هذه المبتلاة بفقد قرب الملك تقول قولاً عجباً. قال: ما هو؟ قالت: لا يتجرأ لساني على النطق به. قال: قولي آمنة ما لزمت الحكمة. قالت: تقول أيها الملك المسلط على أمد قريب، إني خفت بطشك بي فلم أظهر حتى عهدت إلى بناتي أن يأخذن بثأري، وكأنك بهنّ وقد خرجن عليك، فإما أن يجعلن الفتك بك، وإما أن ينقصن شهوتك

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقوتك وصحتك حتى تعد الموت غنماً. فقال: اكتبي كلامك. فكتبته، فتدبره ثم نبذ ملكه.

نور المسلم

عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا تنتفوا الشيب، فإنه نور المسلم، من شاب شيبة في الإسلام، كتب الله له بها حسنة، وكفر عنه بها خطيئة، ورفعه بها درجة) [رواه أحمد]

وروي بلفظ: (الشيب نور المؤمن، لا يشيب رجل شيبة في الإسلام إلا كانت له بكل شيبة حسنة، ورفع بها درجة) [رواه البيهقي في الشعب]

وعن فضالة بن عبيد -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-: (من شاب شيبة في سبيل الله [وفي رواية: في الإسلام]؛ كانت له نورا يوم القيامة). فقال رجل عند ذلك: فإن رجالا ينتفون الشيب؟ فقال: (من شاء؛ فلينتف نوره). [رواه أحمد والطبراني]

قال الغزالي: "وإنما نهى عن نتف الشيب من نحو لحية أو رأس لأنه نور ووقار، والرغبة عنه رغبة عن النور، ولأنه في معنى الخضاب بالسواد".

وقال الشوكاني في نيل الأوطار: "والتصريح بكتب الحسنة ورفع الدرجة وحط الخطيئة، نداء بشرف الشيب وأهله، وأنه من أسباب كثرة الأجور، وإيماء إلى أن الرغوب عنه بنتفه رغوب عن المثوبة العظيمة".

فجر المشيب

فجر المشيب أوضح فجر يعاينه الإنسان، وهو فجر صادق لا يعتريه كذب ولا بهتان، فينبغي أن يكون بداية حياة جديدة عامرة بالتقوى والإيمان، ومجافاة أهل الضلال والخذلان، فالسعيد من قبل النذارة، والرشيد من رأى المنارة، فاهتدى بنورها، وسار على دربها، فبياض شيب المعتبرين، بيض وجههم يوم لقاء رب العالمين {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [آل عمران: ١٠٦/١٠٧]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الصمت الفضيلة الغائبة

العالم لا يتوقف عن الكلام، ولا يُقدّر الصمت، ويُصفّق دائماً لمن يتحدث أكثر، ويصفه بالانفتاح والحضور والاجتماعية وسعة الأفق .. بل أصبحت الانطوائية والميل إلى السكوت مرض يتنصّل منه البعض، وتنهال على صاحبه الأوصاف السوداء تارة والساخرة تارة أخرى من معقد ومغلق ومحدود الفكر وكئيب .. هل نحن في زمن قلب الحقائق وتبدل المفاهيم الراسخة على مر العصور، أم أننا بحاجة إلى مراجعة أنفسنا وذاتنا؟ أسئلة تطرح نفسها وتحتاج منا إلى إجابات حاسمة كي لا نضل الطريق.

فضيلة الصمت

قديما قالوا: "إذا تمَّ العقل نقص الكلام". وأثني احدهم علي فضيلة الصمت فقال: "هو زينة بدون حلية، ووهيبة بدون سلطان، وحصن بدون حائط".

رأيتُ الكلام يزينُ الفتى .. والصَّمتُ خير لمن قد صَمَتْ

فكم من حروفٍ تجرُّ الحتوفَ.. ومن ناطقٍ ودّ أن لو سَكَتْ

قال –صلى الله عليه وسلم-: (من صمت نجا) [أحمد والترمذي] أي من صمت عن النطق بالشر، قال الغزالي: "هذا من فصل الخطاب وجوامع كلمه صلى اللّه عليه وسلم وجواهر حكمه، ولا يعرف ما تحت كلماته من بحار المعاني إلا خواص العلماء، وذلك أن خطر اللسان عظيم وآفاته كثيرة من نحو كذب وغيبة ونميمة ورياء ونفاق وفحش ومراء وتزكية نفس وخوض في باطل، ومع ذلك إن النفس تميل إليها لأنها سباقة إلى اللسان ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع والشيطان، فالخائض فيها قلما يقدر على أن يلزم لسانه فيطلقه فيما يحب ويكفه عما لا يحب، ففي الخوض خطر وفي الصمت سلامة مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوقار وفراغ الفكر للعبادة والذكر والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

عن أبي أيوب الأنصاري –رضي الله عنه– قال: جاء رجل إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال: عظني وأوجز، فقال: «إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ، وَلَا تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ غَدًا، وَاجْمَعْ الْإِيَاسَ مِمَّا فِي يَدَيْ النَّاسِ» [رواه أحمد]

روي أنه التقى أربعة من أذكياء الملوك: ملك الهند، وملك الصين، وملك الفرس، وملك الروم .. فاجتمعوا على ذم الكلام ومدح الصمت، فقال أحدهم: "أنا أندم على ما قلت، ولا أندم على ما لم أقل" وقال الآخر: "إنّي إذا تكلمت بالكلمة ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني" وقال الثالث: "عجيب للمتكلم، إن رجعت عليه كلمته ضرّته، وإن لم ترجع لم تنفعه"، وقال الرابع: "أنا على ردّ ما لم أقلّ أقدر مني على ردّ ما قلتُ"

اعمل أكثر مما تتكلم

الصامتون من خير أهل الأرض .. هم من يصنعون التغيير ويُضيفون كثيراً في عصر الثرثرة .. الفئة النادرة التي تعمل أكثر مما تتكلم.

يقول زيجلر: "ثُلث ما يتعلمه حاملو درجة الدكتوراه من علم يأتي من خلال دراستهم الأكاديمية فقط، أما الباقي فيكون حصيلة التأمل والمراقبة خلال سنوات عمرهم الباقية. لذا فليس كل متعلم مفكّر".

إن الإنجاز لن يولد في الضجيج بل تتشكل ملامحه وسط غابات من الصمت ومن السكون، والانطوائية ليست عيباً، بل دليل نبوغ في أحيانٍ كثيرة.

والصمت يمنحك طاقة قوية للتفكير بعمق في كل ما يحصل حولك والتركيز بعقلانية على إجابتك .. قال د.عبد الوهاب المسيري رحمه الله: «لا أقبل شيئاً على علاته، وهذا ما أصابني بداء التأمل».

لكل حالة لبوسها

جعل الله تعالى الصمت ستراً على الجاهل، وزيناً للعالم .. روي أن رجلاً كان يجلس إلى أبي يوسف، تلميذ أبي حنيفة، ويطيل الصمت، فقال له أبو يوسف يوماً: ألا تتكلم؟ فقال بلى: متى يفطرُ الصائم؟ فأجابه: إذا غابت الشمس، فقال: فإن لم تغب

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

إلى نصف الليل؟ فضحك أبو يوسف، وقال: لقد أصبت في صمتك وأخطأت أنا في طلبي لنطقك، ثم قال:

عجبتُ لأزراءِ العيي بنفسهِ .. وصمتُ الذي كان بالصمتِ أعلما

وفي الصمتِ سترٌ للعيي .. وإنما صحيفةُ لبّ المرءِ أنْ يتكلّما

فالصمت ليس محمودا على الإطلاق والكلام أيضا .. بل يبقى لكل مقام مقال، ولكل حالة لبوسها، ولو كان الصمت فضيلة بإطلاق لماتت النصائح الصادقة وغاب التوجيه السديد وفقدنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي ميز هذه الأمة وقامت عليه خيريتها .. تعيش الكلمةُ الصادقة ويُخلد صاحبها، ويبقى في وجدان الناس ويسكن ذاكرة قلوبهم، أما الضجيج الكاذب فربما يبقى قليلا لكن سيظل هشا مُهمشاً في زاوية الصخب .. سيعيش نكرة ويمضي نكرة، ويموت في جوف الفراغ سراباً بلا معنى.

إن الصمت وإن صاحبه سلامة مؤقتة لكنه مسمار يُدَقُ في نعش الفضيلة، قال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } [المائدة:٧٨-٧٩]

قال -صلى الله عليه وسلم-:

- (رحم الله امرءا تكلم فغنم أو سكت فسلم) [صحيح الجامع:٣٤٩٢] وأفهم بذلك أن قول الخير خير من السكوت لأن قول الخير ينتفع به من يسمعه والصمت لا يتعدى صاحبه.

- (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت) [متفق عليه] قال القرطبي: "معناه أن المصدق بالثواب والعقاب المترتبين على الكلام في الدار الآخرة لا يخلو إما أن يتكلم بما يحصل له ثواباً أو خيراً فيغنم أو يسكت عن شيء فيجلب له عقاباً أو شراً فيسلم، وعليه ف «أو» للتنويع والتقسيم، فيسن له الصمت حتى عن المباح لأدائه إلى محرم أو مكروه، وبفرض خلوه عن ذلك فهو ضياع الوقت فيما لا يعنيه، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وأفاد الخبر أن قول الخير خير من الصمت لتقديمه عليه. وأنه إنما أمر به عند عدم قول الخير .. قال القرطبي: "وقد أكثر الناس الكلام في تفصيل آفات الكلام وهي أكثر من أن تدخل تحت حصر وحاصله أن آفات اللسان أسرع الآفات للإنسان وأعظمها في الهلاك والخسران فالأصل ملازمة الصمت إلى أن يتحقق السلامة من الآفات والحصول على الخيرات، فحينئذ تخرج تلك الكلمة مخطومة وبأزمة التقوى مزمومة".

قال ابن القيم رحمه الله: ".. وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يرغب عنها وهو بارد القلب ساكت شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياستهم فلا مبالاة بما جرى للدين، وخيارهم المتحزن المتلمظ، ولو نُوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذَّل وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم قد بُلوا في الدنيا بأعظم بليه تكون وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى وانتصاره للدين أكمل".

وقال أحدهم: "الصمت عن الخنا، أفضل من الكلام بالخطا".

وقال شمس الدين السفاريني: "المعتمد أنَّ الكلام أفضل؛ لأنَّه من باب التحلية، والسكوت من التخلية، والتحلية أفضل، ولأنَّ المتكلم حصل له ما حصل للساكت وزيادةٌ، وذلك أنَّ غاية ما يحصل للساكت السلامة، وهي حاصلةٌ لمن يتكلم بالخير مع ثواب الخير".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

القدر بين الإيمان والتسليم

في الحديث الصحيح الذي رواه الطبراني عن ابن مسعود –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (إذا ذكر القدر فأمسكوا). وقال إبراهيم بن إسحاق الحربي: «من لم يؤمن بالقدر لم يتهن بعيش» .. فالقدر لغز ومعضلة كبيرة حار في فكها حكماء وأذكياء العالم، وما وصلوا بعد الإبحار فيه إلا إلى الحيرة، وبعضهم خرج من الملة، لأن القدر سر من أسرار الله تعالى متعلق بعلمه وحكمته.. يغني هذا وهو بغي جاهل، ويفقر ذاك وهو تقي عالم.. والله لا يحب الفساد.. لكن وراء أقداره سر وحكمة لا يعلمها إلا هو، فتعالى الله الخبير الحكيم.

قال الشاعر:

فلو أن العقول تسوق رزقا ... لكان المال عند ذوي العقول

وقال الشافعي:

تموتُ الأسدُ في الغابات جوعاً ** ولحمُ الضَّأنِ تأكلهُ الكلابُ

وَعَبْدٌ قَدْ يَنامُ عَلَى حَرِيرٍ ** وذو نسبٍ مفارشةُ التُّرابَ

وقال أيضا:

ومن الدّليل على القضاء وكونه ... بؤس اللّبيب وطيب عيش الأحمق

فالملاذ أن تسلم ولا تتهم ربك، قال تعالى: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام:١٢٤] {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر:٤٩] {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الرعد:١٦] {مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا} [الأحزاب:٣٨]

وقد جاء عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– عند البخاري في باب خلق أفعال العباد: «كل شيء بقدر حتى وضعك يدك على خدك».

فلا تسقط ورقة من شجرة إلا بقدر، ولا يتحرك ساكن ولا يسكن متحرك إلا بقدر، حتى العجز والكيس بقدر قدره الله وقضاه، كما قال صلى الله عليه وسلم: (كل

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

شيءٍ بقدر حتى العجز والكيس) رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

فكل شيء بقدر، ولا يمكن أن يكون في الكون شيء لم يرده الله ولم يخلقه إذ الملك ملكه والخلق خلقه، والإيمان بالقدر مفاده أن يؤمن العبد بأن الله سبق في علمه وجود الكائنات وما يعمله العباد من خير وشر، وكتب كل ذلك في اللوح المحفوظ، وأن وجود أي شيء من ذلك إنما يكون بمشيئته، وأنه سبحانه الخالق لكل شيء. قال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات:٩٦]

فالقدر قُدرة الله سبحانه وتعالى، وكل شيء يجري بتقديره، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن.

والقدر هو سر الله تعالى في خلقه، لم يطَّلع على ذلك ملك مقرَّب، ولا نبيٌّ مُرسل. فالقضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته، ولهذا قال الإمام أحمد: «القدر قدرة الله» واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من الإمام أحمد غاية الاستحسان، وقال: "هذا يدل على دقة أحمد، وتبحره في معرفة أصول الدين"، وهو كما قال أبو الوفا، فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أفعال العباد وكتابتها وتقديرها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: يشير إلى أن من أنكر القدر فقد أنكر قدرة الله، وأنه يتضمن إثبات قدرة الله على كل شيء.

وربما انكشفت في بعض المواقف من الأسرار ما يجلي حكمة العليم القدير .. روى أن نبي من الأنبياء كان يجلس بالقرب من بئر ماء فجاء فارس فشرب من البئر وانصرف إلا أن صرة من النقود سقطت منه، ثم جاء راع فشرب ووجد الصرة فأخذها وانصرف، ثم جاء عجوز فشرب فإذا بالفارس قد عاد يسأل عن صرة نقوده فأنكر العجوز العلم بها فقتله الفارس، فتعجب النبي وتوجه إلى ربه تعالى متسائلا، فأعلمه الله تعالى أن أبا الراعي كان معه صرة نقود فسلبها منه أبو الفارس، أما العجوز فقتل أبا الفارس فاقتصصت منه.

وفي قصة الخضر مع موسى أيضا العبر والحكم أشهر من أن تذكر.. لذلك قال العلماء «لا ينبغي الحكم بالمآل بواقع الحال».

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ولهذا كان المنكرون للقدر فرقتين، فرقة كذبت بالعلم السابق ونفته، وهم غلاتهم الذين كفرهم السلف والأئمة وتبرأ منهم الصحابة، وفرقة جحدت كمال القدرة وأنكرت أن تكون أفعال العبادة مقدورة لله تعالى، وصرحت بأن الله لا يقدر عليها، فأنكر هؤلاء كمال قدرة الرب وأنكرت الأخرى كمال علمه.

أما جبرية هذا العصر فهم يقولون بمبدأ «الإنسانية» ويرفضون تصنيف الناس إلى مؤمن وكافر وطائع وعاص .. لأنها عنصرية من وجهة نظرهم، فالكل عندهم إخوة في الإنسانية.

ومتى وسوس الشيطان للعبد في باب القدر تذكر قوله تعالي: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء:٢٣] وقوله أيضا: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً} [النساء: ٤٠]

والأسلم في عقيدة القضاء والقدر الإيمان به مع الأخذ بالأسباب، وهذا نهج السلف الصالح، فلابد من مدافعة القدر بالقدر، فالجوع يدفع بالأكل والمرض بالدواء وجهنم بترك المحرمات، فاعملوا فكل ميسر لما خلق له، فالسبب والقدر متلازمان لا ينفكان، قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل: ٥-١٠]

أما الاحتجاج بالقدر على المعصية فهو عين السفه والغبن وإلا فلماذا أرسل الله الرسل وأنزل الكتب وخلق الجنة للطائعين والنار للعاصين. لذلك قال العلماء: "يصلح الاحتجاج بالقدر عند انتفاء اللوم" لأنه يجعل العبد ينكسر في رحاب ربه ولا يحاجه بقدره عليه .. كأن يتسلط عليك سفيه فتصبر مواسيا نفسك بالقدر، بل وتقول: لعله من ذنبي وتفريطي، فالاحتجاج بالقدر على المصائب وليس على المعائب، بعكس من زنى واحتج بالقدر فهذا خلافه تماما، لأنه في معرض اللوم، وكأنه يقيم الحجة على ربه وحاشاه سبحانه وتعالى.

وآدم عليه السلام، قال الله تعالى فيه: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} [طه:١٢١-١٢٢] فعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-: (لقي آدم موسى، فقال موسى: يا آدم، أنت الذي خلقك

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الله بيده، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، ونفخ فيك من روحه، وفعلت ما فعلت، فأخرجت ذريتك من الجنة، قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته، وكلامه، وقربك نجيا، وأتاك التوراة، فبكم تجد الذنب الذي عملت مكتوبا علي قبل أن أعمله؟ قال: بأربعين عاما، قال: فلا تلومني، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: فحج آدم موسى – ثلاثا». [رواه البخاري ومسلم بنحوه] فاحتج آدم بالقدر بعد التوبة، أي احتج بالقدر على المصيبة وليس على المعصية. لذلك من شروط التوبة المتقبلة «الندم» لأن النادم منكسر قلبه مع ربه لا محتج عليه بقدره.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

المحبة أعلى مقامات الإيمان

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وعبده محمد وعلى آله وصحبه أما بعد:

أركان «الإيمان والإحسان» التي عليها مدار مقامات السالكين جميعها ثلاثة، وهي: *الخوف، والرجاء، والمحبة*

وقد ذكرها سبحانه في قوله: {قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تحويلا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذَابَهُ} [الإسراء:٥٦-٥٧]، // {يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} فإن ابتغاءَ الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه وفعل ما يحبه.

// {وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ} فهذا مقام الرجاء

// {وَيَخافُونَ عَذَابَهُ} فهذا مقام الخوف

والتركيز على المحبة دون الخوف والرجاء ناتج عن الضعف الشامل للأمة، والنظر للغرب نظرة تخوف وترقب، كحال من يركز على صفة النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه نبي الرحمة، ويكثر من ذلك، ولا يذكر أنه -صلى الله عليه وسلم- «نبي الملحمة» إطلاقاً، والتوازن هو المطلوب.

أحكام المحبة والحب

أولا: من الإيمان بالغيب إثبات أن الله سبحانه وتعالى يُحِب ويُحَب

قال تعالى:

// {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران:٣١].

// وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: ٥٤]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

// وعن أنس –رضي الله عنه– قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيه وسَلَّم وَنَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَصَبِيٌّ فِي طَرِيقِ الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا رَأَتْ أُمُّهُ الْقَوْمَ خَشِيَتْ عَلَى وَلَدِهَا أَنْ يُوطَأَ، فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى، وَتَقُولُ: ابْنِي ابْنِي وَسَعَتْ فَأَخَذَتْهُ، فَقَالَ الْقَوْمُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُلْقِيَ ابْنَهَا فِي النَّارِ، قَالَ : فَخَفَضَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيه وسَلَّم فَقَالَ: (وَلاَ اللَّهُ لاَ يُلْقِي حَبِيبَهُ فِي النَّارِ). [رَوَاهُ الْحَارِثُ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ].

ولذلك روي عن قتادة –رحمه الله– قوله: "إياكم وأذى المؤمن فإن الله يحوطه ويغضب له"

وهذه المحبة تتفاوت حسب قوة الإيمان، قال تعالى:

// قال تعالى: {والذين آمنوا أشد حبا لله} [البقرة:١٦٥]

// وفي الصحيحين: عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار)

// ومحبة الأنداد أكثر من حب الله ظلم عظيم، قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} [البقرة: ١٦٥]

والمحبة درجات، وقد أثبت الله لنفسه منها: الخلة والمحبة والمودة:

// فأثبت الخلة لنبينا محمد –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ولأبينا إبراهيم –عليه السلام– قال تعالى: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} [النساء: ١٢٥]

// وأثبت المحبة الخاصة التي لموسى عليه السلام، قال تعالى: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه:٣٩].

// وأثبت المودة في قوله: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} [البروج:١٤] أي: كثير المودة والمحبة لأوليائه ... والود هو خالص الحب

وقال: {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} [هود:٩٠]

ثانياً: من الإيمان بالغيب إثبات أن بعض الجمادات تحب وتُحب

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

// فقد ثبت إثبات المحبة لجبل أحد، فعن ابن عباس عن أبيه –رضي الله عنهما– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: (أحد جبل يحبنا ونحبه) [البخاري ومسلم]

ثالثا: من الأمور القدرية الكونية محبة الناس لبعض المخلوقات

// ودليل ذلك قوله تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [آل عمران:١٤]

// ومن طبيعة البشر المحبة الخاصة بين الزوجين، قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم:٢١]

// وقد يكون بعض الولد أحب من غيرهم، كما قال إخوة يوسف: {إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا} [يوسف:٨].

// ومن طبيعة البشر محبة الأقارب، وخاصة ذوي الإحسان منهم، قال تعالى: {قل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} [الشورى:٢٣] أي: إلا أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم، وتَصِلوا الرحم التي بيني وبينكم.

وقال تعالى: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص:٥٦].

قال ابن كثير:" نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ عَمّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ كَانَ يَحوطُه وَيَنْصُرُهُ، وَيَقُومُ فِي صَفِّهِ وَيُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا طَبْعِيًّا لَا شَرْعِيًّا".

// ومن طبيعة البشر حب المال، قال تعالى: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}. [العاديات:٨].

وقال تعالى: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [الفجر:٢٠]

وقال جل وعلا: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ}. [البقرة:١٧٧]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال سبحانه: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [الإنسان:٨].

وفي موقف الشرع من محبة هذه الأمور الطبيعية يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في كتابه قاعدة في المحبة:

"وكذلك الذي يحب الطعام والشراب والنساء فإن هذا محمود وبه يصلح حال بني آدم، ولولا ذلك لما استقامت نفس الإنسان، ولا وجدت الذرية، ولكن يجب «العدل والقصد» في ذلك كما قال تعالى: {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا}، وكما قال تعالى: {إلا علي أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغي وراء ذلك فأولئك هم العادون}

رابعا: من الأمور الشرعية وجوب محبة الله ورسوله

قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}. [آل عمران:٣١].

وقوله تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: ٥٤].

وهذه المحبة تتفاوت حسب قوة الإيمان، قال تعالى: {والذين آمنوا أشد حبا لله} [البقرة:١٦٥].

وفي شمول هذه المحبة للعبادة يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: "فأصل العبادة محبة الله بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه كمحبة من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحبه"

// وقد لام الله تعالى الصحابة على حب أهل النفاق فقال: {هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} [آل عمران:١١٩].

// ونفى الله الإيمان عمن يواد من حاد الله ورسوله، قال تعالى: {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [المجادلة:٢٢].

وقال تعالى: {لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ} [الممتحنة:١]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

// ومن ذلك محبة الآخرة أكثر من الدنيا، فقد لام الله من يحب الدنيا على الآخرة، قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ} [النحل:١٠٧].

وعند تعارض المحبوب لله والمبغوض للنفس، فالواجب تقديم ما يحب الله، وبذا يصبح المكروه محبوبا، ولذا قال يوسف: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}.

// ومحبة الأهل والمال الوطن لا تقدم على محبة ما يحبه الله من جهاد وهجرة، قال تعالى: {وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}. [التوبة: ٢٤].

// ومحبة الدنيا لا تقدم على الآخرة، قال تعالى: {كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وتذرون الآخرة} [القيامة: ٢٠-٢١].

وهذه المحاب المذمومة منها ما يصل إلى الشرك بالله تعالى، ومنها ما هو محرم.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ

الجهل بئس الرفيق، والجاهل يفعل بنفسه ما لا يفعل العدو بعدوه، فهو كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بِغَيْرِ سِلاَحِ، وإن لم يكن في الجهل أنه يشوش الفكر ويعتم البصيرة لكفى به ذما، فكيف وهو مصيبة وداء عضال يسلب المرء وجهته الصحيحة في الدنيا والآخرة، وهو محض عفن فيه تفرخ الشهوات والشبهات والخرافات والتطرف.

الجهل رأس كل خطيئة، ومنشأ كل ضلال، قال قتادة رحمه الله: "أجمع أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أن كل ما عصي الله به فهو جهالة، عمدا كان أو غيره".

ولهذا جاء وصفهم في القرآن أنهم {يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ} [النِّسَاء: ١٧]. أي جهل بمقام الله وقدره، أو جهل بنظر الله ومراقبته، أو جهل بعاقبة المعاصي وإيجابها لسخط الله، فهو جهل يقود إلى العصيان.

ومن أمثلة ذلك ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم موسى –عليه السلام– حين أمرهم بأمر الله في ذبح البقرة فقالوا: {أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا} [البَقَرَة: ٦٧]. فكان رد موسى عليهم أن قال لهم: {أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} ولم يقل أعوذ بالله أن أكون من المستهزئين أو الساخرين.

كذلك الفواحش والمعاصي جميعها هي ضروب وأنواع من الجهل. فهذا نبي الله يوسف عليه السلام حين دعته امرأة العزيز ومن معها من النسوة إلى الفاحشة فرد عليهن داعيا ربه قائلاً: {رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [يُوسُف: ٣٣].

والجهل محقِّر العظماء، ومضيِّع السفهاء، يطمس الهمة ويذيب الهوية

ومنزلة الفقيه من السفيه   كمنزلة السفيه من الفقيه

فهذا زاهد في قرب هذا   وهذا فيه أزهد منه فيه

وإذا خيَّم الجهل في بلاد اتَّشحت مدنُها بالظلام، وأصبحت أمة مقيَّدة اليدين، ومعصوبة العينين، لا تعرف إلى أيِّ هاوية تُساق.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

إذا ما الجهل خيَّم في بلادٍ   رأيتَ أُسودَها مُسِخَت قُرودَا

وما حل الجهل بمتسع إلا ضاق، قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [الرعد:٤١] .. عن عطاء بن أبي رباح: ذهاب فقهائها وخيار أهلها.وعن مجاهد : موت الفقهاء والعلماء .. وذلك لأن بالعلم وأهله تنتظم حياة الناس ويسع بعضهم بعضا، والجهل سبب الهرج والمرج ونشوء الفتن فتضج الأرض بأهلها.

والجهل يلحق الهزيمة بأصحابه في معركة الوعي، وقديما قالوا: "ليس الخطر أن يقوم الصراع بين الحق والباطل، ولكن الصراع أن يفقد الناس الإحساس بالفرق بين الحق والباطل" .. وانظر ما فعل الجهل بالأمم في غياب الوعي المعرفي واضطراب البوصلة المجتمعية، خاصة في بلدان الربيع العربي، حيث يقول أحد المحللين: "الآن الشعب يجاهد في بعضه البعض، والباقي يذرفون الدموع على عهد الاسترقاق".

يقول شوقي:

إني نظرتُ إلى الشعوب فلم أجد كالجهلِ داءً للشعوبِ مبيداً

الجهلُ لا يلدُ الحياةَ مُواتُهُ   إلا كما تلدُ الرِّمَّام الدُّودا

لم يخُل من صورِ الحياة وإنما   أخطاهُ عُنْصُرها فمات وليدا

فالجهل –كما يقول الشاعر– داء يهلك الشعوب مثل الموت، والموت لا يعطي حياة، كذلك الجاهل يبدو في صورة الأحياء لكن حياته لا خير فيها، كالدود يتوالد من الرمة ولا قيمة له.

نقل السمعاني عن أهل العلم قولهم: "لَا دَاء أعظم من الْجَهْل، وَلَا دَوَاء أعز من دَوَاء الْجَهْل، وَلَا طَبِيب أقل من طَبِيب الْجَهْل، وَلَا شِفَاء أبعد من شِفَاء الْجَهْل".

الجهل طريق مظلم لا فكاك منه إلا بنور المعرفة، ومفازة وعرة لا ينجو منها إلا بمركب العلم .. قال تعالى: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً}[التوبة: ٤٦]

روي عن معاذ بن جبل –رضي الله عنه– أنه قال: "تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، والأنيس في الوحشة، والصاحب

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والزين عند الأخلاء، والقرب عند الغرباء، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخلق قادة يقتدى بهم، وأئمة في الخلق تقتص آثارهم، وينتهى إلى رأيهم، وترغب الملائكة في حبهم، بأجنحتها تمسحهم، حتى كل رطب ويابس لهم مستغفر، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأحرار، ومجالسة الملوك، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، والفكر به يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به يطاع الله عز وجل، وبه يعبد الله عز وجل، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء".

قال الإمام الشافعي:

كم يرفع العلم أشخاصا إلى رتب ويخفض الجهل أشرافا بلا أدبِ

وقال ابن القيم: "ومن كان بالله أعرف كان منه أخوف".

فكل من كان بالله أعلم كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته، كما قال تعالى: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} [البَيّنَة: ٨].

ولما سأل نوح عليه السلام ربه أن ينجي ابنه الكافر من الغرق في الطوفان، عاتبه الله ووعظه وحذّره أن يكون من الجاهلين، فقال -جل وعلا-: {إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [هُود: ٤٦].

والعلم للأمم كنزها الاستراتيجي في عصر الكل يتسابق إلى المعلومة، ولذلك قالوا: "العلم في الغربة وطن، والعلم في الوطن تاج للوطن".

والعلم لا يدرك براحة الجسد، وشرط التوفيق فيه الإخلاص، والسر في ذلك - والله أعلم- أن هداية السبيل ولزوم المحجة أمرٌ عزيز لا يمنحه الله -عز وجل- إلا من يُحِب، وظهرت منه الدلائل على صدق المحبة.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

يقول الشيخ أبو الفداء بن مسعود: "العذر بالجهل لا يعني تسويغ الجهل، وأنَّ الاضطرار إلى التقليد لا يعني الرِّضا به والإقرار عليه؛ هذه خصال ذميمة يَعرف مذمَّتَها مَن له أدنى اطلاع على نصوص شريعة رب العالمين، وينبغي أن يُعلم أن الجهل بما يجب تعلمُه معصية في ذاته، وأن العذر لا يتسع في الآخرة لمن كان قادرًا على تعلم ما يجب عليه أن يتعلمه ولكنه تخلف عن ذلك؛ فإن ما لا يقوم الواجب إلا بتعلمه فتعلمه واجب، وما أُتي الناس في زماننا إلا من قِبَل جهلهم بمراتب العلوم الواجبة عليهم؛ الشرعي منها والدنيوي"

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

إيمانيات

لا أنفع للقلب من أطايب الحكم وروائع المواقف، مما يزيل الغبش ويجلو البصيرة ويفتح الشهية للطاعات، ولقد كان في هذه الأمة فضلاء يعجز المداد عن حصرهم وسرد روائعهم، إلا أن اللبيب تكفيه الإشارة، والفطن من ينتفع بالعبارة، ولن تنفع الكثرة إذا لم تؤثر العِبرة، فاللهم انفعنا بكل خير، وزدنا من كل فضل، أنت مولانا فنعم المولى ونعم النصير

** روى أحمد عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبَاحٍ قَالَ سَمِعْتُ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ يَقُولُ: لَقَدْ أَصْبَحْتُمْ وَأَمْسَيْتُمْ تَرْغَبُونَ فِيمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَزْهَدُ فِيهِ، أَصْبَحْتُمْ تَرْغَبُونَ فِي الدُّنْيَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَزْهَدُ فِيهَا، وَاللَّهِ مَا أَتَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَيْلَةٌ مِنْ دَهْرِهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِمَّا لَهُ. قَالَ: فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَدْ رَأَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَسْتَسْلِف
[رجاله ثقات عدا يحيى بن إسحاق وهو صدوق، وصححه الألباني]
// وفي رواية عن عَلِيِّ بْنَ رَبَاحٍ يَقُولُ سَمِعْتُ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ يَقُولُ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ لِلنَّاسِ مَا أَبْعَدَ هَدْيَكُمْ مِنْ هَدْيِ نَبِيِّكُمْ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَمَّا هُوَ فَأَزْهَدُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَأَمَّا أَنْتُمْ فَأَرْغَبُ النَّاسِ فِيهَا [إسناده صحيح على شرط مسلم]

** ذكر ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية أن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك حج ذات مرة، وبينما هو يطوف بالبيت رأى سالما بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، ونعله مقطعة في يده، وعليه ملابس لا تساوي درهمين. فاقترب منه وسلم عليه ثم قال له: يا سالم ألك إليّ حاجة؟!

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فنظر إليه سالم مستغرباً وغاضباً، ثم قال له: أما تستحي ونحن في بيت الله، وتريد مني أن أرفع حاجتي إلى غير الله؟

فظهر على وجه الخليفة الإحراج والخجل الشديدين وترك سالم وأكمل طوافه وأخذ يراقبه فلما رآه خارجاً من الحرم لحقه وقال له: يا سالم أبيتَ أن تعرض علي حاجتك في الحرم، فاسألني الآن وأنت خارجه.

فقال له سالم: هل أرفع إليك حاجة من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟

فقال الخليفة: يا سالم من حوائج الدنيا، فإن حوائج الآخرة فلا يُسأل فيها إلا الله.

فقال سالم: يا هشام والله ما طلبت حاجة من حوائج الدنيا ممن يملك الدنيا، فكيف أطلبها ممن لا يملكها؟

عندها دمعت عينا الخليفة هشام بن عبد الملك، وقال مقولته الشهيرة:

"ليتني مثل سالم بملكي كله"

** قال عبد الله بن وهب: نذرتُ أني كلَّما اغتبتُ إنسانًا أن أصومَ يومًا.. فأجهدَني ذلك، فكنت أغتاب وأصوم!!

فنويتُ أني كلَّما اغتبتُ إنسانًا أن أتصدق بدرهم، فمن حُبِّ الدراهمِ تركتُ الغيبة.

علّق الذهبيُّ فقال: هكذا والله كان العلماء، وهذا هو ثمرةُ العلمِ النافعِ.

** روى البخاري عن أَبي بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: هَلْ تَدْرِي مَا قَالَ أَبِي لِأَبِيكَ؟

قَالَ: قُلْتُ لَا. قَالَ: فَإِنَّ أَبِي قَالَ لِأَبِيكَ: يَا أَبَا مُوسَى هَلْ يَسُرُّكَ إِسْلَامُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهِجْرَتُنَا مَعَهُ وَجِهَادُنَا مَعَهُ وَعَمَلُنَا كُلُّهُ مَعَهُ بَرَدَ لَنَا [ثبت لنا ودام] وَأَنَّ كُلَّ عَمَلٍ عَمِلْنَاهُ بَعْدَهُ نَجَوْنَا مِنْهُ كَفَافًا [لا ثواب ولا عقاب] رَأْسًا بِرَأْسٍ؟

فَقَالَ أَبِي: لَا وَاللَّهِ قَدْ جَاهَدْنَا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَصَلَّيْنَا وَصُمْنَا وَعَمِلْنَا خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَسْلَمَ عَلَى أَيْدِينَا بَشَرٌ كَثِيرٌ، وَإِنَّا لَنَرْجُو ذَلِكَ.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فَقَالَ أَبِي: لَكِنِّي أَنَا وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ ذَلِكَ بَرَدَ لَنَا، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَمِلْنَاهُ بَعْدُ نَجَوْنَا مِنْهُ كَفَافًا رَأْسًا بِرَأْسٍ.
فَقُلْتُ: إِنَّ أَبَاكَ وَاللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَبِي.

أراد أبو بردة أن عمر خير من أبي موسى، وأراد من الحيثية المذكورة، وإلا فمن المقرر أن عمر أفضل من أبي موسى عند جميع الطوائف، لكن لا يمتنع أن يفوق بعض المفضولين بخصلة لا تستلزم الأفضلية المطلقة، ومع هذا فعمر في هذه الخصلة المذكورة أيضا أفضل من أبي موسى لأن مقام الخوف أفضل من مقام الرجاء، فالعلم محيط بأن الآدمي لا يخلو عن تقصير ما في كل ما يريد من الخير، وإنما قال عمر ذلك هضما لنفسه وإلا فمقامه في الفضائل والكمالات أشهر من أن يذكر.

** كان الحسن البصريُّ يصف النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لطلابه فوصف شعره وعينيه ويديه ولباسه حتى وصل إلى نعله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فسكت ثم قال بحزن: "كان له نعلٌ نعلو بذكره".
فقال له أحد طلابه: كيف نعلو بذكر النعل يا إمام؟
فقال: نعلٌ لم يؤمَر صاحبه بخلعه في السموات العلا ليلة المعراج، بينما أُمِرَ موسى بخلعه وهو على الأرض.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

حسن الظن بالله مع حسن العمل

إن لم نحسن الظن بالله تعالى، فبمن نحسن الظن؟!

قالوا في الحكم: إن لم تحسن ظنك به لأجل وصفه، حسّن ظنك به لوجود معاملته معك، فهل عودك إلا حسناً، وهل أسدى إليك إلا مناً.

وإني لأرجو الله حتى كأنني .. أرى بجميل الظن ما الله صانع

حسن الظن به تعالى من ركائز الإيمان، وتاج عبادة القلب، ومفتاح متانة العقيدة، وسر من أسرار السعادة في الدنيا والآخرة .. قال –صلى الله عليه وسلم–: (إن الله تعالى يقول: أنا عند ظن عبدي بي، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر) [صحيح الجامع:١٩٠٥]

أي أنا عند يقينه بي، فالاعتماد عليّ والوثوق بوعدي، والرهبة من وعيدي، والرغبة فيما عندي، أعطيه إذا سألني، وأستجيب له إذا دعاني، كل ذلك على حسب ظنه وقوة يقينه .. والمراد الحث على تغليب الرجاء على الخوف، والظن الحسن على بابه.

والمعاملة تدور مع الظن، فإذا أحسن ظنه بربه وفى له بما أمل وظن، والتطير سوء ظن باللّه، وهروب عن قضائه، فالعقوبة إليه سريعة والمقت له كائن، ألا ترى إلى العصابة التي فرت من الطاعون كيف أماتهم؟

يقول ابن القيم: ولا ريب أن حسن الظن به إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسن الظن بربه، أنه يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته، وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في الشاهد فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به، ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبداً، فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته، وأحسن الناس ظناً بربه أطوعهم له. كما قال الحسن البصري: "إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال أبو سهل ابن حنيف: دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة –رضي الله عنها– فقالت: لو رأيتما رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في مرض له، وكانت عنده ستة دنانير، أو سبعة دنانير. فأمرني رسول الله أن أفرقها، فشغلني وجعه حتى عافاه الله، ثم سألني عنها: (ما فعلت أكنت فرقت الستة دنانير)، فقلت لا والله، لقد كان شغلني وجعك، قالت: فدعا بها فوضعها في كفه، فقال: (ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده)، وفي لفظ: (ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده).

يقول ابن القيم: فبالله ما ظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم، فإن كان ينفعهم قولهم: حسنا ظنوننا بك إنك لم تعذب ظالماً ولا فاسقاً، فليصنع العبد ما شاء، وليرتكب كل ما نهاه الله عنه، وليحسن ظنه بالله، فإن النار لا تمسه، فسبحان الله، ما يبلغ الغرور بالعبد، وقد قال إبراهيم لقومه: {أَئِفكاً ءَالِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ} [الصافات:٨٦،٨٧] أي ما ظنكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره.

قال الحطيئة:

مَنْ يَفْعَلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جَوازِيَهُ ... لا يَذْهَبُ العُرْفُ بينَ اللَّهِ والناسِ

قال أهل العلم: وحسن ظن العبد بربه جل وعلا من جملة حسن عبادته، فيوقن أنه يعطف على ضعفه وفقره، ويكشف ضره ويغفر ذنبه بجميل صفحه، فيعلق آماله به لا بغيره، وكلما أحسن العبد الأدب في عبادة ربه حسن ظنه بأنه يقبلها، وكل ما شاهد توفيقه لفعلها حسن ظنه في عفوه عن زلّلها، ومن لا يحسن أدبه في خدمة ربه يتوهم أنه يحسن الظن وهو مغرور {وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [لقمان:٣٣] فيراه يأتي بصورة عبادة بغير أدب، ويؤمل القبول، ويسيء الظن بسيده في ضمان رزقه فيحرص عليه ويأخذه من غير حله، ويسيء الظن به في الشدائد فيفزع إلى غيره، ويسيء الظن به في الخلق فلا ينفق في طاعته، ويحقق ظن عدوه وشيطانه فيستجيب له في بخله.

قال –صلى الله عليه وسلم–: (لا يموتن أحد منكم إلا و هو يحسن الظن بالله تعالى) [رواه مسلم]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال المناوي: "أي لا يموتن أحدكم في حال من الأحوال إلا في هذه الحالة، وهي حسن الظن باللّه تعالى بأن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه لأنه إذا حضر أجله وأتت رحلته لم يبق لخوفه معنى بل يؤدي إلى القنوط وهو تضييق لمجاري الرحمة والإفضال، ومن ثم كان من الكبائر القلبية، فحسن الظن وعظم الرجاء أحسن ما تزوده المؤمن لقدومه على ربه.. ونظيره: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [آل عمران:١٠٢] وهذا قاله قبل موته بثلاث.. وأفاد الحث على العمل الصالح المفضي إلى حسن الظن، والتنبيه على تأميل العفو وتحقيق الرجاء في روح اللّه تعالى".

وهذا الحديث أصل عظيم في حسن الرجاء في اللّه وجميل الظن به، وليس لنا وسيلة إليه إلا ذلك، قالوا: والأفضل للمريض أن يكون رجاؤه أغلب، قال القرطبي: وقد كانوا يستحبون تلقين المحتضر محاسن عمله ليحسن ظنه بربه.

قال أبو علي بن الشبل:

وإذا هممت فناج نفسك بالمنى ... وعداً، فخيرات الجنان عدات

واجعل رجاءك دون يأسك جنة ... حتى تزول بهمّك الأوقات

واستر عن الجلساء بثك، إنما ... جلساؤك الحسّاد والشّمات

ودع التوقع للحوادث إنه ... للحي من قبل الممات ممات

فالهم ليس له ثبات مثل ما ... في أهله ما للسرور ثبات

لولا مغالطة النفوس عقولها ... لم تصف للمتيقظين حياة

قال سليمان بن علي أمير البصرة لعمرو بن عبيد: ما تقول في أموالنا التي تعرفها في سبيل الخير؟ فأبطأ في الجواب، يريد به وقار العلم، ثم قال: من نعمة اللّه على الأمير أنه أصبح لا يجهل أن من أخذ الشيء من حقه ووضعه في وجهه فلا تبعة عليه غداً. قال الأمير: نحن أحسن ظناً باللّه منكم. فقال: أقسم على الأمير باللّه، هل تعلم أحداً أحسن ظناً باللّه من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟ قال: لا. قال: فهل علمت أنه أخذ شيئاً قط من غير حله ووضعه في غير حقه؟ قال: اللّهم لا. قال: حسن الظن باللّه أن تفعل ما فعل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

يقول ابن القيم: وأعظم الذنوب عند اللّه تعالى إساءة الظن به، فإن من أساء الظن به ظن به خلاف كماله الأقدس، وظن به ما يناقض أسماءه وصفاته، ولهذا توعد عليه بما توعد به غيره فقال: {عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ} [الفتح:٦] وقال: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ} [فصلت:٢٣].

واليأس منه المحمود ومنه المذموم، فأما المحمود فاليأس مما في أيدي الناس، وأما المذموم فاليأس من رحمة الله.

فاليأس مما في أيدي الناس شيمة الحر، وغاية عز العبد، قال –صلى الله عليه وسلم–: (وايأس مما في أيدي الناس تعش غنيا) [البخاري في الكبير]

وقال الحطيئة:

لما بدا لي منكم عيب أنفسكم ... ولم يكن لجراحي فيكمُ آس

أزمعت يأساً مُبيناً من نَوَالِكُمُ ... ولن ترى طارداً للحر كالياس

أما اليأس من رحمة الله، فقال تعالى: {إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف:٨٧]

قال ابن عباس –رضي الله عنهما–: "الجبن والبخل والحرص غرائز سوء يجمعها كلها سوء الظن بالله عز وجل".

والإنسان كلما ازداد جهلا بربه ازداد سوء طن به جل وعلا، وكلما ازداد علما ويقينا بالله ازداد حسن ظنه بالله عز وجل، قال تعالى: {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران:١٥٤]

ولذلك قال في شأن المؤمنين: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً
لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِين} [الأحزاب:٢٢-٢٤]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

خطورة الجرأة على الفتوى

«الفتيا» .. أمرها عظيم، وشأنها جليل، وهي من الدين بمنزلة الرأس من الجسد، فالفقية يدل الناس على كيفية عبادة الله تعالى على النحو الذي يرتضيه .. ولذلك كان السلف رحمهم الله تعالى يخشون الفتيا، ويشددون فيها، ويتدافعون عنها، فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يسئل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول. وفي رواية: ما منهم من يحدث بحديث إلا ود أن أخاه كفاه إياه، ولا يستفتى عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا.

وقال ابن عباس: إذا ترك العالم لا أدري أصيبت مقاتله، وقال: كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إمام المسلمين وسيد العالمين يسأل عن الشيء فلا يجيب حتى يأتيه الوحي من السماء.

وعن على بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: من علم الرجل أن يقول لما لا يعلم «الله أعلم» لأن الله عز وجل قال لرسوله: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص:٨٦]

وعن ابن مسعود قال: من أفتى الناس في كل ما يستفتونه فهو مجنون.

وقال الشعبي: لا أدري نصف العلم. وقال سفيان: من فتنة الرجل إذا كان فقيها أن يكون الكلام أحب إليه من السكوت. وقال سحنون بن سعيد: أجسر الناس على الفتيا أقلهم علما، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أن الحق كله فيه.

وقال أبو حصين عثمان بن عاصم التابعي: إن أحدكم يفتي في المسألة ولو وردت على عمر لجمع لها أهل بدر.

وأما السلف فكانوا يتركون ذلك خوفا ولعل غيره يكفيه، وقد يكون أدنى لوجود من هو أولى منه، قال ابن معين: الذي يحدث بالبلدة وبها من هو أولى منه بالحديث فهو أحمق.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال مالك: ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك.

وقال سحنون يوما: إنا لله ما أشقى المفتي والحاكم، ثم قال ها أنا ذا يتعلم مني ما تضرب به الرقاب وتوطأ به الفروج وتؤخذ به الحقوق، أما كنت عن هذا غنيا.

وقال أيضا: إني لأحفظ مسائل منها ما فيه ثمانية أقوال من ثمانية أئمة من العلماء، فكيف ينبغي أن أعجل بالجواب قبل الخبر، فلم ألام على حبس الجواب.

وقال بعض العلماء لبعض المفتين: إذا سئلت عن مسألة فلا يكن همك تخليص السائل، ولكن ليكن همك تخليص نفسك.

وقال عمرو بن دينار: لما جلس قتادة للفتيا قال لنفسه: تدري في أي عمل وقعت ؟ وقعت يا قتادة بين الله وبين خلقه ! وقلت هذا يصلح وهذا لا يصلح.

وكان النخعي يسأل فتظهر عليه الكراهة ويقول: ما وجدت أحدا تسأله غيري.

وقال أيضا: قد تكلمت ولو وجدت بدا ما تكلمت، وإن زمانا أكون فيه فقيه أهل الكوفة لزمان سوء.

الإمام أحمد إمام أهل السنة

كان يسوغ استفتاء فقهاء الحديث، أصحاب مالك ويدل عليهم، ومنع من استفتاء من يعرض عن الحديث ولا يبني مذهبه عليه ولا يسوغ العمل بفتواه، قال ابن هانئ سألت أبا عبد الله عن حديث «أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار»، قال أبو عبد الله: يفتي بما لم يسمع، قال وسألته عمن أفتى بفتيا يعي فيها، قال: فإثمها على من أفتاها، قلت على أي وجه يفتي حتى يعلم ما فيها، قال يفتي بالبحث لا يدري أيش أصلها.

ومن أقواله: لا ينبغي للرجل أن يعرض نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال:

(أولها): أن تكون له نية، وهي أن يخلص لله تعالى، ولا يقصد رياسة ولا نحوها، فإن لم يكن له نية لم يكن عليه نور، ولا على كلامه نور.

(الثانية): أن يكون له حلم ووقار وسكينة، وإلا لم يتمكن من فعل ما تصدى له من بيان الأحكام الشرعية.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

(الثالثة): أن يكون قويا على ما هو فيه وعلى معرفته، وإلا فقد عرض نفسه لخطر عظيم.

(الرابعة): الكفاية، وإلا أبغضه الناس، لأنه أحتاج إلى الناس وإلى الأخذ مما في أيديهم، فيتضررون منه.

(الخامسة): معرفة الناس، بأن يكون بصيرا بمكرهم وخداعهم، ليكون حذرا منهم لئلا يوقعوه في المكروه.

وقال عبد الله: كنت أسمع أبي كثيرا يسأل عن المسائل، فيقول: لا أدري، ويقف إذا كانت مسألة فيها اختلاف، وكثيرا ما كان يقول سل غيري، فإن قيل له من نسأل، قال سلوا العلماء ولا يكاد يسمي رجلا بعينه.

ومن أقوالة عليه رحمة الله: وددت أنه لا يسألني أحد عن مسألة، ما شيء أشد علي من أن أسأل عن هذه المسائل، البلاء يخرجه الرجل عن عنقه ويقلدك.

ونقل المروذي أن رجلا تكلم بكلام أنكره عليه أبو عبد الله قال: هذا من حبه الدنيا يسأل عن الشيء الذي لا يحسن فيحمل نفسه على الجواب.

الإمام مالك إمام دار الهجرة

كان الإمام مالك رحمة الله عليه إذا سئل عن المسألة كأنه واقف بين الجنة والنار، وقال أحمد في رواية المروذي: كان مالك يسئل عن الشيء فيقدم ويؤخر ويتثبت، وهؤلاء يقيسون على قوله ويقولون: قال مالك.

وصح عن مالك أنه قال: «ذل وإهانة للعالم أن يجيب كل من سأله». «من فقه العالم أن يقول لا أعلم فإنه عسى أن يهيأ له الخير». «العجلة في الفتوى نوع من الجهل والخرق».

وقال عبد الرحمن ابن مهدي: سأل رجل من أهل الغرب مالك بن أنس عن مسألة، فقال: لا أدري، فقال: يا أبا عبد الله تقول لا أدري، قال: نعم، فأبلغ من وراءك أني لا أدري، وعنه أيضا أنه سأل رجل مالك بن أنس عن مسألة فطال ترداده إليه فيه ولح عليه فقال: ما شاء الله يا هذا إني لا أتكلم إلا فيما أحتسب فيه الخير، ولست أحسن مسألتك هذه

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

من مواقف العلماء الربانيين

عن الزهري: أن أبا بكر الصديق –رضي الله عنه– حدث رجلا بحديث فاستفهمه الرجل، فقال الصديق: هو كما حدثتك أي أرض تقلني إذا قلت بما لا أعلم.

وعن معاوية بن أبي عياش أنه كان جالسا عند عبد الله بن الزبير وعاصم بن عمر، فجاءهما محمد بن إياس ابن البكير، فقال إن رجلا من أهل البادية طلق امرأته ثلاثا، فماذا تريان؟ فقال عبد الله بن الزبير: إن هذا الأمر ما لنا فيه قول، فاذهب إلى عبد الله بن عباس وأبي هريرة فإني تركتهما عند عائشة زوج النبي –صلى الله عليه وسلم– ثم ائتنا فأخبرنا، فذهبت فسألتهما فقال ابن عباس لأبي هريرة أفته يا أبا هريرة فقد جاءتك معضلة، فقال أبو هريرة الواحدة تبينها والثلاث تحرمها حتى تنكح زوجا غيره.

وعن خالد بن أسلم قال: كنا مع ابن عمر فسأله أعرابي أترث العمة؟ فقال لا أدري، قال أنت لا تدري قال نعم اذهب إلى العلماء فسألهم، فلما أدبر الرجل قبل ابن عمر يده فقال: نعم ما قال أبو عبد الرحمن سئل عما لا يدري فقال لا أدري.

وعن عبد الرازق قال: سأل رجل عمرو بن دينار عن مسألة فلم يجبه فقال الرجل إن في نفسي منها شيئا فأجبني، فقال: إن يكن في نفسك منها مثل أبي قبيس أحب إلى أن يكون في نفسي منها مثل الشعرة.

المصادر

- إعلام الموقعين عن رب العالمين ابن القيم الجوزية ـ دار ابن الجوزي / السعودية
- موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز السلمان ج١ / السعودية

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

خياركم كلّ مفتّن توّاب

الذنوب قدر واقع لا بد منه؛ لأن الأرض مليئة بأسباب الذنب، من شيطان لا هم له إلا غواية البشر والقعود لهم بكل صراط، ونفس أمارة بالسوء، وهوى مضل عن سبيل الله، مردٍ في أنواع المهالك، إلى شياطين الإنس الذين يميلون بالناس إلى الشهوات ميلا عظيما، ويوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن يبغونها عوجا، فمهما اتخذ الإنسان الحيطة والوقاية والحذر من الذنوب فإنه غير سالم منها؛ لأنها قدر واقع لا يمكن دفعها بالكلية، كما لا يمكن دفع الأمراض العضوية بالكلية مهما تخذنا من أسباب الحيطة، فالذنوب من قدر الله تعالى، وكل إنسان مكتوب عليه حظه منها كما كتب عليه حظه من المرض.

قال تعالى: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ}، قال طاووس: "ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم–: (إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين: النظر، وزنا اللسان: النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) [رواه البخاري]

ولكن هذا لا يعني التراخي والتهاون مع الذنوب وركوبها في كل خاطرة وسانحة بدعوى أنها قدر وواقع لا مفر منه. كما لا يمنع من مكافحة الذنب وعلاجه والتخلص منه ومن آثاره، لأنه كما يمكن الاحتياط من المرض العضوي، كذلك يمكن الاحتياط من الذنب، وكما أن للمرض علاجا، فكذا للذنب علاجا، ولأن المرض إذا ترك بدون علاج تفاقم وأهلك البدن، وكذا الذنب إذا ترك بدون علاج تفاقم وأهلك الروح، وهلاك الروح أشد من هلاك البدن.

والشرع حين يذكر أن الذنب حقيقة مقدرة على البشر، لا يفوته أن يذكر فضل المدافعين له والمتحامين منه.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ} [الأعراف:٢٠١]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ويقول -عليه الصلاة والسلام-: (كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون) [الترمذي، صحيح الجامع: ٤٥١٥]

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال -صلى الله عليه وسلم-: (مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ الدنيا، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفْتَنًا تَوَّابًا نَسِيًّا إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ). [رواه الطبراني، صحيح الجامع: ٥٧٣٥]

قال المناوي: "(ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة) أي الحين بعد الحين والساعة بعد الساعة، يقال: لقيته فينة والفينة (أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه أبداً حتى يفارق الدنيا، إن المؤمن خلق مفتناً) أي ممتحناً، يمتحنه اللّه بالبلاء والذنوب مرة بعد أخرى، والمفتن الممتحن الذي فتن كثيراً (تواباً نسياً إذا ذكر ذكر) أي يتوب ثم ينسى فيعود ثم يتذكر فيتوب."

يروى أنه لما شرب قدامة بن عبد الله الخمر متأولا جلد، فكاد اليأس يدب في قلبه فأرسل إليه عمر يقول: "قال تعالى: {حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} ما أدري أي ذنبيك أعظم، استحلالك للخمر أولا؟ أم يأسك من رحمة الله ثانيا؟".

وهذا منهج إسلامي إيماني، يمنح العاصين الفرصة للعودة مرة أخرى إلى رحاب الطاعة، ويغلق دونهم أبواب اليأس، ويزرع الأمل في نفوسهم .. جاء رجل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: (يا رسول الله! إني وجدت امرأة في بستان، ففعلت بها كل شيء، غير أني لم أجامعها، قبلتها ولزمتها، ولم أفعل غير ذلك، فافعل بي ما شئت، فلم يقل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شيئاً، فذهب الرجل، فقال عمر: لقد ستر الله عليه، لو ستر على نفسه، فأتبعه رسول الله بصره ثم قال: ردوه علي، فردوه عليه، فقرأ عليه: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} فقال معاذ: يا رسول الله أله وحده، أم للناس كافة؟ فقال: (بل للناس كافة) [مسلم]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وعن أبي بكر –رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: (ما من عبد يذنب ذنبا، فيتوضأ فيحسن الطُهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله بذلك الذنب إلا غفر الله له) [أحمد، صحيح الجامع ٥٧٣٨].

إن من الأخطاء الّتي تسرّبت إلينا من شطحات فكر البعض: طلب الوصول إلى حالة السّلامة الكاملة من الذّنوب، وهذا محال. لأنّ جنس الذّنب لا يسلم منه بشر، وكون المؤمن يجعل هذا غايته فهو يطلب المستحيل، فالله تعالى خلق الإنسان في هذه الحياة وجعل له أجلاً يكتسب فيه الصّالحات، فمن قدم على الله بميزان حسنات راجح فهو النّاجي إن شاء الله تعالى، بغضّ النّظر عمّا وقع فيه من السّيّئات إذا كان موحّداً.

وإنّ النّاظر إلى النّصوص الشرعية يدرك بجلاء أنّ مراد الله تعالى من العبد ليس مجرّد السّلامة من المخالفة، بل المراد بقاء العلاقة بين العبد وربّه، فيطيعه العبد فيُؤجر، ويذنب فيستغفر، وينعم عليه فيشكر، ويقتّر عليه فيدعوه ويطلب منه، ويضيّق أكثر فيلجأ ويضطر، وهكذا.

قال –صلى الله عليه وسلم–: (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم) [صحيح الجامع: ٧٠٧٤]

قال الطِّيبي: "ليس الحديث تسلية للمنهمكين في الذنوب كما يتوهمه أهل الغرة بالله؛ فإن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إنما بعثوا ليردعوا الناس عن غشيان الذنوب، بل بيان لعفو الله تعالى، وتجاوزه عن المذنبين؛ ليرغبوا في التوبة".

ولهذا كان النّبيّ –صلى الله عليه وسلم– مع سلامته من الذّنوب يكثر من أن يستغفر، إمّا لرؤيته تقصيراً من نفسه في حقّ ما يرى من نعمة الله عليه، أو لأنّه يرى من نفسه تقصيراً في الذّكر خصوصاً عندما يدخل الخلاء أو نحو ذلك.

أي أنه –صلى الله عليه وسلم– يحقّق الإرادة القدسيّة في أن يستمرّ العبد في طلب المغفرة من الله تعالى، كبيان أنّه لا يسلم عبد ما من جنس التّقصير الّذي يوجب طلب المغفرة، إمّا تقصيراً عن الأكمل في نظرهم كما في حقّ الأنبياء، أو وقوعاً في الذّنب كما في حقّ غيرهم.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ولذلك قال –صلى الله عليه وسلم–: (سددوا وقاربوا وأبشروا، واعلموا أنه لن يدخل أحدكم الجنة عمله ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة) [متفق عليه] ففيه معنىً لطيفاً يقطع الطّمع على المؤمن أن يبلغ حقيقة التّديّن التامة والقيام بحقوق الله تعالى، بل المطالبة أن يسدّد العبد وأن يقارب فكأنّ الإصابة غير ممكنة، ولكن كلّما كان سهم العبد أقرب إلى الإصابة فهو أقرب للسّلامة.

وعن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنّ رجلاً أذنب ذنباً فقال: أي ربّ أذنبت ذنباً فاغفر لي، فقال: عبدي أذنب ذنباً فعلم أنّ له ربّاً يغفر الذّنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثمّ أذنب ذنباً آخر، فقال: ربّ إنّي عملت ذنباً فاغفر لي، فقال: علم عبدي أنّ له ربّاً يغفر الذّنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي، ثمّ عمل ذنباً آخر فقال: ربّ إنّي عملت ذنباً آخر فاغفر لي، فقال الله تبارك وتعالى: علم عبدي أنّ له ربّاً يغفر الذّنب ويأخذ به، أشهدكم أنّي قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء) [البخاري ومسلم]

وفي المستدرك أنّ النّبيّ –صلى الله عليه وسلم– جاءه رجل فقال: يا رسول الله أحدنا يذنب، قال: يُكتب عليه، قال: ثمّ يستغفر منه، قال: يُغفر له ويُتاب عليه، قال: فيعود فيذنب، قال: يُكتب عليه، قال: ثمّ يستغفر منه ويتوب، قال: يُغفر له ويُتاب عليه، ولا يملّ الله حتّى تملّوا) [المستدرك ١ / ٥٩ وصحّحه ووافقه الذّهبي]

وعن عليّ –رضي الله عنه– قال: "خياركم كلّ مفتّن توّاب، قيل: فإن عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب، قيل: فإن عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب، قيل: فإن عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب، قيل: حتّى متى؟ قال: حتّى يكون الشّيطان هو المحسور".

وقيل للحسن: ألا يستحي أحدنا من ربّه يستغفر من ذنوبه ثمّ يعود ثمّ يستغفر ثمّ يعود، فقال: ودّ الشّيطان لو ظفر منكم بهذه، فلا تملّوا من الاستغفار.

المصادر

- العادات المحرمة .. طريق علاجها وموقف المجتمع من أصحابها   لطف الله خوجه
- جامع العلوم والحكم   ابن رجب الحنبلي

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

شرف المحافظة على الوقت

لما كان الوقت سريع الانقضاء، وكان ما مضى منه لا يرجع ولا يعوض بشيء، كان الوقت أنفس وأثمن ما يملك الإنسان، وترجع نفاسته إلى أنه وعاء لكل عمل وكل إنتاج، فهو في الواقع رأس المال الحقيقي للإنسان فردا أو مجتمعا، فلله در قوم بادروا بالأوقات، واستدركوا الهفوات، فالعين مشغولة بالدمع عن المحرمات، واللسان محبوس في سجن الصمت عن المهلكات، والكف قد كفت بالخوف عن الشهوات، والقدم قد قيدت بقيد المحاسبات، والليل لديهم يجأرون فيه بالأصوات، فإذا جاء النهار قطعوه بمقاطعة اللذات، فكم من شهوة ما بلغوها حتى الممات.

فتيقظ للحاقهم من هذه الرقدات، ولا تطمعن في الخلاص مع عدم الإخلاص في الطاعات، ولا تؤملن النجاة وأنت مقيم على الموبقات، قال تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ} [الجاثية:٢١] وقال: {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} [القلم:٣٥]

قال الغزالي في الإحياء: "الناس في هذا العالم سفر، وأول منازلهم المهد، وآخرها اللحد، والوطن هو الجنة أو النار، والعمر مسافة السفر، فسنوه مراحله، وشهوره فراسخه، وأيامه أمياله، وأنفاسه خطواته، وطاعته بضاعته، وأوقاته رؤوس أمواله، وشهواته وأغراضه قطاع طريقه، وربحه الفوز بلقاء الله تعالى في دار السلام مع الملك الكبير والنعيم المقيم، وخسرانه البعد عن الله مع الأنكال والأغلال، والعذاب الأليم في دركات الجحيم، فالغافل في نَفس من أنفاسه حتى ينقضي في غير طاعة تقربه إلى الله زلفى، متعرض في يوم التغابن لغبينة وحسرة ما لها منتهى، ولهذا الخطر العظيم والخطب الهائل، شمر الموفقون عن ساق الجد، وودعوا بالكلية ملاذ النفس، واغتنموا بقايا العمر".

قال رجل لداود الطائي: أوصني. فدمعت عيناه، وقال: يا أخي إنما الليل والنهار مراحل، ينزلها الناس مرحلة بعد مرحلة، حتى ينتهي ذلك إلى آخر سفرهم، فإن

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

استطعت أن تقدم كل يوم زادا لما بين يديك فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب، والأمر أعجل من ذلك، فتزود لنفسك، واقض ما أنت قاض، فكأنك بالأمر قد بغتك، إني لأقول لك هذا وما أعلم أحدا أشد تقصيرا مني ثم قام وتركه.

وقف قوم على عالم، فقالوا له: إنا سائلوك أفمجيبنا أنت؟ قال: سلوا ولا تكثروا، فإن النهار لن يرجع، والعمر لن يعود، والطالب حثيث في طلبه، قالوا: فأوصنا، قال: تزودوا على قدر سفركم، فإن خير الزاد ما أبلغ البغية، ثم قال: الأيام صحائف الأعمال، فخلدوها أحسن الأعمال، فإن الفرص تمر مر السحاب، والتواني من أخلاق الكسالى، ومن استوطن مركب العجز عثر به، وتزوج التواني بالكسل فولد بينهما الخسران.

وقال بعضهم يوبخ نفسه ويعظها: يا نفس بادري بالأوقات قبل انصرامها، واجتهدي في حراسة ليالي الحياة وأيامها، فكأنك بالقبور قد تشققت، وبالأمور وقد تحققت، وبوجوه المتقين وقد أشرقت، وبرؤوس العصاة وقد أطرقت: قال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ} [السجدة:١٢] يا نفس أما الورعون فقد جدوا، وأما الواعظون فقد نصحوا.

قال قتادة: اعلموا أن طول العمر حجة، فنعوذ بالله أن نعير بطول العمر، قال تعالى: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ} [فاطر:٣٧]

وقال ابن مسعود –رضي الله عنه–: ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي، ولم يزد فيه عملي.

وقال عمر بن عبد العزيز: إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما.

وقال الحسن البصري: يا ابن آدم، إنما أنت أيام، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك، وقال: أدركت أقواما كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصا على دراهمكم ودنانيركم.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال أيضا: ليس يوم يأتي من أيام الدنيا إلا يتكلم يقول: يا أيها الناس، إني يوم جديد، وإني على ما يُعمل في شهيد، وإني لو غربت الشمس لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة.

وعنه أنه كان يقول: يا ابن آدم، اليوم ضيفك، والضيف مرتحل يحمدك أو يذمك، وكذلك ليلتك.

وعن مالك بن دينار قال: كان عيسى عليه السلام يقول: إن هذا الليل والنهار خزانتان، فانظروا ما تضعون فيهما.

وكان يقول: اعملوا الليل لما خلق له، واعملوا النهار لما خلق له.

قال الإمام أبي الوفاء ابن عقيل: إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة أو مناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا منطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة، وأنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سف الكعك وتحسيه بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفرا على مطالعة، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه، وإن أجل تحصيل عند العقلاء -بإجماع العلماء- هو الوقت، فهو غنيمة تنتهز فيها الفرص، فالتكاليف كثيرة والأوقات خاطفة.

يقول ابن الجوزي: والله إني لأتخايل دخول الجنة، ودوام الإقامة فيها من غير مرض ولا بصاق ولا نوم ولا آفة تطرأ، بل صحة دائمة وأغراض متصلة لا يعتريها منغص، في نعيم متجدد في كل لحظة إلى زيادة لا تتناهى فأطيش، ويكاد الطبع يضيق عن تصديق ذلك لولا أن الشرع قد ضمنه. ومعلوم أن تلك المنازل إنما تكون على قدر الاجتهاد هاهنا، فواعجبا من مضيع لحظة يقع فيها !! فتسبيحة تغرس له في الجنة نخلة أكلها دائم وظلها، فكل الآفات والمخافات في نهار الأجل، وقد اصفرت شمس العمر، فالبدار البدار قبل الغروب، ولا معين يرافق على تلك الطريق إلا الفكر إذا جلس مع العقل فتذاكرا العواقب، فإذا فرغ المجلس فالنظر في سير المجدين، فإنه يعود مستجلبا للفكر منها شتى الفضائل، والتوفيق من وراء ذلك، ومتى أرادك لشيء

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

هيأك له. فأما مخالطة الذين ليس عندهم خبر إلا العاجلة فهو من أكبر أسباب مرض الفهم وعلل العقل، والعزلة عن الشر حمية، والحمية سبب العافية

المصادر

- إحياء علو الدين للغزالي ١/٣٩١
- الوقت في حياة المسلم د. يوسف القرضاوي مكتبة وهبة القاهرة
- صلاح الأمة في علو الهمة د. سيد العفاني ج٤ مؤسسة الرسالة
- موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز السلمان ج١ ط ٢٦

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

شهوة السقوط

من أمارات خبث النفس أنها تشتهي المعصية شهوة الظمآن للماء البارد.. لا تألف الاستقامة.. الطهر حمل ثقيل عليها، والنور شيء بغيض إليها.. لا تحب الوضوح وتشتهي الجنوح .. تستثقل الرفعة وتنعم بالخلود إلى الأرض.. الإيمان غريب في أجوائها، والفطرة منكوسة في رحابها .. شقاء ما بعده شقاء، وبلاء نستعيذ بالله منه في كل تضرع ودعاء.

قال تعالى حكاية عن بني إسرائيل: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [البقرة:٦١]

طلبوا من نبيهم موسى –عليه السلام– الطعام في التيه، فأنزل الله تعالى عليهم المن والسلوى في كل يوم بعد طلوع الفجر نازلين من السماء من غير كد ولا تعب، ولا سعي ولا بذل، يأكلونهما هنيئا مريئا .. كما طلبوا سلفا منه –عليه السلام– الماء، فأمره الله عز وجل بأن يأخذ حجرا يضرب عليه بعصاه، فتنفجر منه اثنتا عشرة عينا. وشكوا إليه حر الشمس، فظلل الله عليهما الغمام.

فما شكروا بل جحدوا، وقالوا {لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ} قال الحسن البصري –رحمه الله–: "كانوا نتانى أهل كراث وأبصال وأعداس، فنزعوا إلى عكرهم عكر السوء، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم".

وليس الخطأ في الملل من نوع من الطعام، لكن الخلل في عدم الاستجابة وعدم الصبر، فلقد طُلبَ منهم دخول بيت المقدس فرفضوا الدخول جبنا وخورا، وطلبوا من موسى وربه أن يقاتلا بدلا عنهما. بينما في مسألة الطعام لم يكلفوا أنفسهم البذل والعمل بل أرادوه سهلا.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال بعض أهل العلم: "ولعل طلبهم هذا لقصد إحناق موسى وتأييسه حتى يرجع بهم إلى مصر التي ألفوها، ولم يبتئسوا بما حصل لهم فيها من الذلة والإرهاب .. فهذا التلون منهم مع موسى –عليه السلام– دليل على أنهم يريدون إفهامه بأن لا بقاء لهم معه على هذه الحال، وأي حال أحسن من حالتهم –قبحهم الله– وهم يأكلون المن والسلوى، ويشربون من اثنتي عشرة عيناً، بدون كلفة ولا زحام من صخرة سخرها الله؟!"

لقد كانوا يُقَدِّمون اختيارهم –في كل موطن– على اختيار الله، ويُؤْثِرون شهواتهم على ما اختاره الله لهم؛ لذلك لزمتهم صِفَةُ الذل وفقر النفوس، فلم تكن أنفسهم عزيزة، ولا لهم همم عالية، بل أنفسهم أنفس مهينة، وهممهم أردأ الهمم، بالرغم من ثرواتهم المادية الجبارة، وتحكمهم اليوم في جل اقتصاد العالم.

وقولهم: {ادْعُ لَنَا رَبّكَ} ولم يقولوا (ادع لنا ربنا) يعبر عن سوء أدبهم مع الله وتعاظمهم على موسى، وكأن الله رب له من دونهم، أو كأنه محسنٌ إليه لا محسِنٌ إليهم، فخطيئتهم هذه مركبة من عدة أمور يسخط الله عليهم بها، لأنه يعلم خبايا نفوسهم.

يقول ابن عاشور: "الآية انتقال من تعداد النعم المعقبة بنعم أخرى إلى بيان سوء اختيارهم في شهواتهم والاختيار دليل عقل اللبيب، وإن كان يختار مباحا، مع ما في صيغة طلبهم من الجفاء وقلة الأدب مع الرسول ومع المنعم إذ قالوا (لن نصبر) فعبروا عن تناول المن والسلوى بالصبر المستلزم الكراهية، وأتوا بما دل عليه (لن) في حكاية كلامهم من أنهم لا يتناولون المن والسلوى من الآن فإن (لن) تدل على استغراق النفي لأزمنة فعل نصبر من أولها إلى آخرها وهو معنى التأبيد، وفي ذلك إلجاء لموسى أن يبادر بالسؤال يظنون أنهم أيأسوه من قبول المن والسلوى بعد ذلك الحين، فكان جواب الله لهم في هذه الطلبة أن قطع عنايته بهم وأهملهم ووكلهم إلى نفوسهم ولم يرهم ما عودهم من إنزال الطعام وتفجير العيون بعد فلق البحر وتظليل الغمام، بل قال لهم {اهبطوا مصرا} فأمرهم بالسعي لأنفسهم وكفى بذلك تأديبا وتوبيخا".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان إذا استحوذت عليه الدنيا وصارت أكبر همه ومبلغ علمه فإنه يَمَلُّ من متعها ولو كثرت، مع ضياع رسالته التي خلق لها، حيث يفقد هدفه، ويعيش ليأكل ويستمتع، ويمل من كل المتع تدريجيا، وانظر إلى الحياة الغربية المعاصرة التي نجحت تقنيا وفشلت نفسيا في جلب السعادة لمنسوبيها، فهؤلاء الشاردين في أوروبا وأمريكا ملّوا كل شيء، لذلك تفشت فيهم انحرافاتٌ خطيرة سببها المَلَل والسَأَم، ملوا المرأة فتوجَّهوا إلى الجنس المثلي، مُدن بأكملها تجد أغلب بيوتها شاذُون .. ذكور ذُكور، وإناث إِناث، في رحلة البحث عن التجديد والهروب من الملل حتى ولو كان الجديد مستهجنا أو قذراً أو منحطا أو كان سيرا نحو الأسوأ، كانتحار الكوميديان الأمريكي (روبن ويليامز) مؤخرا وهو الذي أضحك الملايين إلا أن تعاسته قادته لأن يطفئ شمعة حياته بيده فاستخدم سكيناً لقطع شرايين رسغه، إضافة إلى حزام آخر في عنقه شنق به نفسه .. هذا شأن الإنسان عندما تستحوذ عليه الملذات، أما المؤمن الذي هدفه الله عزَّ وجل لا يمل النعم التي بين يديه لأنها وسائل وليست غايات.

قال الشوكاني: "فإن اليهود – أقماهم الله – أذل الفرق وأشدهم مسكنة وأكثرهم تصاغرا، لم ينتظم لهم جمع ولا خفقت على رءوسهم راية، ولا ثبتت لهم ولاية، بل ما زالوا عبيد العصى في كل زمن، وطروقة كل فحل في كل عصر، ومن تمسك منهم بنصيب من المال وإن بالغ في الكثرة أي مبلغ، فهو متظاهر بالفقر مترد بأثواب المسكنة ليدفع عن نفسه أطماع الطامعين في ماله".

وقال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف:١٧٥/١٧٦]

تشبيه من آتاه الله تعالى الهداية والعلم فلم ينتفع بهما، وانسلخ منهما واتبع هواه والشيطان، فهو يتكالب على أعراض الدنيا الفانية تكالبا يشغله عن حقيقة رسالته في هذه الحيـاة، فلا يستمع لنصح أبداً، كالكلب اللاهث لا يطيعك في ترك اللهث على

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

حال؛ وكذلك الجاحد لا يجيبك إلى الإيمان في رفق، ولا عنف .. إنه مغلولٌ بهواه، مقيدٌ بطغواه، متمردٌ على هداه، نافرٌ من آيات الله، شديد اللهف وراء دنياه، ولهفُه نظير لهث الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه.

والكلب يضرب به المثل في الخسة لأنه يأكل العذرة، ويرجع في قيئه، ويشم دبره، والجيفة أحب إليه من اللحم الطري، وهو في معاناة اللهاث سواء كان مرتاحا أم متعبا.

قال أبو محمد بن قتيبة: "كل شيء يلهث؛ فإنما يلهث من إعياء، أو عطش إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال الصحة وحال المرض والعطش، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته. وقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال؛ كالكلب، إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث".

إنه الشره للسقوط، والرغبة العارمة في التردي، ومساحة سوداء في النفس البشرية إن تفشت في أرجائها واستحوذت على أركانها أردت بصاحبها وهوت بقرينها إلى دركات الشقاء والتخبط والمعاناة، والسعيد من عصمه الله، فاللهم نسألك الثبات حتى الممات.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

شؤم البدع

ما أشأم البدعة وما أشد ضررها على الدين، لا فرق في ذلك بين صغيرها وكبيرها، ولا حقيرها وجليلها، «فكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار» وكما أن المعاصي بريد الكفر، فإن صغار البدع تقود إلى كبارها من البدع الكفرية المغلظة، ولا غرابة في ذلك، فمعظم النار من مستصغر الشرر.

البدعة عند أهل الحق تنافي كمال التوحيد، وهي وسيلة من وسائل الشرك، وعرفها المحققون بأنها: «قصد عبادة الله تعالى بغير ما شرع به»، والوسائل لها حكم المقاصد، وكل ذريعة إلي الشرك في عبادة الله تعالى أو الابتداع في الدين يجب سدها، لأن الدين قد أكتمل كما قال الله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [المائدة:٣]

تعريف وتأصيل

البدعة مأخوذة من «البدع» وهو الاختراع على غير مثال سابق، وفي الدين هي: ما لم يشرعه الله ولا رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو ما لم يأمر به الدين أمر إيجاب أو استحباب، والابتداع على قسمين:

١– ابتداع في العادات: كالمخترعات الحديثة، وهذا أمر مباح.

٢– ابتداع في الدين وهو نوعان:

أ– بدعة قولية اعتقادية: كمقالات الجهمية والمعتزلة، والمعتقدات المنحرفة للفرق الضالة كلها.

ب– بدعة في العبادات: كالتعبد لله بعبادة لم يشرعها، وهي أنواع:

- ما يكون في أصل العبادة: مثل إحداث صلاة غير مشروعة، أو صيام غير مشروع، أو أعياد غير مشروعة.
- ما يكون في الزيادة على العبادة المشروعة: كزيادة الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم في نهاية الأذان.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

- ما يكون في صفة أداء العبادة: كالأذكار بأصوات جماعية مطربة، وتخصيص وقت للعبادة المشروعة: مثل قيام ليلة النصف من شعبان أو صيام يومها، فأصل الصلاة والصيام مشروع، ولكن تخصيصه بوقت يحتاج إلى دليل.

أسباب ودوافع

١- الجهل بأحكام الدين. ٢- إتباع الهوى والخضوع لسيطرة العادات. ٣- التعصب لآراء الرجال، مما يحول بين المرء وإتباع الدليل. ٤- التشبه بالكفار في عاداتهم وأساليب حياتهم وتفكيرهم.

حكم البدعة في الدين

كل بدعة في الدين محرمة لقوله صلى الله عليه وسلم: (إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة) [١] وقوله صلى الله عليه وسلم: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) [٢]

فالبدع في العبادات والاعتقاد محرمة ولكن التحريم يتفاوت حسب درجة البدعة .. فمنها ما هو كفر صريح: كالطواف بالقبور تقرباً لأصحابها، وتقديم الذبائح والنذور لها، ودعاء أصحابها والاستغاثة بهم، وكذلك مقالات غلاة الجهمية.

ومنها ما هو من وسائل الشرك: كالبناء على القبور والصلاة والدعاء عندها. ومنها ما هو فسق اعتقادي: كبدعة الخوارج والقدرية والمرجئة. ومنها ما هو معصية: كبدعة الصيام قائماً في الشمس، وكبدعة التبتل.

ويكفي المبتدع إثماً أن عليه وزر من يعمل ببدعته، فقال صلى الله عليه وسلم: (من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً) [٣] وقد حذر السلف من البدع وبينوا خطورتها، حتى قال بعضهم: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن المعصية قد يتوب صاحبها، أما البدعة، فنادراً ما يرجع عنها»، ونهوا عن توقير أصحاب البدع، بل دعوا إلى هجر أصحابها لأن توقيرهم مظنة لمفسدتين تعودان على الإسلام بالهدم:

أحداهما: التفات العامة إلى ذلك التوقير، فيعتقدون في المبتدع أنه أفضل الناس فيؤدي ذلك إلى إتباعه على بدعته، دون إتباع أهل السنة على سنتهم.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والثانية: أنه إذا وقره من أجل بدعته، صار ذلك كالمحرض له على إنشاء الابتداع في كل شيء، فتحيى البدع، وتموت السنن، وهو هدم الإسلام بعينه.

قال ابن رجب -رحمه الله-: من سار على طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وإن اقتصد فإنه يسبق من سار على غير طريقته وإن اجتهد.

وقال حذيفة: كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدوها، فإن الأول لم يدع للآخر مقالا، فاتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من قبلكم. (٤)

وعنه قال: يا معشر القراء، استقيموا فقد سبقتم سبقا بعيدا، وإن أخذتم يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا. (٥)

وقال البيهقي وهو يتحدث عن الشافعي: وكان الشافعي شديداً على أهل الإلحاد وأهل البدع مجاهراً ببغضهم وهجرهم. (٦)

وقال الإمام أحمد: إذا سلّم الرجل على المبتدع فهو يحبه. (٧)

وقال ابن المبارك: اللهم لا تجعل لصاحب بدعة عندي يداً فيحبه قلبي. (٨)

وقال الفضيل بن عياض: من أحب صاحب بدعة، أحبط الله عمله وأخرج نور الإسلام من قلبه. (٩)

وقال عبد الله بن داود: من علامات الحق البغض لمن يدين بالهوى، ومن أحب الحق فقد وجب عليه البغض لأصحاب الهوى. يعني: أهل البدعة. (١٠)

وقال الإمام أبو عبد الله عبيد الله بن بطة العكبري: ولا تشاور أحداً من أهل البدع في دينك، ولا ترافقه في سفرك، وإن أمكنك أن لا تقربه في جوارك. ومن السنة مجانبة كل من اعتقد شيئاً مما ذكرناه (أي: من البدع)، وهجرانه، والمقت له، وهجران من والاه، ونصره، وذب عنه، وصاحبه، وإن كان الفاعل لذلك يظهر السنّة. (١١)

وقال الإمام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني – رحمه الله – حاكياً مذهب السلف أهل الحديث: واتفقوا مع ذلك على القول بقهر أهل البدع، وإذلالهم،

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وإخزائهم، وإبعادهم، وإقصائهم، والتباعد منهم، ومن مصاحبتهم، ومعاشرتهم، والتقرب إلى الله عز وجل بمجانبتهم ومهاجرتهم. (١٢)

وقال أيضاً: ويبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه، ولا يحبونهم، ولا يصحبونهم، ولا يسمعون كلامهم، ولا يجالسونهم، ولا يجادلونهم في الدين، ولا يناظرونهم، ويرون صون آذانهم عن سماع أباطيلهم التي إذا مرت بالآذان وقرت في القلوب ضرّت وجرّت إليها من الوساوس والخطرات الفاسدة ما جرّت، وفيه أنزل الله عز وجل قوله: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأنعام:٦٨] (١٣)

الهوامش

(١) أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح (٢) البخاري ومسلم (٣) الإمام مسلم (٤) أبو داود في سننه (٥) البخاري (٦) انظر مناقب الشافعي [٤٦٩/١] (٧) طبقات الحنابلة [١٩٦/١] فيدل أنه لا يجوز محبة أهل البدع. (٨) اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١٤٠/١ (٩) شرح السنة للبربهاري [١٣٨-١٣٩]، والإبانة لابن بطة (١٠) سير السلف الصالحين للتيمي (١١٥٤/٣)، والحلية لأبي نعيم [٣٩٢/١٠] (١١) الشرح والإبانة ص ٢٨٢ (١٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث ١٢٣(١٣) عقيدة السلف وأصحاب الحديث ١١٤-١١٥

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

صِبْغَةَ اللّهِ .. زينة الإيمان

الإيمان سكينة واطمئنان، والمعصية جحود وشرود، فالمؤمن قلبه معلق بالسماء، والعاصي تائه في ضروب الأرض، حُرم التوفيق بشؤم معاصيه، فعن عطاء الخراساني، قال: لقيت وهب بن منبه في الطريق، فقلت: حدثني حديثا أحفظه عنك في مقامي وأوجز، قال: " أوحى الله إلى داود: يا داود، أما وعزتي وعظمتي، لا يشعر بي عبد من عبادي دون خلقي، أعلم ذلك من نيته، فتكيده السموات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له منهن فرجا ومخرجا، أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني، أعلم ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السموات من يده، وأرضخت الأرض من تحته، ولا أبالي في أي واد هلك " **[حلية الأولياء: ٤/٢٥]**

والعاصي تألف نفسه المعاصي فلا فكاك له من ظلماتها، لا تردعه بلوى ولا تغسله محنة ولا يعتبر بغيره ولا يتعظ بتفلت عمره ودنو أجله، يشيب الرأس وينحني الظهر والقلب والجوارح لا يفارقها خبثها ولا تتطهر من درنها، أما المؤمن فهو أواب منيب، لو سقط في شرك الخطيئة سرعان ما يعود إلى واحة الإيمان، شعاره دوما: «لك العتبى حتى ترضى» .. قد انصبغت نفسه بصبغة الإيمان الدائمة التي لا يعتريها زوال ولا يغسلها طول الأيام.

قال تعالى: {صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ} **[البقرة:١٣٨]**

«صبغة الله» .. قال ابن عباس: دين الله، وإنما سماه صبغة لأنه يظهر أثر الدين على المتدين كما يظهر أثر الصبغ على الثوب، وقيل لأن المتدين يلزمه ولا يفارقه، كالصبغ يلزم الثوب، وقال مجاهد: فطرة الله، وهو قريب من الأول، وقيل: سنة الله، وقيل: أراد به الختان لأنه يصبغ صاحبه بالدم، قال ابن عباس: هي أن النصارى إذا ولد لأحدهم ولد فأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم أصفر يقال له المعمودي وصبغوه به ليطهروه بذلك الماء مكان الختان، فإذا فعلوا به ذلك قالوا: الآن صار نصرانياً حقاً فأخبر الله أن دينه الإسلام لا ما يفعله النصارى. **[تفسير البغوي]**

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال السعدي –رحمه الله– في تفسيره: أي: الزموا صبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قياما تاما، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة، وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعا واختيارا ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحث الدين على مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ومعالي الأمور، فلهذا قال – على سبيل التعجب المتقرر للعقول الزكية–: { وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً } أي: لا أحسن صبغة من صبغته.

يقول الشيخ فيصل الجاسم: "والدين القويم يُكسب القلب والقول والعمل صِبغة خاصة تظهر على كل من التزمه وسلكه، فترى السالك لهذا الصراط اعتقاداته وأقواله وأفعاله على وفق مراد الله تعالى ومحابه، كما جاء في الحديث الصحيح «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي».

وهذه الصِّبغة فيها معنى التميّز، فيتميز المصطبغ بها عمن خالف الصراط المستقيم بحسب مخالفته، بحيث لا تلتبس معرفة المصطبغ بها، ولا يُخلط ويُلحق بغيره من أهل الانحراف لتميّزه. وهذا التميز منه ما تضفيه الصِّبغة على صاحبها ولا بد، ومنه ما هو من لوازمها كمخالفة المشركين وأهل الضلال والبدع ومجانبتهم وترك مخالطتهم".

والإيمان زينة لصاحبه في الدنيا والآخرة؛ ولن يبدو صاحبه جميلاً بدونه، وهذه الزينة يهبها الله تعالى لمن يشاء من عباده، ويضاعفها عليهم، ويقذفها في قلوبهم، قال تعالى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحجرات:٧–٨] فزينة الإيمان هي أعلى زينة وأتم زينة.

وفي بيان معان من هذه الزينة يقول عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما–: "إن للحسنة ضياءا في الوجه ونورا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

روى ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان عن معاوية ابن قرة عن أبي الدرداء –رضي الله عنه– أنه كان يدعو: «اللهم إني أسألك إيماناً دائماً، وعلماً نافعاً، وهدياً قيماً»، وقال معاوية ابن قرة معلقا: فإن من الإيمان ما ليس بدائم، ومن العلم ما ليس بنافع، ومن الهدي ما ليس بقيم.

{قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس:٥٨].

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

صحبة الصالحين

صحبة الصالحين من أعظم وسائل الثبات على الإيمان. إنها مصدر من مصادر الطاقة الإيمانية التي تدفع المرء تجاه السلوك القويم وطاعة الله وحبه وابتغاء رضاه على من سواه، ومن توفيق الله للإنسان أن يكون بين قوم صالحين إن أمر بمعروف آزروه وإن نهى عن منكر أعانوه وإن احتاج إلى شيء من الدنيا ساعدوه وإن مات دعوا له وشيعوه.

قال تعالى: {واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينه الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا} [الكهف:٢٨]

وعن أبي موسى الأشعري –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً منتنة» [متفق عليه].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي» [رواه أبو داود].

وإنما حذر من صحبة من ليس بتقي وزجر عن مخالطته ومؤاكلته لأن المطاعم توقع الألفة والمودة في القلوب، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» [رواه الترمذي].

وقال أحد الصالحين: عليك بصحبة من تذكرك الله عز وجل رؤيته وتقع هيبته على باطنك ويزيد في عملك منطقة ويزهدك في الدنيا عمله ولا تعصى الله مادمت في قربة يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله. وكان محمد بن واسع يقول: ما آسى من الدنيا إلا على ثلاث، صاحب إذا اعوججت قومني، وصلاة في جماعة يحمل عني

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

سهوها وأفوز بفضلها، وقوت من الدنيا ليس لأحد فيه منة ولا لله عز وجل علي فيه تبعة.

وروى عن عيس عليه السلام قوله: لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم قيل ومن الموتى؟ قال المحبون للدنيا. وقال أيضاً: تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي وتقربوا إلى الله بالتباعد منهم والتمسوا رضا الله بسخطهم، قالوا يا روح الله فمن نجالس؟ قال: جالسوا من تذكركم الله رؤيته ومن يزيد في عملكم كلامه ومن يرغبكم في الآخرة عمله.

وروى أيضاً أن الله أوحى إلى موسى عليه السلام: يا ابن عمران كن يقظانا وارتد لنفسك إخوانا وكل خدن وصاحب لا يؤازرك على مسرتي فهو لك عدو.

وقال أحد الحكماء: مجالسة العارف الزاهد تدعو من ست إلى ست من الشك إلى اليقين ومن الرياء إلى الإخلاص ومن الغفلة إلى الذكر ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة ومن الكبر إلى التواضع ومن سوء الطوية إلى النصيحة. وقال الحسن البصري: مصارمة الفاسق قربان إلى الله.

وعن عون بن عبد الله قال: صحبت الأغنياء فلم يكن أحدا أطول غما منى إن رأيت أحداً أحسن ثيابا منى وأطيب ريحاً منى فصحبت الفقراء فاسترحت.

وقال أيضا: جالسوا التوابين فإنهم أرق الناس قلوبا.

قال الغزالي في الإحياء موضحا منهج الإسلام في الصحبة:

فينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال. أن يكون عاقلاً، حسن الخلق، غير فاسق، ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا.

أما العقل: فهو رأس المال وهو الأصل فلا خير في صحبة الأحمق فعلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت قال على –رضي الله عنه–:

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه   فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه   وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب   دليل حين يلقاه

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

كيف والأحمق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدرى ولذلك قيل: مقاطعة الأحمق قربان إلى الله وقال الثوري: النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة.

وأما حسن الخلق: فلابد منه إذ رب عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وخالف ما هو معلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه فلا خير في صحبته.

وحسن الخلق جمعه علقمة العطاردي في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة قال: يابني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك وإن صحبته زانك وإن قعدت بك مؤنة مانك، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها وإن رأى منك حسنة عدها وإن رأى سيئة سدها، اصحب من إذا سألته أعطاك وإن سكت ابتداك وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدق قولك وإن حاولتما أمراً أمرك وإن تنازعتما آثرك.

وأما الفاسق: المصر على الفسق فلا فائدة في صحبته لأن من يخاف الله لا يصر على كبير ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته بل يتغير بتغير الأغراض قال تعالى: {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا}

وأما المبتدع: ففي صحبته خطر سراية البدعة وتعدى شؤمها إليه فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة فكيف تؤثر صحبته؟! قال عمر –رضي الله عنه–: عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يغلبك منه واعتزل عدوك وأحذر صديقك إلا الأمين من القوم ولا أمين إلا من خشي الله فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى.

وأما الحريص على الدنيا: فصحبته سم قاتل لأن الطباع مجبولة على التشبه والإقتداء بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدرى صاحبه فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا.

من لم يكن بين إخوان يسر ... فإن أوقاته نقص وخسران

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وأطيب الأرض ما للنفس فيه تقى سم الخياط مع الأحباب ميدان

وأخبث الأرض ما للنفس فيه أذى خضر الجنان مع الأعداء نيران

فصحبة الصالحين كلها خير لن يعدم المرء معهم أحد وجوه البر والذي يمكن أن يأخذ صوراً متعددة منها

النصيحة الصادقة

التي عز وجودها الآن بين الناس والتي يمكن أن تكون طوق نجاة فيتغير سلوك إنسان من الشر إلى الخير بالكلية.

فعن أبى بكر بن عياش قال: قال لي رجل مرة وأنا شاب خلص رقبتك ما استطعت في الدنيا من رق الآخرة فإن أسير الآخرة غير مفكوك أبداً قال أبو بكر: فما نسيتها أبداً. وكان يقوم الليل في قباء صوف وسراويل وعكازه يضعها في صدره فيتكئ عليها حين كبر فيحيى ليلته ويذكره حمل العصي بالسفر إلى الآخرة.

حملت العصا لا الضعف أوجب حملها على ولا أنى نحلت من الكبر

ولكني ألزمت نفسي حملها لأعلمها أن المقيم على سفر

وقال ابن المبارك: كنت أقدم المدينة فما يفيدني ويدلني على الشيوخ إلا الواقدي.

القدوة النافعة

فالقدوة معلم يفيد بلا لسان بإذن الله ومرشد ناصح من غير بيان وهى مدرسة الإنسان العلمية التي يرسخ تعليمها في النفوس ويعلق بالأفهام. والناس مائلون دائماً إلى أن يتعلموا بعيونهم أكثر مما يتعلمون بآذانهم والمرئي يؤثر أكثر من المقروء والمسموع وتعليم العمل أنفع من تعليم القول والإرشاد يرى الطريق ولكن القدوة البكماء تسيره فيه بإذن الله ومهما أوتى المعلم من الفصاحة والبراعة في تهذيب النفوس فليس ببالغ ما يبلغه زميل له دونه في المهارة وفوقه في السيرة ولهذا قيل خير النصح افعل كما أفعل لا كما أقول ولما كانت غريزة التشبه أقوى في الأحداث ينبغي أن ينشئوا في بيئة صالحة لينشئوا نافعين فإنهم يتشبهون ويتمثلون بمن حولهم قال الله

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

تعالى عن بلقيس: {وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين} [النمل:٤٣].

وعن نهشل بن كثير عن أبيه قال: أدخل الشافعي يوماً إلى بعض حجر هارون الرشيد ليستأذن له ومعه سراج الخادم فأقعده عند أبى الصمد مؤدب أولاد هارون الرشيد فقال سراج للشافعي: يا أبا عبد الله هؤلاء أولاد أمير المؤمنين وهذا مؤدبهم فلو أوصيته بهم فأقبل عليه فقال: ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاحك نفسك فإن أعينهم معقودة بعينك فالحسن عندهم ما تستحسنه والقبيح عندهم ما تكرهه، علمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه ولا تتركهم منه فيهجروه ثم روهم من الشعر أعفه ومن الحديث أشرفه ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم.

الدفعات الإيمانية

فأهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونة وأكثرهم لك معونة إن نسيت ذكروك وإن ذكرت أعانوك قوالين بحق قوامين بأمر الله.

قال البخاري ما استصغرت نفسي عند أحد إلا عند ابن المديني.

وقيل للبخاري ما تشتهى؟ قال أن أقدم العراق وعلى بن المديني حي فأجالسه.

وكان ابن المبارك رحمه الله كثير الجلوس في بيته فقيل له ألا تستوحش فقال كيف استوحش وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

وكان الربيع بن خثيم يدخل على ابن مسعود من غير إذن فإذا صار عنده لم يؤذن لأحد بالدخول عليه حتى يخرج الربيع.

وكان ابن مسعود يرى من صفاء نفس الربيع وإخلاص قلبه وإحسان عبادته ما يملأ فؤاده أسى على تأخر زمانه عن النبي صلوات الله عليه وحرمانه من صحبته وكان يقول له: (يا أبا يزيد ما رأيتك مرة إلا ذكرت المخبتين ولو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبك).

الاستفادة من نور العلم

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أسلم حكيم من أهل الكتاب بسبب مطالعته كتاب «المبسوط» لمحمد بن الحسن، وقال هذا كتاب محمدكم الأصغر فكيف كتاب محمدكم الأكبر؟

وقال أحمد بن حنبل: السماع من يحيى بن معين شفاء لما في الصدور.

وقال ابن المبارك: لولا أن الله أعانني بأبي حنيفة وسفيان كنت كسائر الناس.

وقال الشافعي: لولا شعبه بن الحجاج ما عرف الحديث بالعراق.

المعونة على طاعة الله

قال أبو يوسف تلميذ الإمام أبو حنيفة: كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقل رث الحال، فجاء أبى يوماً وأنا عند أبى حنيفة فانصرفت معه، فقال: بابني لا تمدن رجلك مع أبى حنيفة فإن أبا حنيفة خبزه مشوي وأنت تحتاج إلى المعاش، فقصرت عن كثير من الطلب وآثرت طاعة أبى، فتفقدني أبو حنيفة وسأل عنى فجعلت أتعاهد مجلسه، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري عنه قال لي: ما شغلك عنا؟ قلت الشغل بالمعاش وطاعة والدي، فجلست فلما انصرف الناس دفع إليّ صره وقال استمتع بهذه فنظرت فإذا فيها مائة درهم فقال لي: الزم الحلقة وإذا نفدت فأعلمني فلزمت الحلقة، فلما مضت مدة يسيرة دفع إلى مائة أخرى ثم كان يتعهدني وما أعلمته بخلة قط ولا أخبرته بنفاد شيء ما. وكان كأنه يخبر بنفاذها حتى استغنيت وتمولت فلزمت مجلسه حتى بلغت حاجتي وفتح الله لي ببركته وحسن نيته ما فتح من العلم والمال فأحسن الله عنى مكافأته وغفر له.

ولما أحضر أسد بن الفرات عند محمد بن الحسن الشيباني قال له: إني غريب قليل النفقة والسماع منك نذر والطلبة عندك كثير فما حيلتي؟ فقال له محمد بن الحسن: اسمع مع العراقيين بالنهار وقد جعلت لك الليل وحدك فتبيت عندي وأسمعك قال أسد: وكنت أبيت عنده وينزل إليّ ويجعل بين يديه قدحاً فيه الماء ثم يأخذ في القراءة فإذا طال الليل ونعست ملأ يده ونضح وجهي بالماء فأنتبه فكان ذلك دأبه ودأبي حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه

وكان محمد بن الحسن يتعهده بالنفقة حين علم أن نفقته نفذت وأعطاه مرة ثمانين ديناراً حين رآه يشرب من ماء السبيل.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

المصــادر:

١- إحياء علوم الدين جـ٢ الغزالي.

٢- إيقاظ أولى الهمم العالية عبد العزيز السلمان.

٣- صلاح الأمة في علو الهمة د/ سيد العفاني

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

صريح الإيمان

التوحيد الخالص أخص خصوصيات المؤمن، وكنزه الثمين في الدنيا والآخرة .. وهل رسالة البشر إلا تحقيق العبودية لبارئ الكون، ولذلك كان الشغل الشاغل للشيطان إفساد التوحيد على أهل الإيمان، والوسوسة لهم في أركانه، والتشكيك في بنيانه.

قال النووي: "الشيطان إنما يوسوس لمن آيس من إغوائه، وأما الكافر فإنه يأتيه من حيث شاء، ولا يقتصر في حقه على الوسوسة بل يتلاعب به كيف أراد، فسبب الوسوسة محض الإيمان، أو الوسوسة علامة محض الإيمان". [شرح مسلم، بتصرف]

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: جاء ناس من أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم–، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: (وقد وجدتموه؟) قالوا: نعم، قال: (ذاك صريح الإيمان) [رواه مسلم]

وعن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– قال: سئل النبي –صلى الله عليه وسلم– عن الوسوسة، قال: (تلك محض الإيمان) [رواه مسلم] .. الصريح: المحض؛ أي: الخالص الصافي، وأصله في اللبن.

والمقصود من الحديث أن كراهية النفوس لهذه الوساوس وبغضها والنفور منها هو صريح الإيمان، وليس المراد أن وجودها هو صريح الإيمان.

قال النووي: "معناه استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان، فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً".

وقال الخطابي: قوله (ذاك صريح الإيمان) معناه: أن صريح الإيمان هو الذي يمنعكم من قبول ما يلقيه الشيطان في أنفسكم، والتصديق به، وليس معناه أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان، وذلك أنها إنما تتولد من فعل الشيطان وتسويله، فكيف يكون إيماناً صريحاً، لأن الإيمان: التيقن، وإنما الإشارة إلى أن ما وجدوه من

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الخوف من الله تعالى أن يعاقبهم على ما وقع في نفوسهم: هو محض الإيمان، إذ الخوف من الله تعالى ينافي الشك فيه. [معالم السنن]

قال القاري: (صريح الإيمان) أي: خالصة يعني أنه أمارته الدالة صريحا على رسوخه في قلوبكم، وخلوصها من التشبيه، والتعطيل؛ لأن الكافر يصر على ما في قلبه من تشبيه الله سبحانه بالمخلوقات، ويعتقده حسنا، ومن استقبحها وتعاظمها لعلمه بقبحها، وأنها لا تليق به تعالى كان مؤمنا حقا، وموقنا صدقا فلا تزعزعه شبهة، وإن قويت، ولا تحل عقد قلبه ريبة، وإن موهت، ولأن من كان إيمانه مشوبا يقبل الوسوسة، ولا يردها. وقيل المعنى أن الوسوسة أمارة الإيمان؛ لأن اللص لا يدخل البيت الخالي، ولذا روي عن علي رضي الله عنه، وكرم الله وجهه: أن الصلاة التي لا وسوسة فيها إنما هي صلاة اليهود، والنصارى. [مرقاة المفاتيح]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "والمؤمن يبتلى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر التي يضيق بها صدره، كما قال الصحابة: يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لئن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به، فقال: (ذاك صريح الإيمان) وفي رواية: ما يتعاظم أن يتكلم به، قال: (الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة) أي حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب هو من صريح الإيمان، كالمجاهد الذي جاءه العدو فدافعه حتى غلبه، فهذا أعظم الجهاد، والصريح الخالص كاللبن الصريح، وإنما صار صريحا لما كرهوا تلك الوساوس. [مجموع الفتاوى]

وللشيطان لمَّة وفتنة يعملها في قلب المسلم، ولمَّته إيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وقنوط من الخير، وتشكيك في أصل الإخلاص، ولابد للمسلم أن يحصل له مثل ذلك، لأنَّ الشيطان سيورد عليه مثل هذه الإيرادات.

فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته) [الجمع بين الصحيحين]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وعن أنس بن مالك –رضي الله عنه– قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (لن يبرح الناس يسألون عما لم يكن حتى يقولوا الله خالق كل شيء فمن خلق الله) [صحيح، الأدب المفرد]

والفضول في جبلة بني آدم، ومن كيد الشيطان أن يستغل هذا الأمر، فتكثر المسائلة التسلسلية حتى يقع الإنسان في المحذور.

فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خَلَقَ الله الخلق، فمن خلق الله، فمن وجد شيئاً فليقل آمنت بالله ورسله) [الجمع بين الصحيحين]

بل قد حصل هذا من بعض الأعراب في عهد الصحابة الكرام، فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال لي رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (لا يزالون يسألونك يا أبا هريرة حتى يقولوا: هذا الله فمن خلق الله؟) قال: فبينا أنا في المسجد إذ جاءني ناسٌ من الأعراب فقالوا: يا أبا هريرة هذا الله، فمن خلق الله؟ قال: فأخذ حصى بكفه فرماهم، ثم قال: قوموا قوموا صدق خليلي. [رواه مسلم]

الطريق من هنا

عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: جاء رجل إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال: يا رسول الله، إن أحدنا يجد في نفسه يعرض بالشيء لأن يكون حُمَمَةً [يعني فحمة] أحب إليه من أن يتكلم به. فقال: (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة) [سنن أبي داود]

قال أهل العلم: تندفع هذه الوساوس بالأدوية النبوية التي أرشدنا إليها ديننا الحنيف وهي:

– تحقيق الإخلاص والتوكل على الله تعالى؛ قال تعالى حكاية عن إبليس: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } [ص:٨٢-٨٣]

– الاستعاذة بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزة ونفخه ونفثه. قال تعالى: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [فصلت:٣٦]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

– الانتهاء عن ذلك بقطع هذه الوسوسة وعدم الاسترسال معها، فإن الوسوسة لا ينفع معها الجدل، بل كلما تمادى بها الشخص كلما زادت حتى تفضي به إلى المهالك. ومن دافع الوسوسة اندفعت عنه بفضل الله وتثبيته، وخنس عنه الشيطان، ويئس منه في هذه السبيل، فقد قال تعالى: {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً} [النساء:٧٦].

– ألا يسأل أسئلة صريحة عن هذه الوساوس التي تدور بخاطره.

– أن يقول: (آمنت بالله)، وفي رواية: (آمنت بالله ورسله).

– أن يقرأ سورة الإخلاص، ويتفل عن يساره ثلاثًا، ويستعيذ بالله من الشيطان؛ كما في حديث أبي هريرة –رضي الله عنه–، وفيه قال: سمعتُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يقول: (فإذا قالوا ذلك، فقولوا: الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، ثم ليتفلْ عن يساره ثلاثًا، وليستعذْ من الشيطان) [أبو داود، والسلسلة الصحيحة (١١٦)]

– قال ابن القيم رحمه الله: "وأرشد – يعني النبي صلى الله عليه وسلم– من بُلِيَ بشيء من وسوسة التسلسل في الفاعلين، إذا قيل له: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ أن يقرأ: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد:٣]

كذلك قال ابن عباس لأبي زُميل سماك بن الوليد الحنفي وقد سأله: ما شيء أجدُه في صدري؟ قال: ما هو؟ قال: قلتُ والله لا أتكلم به، قال: فقال لي: أشيء من شكٍ؟ قلتُ: بلى. فقال لي: ما نجا من ذلك أحد، حتى أنزل الله عز وجل: {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [يونس:٩٤]، قال: فقال لي: فإذا وجدتَ في نفسكَ شيئاً، فقل: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد:٣] رواه أبو داود

فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التسلسل الباطل ببديهة العقل، وأن سلسلة المخلوقات في ابتدائها تنتهي إلى أولٍ ليس قبله شيء كما تنتهي في آخرها إلى آخر ليس بعده شيء، كما أن ظهوره هو العلو الذي ليس فوقه شيء، وبطونه هو الإحاطة

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

التي لا يكون دونه فيها شيء، ولو كان قبله شيء يكون مؤثراً فيه، لكان ذلك هو الربَّ الخلاق، ولابد أن ينتهي الأمر إلى خالق غير مخلوق، وغني عن غيره، وكل شيء فقير إليه، قائم بنفسه، وكل شيء قائم به، موجود بذاته، وكل شيء موجود به، قديم لا أول له، وكل ما سواه فوجوده بعد عدمه، باقٍ بذاته، وبقاء كل شيء به، فهو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء. [زاد المعاد]

وهذه بشرى لكل مسلم .. ففي الحديث المتفق عليه: (إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم). قال ابن حجر في الفتح: قال الكرماني: قاس الخطأ والنسيان على الوسوسة [يعني الإمام البخاري] فكما أنها لا اعتبار لها عند عدم التوطن، فكذا الناسي والمخطئ لا توطين لهما.

وقال: قال الكرماني فيه أن الوجود الذهني لا أثر له، وإنما الاعتبار بالوجود القولي في القوليات والعملي في العمليات.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ضياع الأعمار من ضياع الأقدار

الحياة قصيرة، بل أقصر مما نتصور، لكن لا يشفي غليل فقد الأعمار إلا كثرة الإثمار، فمسيرة الحياة عندما تتعدد المحطات المثمرة فيها تهدأ المشاعر فلا ينغصها لوم الفوت، وتصفو النفس فلا يعكرها كدر الكِبَر، ويرتاح الضمير عند محطة الرحيل الأخيرة.

«ضياع الأعمار من ضياع الأقدار» .. فيا حسرة المفرط على نفسه التي هانت عليه، ويا حسرة الفارغ على أيام ضاعت من بين يديه، ويا حسرة المستهتر على أماني تسربت من بين ثنايا العمر دون أن يتذوق حلاوة تحقيقها أو يرى جمال طيفها.

وفي سورة الحاقة يجسد القرآن خلاصة المشهد الإنساني وحصيلة المسيرة البشرية يوم القيامة في أروع بيان، فقال تعالى:

{يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤)}

عن الحسن البصري قال: "إن المومن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الامر عن غير محاسبة".

ومن خطب أمير المؤمنين علي –رضي الله عنه–: "أوصيكم عبادَ اللّه ونفسي بتقْوى اللّه ولُزوم طاعته، وتقديم العَمَل، وتَرْك الأمَل، فإنه من فَرّط في عمله، لمْ يَنْتفع

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بِشيء من أمله. أين التَّعِب بالليل والنهار، والْمقتحم لِلُجج البحارِ، ومَفاوِز القِفار؛ يَسير من وراءِ الجبال، وعالج الرمال؛ يَصل الغُدُوّ بالرَّواح، والمَساء بالصَّباحِ، في طلب مُحقَرات الأَرباحِ؛ هَجَمتْ عليه منيّته، فعظُمت بنفسه رَزِيته؛ فصار ما جَمع بُوراً، وما اكتسب غروراً، ووافَى القيامةَ مَحْسوراً، أيها اللاهي الغار نفسه، كأنِّي بك وقد أتاك رسولُ ربك، لا يَقْرع لك باباً، ولا يَهاب لك حِجاباً؟ ولا يَقْبل منك بَدِيلًا، ولا يأخذ منك كَفِيلاً؛ ولا يرْحم لك صغيراً، ولا يُوقّر فيك كبيراً؛ حتى يُؤدِّيك إلى قَعْر مُظلمة، أرجاؤُها مُوحشة، كفِعْله بالأمم الخالية، والقُرون الماضية. أين مَن سعى واجتهد، وجَمع وعدّد، وبَنَى وشَيّد، وزَخرف ونَجّد، وبالقليل لم يَقْنع، وبِالكثير لم يُمتَّع؟ أين مَن قاد الجنود، ونَشر البُنود؛ أضحَوْا رُفاتاً، تحت الثرى أمواتاً، وأنتم بكأسهم شاربون، ولسبيلهم سالكون، عبادَ اللّه، فاتّقوا اللّه ورَاقبوه، واعملوا لِلْيوم الذي تُسيَر فيه الجبال، وتَشقّق السماء بالغَمام، وتَطايَرُ الكُتب عن الأيمان والشمائل، فأيّ رَجُل يومئذ تُراك؟ أقائل: هاؤم اقَرءوا كتابيه؟ أم: يا ليتني لم أوت كتابيَه؟ نسأل مَن وَعَدَنا بإقامة الشرائع جَنَّته أن يَقِينا سُخْطه، إنّ أحسنَ الحديث وأبلغَ الموعظة كتابُ اللّه الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلْفه، تَنْزِيل من حَكِيم حَمِيد".

وقال ابن القيم –رحمه الله–: "فإن بركة الرجل تعليمه للخير حيث حل ونصحه لكل من اجتمع به، قال الله تعالى إخبارا عن المسيح: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ} [مريم:٣١] أي معلما للخير، داعيا إلى الله، مذكرا به مرغبا في طاعته، فهذا من بركة الرجل، ومن خلا من هذا فقد خلا من البركة ومحقت بركة لقائه والاجتماع به، بل تمحق بركة من لقيه واجتمع به، فإنه يضيع الوقت في الماجريات ويفسد القلب، وكل آفة تدخل على العبد فسببها ضياع الوقت وفساد القلب، وتعود بضياع حظه من الله ونقصان درجته ومنزلته عنده، ولهذا وصى بعض الشيوخ فقال: احذروا مخالطة من تضيع مخالطته الوقت وتفسد القلب، فإنه متى ضاع الوقت وفسد القلب انفرطت على العبد أموره كلها، وكان ممن قال الله تعالى فيه: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً} [الكهفك٢٨] .. أي فرطوا فيما ينفعهم ويعود بصلاحهم واشتغلوا بما لا ينفعهم بل يعود بضررهم عاجلا وآجلا".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

شمر عسى أن ينفع التشمير *** وانظر بفكرك ما إليه تصير

طولت آمالاً تكنفها الهوى *** ونسيت أن العمر منك قصير

أضطهد جبابرة الملك، الخُلص من أهل العلم، والقائمين بالجهر بالحق، في أفضل جهاد عرفته البشرية، ثم مات الجميع فبقي لأهل الجبروت سوء السيرة، وبقي لأهل العلم ترحم المؤمنين عبر الأزمان، وانتفاع المتعلمين بعلمهم على تعاقب الأيام.

ومن أهل الأموال من استعبدهم الدينار، فصاروا له يجمعون، ولبريقه يلهثون، وعن حقه معرضون، فأيامهم بين شره المال، وتكثير الخزائن الجرار، تلاحقهم دعوات المحرومين ونظرات الحاسدين، ثم آل المآل إلى فقد المال أو فقد العمر والموت الزؤام، فإن الدنيا إما تتركك وإما تتركها.. فأين هؤلاء من الذين قال الله تعالى فيهم: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر:٩] وقوله –صلى الله عليه وسلم–: (كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس) [رواه أحمد] أي يوم القيامة حين تدنو الشمس من الرؤوس .. قال أهل العلم: "أي أن المتصدق يكفى المخاوف ويصير في كنف اللّه وستره، يقال: أنا في ظل فلان أي في داره وحماه. أو المراد الحقيقة بأن تجسد الصدقة فيصير بها في ظل بخلق اللّه وإيجاده، كما قيل فيه وفي نظائره المعروفة كذبح الموت ووزن الأعمال" .. وكان بعض السلف لا يأتي عليه يوم إلا تصدق ولو ببصلة أو لقمة.

ومن أهل الفراغ من أمضى وقته في القيل والقال، والتسكع في الطرقات أو على الإنترنت وسائر الشبكات، حتى أورثه طول المكث أمام الشاشات فتور الهمة وبلادة العزيمة .. يقول الأستاذ إبراهيم السكران: "لم تعد القضية قضية تبديد الزمن فقط، بل تكشف سقم جديد أشد تعقيدا، ذلك أن هذه الحالة المشار لها، النابعة عن اضطراب التوازن في التصفح الشبكي، تنتهي تدريجيا إلى انحلال الدافعية وهبوط العزيمة، ومما يساعد بصورة رئيسية في تعزيز هذا الركون والإخلاد والاستنامة للواقع قلة الاتصال الممازج للمشروعات العلمية والعملية، أو بتعبير أدق: بعد العهد بالتجارب العلمية والثقافية والإصلاحية، ذلك أن ترامي المسافة بين المرء والمنتجين يوفر بيئة جيدة

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

لاستمرار الإغفاء، بينما البيئة المستعرة بصخب الفاعلين تطرد النعاس وتلهب الحيوية وتحي الدافعية". [الماجريات]

ومن الناس من شغله زوجه، أو ولده، أو عشيرته، ومنهم من أفنى عمره في نيل شهواته وتحصيل رغباته، ومنهم من أفناه في العشق، ومنهم من أمضاه في اللهو، ومنهم من يقضيه في كسب البطولات، ومنهم من ينفقه في المغامرات، ومنهم من يسير سير البعير لا يعرف له طريقا ولا يجد له هدفا، وإنما هان العمر على من هانت عليه نفسه التي بين جنبيه.

فهل من مشمر لاكتناز خيرات وقته، وثمرات عمره، وحلو أيامه.

وهل من مدبر لدقائق العمر كما يدبر راعي الرعية شئون رعيته.

وهل من مستفيق من سكرة الشباب التي لن تطول.

وهل من منتبه لأيام الكهولة فتعدادها قليل، وهل من متدارك توبة قبل الرحيل، وهل من مدخر نفعا يكون له في عالم البرزخ هاديا ودليل.

قال تعالى: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)} [سورة الزمر]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

عبادة التفكر

لقد كان فضل الإسلام على البشريّة عظيماً حين جاء بحقائق تبيّن أن الكون في خدمة الإنسان وليس عدوّاً له، وأن كل شيء مسخر لخدمة هذا المخلوق المكرم، قال تعالى:

- {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)} [إبراهيم].

- وقال: {اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)} [الجاثية].

فعلاقة الإنسان بالكون علاقة تلازم وتناغم تتمثل في الاستكشاف المعرفي والانتفاع المادي متنوّع الأوجه والأشكال، كما تعني الاستلهام الجمالي، وهو ما لفت الله تعالى أنظارنا إليه في كثير من آي القرآن الكريم، قال تعالى:

{أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤)} [النحل].

وهكذا يجمع الإسلام بين الإشباع الحسّي والوجداني وحاجات الإنسان المادية ليرتقي به ماديا ونفسيا ويحدث التوازن في شخصيته وحياته.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فالكون في رؤية الإسلام مصدر للمعرفة العلميّة والمعرفة الإيمانيّة، ولقد أجرمت الحضارة الغربيّة في حق الدين والعلم والإنسان حين ألغت الدلالات الغيبيّة لآيات الكون وقصرت التعامل على المعرفة الماديّة فقط، ونسيت أن هناك علاقة ترابط وانسجام بين الإنسان والكون، قال تعالى:

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١)} [النور]

وقال: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩)} [الأنبياء]

وقال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠)} [سبأ].

- عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذَكَرَ أُحُدًا، فَقَالَ: (هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ).

وفي رواية: نَظَرَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى أُحُدٍ، فَقَالَ: (إِنَّ أُحُدًا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ). [البخاري ومسلم]

- وعَنْ قَتَادَةَ، أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- حَدَّثَهُمْ؛ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صَعِدَ أُحُدًا، فَتَبِعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، فَرَجَفَ بِهِمُ، فَقَالَ: اسْكُنْ، نَبِيٌّ، وَصِدِّيقٌ، وشهيدان) [البخاري]

- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ: جُمْدَانُ، فَقَالَ: (سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ، قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ). [مسلم]

فكأن هنا للجبال عواطف نسجت شبكةً من التجاوب بينها وبين عباد الله الصالحين ملؤها الحب والتعاضد في تمجيد الله تعالى، قال تعالى: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)} [الحشر].

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وليس الجبال فقط بل كل شيء في الكون، فالنار تحسن معاملة إبراهيم عليه السلام فبدل أن تحرقه كانت برداً وسلاماً عليه. قال تعالى: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)} [الأنبياء]

والبحر يحتضن موسى عليه السلام وهو رضيع فارق أمّه وأهله ويحفّه بالرعاية حتّى يبلغ مأمنه، قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)} [القصص]

والكهف الموحش –وهو مظنّة الهلاك– يؤوي الفتية المؤمنين الفارّين بدينهم فيجدون فيه السكينة الّتي افتقدوها في الدور القصور بين أهلهم الكافرين، قال تعالى: {فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (١٦)} [الكهف]

والريح تسارع بحمل البشرى إلى يعقوب عليه السلام قبل أن يصله قميص يوسف بأنّ ابنه المفقود حيّ يرزق، قال تعالى: {وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤)} [يوسف]

ويرفق البحر والحوت معا بيونس عليه السلام فيخرج من المحنة العجيبة سالما لم يغرقه الماء ولم يأكله الحوت وإنّما ابتلعه فحسب، قال تعالى: {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات:١٤٢-١٤٤].

بل إن الكون يصطفّ مع المسلمين في معركتهم الفاصلة ضدّ اليهود فينادي الشجر والحجر المسلم ويدلّه على مخبأ اليهوديّ ليخلّص الأرض من رجسه وظلمه، فعَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما– قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: (تُقَاتِلُكُمُ الْيَهُودُ فَتُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ ثُمَّ يَقُولُ الْحَجَرُ يَا مُسْلِمُ، هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فاقتله) [البخاري]

إن الكون كتاب مفتوح جعله الله تبارك وتعالى ليُقرَأ بكل لغة وبكل لسان، ويدرك بكل الحواس وبأي وسيلة للوقوف على صنع الله الذي أتقن كلّ شيء، والذي أعطى كل شيء خلقة ثم هدى.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

لكن كثير من المسلمين يفهمون عبادات الجوارح، وأعمال اللسان، لكنهم قليلاً ما يفهمون «عبادات القلب»، ويسهل عليهم استيعاب أعمال اللسان وعباداته، وكذلك الشعائر التعبدية التي تقوم بها الأعضاء، لكنهم يصعب عليهم فهم «أعمال القلب»، ثم إذا فهموا ذلك فقليل منهم من يعمل به.. ومن العبادات القلبية العظيمة التي غفل عنها الكثيرون هي: «عبادة التفكر والتأمل»

فمن جميل خصائص التفكُّر أَن توجِّه الأمر به إلى مساحات فسيحة ودوائر متعددة لا تترك مجالاً يتسلل منه الملل للقلوب، ولا منفذًا يتسرب منه الخمول للعقل، وما ترك بابًا يوصل لحقيقة الإيمان إلا طَرَقه؛ فالأمر به اتسع ليشمل المحسوس والمعنوي.

هذا الإبداع الرباني الذي ينطق بعظمة الخالق جل وعلا؛ السماء وارتفاعها واتساعها وما فيها من مجرّات دائرة وكواكب نيرة ونجوم زاهرة، والأرض وانبساطها وانخفاضها وما فيها من جبال وبحار وثمار وأشجار وأنهار وإنسان وحيوان، تجعل القلب ينطق قبل اللّسان، قال تعالى:

{وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}. [البقرة:١٦٣-١٦٤]

لقد أمر الله سبحانه بالتفكُّر والتدبر في كتابه العزيز، وأثنى على المتفكِّرين بقوله: {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران:١٩١]

وقال سبحانه: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الرعد:٣]

ونعى سبحانه على الغافلين عن النظر والتدبر في كونه، فقال عز وجل: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج:٤٦]، وقال سبحانه وتعالى: {وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [يوسف:١٠٥]

إن التعرُّف على الله تعالى هو المقصود الأسمى والمطلوب الأهم من عبادة التفكُّر، وهو الغاية الجامعة لما سواها من غايات التفكُّر، وما سلك العابدون طريقًا إلى ربهم أسرع ولا أرحب من التفكُّر.

ولقد كانت عبادة التفكر دأب النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- منذ تحنثه وهو شاب في غار حراء، وظل ذلك ديدنه حتى لحق بالرفيق الأعلى، فعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي، قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما سرك قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض فجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدا شكورا. لقد نزلت علي الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها، ثم قرأ: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران:١٩٠-١٩١]. [ابن حبان]

- وعَنْ أَبِي رَافِعٍ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: أَوْصَانِي خَلِيلِي أَبُو الْقَاسِمِ - صَلَّى الله عَلَيه وسَلَّم- بِسَبْعِ خِصَالٍ، فَلَنْ أَدَعَهُنْ حَتَّى أَلْقَاهُ، أَمَرَنِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَمُجَالَسَتِهِمْ، وَأَنْظُرُ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي، وَلاَ أَنْظُرُ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي، وَلاَ أَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا، وَأَنْ أَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَنِي، وَأَصِلَ مَنْ قَطَعَنِي، وَأَنْ أَقُولَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ أَمَرَّ مِنَ الصَّبْرِ، وَلاَ تَأْخُذُنِي فِي الله لَوْمَةُ لاَئِمٍ، وَأَنْ أُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ: لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله. [المشكاة وفي إسناده نظر].

- قال أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله فيه نعمة ولي فيه عبرة.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

- ولما سئلت أم الدرداء عن أفضل عبادة أبي الدرداء قالت: التفكر والاعتبار.

- وعن طاووس قال: "قال الحواريون لعيسى ابن مريم: يا روح الله، هل على الأرض اليوم مثلك؟ فقال: نعم من كان منطقه ذكرًا، وصمته فكرًا، ونظره عبرة فإنه مثلي".

- وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمر به مولاه فيقول: يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك! فلو جلست مع الناس كان آنس لك، فيقول لقمان: إن طول الوحدة أفهم للفكر، وطول الفكر دليل على طريق الجنة.

- وقال وهب بن منبه: "ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل".

وذلك لأن استدامة التفكُّر الذي يجمع بين وعي العقل وحضور القلب تصل بصاحبها إلى حُسْن الفهم عن الله، المورِّث للعلم الحقيقي الذي هو قناعة العقل واطمئنان القلب وانقياد الجوارح، فهو فَهْمٌ موصل لعلم، وعلم محفِّز لعمل، حلقة متشابكة يوصل بعضها لبعض بلا انقطاع.

- قال عمر بن عبد العزيز: "الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة".

- قال عبد الله بن المبارك يوماً لسهل بن علي –ورآه ساكتا متفكراً–: أين بلغت؟ قال: الصراط.

- قال الفضيل: "الفكر مرآة تُريك حسناتك وسيئاتك" .. لأن مرآة التفكُّر تعكس بنور البصيرة خبايا النفوس وعيوبها.

- وعن ابن عباس: "ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب".

- وعن محمد بن كعب القرظي قال: "لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح بـ (إذا زلزلت) والقارعة لا أزيد عليهما وأتردد فيهما وأتفكر أحب إلي من أن أهذّ القرآن ليلتي هذًا. أو قال: أنثره نثرًا.

من آثار التفكر الطيبة في حياة المؤمن:

١/ التفكر في الكون يكشف عن عظمة الخالق في خلقه، ويجعل المرء يقر بوحدانية الله تعالى، ويتواضع لعظمته، فيزداد إيماناً وصفاء.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال سفيان بن عيينة: "الفكرة نور يدخل قلبك". وذلك لأن التفكُّر بمعناه الواسع ودوائره المتعددة، يُعدُّ في وسائل التزكية وخطوات التربية وسيلةً هامة وخطوة كبيرة لبناء نَفْس مزكَّاة، وبدونه تتحول النفوس إلى نسيج هشٍّ، والعقول إلى مستودعات خاوية، وتغيب عن القلب حقيقة العبودية.

– جاء رجل للإمام الشافعي وسأله...يا إمام ما الدليل على وحدانية الله عز وجل، عندما رد الإمام ماذا كان ردة؟!: سبحان الله. الإمام لم ينظر إلى الفلك ومدراها وهي دليل على وحدانية الله وقدرته في الخلق، ولم ينظر إلى الجبال ورسوخها وشموخها، ولم ينظر إلى الأرض واتساعها،ولم ينظر إلى الشمس وشعاعها، بل قال الدليل على وحدانية الله تعالى ورقة التوت، فسأله الرجل كيف يا إمام؟. أجاب: الدودة تأكل الورقة فتخرج حريرا طريا، والنحل يأكل الورقة فتخرجها عسلا شهيا، والشاة تأكل الورقة فتخرجها لبن نديا، والغزال يأكل الورقة فيخرجها مسكا نقيا، المادة واحدة والصنعة مختلفة فمن الصانع.

– فتأمل – أيها العاقل – وسل نفسك: مَنْ علم الأسد إذا مشى وخاف أن يقتفى أثره ويطلب، عفى أثر مشيته بِذَنَبِه، ومن علمه أن يأتي إلى شبله في اليوم الثالث من وضعه، فينفخ في منخريه، لأن اللبوة تضعه جرواً كالميت، فلا تزال تحرسه حتى يأتي أبوه فيفعل به ذلك! ومن ألهم كرام الأسود وأشرافها أن لا تأكل إلا من فريستها، وإذا مر بفريسة غيره لم يدن منها ولو جهده الجوع!.

– ومن علم الأنثى من الفيلة إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي إلى الماء فتلد فيه، لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة، لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان، وهي عالية، فتخاف أن تسقطه على الأرض فينصدع أو ينشق، فتأتي ماء وسطاً تضعه فيه يكون كالفراش اللين والوطاء الناعم.

– ومن علم الذباب إذا سقط في مائع أن يتقي بالجناح الذي فيه الداء دون الآخر.!

– ومَنْ علم الكلب إذا عاين الظباء أن يعرف المعتل من غيره، والذكر من الأنثى، فيقصد الذكر مع علمه بأنّ عدوه أشد وأبعد وثبة، ويدع الأنثى على نقصان عدوها؛ لأنّه قد علم أن الذكر إذا عدا شوطاً أو شوطين حقن ببوله، وكل حيوان إذا اشتد فزعه

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فإنه يدركه الحقن، وإذا حقن الذكر لم يستطع البول مع شدة العدو، فيقل عدوه، فيدركه الكلب، وأما الأنثى فتحذف بولها لسعة القبل وسهولة المخرج، فيدوم عدوها!.

– ومَنْ علمه أنه إذا كسا الثلج الأرض أن يتأمل الموضع الرقيق الذي قد انخسف، فيعلم أن تحته جحر الأرانب، فينبشه، ويصطادها علماً منه بأن حرارة أنفاسها تذيب بعض الثلج فيرق!.

– ومن علم الذئب إذا نام أن يجعل النوم نوباً بين عينيه، فينام بإحداهما، حتى إذا نعست الأخرى نام بها، وفتح النائمة! حتى قال بعض العرب:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي *** بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

– ومَنْ علم العصفورة إذا سقط فرخها أن تستغيث، فلا يبقى عصفور بجوارها حتى يجيء، فيطيرون حول الفرخ، ويحركونه بأفعالهم، ويحدثون له قوة وهمة وحركة، حتى يطير معهم!.

– ومن علم العنكبوت أن تنسج تلك الشبكة الرفيعة المحكمة، وتجعل في أعلاها خيطاً ثم تتعلق به، فإذا تعرقلت البعوضة في الشبكة تدلت إليها فاصطادتها!.

– ومن علم اليربوع أن يحفر بيته في سفح الوادي حيث يرتفع عن مجرى السيل ليسلم من مدق الحافر ومجرى الماء، ويعمقه ثم يتخذ في زواياه أبواباً عديدة، ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزاً رقيقاً، فإذا أحس بالشر فتح بعضها بأيسر شيء، وخرج منه، ولما كان كثير النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة علامة له على البيت، إذا ضل عنه!.

– ومن علم الفهد إذا سمن أن يتوارى لثقل الحركة عليه حتى يذهب ذلك السمن، ثم يظهر!.

– ومن علم الأيل إذا سقط قرنه أن يتوارى، لأنّ سلاحه قد ذهب، فيسمن لذلك، فإذا كمل نبات قرنه تعرض للشمس والريح، وأكثر من الحركة ليشتد لحمه، ويزول السمن المانع له من العدو.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

٢/ التفكر يفتح آفاق المعرفة والتعلم، فحينما يتفكر المرء في الكون يكتسب معارف جديدة وعلوم نافعة يستفيد منها في جميع أمور حياته.

قال أحد العلماء يبتدئ خطبته: الحمد لله رب المشارق والمغارب، خلق الإنسان من طين لازب، ثم جعله نطفه بين الصلب والترائب، خلق منه زوجه وجعل منها الأبناء والأقارب، تلطف به فنوع له المطاعم والمشارب، وحمله في البر على الدواب وفى البحر على القوارب، نحمده تبارك وتعالى حمد الطامع في المزيد والطالب، ونعوذ بنور وجهه الكريم من شر العواقب، وندعوه دعاء المستغفر الواجل التائب، أن يحفظنا من كل شر حاضر أو غائب، واشهد أن لا اله إلا الله القوى الغائب، شهادة متيقن بأن الوحدانية لله أمر لازم لازب، أرأيت الأرض في دورانها كيف تمسكت بكل ثابت وسائب، أرأيت الشموس في أفلاكها كيف تعلقت بنجم ثاقب، أرأيت الرياح كيف سخرت فمنها الكريم ومنه المعاقب، أرأيت الأرزاق كيف دبرت وهل في الطيور زارع أو كاسب، أرأيت الأنعام كيف ذللت فجادت بألبانها لكل حالب، أرأيت النحل كيف رشف رحيق الزهور فأخرج الشفاء الشارب، أرأيت النمل كيف خزن طعامه وهل للنمل كاتب أو حاسب، أرأيت الإنسان كيف ضحك أرأيت كيف تثائب، أرأيت نفسك نائما وقد ذهبت بك الأحلام مذاهب.

إذا أرأيت هذا كله فاخشع فلا نجاه للهارب، واشهد أن سيدنا محمدا عبد الله ورسول الملك الواهب، ما من عاقل إلا وعلم أن الإيمان به حق واجب، سل العدوان وسل هل عابه في الحق عائب، سل الشهداء عنه هل كانت له في الدنيا مآرب، سل صناديد قريش في قليب بدر من الصادق ومن الكاذب، سل السيوف سل الرماح هل حملها مثله محارب، سل الغار عن الحمامة حيث باضت فأغشت أعينا كانت تراقب، سل سراقة عن قوائم حصانه كيف ساخت في الصخر حتى المناكب، سل أم العبد كيف سقاها اللبن والشاه مجهده وعازب، سل الشمس سل القمر عن نوره إذ الكل غارب، سل النجوم متى صلت وسلمت عليه في المسارب، سل المسجد الأقصى عن قرآنه والرسل تسمع والملائكة مواكب، سل الزمان متى توقف وسل المكان كيف تقارب، سل السموات السبع هل وطئها قبله راجل أو راكب، سل أبوابها كيف تفتحت

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ومن استقبله على كل جانب، سل الملائكة أين اصطفت لتحيته كما تصطف الكتائب، سل الروح الأمين لماذا توقف عند الحجاب ومن الحاجب، سل العشاق عن حبهم والناس فيما يعشقون مذاهب.

٣/ التفكُّر يحيي القلوب ويُورِثها رقةً وإخباتًا لما ينطبع فيه من مشاهد العَظَمَة والقدرة والقهر التي تطرد دواعي الكبر والعُجْب، وتستنبت بذور الذل والتواضع، ومن مشاهد العفو والرحمة والإحسان والجود ما يستمطر أسباب الحياء والشكر؛ فيندفع مع كل مشهد من مشاهد التفكُّر وكل جَوْلة من جَولاته باعث من بواعث الشر ويستجلب باعثًا من بواعث الخير، ولا يزال القلب في ميدان التفكُّر يدافع الشر ويستجلب الخير حتى يبلغ من الرقة ما يكون معه على حال كريمة قريبًا من الله تعالى قريبًا من رحمته.

٤/ التفكُّر يكشف للقلب ما حُجب عنه بسبب الذنوب من معاني الإيمان، ويجلب كلُّ نوع من أنواع التفكُّر للقلب مشهدًا من مشاهد الإيمان وحقيقة من حقائقه؛ فتظل معاني الإيمان وحقائقه: من يقين وخشية وحب ورجاء وتوكُّل وإنابة تلوح للقلب في جَوْلات التفكُّر، وكلما كان التفكُّر في حضرة من القلب وحضور من العقل كانت حقائق الإيمان أكثر وضوحًا وأشد تأثيرًا.. قال الحسن: عن عامر بن عبد قيس قال: "سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقولون: "إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكُّر".

٥/ التفكر يورث الحكمة ويغرس في القلوب الخوف والخشية من الله عز وجل، ولو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل.. إن التفكُّر في عَظَمَة الله وواسع قدرته وعظيم بطشه وشديد انتقامه يُورِث القلب خوفًا مزعجًا وخشية تحول بينه وبين شهوات نفسه وأهوائها؛ فالأثر النوراني لهذا التفكُّر يعرقل عمل الشهوات في القلب ويدفع أهواءها على حسب قوة الوارد من أنوار التفكُّر؛ فتُسْلَب الشهوة من عاجل

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

لذتها فما يتبقى منها إلا سوء عاقبتها.. قال بِشْر الحافي: "لو تفكَّر الناس في عَظَمَة الله تعالى ما عصوه"

من أقوالهم في التفكر

- يقول الإمام ابن القيم حين يصف التفكُّر وعظيم شرفه: "تفكُّر ساعة خير من عبادة سنة؛ فالفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة، ومن المكاره إلى المحاب، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة..."

- التفكُّر سياحة نورانية ورياضة إيمانية؛ ينطلق فيها القلب في وعي، والعقل في يقظة معًا بعيدًا في ساحات الإيمان بلا قيد من جواذب الأرض وقيود الشهوات؛ ليجتمعا على التقاط الحكمة والمعرفة وتحقيق معاني الإيمان والترقي في درجات العبودية.

- التفكُّر فرصة عظيمة لاكتشاف مساحة بعيدة شديدة العمق في النفس الإنسانية تصل إلى حقائق العبودية بما فيها من ضَعْف وعَجْز وذلة وعَوَز، ومشاهدة كمالات الربوبية بما فيها من: كمال وجمال وجلال.

- التفكر يبدأ بعمليات سهلة بسيطة؛ يلتفت فيها القلب إلى عظيم الآيات المبهرة وعظيم قدرة الله في خَلْقه، وجلاله في فِعْلِه وتدبيره، في عملية يسيرة لا تحتاج لكبير مجاهدة، يرى فضل المنْعِم من وراء النعم، ويشاهد عظيم قدرة الله في كل حركة وسكنة في الكون، ويجمع من عجائب آيات الكون والنفس وعظيم حكمة الشرع؛ فينصب من جميعها شواهد على جلال أسماء الله وصفاته وعظيم قدرته وحكمة تقديره.

- فوات عبادة التفكُّر يحدث شَرْخا واسعًا في حقيقة العبودية.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

عفة القول .. درة الفضائل

تعرف أخلاق المرء بلسانه، فطهارة الكلمة منوطة بطهارة القلب، والكامل يعف لسانه عن النطق بالهجر، وطالما حرص الفضلاء على انتقاء الكلمات كما ينتقي أحدهم جواهر الدرر، ولا تزال الأمة بخير إذا كانت العفة بينها سارية وعلى ألفاظها جارية.

وكلُّ تزيُّنٍ بالمرءِ زينٌ .. وأزينُه التزيُّنُ بالعفافِ

أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً} [المائدة:٦]

كنى جل ذكره بالملامسة عن الجماع، لأنه مما يستهجن التصريح به أو يستحي منه.

وعن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنه قال: إن الله حيي كريم يعف ويكني، فعبر عن المباشرة بالملامسة.

وقال سيد قطب: والتعبير بالملامسة أرق وأحشم وأرقى – والملامسة قد تكون مقدمة للفعل أو تعبيراً عنه – وعلى أية حال فهو أدب يضربه الله للناس في الحديث عن مثل هذه الشؤون. عندما لا يكون هناك مقتض للتعبير المكشوف.

قال أهل العلم: اختلف المفسّرون في معنى اللمس والملامسة، فقال قوم: المجامعة، وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة، وقال سعيد بن جبير: ذكروا (اللمس) فقال ناس من الموالي: ليس بالجماع، وقال ناس من العرب: هو الجماع، فأتيت ابن عباس فذكرت له، فقال: من أيّ الفريقين كنت؟ قلت: من الموالي. قال: غُلب فريق الموالي، إنّ اللمس والمسّ والمباشرةَ الجماعُ، لكنّ الله يكنّي عمّا يشاء بما يشاء.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وعلى هذا القول إنّما كنّى عن اللمس بالجماع؛ لأنّ اللمس يوصَل إليه، كما يقال للسّحاب: سماء، وللمطر: سماء، وللكلأ سماء، لأنّ بالسحاب يوصل إلى المطر، وبالمطر يوصل إلى الكلأ .. قال الشاعر:

إذا سقط السّماء بأرض قوم .. رعيناه وإنْ كانوا غضابا

وقال -صلى الله عليه وسلم-:

- (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي) [أحمد]

أي ذي الفحش في كلامه وفعاله، قال ابن العربي: والفحش الكلام بما يكره سماعه مما يتعلق بالدين (ولا البذي) أي الفاحش في منطقه، وإن كان الكلام صدقاً.

- (أثقل شيء في ميزان المؤمن خلق حسن، إن الله يبغض الفاحش المتفحش البذي) [صحيح الجامع:١٣٥]
- (إن الله تعالى لا يحب الفاحش المتفحش، ولا الصياح في الأسواق) [ابن أبي الدنيا]

قال القرطبي: "الفاحش: المجبول على الفحش، الذي يتكلم بما يكره سماعه مما يتعلق بالدين، أو الذي يرسل لسانه بما لا ينبغي، وهو الجفاء في الأقوال والأفعال، والمفتحش المتعاطي لذلك المستعمل له، وقيل الفاحش المتبلس بالفحش، والمتفحش المتظاهر به، لأنه تعالى طيب جميل فيبغض من لم يكن كذلك قال تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} [الأنعام:١٥١]

التلميح لا التصريح

روى أن كَعْبُ بْنُ سُورٍ الأَزْدِيُّ كان جالسا عند عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فجاءت امرأة فقالت: يا أمير المؤمنين: ما رأيت رجلا قط أفضل من زوجي، إنه ليبيت ليله قائما، ويظل نهاره صائما، في اليوم الحار ما يفطر، فاستغفر لها وأثنى عليها، وقال: مثلك أثنى بالخير، وقال: واستحيت المرأة فقامت راجعة.

فقال كعب يا أمير المؤمنين، هلا أعديت للمرأة على زوجها، إن جاءتك تستعيدك؟ قال: أو ذاك أرادت؟ قال: نعم.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال عمر: ردوا علي المرأة، فردت، فقال عمر: لا بأس بالحق أن تقوليه، إن هذا زعم أنك جئت تشتكين زوجك، أنه يجتنب فراشك. قالت: أجل، إني امرأة شابة، وإني أتبع ما يتبع النساء.

فأرسل إلى زوجها فجاءه، فقال لكعب: أقضي بينهما، فإنك فهمت من أمرها ما لم أفهمه، فقال كعب: أمير المؤمنين أحق أن يقضي بينهما، فقال: عزمت عليك لتقضين بينهما.

قال: فإني أرى كأنها امرأة عليها ثلاث نسوة هي رابعتهن، فأقضي له بثلاثة أيام وليالهن يتعبد فيهن، ولها يوم وليلة ليس له فيها إلا أداء الفريضة، فقال عمر: والله ما رأيك الأول بأعجب من الآخر، اذهب فأنت قاض على أهل البصرة.

ومحبة الله للعبد قرينة بمن يكون عفيف الجنان، عفيف اللسان، عفيف الجوارح والأركان عن أهل الإسلام والإيمان، حينما يراه الله في صباحه ومسائه لا يؤذي المسلمين بلسانه، لا يسبّ، ولا يشتم، ولا يغتاب، يمسي ويصبح وليس في صحيفة عمله زلّة على مسلم، ولا أذيّة لمسلم، يمسي ويصبح يحب للمسلمين ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

قال أبو حاتم البستي: "أعظم المصائب: سوء الخلق، والمسألة من الناس، والهم بالسؤال نصف الهرم، فكيف المباشرة بالسؤال، ومن عزت عليه نفسه، صغرت الدنيا في عينيه، ولا ينبل الرجل حتى يعفَّ عما في أيدي الناس، ويتجاوز عما يكون منهم، والسؤال من الإخوان ملال، ومن غيرهم ضد النوال".

وقال الإمام البخاري –رحمه الله–: "ما اغتبت مسلما منذ أن سمعت الله ينهى عن الغيبة".

فإن استطعت أن تبقى فيما بقي من عمرك عفيف اللسان فافعل، فإن الله لا يحاسبك على نقد الناس وتفنيدهم، فضلا عن سبهم وشتمهم، ولكن إذا تناولتهم بجور أو سببتهم وشتمتهم فإنهم خصومك بين يدي الله، وبخاصة إذا كان ذلك ظلما وتعديا.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ومن عفة اللسان: صونه عن أذية المسلمين، والتقرب به بكثرة ذكر إله الأولين والآخرين، ولذلك قال العلماء: إن للسان خصلتين حبيبتين إلى الله، الخصلة الأولى: عفته عن أذية العباد، والخصلة الثانية: حرصه على ذكر رب العباد.

كما أن الناقد ينبغي أن يكون عفيف اللسان، يكسي ألفاظه بأحسن الأدب، ويختار أدلها على المقصود؛ بألطف عبارة، ويربأ بنفسه عن الفظاظة والغلظة ووضيع الكلام، فما كان رسول الله فاحشاً ولا متفحشاً ولا بالبذئ.

قال السخاوي: "وإذا أمكنه الجرح بالإشارة المفهمة، أو بأدنى تصريح، لا تجوز له الزيادة على ذلك، فالأمر المرخص فيه للحاجة لا يُرتقى فيه إلى زائد على ما يُحصل الغرض، وقد روينا عن المزني قال: سمعني الشافعي يوماً وأنا أقول: فلان كذاب، فقال لي: يا إبراهيم! اكس ألفاظك أحسنها، لا تقل كذاب! ولكن قُلْ: حديثه ليس بشيء.

ونحوه: أن البخاري لمزيد ورعه قلّ أن يقول في الراوي كذاب أو وضاع، أكثر ما يقول: سكتوا عنه، فيه نظر، تركوه .. ونحو هذا، نعم ربما يقول: كذّبه فلان، أو رماه فلان بالكذب"

فالاسترسال في الكلام دون روية مزلة قدم، وأنت محفوف فيه بين الغيبة، وحقوق الآدميين، والنفس ظلومة جهولة، والتجرد عزيز، والعاقبة وخيمة؛ فحذارِ حذارِ أن تريق حسناتك بفلتات لسانك؛ فإن الطالب شحيح، والشهود الأعضاء، والحَكَم العليم الخبير.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

في الجنة

الجنة بالنسبة لنا ليست مجرد حقيقة قادمة فقط.

** إنها المواعيد التي تم تأجيلها رُغماً عنا، والأماكن التي لا تستطيع الأرض مَنحنا إياها.

** إنها الحب الذي بخلت به الدنيا، والفرح الذي لا تتسع له الأرض.. قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ [في الجنة] مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا [بطرا باتباعه لهواه] (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ [يرجع إلى ربه](١٤) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥)} [الانشقاق]

** إنها الوجوه التي نشتاقها، والوجوه التي حُرمنا منها.. قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ [في الإيمان] أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ [يكونون في درجتهم وإن لم يعملوا بعملهم تكرمة للآباء باجتماع الأولاد إليهم] وَمَا أَلَتْنَاهُم [نقصناهم] مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ [يزاد في عمل الأولاد] كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ [مرهون يواخذ بالشر ويجازى بالخير]} [الطور: ٢١]

** إنها نهايات الحدود، وبدايات إشراقات الوعود... روى البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالُوا يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا)

** إنها استقبال الفرح، ووداع المعاناة والحرمان.. قال تعالى: {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)} [الطور]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** الجنة زمن الحصول على الحريات، فلا قمع ولا سياج ولا سجون، ولا خوف من القادم والمجهول.

** الجنة موت المُحرمات، وموت المَمنوعات، وموت السُلطات.. قال تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ [متغير] وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ} [محمد:١٥] وقال تعالى: {مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ} [الطور:٢٠] {حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ} [الرحمن:٧٢]

** الجنة موت الملل، موت التعب، موت اليأس... روى الطبراني بسند جيد عن معاذ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قال –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (إن المردّ إلى الله، إلى جنة أو نار، خلود بلا موت وإقامة بلا ظعن)

** الجنة موت الموت...عَنِ ابْنِ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهما– قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحُ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ، فَيَزْدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا عَلَى حُزْنِهِمْ)

** في الجنة لن نفترق، ولن نخاف البعد ولا الموت ولا الظروف ولا السفر.. قال تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ} [الحجر:٤٧]

** في الجنة لن نغار، ولن ننام، ولن نتعب... قال تعالى: {لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ} [الحجر:٤٨]

** في الجنة لا بكاء، ولا جروح، ولا دموع، ولا ألم.. قال تعالى: {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} [فاطر:٣٥]

** في الجنة ستموت خُصيلات الشّيب، وهالات العين، وإجهاد السهر، ودموع الحنين.. روى الترمذي عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرْدًا [هو الذي لا شعر على جسده] مُرْدًا

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

[غلام لا شعر على ذقنه وقد يراد به الحسن] مُكَحَّلِينَ أَبْنَاءَ ثَلَاثِينَ أَوْ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً) [حديث حسن] وفي رواية (على صورة آدم وكان طوله ستون ذراعا)

** في الجنة سنكون أجمل بكثير.. روى الإمام أحمد عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (أُعْطِيتُ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَقُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا)

// وروى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– (أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ أَمْشَاطُهُمْ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَمَجَامِرُهُمْ الْأَلُوَّةُ [عُودُ الطِّيبِ] وَرَشْحُهُمْ الْمِسْكُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنْ الْحُسْنِ لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا)

// وفي رواية للبخاري: (أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَالَّذِينَ عَلَى إِثْرِهِمْ كَأَشَدِّ كَوْكَبٍ إِضَاءَةً قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ لَحْمِهَا مِنْ الْحُسْنِ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا لَا يَسْقَمُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَبْصُقُونَ آنِيَتُهُمْ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَأَمْشَاطُهُمْ الذَّهَبُ وَوَقُودُ مَجَامِرِهِمْ الْأَلُوَّةُ) قَالَ أَبُو الْيَمَانِ يَعْنِي الْعُودَ (وَرَشْحُهُمْ الْمِسْكُ)

** في الجنة سنرى الله جل وعلا.. قال تعالى: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ [سواد] وَلاَ ذِلَّةٌ [كآبة] أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس:٢٦]

** في الجنة سنرى رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

أسأل الله عز وجل أن يجمعنا وإياكم ووالدينا ووالديكم وموتانا والمؤمنين والمؤمنات في الفردوس الأعلى من الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقًا.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** *كيف تريدها جنتك ؟*

// **ذات غراس:** سبحان الله وبحمده.. قال –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– (من قال سبحان الله وبحمده غرست له بها نخلة في الجنة) [الترمذي]

// **ذات قصور:** سورة الإخلاص... روى الإمام أحمد عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ، صَاحِبِ النَّبِي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَن أَبِيه، عَنِ النَّبِي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (مَنْ قَرَأَ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} حَتَّى يَخْتِمَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ بَنَى اللَّهُ لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِذَنْ أَسْتَكْثِرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (اللَّهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ). [حسنه بعض أهل العلم]

// **ذات كنوز:** لا حول ولا قوة إلا بالله. روى البخاري عن أبي موسى الأشعري –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قال –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ قُلْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ) أَوْ قَالَ: (أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)

// **ذات رياض:** سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .. روى الترمذي عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلاَمَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ).

** *لكل شيء ثمنه!*

// أجمع عقلاء كل أمة أن النعيم لا يدرك بالنعيم، ومن آثر الراحة فاتته الراحة. [إبراهيم الحربي]

// المكارم منوطة بالمكاره، والسعادة لا يعبر إليها إلا على جسر المشقة، ولا تقطع مسافتها إلا في سفينة الجد والاجتهاد. [ابن القيم]

// ورحت من سفر مضن إلى سفرٍ أضنى؛ لأن طريق الراحة التعبُ! [البردوني]

// ولا بد دون الشهد من إبر النحل!

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فمن أراد الراحة ترك الراحة، ومن رام السيادة هجر الوسادة، وكلما جاءتك أشياء عظيمة لا تنال إلا بمشقة وتعب دون أن تبذل شيئًا فيها؛ فثق أنك لا تستحقها؛ وأنها امتحان صعب حل عليك، وأن الزمان زمن الضيعة والتسلق، فإذا أخذت شيئًا، فخذه بقوة وحزم العلم والقدرة؛ وإلا فاتركه، فلكل أمرٍ أهله ورجاله!

***** كان محارب بن دثار قاضى الكوفة يدعو في الليل فيقول:**

أَنَا الصَّغِيرُ الَّذِي رَبَّيْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ،

وَأَنَا الضَّعِيفُ الَّذِي قَوَّيْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ،

وَأَنَا الْفَقِيرُ الَّذِي أَغْنَيْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ،

وَأَنَا الْغَرِيبُ الَّذِي وَصَّيْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ،

وَأَنَا الصعلوك الَّذِي مَوَّلْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ،

وَأَنَا السَّاغِبُ الَّذِي أَشْبَعْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ،

وَأَنَا الْعَارِي الَّذِي كَسَوْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ،

وَأَنَا الْمُسَافِرُ الَّذِي صَاحَبْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ،

وَأَنَا الْغَائِبُ الَّذِي أَدَّيْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ،

وَأَنَا الرَّاجِلُ الَّذِي حَمَلْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ،

وَأَنَا الْمَرِيضُ الَّذِي شَفَيْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ،

وَأَنَا الدَّاعِي الَّذِي أَجَبْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ رَبَّنَا،

وَلَكَ الْحَمْدُ رَبَّنَا حَمْدًا لَكَ عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ

***** قال الفضيل بن عياض رحمه الله:**

يا مسكين، أنت مسيءٌ وترى أنك محسن، وأنت جاهل وترى أنك عالم، وتبخلُ وترى أنك كريم، وأحمق وترى أنك عاقل، أجلُكَ قصير، وأملُك طويل.

قال الذهبي رحمه الله: إي والله، صدق، وأنت ظالم وترى أنك مظلومٌ، وآكل للحرام وترى أنك متورِّع، وفاسق وتعتقِدُ أنك عَدْلٌ، وطالب العلم للدنيا وترى أنك تطلبُه ....

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

***** وأخيرا قـال ابن الجوزي –رحمه الله–:***

اعلم أن الزمان لا يثبت على حال فتارة فقر، وتارة غنى، وتارة عز، وتارة ذل، وتارة يفرح الموالي، وتارة يشمت الأعادي..

فالسعيد من لازم أصلاً واحداً على كل حال، وهو تقوى الله عز وجل، فإنه إن استغنى زانته، وإن افتقر فتحت له أبواب الصبر، وإن عوفي تمت النعمة عليه، وإن ابتلى حملته...

ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد، أو أعراه أو أشبعه أو أجاعه، لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير. والتقوى أصل السلامة.....

اللهم ارزقنا التقوى وثبتنا وعافنا واعف عنا

المصادر

- «في الجنة» رائعة منسوبة للعلامة الشيخ (محمد على الصابوني)
- كتاب الشكر لابن أبى الدنيا

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قوت القلوب

القلوب بأنوارها الإيمانية لا بضرباتها العضلية، ونور القلوب هو محك الإيمان وهمّ أهل الإحسان، فبنور القلب تضيء الحياة كلها، ولما كانت الحكمة من أجل مفاتيح استنارة القلوب حرص عليها الأخيار وتتبعها الفضلاء في كل زمان ومكان، فهي الكنز الثمين الذي تشد له الرحال ويبذل فيه الغالي والنفيس، فسعادة القلب المستنير لا يعدلها سعادة، وهداية القلوب أعظم هداية، فاللهم نور بالحق قلوبنا، وثبتنا على الحق المبين.

أجمل خريطة للدنيا هي التي رسمها مهندسي الحكماء الذين يعرفون الفرق الحقيقي بين العمران والخراب، وبين متين الأساس ومن شيد على شفا جرف هار .. مهندسون خبرتهم منبثقة من التجارب، وبصيرتهم استنارت من مشكاة الحكمة، وهم أجدر الناس على وصف الطريق، وتحديد علاماته وعقباته.

يقول ابن الجوزي:

من تفكر في عواقب الدنيا، أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر.

ما أعجب أمرك يا من يوقن بأمر ثم ينساه، ويتحقق ضرر حال ثم يغشاه {وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ} [الأحزاب:٣٧].

تغلبك نفسك على ما تظن، ولا تغلبها على ما تستيقن.

أعجب العجائب: سرورك بغرورك، وسهوك في لهوك، عما قد خبئ لك.

تغتر بصحتك وتنسى دنو السقم، وتفرح بعافيتك غافلاً عن قرب الألم.

لقد أراك مصرع غيرك مصرعك، وأبدى مضجع سواك – قبل الممات – مضجعك.

وقد شغلك نيل لذاتك، عن ذكر خراب ذاتك:

كأنّك لم تسمع بأخبار من مضى ... ولم تر في الباقين ما يصنع الدهر!

فإن كنت لا تدري فتلك ديارهم ... محاها مجال الرّيح بعدك والقبر!

كم رأيت صاحب منزل ما نزل لحده، حتى نزل!. [أي نزل إيمانه ودرجته]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وكم شاهدت والي قصر، وليه عدوه لما عُزل!.

فيا من كل لحظة إلى هذا يسري، وفعله فعل من لا يفهم ولا يدري ...

كيف تنام العين وهي قريرة ؟ ... ولم تدر من أيّ المحلين تنزل؟"[صيد الخاطر، لابن الجوزي]

فقوله –رحمه الله–: (وكم شاهدت والي قصر، وليه عدوه لما عُزل!) .. فهذا من نكد الدنيا، فالنفس تفرح بالمنصب ولما يعزل صاحبها تحس بمرارة أضعاف لذة وفرحة يوم توليه.

قال سليمان بن يزيد العدوي:

عَجَبًا لأَمْنِكَ وَالْحَيَاةُ قَصِيرَةٌ * وَلِفَقْدِ إِلْفٍ لا تَزَالُ تَرَوَّعُ

أَفَقَدْ رَضِيتَ بِأَنْ تُعَلَّلَ بِالْمُنَى * وَإِلَى الْمَنِيَّةِ كُلَّ يَوْمٍ تُدْفَعُ

لا تَخْدَعَنَّكَ بَعْدَ طُولِ تَجَارِبٍ * دُنْيَا تَكَشَّفُ لِلْبَلاءِ وَتَصْرَعُ

أَحْلامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ * إِنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِهَا لا يُخْدَعُ

وَتَزَوَّدَنَّ لِيَوْمِ فَقْرِكَ دَائِبًا * أَلِغَيْرِ نَفْسِكَ لا أَبَا لَكَ تَجْمَعُ

وخير الفرح: الفرح بالفضائل وإن زهد فيها الناس، وتكالبوا على الدينار والدرهم، واستعاضوا بالفاني عن الباقي، فمن لم يجد متعته في الخيرات فلن يجدها في الشهوات والملذات.

قال ابن عباد صاحب الوزارتين: "ما كنت أظن أن في الدنيا حلاوة تعدل حلاوة الوزارة حتى حضرت مجلسا لأبي القاسم الطبراني وأبي بكر الجعابي فدارت بينهما مناظرة، فكان الطبراني يغلبه بحفظه والجعابي يغلبه بدهائه، ولم يفصل لأحدهما علي الآخر، حتى قال أبي بكر الجعابي: عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي.

قال له الطبراني: وما هو؟

قال: حدثنا أبو أحمد الحاكم حدثنا سليمان بن أحمد .. وساق حديثا .. فقال له الطبراني: أنا سليمان بن أحمد .. خذه مني عاليا!

قال: فخجل الجعابي .. ووددتُ أنه لم تكن لي الوزارة، وأني فرحت كفرح الطبراني".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ومن شؤم العبد أن يأتي ربه يوم القيامة وقلبه خال الوفاض من نور الإيمان، فأمثال هؤلاء في شدة من حسابهم كما كانوا في الدنيا في شدة شهواتهم، فظلمة القلب عُسرة لا تدانيها عسرة، وشدة لا تشابهها شدة.

قال تعالى: {لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [الرعد:١٨] قال إبراهيم النخعي: "سُوء الحساب: أن يحاسبَ الرجلُ بذنبه كلّه لا يغفر له منه شيء".

وعَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ الْمَازِنِيِّ، قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ ابْنِ عُمَرَ، آخِذٌ بِيَدِهِ، إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي النَّجْوَى فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، يَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ: فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ: هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ. [البخاري]

قال الغزالي –رحمه اللّه تعالى–: وهذا إنما يرجى لعبد مؤمن، ستر على الناس عيوبهم، واحتمل في حق نفسه تقصيرهم، ولم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون، فهو جدير بأن يجازى بذلك.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قيمة وقامة

** قال تعالى: {لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء:١٠]
قال أهل التفسير: يقول تعالى لأولئك المشركين المطالبين بالآيات التي قد تكون سبب هلاكهم ودمارهم {لقد أنزلنا إليكم} لهدايتكم وإصلاحكم ثم إسعادكم {كتاباً} عظيم الشأن {فيه ذكركم} أي ما تذكّرون به وتتعظون فتهتدون إلى سبيل سلامتكم وسعادتكم، وفيه أيضا عزكم وشرفكم بين الأمم والشعوب لأنه نزل بلغتكم، والناس لكم فيه تبع، وهو شرف أي شرف لكم. أتشتطون في المكايدة والعناد، فلا تعقلون ما خير لكم مما هو شر لكم .. وعن مجاهد {فيه ذكركم} فيه حديثكم.

** روي أن الأحنف بن قيس كان جالساً يوماً فجال في خاطره قوله تعالى: {لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء:١٠] فقال: عليَّ بالمصحف لألتمس ذكري حتى أعلم من أنا؟ ومن أشبه؟

فمر بقوم: {كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)} [الذاريات]

ومرَّ بقومٍ: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران:١٣٤]

ومرَّ بقوم: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر:٩]

ومرَّ بقوم {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} [الشورى:٣٧]

فقال تواضعاً: اللهم لست أعرف نفسي في هؤلاء .. ثم أخذ يقرأ

فمر بقوم: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ} [الصافات:٣٥]

ومرَّ بقوم يقال لهم: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦)} [المدثر]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فقال: اللهم إني أبرأ إليك من هؤلاء

حتى وقع على قوله تعالى: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة:١٠٢] فقال: اللهم أنا من هؤلاء

** قال الحسن البصري –رحمه الله–: استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة يوم القيامة.

** وقال ابن الجوزي –رحمه الله–: إن لم تجدوني في الجنة بينكم فاسألوا عني فقولوا: يا ربنا عبدك فلان كان يذكرنا بك! ثم بكى رحمه الله رحمة واسعة.

** واحذروا تقلب القلوب .. «الرَّجَّال بن عُنْفُوة» –واسمه نهار– كان في وفد بني حنيفة إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فلزمه وتعلم منه وحفظ القرآن والأحكام وجدّ في العبادة.

يقول رافع بن خديج: كان بالرَّجَّالِ من الخشوع ولزوم قراءة القرآن والخير شيء عجيب.

وقال عنه ابن عمر –رضي الله عنهما–: كان من أفضل الوفد عندنا، قرأ البقرة وآل عمران وكان يأتي أبيا يقرئه.

بعثه رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– معلما لأهل اليمامة، وليشغب على مسيلمة الكذاب، فلما وصل "الرَّجَّال" اليمامة التقاه مسيلمة وأكرمه وأغراه بالمال والذهب، وعرض عليه نصف ملكه إذا خرج إلى الناس، وقال لهم إنه سمع محمدا يقول: «إن مسيلمة شريك له في النبوة» فطاوعه، بل وقال: كبشان انتطحا فأحبهما إلينا كبشنا.

"فالرَّجَّال" لما رأى ما فيه مسيلمة من النعيم –وكان من فقراء العرب– ضعف ونسي إيمانه وصلاته وصيامه وزهده، وخرج إلى الناس الذين كانوا يعرفون أنه من رفقاء النبي –صلى الله عليه وسلم– فشهد أنه سمع رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يقول: إنه قد أشرك معه مسيلمة بن حبيب في الأمر.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فكانت فتنة «الرَّجَّال» أشد من فتنة مسيلمة الكذاب، وضل خلق كثير بسببه واتبعوا مسيلمة، حتى تعدى جيشه أربعين ألفا .. فهو الفقيه الخوان الأثيم، مع أنه كان من حفظة القرآن، نسأل الله الثبات.

ثم قُتل "الرَّجَّال" مع من قتل من أتباع مسيلمة في موقعة اليمامة، فقد كان أول من لقي المسلمين، فقتله زيد بن الخطاب، وخُتم له بشر، ومات على الكفر مذموماً مخذولاً!

على العكس من «وحشي بن حرب» الذي قتل حمزة أسد الله وعم رسوله يوم أحد، ولكن هداه الله فختم له بخير وصار من خيرة المجاهدين، وقتل مسيلمة الكذاب يوم اليمامة.

فلا تغتر بعباداتك وصلاتك وصيامك وزكواتك وصدقاتك، ولا تمنن، ولا تغتر بما تراه من نفسك، ولا ما يقوله الناس مدحا فيك، وادع الله بأن يثبتك ويختم لك بخير، ولا تحقرن أحداً بذنبه أو لذنبه، وأدع الله أن يتوب عليه .. وردد دوما «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»

** إن معية الله تعالى للمتقين ما هي إلا تسديده وإعانته وكفايته لهم، وكلما زاد العبد في التقوى زاد الرب في تسديده.

والمعية ظاهرة وباطنة، وليس المقصود أن يكفيه الله تعالى الأذى فقط، بل يكفيه ظاهرا وباطنا، فقد يقع له الأذى في الظاهر لكن يرزقه يقينا وصبرا وثباتًا، فيجد طمأنينة في القلب وثباتا على الحق وقوة في الصبر.

لذلك الأنبياء كانوا أشد الناس بلاء وأشدهم ثباتًا، فكفاية الله لا تعني عدم نزول البلاء بل ما يحصل في الباطن من راحة وثبات وطمأنينة.

لذلك يجب على المتصدر للحق أن يكثر من العبادة حتى يصنع سياجا يحميه من الانتكاسة. وهم الأحوج دائمًا للتعرض لمعية الله وكفايته .والتقصير في العبادة يؤدي للانتكاس.

** إننا في أشد الحاجة «للتربية المكية» تلك المرحلة من الدعوة الغنية بآيات التوحيد والربوبية والحساب والجنة والنار لتقوية قلب المسلم حتى لا تزعزعه حالة

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الضعف والظلم وعدم التمكين السائدة، ففي وجود حالة عدم التمكين لسلطان الحكم بالشريعة الإسلامية تضعف النفوس وتتعدد الأهواء، لأن قوة سلطان الحكم له وازع وازجر في نفوس البشر .. فلقد اشتدت بالمؤمنين الأحوال التي يصفها أحد الكتاب بقوله:

مرحبا بك في القرن الواحد والعشرين، حيث الحرام مجاني والحلال مُكلف جداً.. حيث وصول البيتزا أسرع من وصول الإسعاف والأمن.. حيث فقدان الهاتف أكثر ألماً من فقدان الكرامة، والملابس تحدد قيمة الشخص.. حيث أصبح الوفاء وأصحابه من الطراز القديم .. حيت المال هو تمثال الحرية والعدالة والمساواة.

مرحباً بك في هذا العصر الموحش.. حيث أصبح الكذب فهلوة، والخيانة ذكاء، والفقر عيب، والعُري أصبح قمة الأناقة، والحرية والتحشم قمة التخلف، والجمال هو عامل الجذب الأول.

كسر الخاطر أصبح صراحة، وجبر الخواطر أصبح طيبة وهبل.

والمال يُجِبر الناس أن تحترمك حتى لو مال حرام.

والمبادئ والقيم قمة التخلف والتأخر.

أهلًا بك في قمة الزيف، وفي أسوأ عصر من عصور البشرية!.

نعم تعددت الأهواء والفتن، التي تزينت بالمال والشهرة، ومع الفضائيات ووسائل التواصل وجدت لها طريقا في قلوب المسلمين بسبب غياب سلطان الحكم بالشريعة الذي يبسط عبق الإيمان على الناس ويردع كل خبيث.

لذلك نحن بلا شك في هذه أيام في أمس الحاجة لتقوية القلوب «بالتربية المكية» على توحيد الله الأحد الصمد وإفراده وحده بالعبودية العملية، واستحضار أجواء يوم الحساب والخوف من النار والرغبة في جنة الأبرار.

**** قال إبراهيم الخواص –رحمه الله–: دواء القلب في خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتفكّر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرّع عند السَحر، ومُجالسة الصالحين.**

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

كلمات الله التامات .. الواقيات المنجيات

«كلمات الله التامات» .. نور القلوب، وبهجة الأيام، وسر السعادة، ومفتاح الهداية، من تعلق بها أدرك سبل النجاة، ومن استرشد ببركتها لم تلحقه خيبة أبدا، فأكرم بها نعمة من نعم الله تعالى علينا التي لا تعد ولا تحصى.

وكلمات الله التامات: أي التي لا يعتريها نقص، إذ يتنزه سبحانه أن يكون شيء في كلامه ناقصا أو خللا أو عيبا، كما يكون في كلام البشر.

وقيل: معنى التمام: أن ينتفع بها المتعوذ، وتحفظه من الآفات.

قال النووي: "قيل معناه: الكاملات التي لا يدخل فيها نقص ولا عيب، وقيل: النافعة الشافية، وقيل: المراد بالكلمات هنا القرآن، والله أعلم".

وقال التوربشتي وصفها بالتمام لخلوها عن العوائق والعوارض فإن الناس متفاوتون في كلامهم واللهجة وأساليب القول، فما منهم من أحد إلا وفوقه آخر في معنى أو معان كثيرة، ثم إن أحدهم قلما يسلم من معارضة أو خطأ أو سهو أو عجز عن المراد، وأعظم النقائص المقترنة بها أنها كلمات مخلوقة تكلم بها مخلوق مفتقر إلى أدوات ومخارج، وهذه نقيصة لا ينفك عنها كلام مخلوق، وكلمات الله تعالى متعالية عن هذه القوادح فهي التي لا يتبعها نقص ولا يعتريها اختلال.

وكلمات الله التامات اشتملت على العدل والصدق، كما قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً} [الأنعام:١١٥].

الكلمات الكونية

كلمات الله التامات إما أن تكون (كلمات كونية قدرية)، وإما (كلمات شرعية) ..

أما الكونية فهي الكلمات التي يدبر بها الله تعالى أمر الخلائق والتي ذكرها عز وجل في قوله: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [النحل:٤٠] فيحمي الله تعالى المؤمن بكلماته الكونية ويدفع عنه ما يضره.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

سَأَلَ رَجُلٌ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ خَنْبَشٍ كَيْفَ صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ كَادَتْهُ الشَّيَاطِينُ؟ قَالَ: جَاءَتْ الشَّيَاطِينُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْأَوْدِيَةِ وَتَحَدَّرَتْ عَلَيْهِ مِنْ الْجِبَالِ وَفِيهِمْ شَيْطَانٌ مَعَهُ شُعْلَةٌ مِنْ نَارٍ يُرِيدُ أَنْ يُحْرِقَ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: فَرُعِبَ –قَالَ جَعْفَرٌ: أَحْسَبُهُ قَالَ: جَعَلَ يَتَأَخَّرُ– قَالَ: وَجَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ قُلْ. قَالَ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ: قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ. فَطَفِئَتْ نَارُ الشَّيَاطِينِ، وَهَزَمَهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَل". [أحمد والطبراني، صحيح الجامع ٧٤].

فالكلمات الكونية هي التي يكون الله تعالى بها الأشياء ويقدرها، فهي التي لا يجاوزها بر ولا فاجر. أما كلماته الدينية الشرعية فإن الفجار يتجاوزونها، يعني: يعصون أوامره، ويرتكبون نواهيه، بخلاف الكلمات الكونية فإنه لا أحد يستطيع أن يتعداها، فالكون كله يسير على وفق تقديره وتكونيه جل وعلا، والعباد كلهم مسخرون تجري عليهم أقداره وقهره، ولا أحد يستطيع أن يخالف قدر الله جل وعلا وتكوينه.

جاء في كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية: "والكلِمَاتُ الكونِيَّةُ، مِثْلُ قَوِلِ النَّبيِّ –صلى الله عليه وسلم–: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ، الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ، وَلَا فَاجِرٌ»". ويقول: "وَمن الْمَعْلُوم أَن هَذَا هُوَ الكوني الَّذِي لَا يخرج مِنْهُ شَيْء عَن مَشِيئَته وتكوينه".

قال ابن القيم: "وقوله صلى الله عليه وسلم: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق» فهذه كلماته الكونية التي يخلق بها ويكون، ولو كانت الكلمات الدينية هي التي يأمر بها وينهى لكانت مما يجاوزهن الفجار والكفار".

وعن خولة بنت حكيم السلمية –رضي الله عنها– أنها سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: «إذا نزل أحدكم منزلا فليقل أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، فإنه لا يضره شيء حتى يرتحل منه» [مسلم]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال فضيلة الشيخ صالح آل الشيخ: المقصود بـ «كلمات الله التامات» هنا الكلمات الكونية التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وهي المقصودة بقوله جل وعلا: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي} [الكهف: ١٠٩] وبقوله: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ} [لقمان: ٢٧]

قوله -صلى الله عليه وسلم-: (لا يضرّه شيء): أي من المخلوقات؛ لأن الأدوية الإلهية تمنع من الداء بعد حصوله وتمنع من وقوعه وإن وقع لم يضر. و(شئ) نكرة فتعم، ودخل فيه سائر المضرات من الداخل وهو النفس والهوى، ومن الخارج وهو الشيطان وغيره من المؤذيات.

ولقد كان في الجاهلية إذا سافر الرجل، وصار بأرض قفر، وخاف على نفسه من الجن، يقول: أعوذ بسيد هذا الوادي، فيبيت آمناً في جواره. يعني: الجني المشرك، أو المسيطر على هذا الوادي، فيقول الجن: قد سدنا الجن والإنس، قال تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} [الجن:٦] أي شركاً وكفرا.

وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٥٦٢) مرسلا .. عن سليمان بن يسار وبسر بن سعيد. قالا: جاء رجل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: لدغتني عقرب. فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «أما لو أن قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق لم يضرك».

قال المناوي: ويحصل ذلك لكل داع بقلب حاضر وتوجه تام ولا يختص بمجاب الدعوة.

وقال القرطبي: هذا خبر صحيح وقول صادق علمنا صدقه دليلا وتجربة، فإني مذ سمعت هذا الخبر عملت عليه فلم يضرني شيء إلى أن تركته، فلدغتني عقرب ليلا، فتفكرت في نفسي فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات.

قال الزرقاني: (فإنه لا يضره شيء من المخلوقات حتى يرتحل منه): وشرط نفع ذلك الحضور والنية وهي استحضار أنه صلى الله عليه وسلم أرشده إلى التحصن بالله،

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وأنه الصادق المصدوق، فلو قاله أحد واتفق أنه ضره شيء فلأنه لم يقله بنية وقوة يقين، وليس ذلك خاصا بمنازل السفر بل عام في كل موضع جلس فيه أو نام، وكذلك لو قالها عند خروجه للسفر أو عند نزوله للقتال.

الكلمات الشرعية

الكلمات الشرعية هي الوحي من القرآن، وفيها وقاية من كل سوء وشر .. وقاية من الشر قبل نزوله وبعد نزوله، أما قبل نزوله فقد ثبت عن النبي –صلى الله عليه وسلم– (أن من قرأ آية الكرسي في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح) [البخاري] وأما بعد نزوله فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم (أن الفاتحة إذا قرئ بها على المريض فإنه يبرأ بها) [البخاري] حتى إن الصحابي –رضي الله عنه– لما قرأ الفاتحة على سيد القوم الذي لدغ قام كأنما نشط من عقال [يعني: برأ حاله] لأن القرآن شفاء، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [يونس:٥٧]

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: «إِذَا فَزِعَ أَحَدُكُمْ فِي النَّوْمِ فَلْيَقُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ». [الترمذى، صحيح الجامع ٧٠١].

قال ابن القيم رحمه الله: "فمن التعوذات والرقى: الإكثار من قراءة المعوذتين وفاتحة الكتاب وآية الكرسي، ومنها التعوذات النبوية نحو: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق. ونحو: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة. ونحو: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ .. وحسبي الله ونعم الوكيل عليه توكلت وهو رب العرش العظيم. ومن جرب هذه الدعوات والعوذ عرف مقدار منفعتها، وشدة الحاجة إليها؛ وهي تمنع وصول أثر العائن وتدفعه بعد وصوله بحسب قوة إيمان قائلها وقوة نفسه واستعداده، وقوة توكله وثبات قلبه؛ فإنها سلاح. والسلاح بضاربه".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

لا تلعن شيئا

أخطر آفات السلوك التسرع والاندفاع في الحكم على الآخرين، وأن ننصب من أنفسنا قضاة نحكم باستحقاق هذا أو ذاك رحمة الله أو لعنته، والمتأمل يجد أن مجافاة الإسلام لهذه الآفة تنبع من منافاتها لطبيعة الإيمان الصادق الذي من أخص خصائصه الرفق بالخلق، فالمؤمن قلبه معلق بالله يرتشف من رحيق رحمته ما يرحم به الآخرين، ومن عذب رأفته وعطفه ما يبر به من حوله وبهذا ينسجم الإيمان مع كل معاني الرفق والعطف وينفر من كل غلظة وفظاظة وجحود.

واللعنة بمعناها الشامل المتضمن الطرد من رحمة الله تعالى تمثل أحد مظاهر هذا الاندفاع المذموم الذي تصدى له النبي صلى الله عليه وسلم في منهجه التربوي بالعديد من المناهي والتوجيهات، فيقول عليه أفضل الصلاة والسلام:

(إني لم أبعث لعانا و إنما بعثت رحمة) (١)

(ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء) (٢)

(لا ينبغي لصديق أن يكون لعانا) (٣)

(لا يكون المؤمن لعانا) (٤)

(لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بالنار) (٥) أي لا تدعوا على الناس بما يبعدهم الله من رحمته إما صريحا كما تقولون «لعنة الله عليه» أو كناية كما تقولون «غضب الله عليه» أو «أدخله الله النار»

وقوله صلى الله عليه وسلم (لا تلاعنوا) من باب عموم المجاز لأنه في بعض أفراده حقيقة وفي بعضها مجاز وهذا مختص بمعين، لأنه يجوز اللعن بالوصف الأعم والأخص كلعن الكافرين وبالأخص كلعن اليهود والمصورين والكافر المعين الذي مات على الكفر كفرعون وأبي جهل.

وعن زيد بن أسلم أن عبد الملك بن مروان بعث إلى أم الدرداء بأنجاد [جمع نجد وهو متاع البيت الذي يزينه من فرش ونمارق وستور] من عنده فلما أن كان ذات

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ليلة قام عبد الملك من الليل فدعا خادمه فكأنه أبطأ عليه فلعنه فلما أصبح قالت له أم الدرداء: سمعتك الليلة لعنت خادمك حين دعوته، سمعت أبا الدرداء رضي الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة) (٦)

(شفعاء) أي لا يشفعون يوم القيامة حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار (ولا شهداء) أي لا يكونون شهداء يوم القيامة على الأمم بتبليغ رسلهم إليهم الرسالات، وقيل لا يرزقون الشهادة في سبيل الله.

وعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لعن المؤمن كقتله ..) (٧) أي في التحريم أو العقاب أو الإبعاد، إذ اللعنة تبعيد من الرحمة والقتل يبعد من الحياة الحسية ولعل في هذه الكثرة من الأحاديث النبوية ما يؤكد على خطورة أمر اللعنة، وضرر المجازفة الحمقاء في طرد الآخرين من رحمة الله في غرس معاني الكره والنفرة في الوقت الذي ينبغي أن يكون فيه المجتمع الإيماني متماسكا برباط المودة والحب، أفراده كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

بل تتجلى جدية الرسول صلى الله عليه وسلم في نزع جذور هذه الآفة من النفوس في أكثر من موقف مع أصحابه الكرام فتارة مرشدا وتارة مستنكرا وتارة معاقبا.

فعن جرموزا الهجيمي قال: قلت يا رسول الله أوصني قال: (أوصيك أن لا تكون لعانا) (٨) أي أن لا تلعن معصوماً فيحرم لعن المعصوم المعين فإن اللعنة تعود على اللاعن وصيغة المبالغة هنا غير مرادة.

وعن أبي الدرداء –رضي الله عنه– قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (إن العبد إذا لعن شيئا صعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها ثم تأخذ يمينا وشمالا فإذا لم تجد مساغا رجعت إلى الذي لعن فإن كان لذلك أهلا وإلا رجعت إلى قائلها) (٩)

قال المناوي: (إن العبد إذا لعن شيئاً) آدميا أو غيره بأن دعى عليه بالطرد والبعد عن رحمة اللّه تعالى (صعدت اللعنة إلى السماء) لتدخلها (فتغلق أبواب السماء دونها) لأنها لا تفتح إلا لعمل صالح { إليه يصعد الكلم الطيب والعمل

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الصالح يرفعه} [فاطر:١٠](ثم تهبط) أي تنزل (إلى الأرض) لتصل إلى سجين (فتغلق أبوابها دونها) أي تمنع من النزول (ثم تأخذ يميناً وشمالاً) أي تتحير فلا تدري أين تذهب (فإذا لم تجد مساغاً) أي مسلكاً وسبيلاً تنتهي إليه لمحل تستقر فيه (رجعت إلى الذي لعن إن كان لذلك) أي اللعنة (أهلاً) رجعت إليه فصار مطروداً مبعوداً فإن لم يكن أهلاً لها (رجعت) بإذن ربها (إلى قائلها) لأن اللعن طرد عن رحمة اللّه، فمن طرد ما هو أهل لرحمته عن رحمته فهو بالطرد والإبعاد عنها أحق وأجدر، ومحصول الحديث التحذير من لعن من لا يستوجب اللعنة والوعيد عليه بأن يرجع اللعن إليه {إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار} [النور: ٤٤] (١٠)

وعن ابن عباس أن رجلا لعن الريح عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (لا تلعن الريح فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه) (١١)

وعن زيد بن خالد الجهني قال: لعن رجل ديكا صاح عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (لا تلعنه فإنه يدعو إلى الصلاة) (١٢) أي إلى قيام الليل بصياحه فيه ومن أعان على طاعة يستحق المدح لا الذم.

وقال الحليمي: فيه دليل على أن كل من استفيد منه خير لا ينبغي أن يسب ولا يستهان به، بل حقه الإكرام والشكر ويتلقى بالإحسان، وليس في معنى دعاء الديك إلى الصلاة أنه يقول بصراحة صلوا أو حانت الصلاة بل معناه أن العادة جرت بأنه يصرخ صرخات متتابعة عند طلوع الفجر وعند الزوال فطرة فطره اللّه عليها فيذكر الناس بصراخه الصلاة ولا تجوز الصلاة بصراخه من غير دلالة سواه إلا ممن جرب منه ما لا يخلف فيصير ذلك له إشارة (١٣)

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت فلعنتها فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة) قال عمران فكأني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد. (١٤)

الهوامش والمصادر

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .كتاب البر والصلة والآداب برقم ٤٧٠٤(صحيح) انظر حديث رقم: ٢٥٠٢ في صحيح الجامع (٢) رواه الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .كتاب البر والصلة برقم ١٩٠٠ (صحيح) انظر حديث رقم : ٥٣٨١ في صحيح الجامع (٣) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .كتاب البر والصلة والآداب برقم ٤٧٠١ (٤) رواه الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه (صحيح) انظر حديث رقم: ٧٧٧٤ في صحيح الجامع (٥) رواه الترمذي عن سمرة بن جندب رضي الله عنه .كتاب البر والصلة (حسن) انظر حديث رقم: ٧٤٤٣ في صحيح الجامع (٦) رواه مسلم .كتاب البر والصلة والآداب برقم ٤٧٠٢ وأبو داود كتاب الأدب (٧) رواه البخاري .كتاب الأدب برقم ٥٦٤٠ (٨) رواه أحمد . مسند البصريين برقم ١٩٧٥٧(صحيح) انظر حديث رقم: ٢٥٤٢ في صحيح الجامع. (٩) رواه أبو داود .كتاب الأدب برقم ٤٢٥٩ (حسن) انظر حديث رقم : ١٦٧٢ في صحيح الجامع (١٠) فيض القدير للمناوي ١٥٤/٢ (١١) رواه الترمذي .كتاب البر والصلة برقم ١٩٠١ وأبو داود .كتاب الأدب (صحيح) انظر حديث رقم : ٧٤٤٧ في صحيح الجامع (١٢) رواه أحمد . مسند الشاميين برقم ١٦٤٢٠ (صحيح) انظر حديث رقم : ٧٣١٤ في صحيح الجامع حيث ورد بلفظ (لا تسبوا الديك فإنه يوقظ للصلاة) (١٣) فيض القدير للمناوي ١٧٨/٢ (١٤) رواه مسلم .كتاب البر والصلة والآداب برقم ٤٦٩٩ وأبو داود في الجهاد

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ

ما أكثر صنوف الظالمين وتشعب طرائقهم في واقعنا.. بغي وعدوان، وقهر للإنسان، وقتل وتشريد، ومجاعات وأزمات تعم المجتمعات.. لقد أصبح الظلم عند بعض الناس مظهرا للسيادة والشرف، أو طريقا للكسب والامتلاك، أو نزعة لإشباع أهواء النفوس المريضة بالحقد والحسد والضغائن والطمع والجشع.. واقع مرير يحتاج إلى إصلاح شامل وفاعل، على أساس من العدل والإحسان، والتوعية بمخاطر الظلم الذي تغلغل في حياة كثير من الناس والمجتمعات، فأحال أحوالهم إلى أسوأ حال، مع ما ينتظرهم من فظيع المنال يوم التناد، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.

ورد في الصحيحين عن أبي موسى الأشعريّ –رضي الله عنه– قال رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم–: (إنَّ الله يملي للظالم فإذا أخذَه لم يفلته)، ثم قرأ قوله تبارك وتعالى: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: ١٠٢]

كان كونفوشيوس الفيلسوف والحكيم الصيني يعلم تلاميذه بطريقة عملية، فيسير بهم في الطبيعة مستخلصا منها دروسا وعظات وتوجيهات، ويروى أنه قاد تلاميذه في جولة في إحدى الغابات، وبعد أن توغلوا فيها رأى امرأة تجلس ومعها طفل لا يجاوز العاشرة أمام كوخ من أغصان الشجر، فسألها أتقيمين هنا من مدة طويلة يا سيدتي؟ فقالت: نعم، ولم أبرحها بعد أن أكل الأسد زوجي. سألها ومتى كان ذلك؟ أجابت: بعد أن مزق الأسد ابني الأكبر. سألها الفيلسوف في أسى ظاهر: وما الذي يبقيك هنا في هذه الأرض المسبعة؟ (أي كثيرة السباع).

أجابت بيقين: ليس هنا حاكم ظالم.

فالتفت الفيلسوف إلى تلاميذه، وقال: "نعم فالحاكم الظالم أشد وحشية وقسوة من الأسد الكاسر".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

لقد لزم سعيدُ بنُ جبير حبرَ الأمة عبدَ الله بنَ عباس رضي الله عنهما، ودرس الفقهَ دراسةً وافية مما أهله أن يجلسَ للفتوى بالكوفة، حتى إنَّ الذين درسوا سيرةَ حياته وفقهه يحدثوننا على أنَّه كان بدايةَ عصرٍ مهدت الطريقَ للمذاهب الفقهية المشهورة.

وبلغ سعيد من علمه وفتواه أنْ قال عنه حصيف: "أعلمُ التابعين بالطَّلاق سعيد بن المسيب، وبالحجِّ عطاء، وبالحلال والحرام طاووس، وبالتفسير مجاهد، وأجمعهم لذلك كلِّه سعيدُ بن جبير"

وبجانب ورعه وتقواه كان لا يخشى في الله لومةَ لائم، وكان من الطَّبيعي وهو يرى الدِّماء تسفكُ وآلاف النَّاس تعيش بين أسوار السُّجون بلا جريرةٍ على يد الحجَّاج، أنْ يواجهَ هذا الطَّاغية، حتَّى لو كانت في مواجهته النهايةُ المحتومة.

فقد روى المؤرِّخون أنَّ سعيد بن جبير كان ينهى الحجَّاج عن الظُّلم والبطش، وكان ينصحُ النَّاسَ بمخالفتِه وبالوقوف في وجهِه، وضاق الحجاجُ ذرعًا بتصرفات سعيد وقصتُه والحوار الذي دار بينه وبين الحجاجِ معروفةٌ ومعلومةٌ للجميع، والتي انتهتْ بقتل سعيدى –رحمه الله– بعدما دعا على الحجاج، وقال خذْها مني يا عدو الله حتى نتلاقى يومَ الحساب: "اللهم اقصم أجلَه، ولا تسلِّطْه على أحدٍ يقتله من بعدي".

وصعدت دعوة سعيد إلى السماء، فلقيت قبولاً واستجابة من الله الواحدِ القهَّار، وأُصيبَ الحجَّاجُ بعد قتله لسعيد بن جبير بمرضٍ عضال أفقدَه عقلَه، وصار كالذي يتخبَّطُه الشَّيطان من المسِّ، وكان كُلَّما أفاق من مرضه قال بذعر: "مالي ولسعيد بن جبير"، وبعد فترةٍ قصيرة من قتل سعيد مات الحجَّاج الثقفي شرَّ موتة، وتحقَّقتْ دعوةُ سعيدٍ فيه، فلم يسلطه الله تعالى على أحدٍ يقتله من بعده.

وكم من حجاجٍ تولى على المسلمين من بعد الحجاجِ فكان شره مستطيراً، وعمل أكثرَ مما عمل الحجاجُ، حتى تطاول الزمان وصدقت مقولة الإمام الشعبي – رحمه الله –: "يَأْتِي على النَّاسِ زمانٌ يُصَلُّونَ فِيهِ عَلَى الْحَجَّاجِ" .. أي يترحمون.

وخلاف ظلم الحكام هناك ظلم أعوان الحكام وبطانة السوء التي تزين لهم الباطل وتشوه لهم الحق، وما أحسن ما قاله سيد قطب في ظلال الآيات من سورة يوسف: "فيا ليت رجالاً يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام، وهم أبرياء مطلقو السراح،

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فيضعوا النير في أعناقهم بأيديهم، ويتهافتوا على نظرة رضا وكلمة ثناء، وعلى حظوة الأتباع لا مكانة الأصفياء .. يا ليت رجالاً من هؤلاء يقرؤون هذا القرآن ويقرؤون قصة يوسف -عليه السلام- ليعرفوا أن الكرامة والإباء والاعتزاز تدر من الربح حتى المادي أضعاف ما يدره التمرغ والتزلف والانحناء!

إنه لم يسجد شكراً كما يسجد رجال الحاشية المتملقون للطواغيت، ولم يقل له: عشت يا مولاي وأنا عبدك الخاضع أو خادمك الأمين. كما يقول المتملقون للطواغيت! كلا، إنما طالب بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الأزمة القادمة التي أوّل بها رؤيا الملك، خيراً مما ينهض بها أحد في البلاد، وبما يعتقد أنه سيصون به أرواحاً من الموت وبلاداً من الخراب ومجتمعاً من الفتنة - فتنة الجوع - فكان قوياً في إدراكه لحاجة الموقف إلى خبرته وكفايته وأمانته، قوته في الاحتفاظ بكرامته وإبائه: قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم".[في ظلال القرآن: ٤/٢٠٠٥].

إِذَا جَارَ الْوَزِيرُ وَكَاتِبَاهُ *** وَقَاضِي الأَرْضِ أَجْحَفَ فِي الْقَضَاءِ

فَوَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ *** لِقَاضِي الْأَرْضِ مِنْ قَاضِي السَّمَاءِ

ومن صنوف الظالمين ما قال عنهم عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: "يأتي على الناس زمان يكون صالح الحي من لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، إن غضبوا غضبوا لأنفسهم، وإن رضوا رضوا لأنفسهم، لا يغضبون لله، ولا يرضون لله عز وجل".

ومن صنوف الظالمين أصحاب المعاصي عموما الذين يظلمون أنفسهم بتضييع حق الله تعالى فيها .. قال مالك بن دينار: دخلت على جارٍ لي وهو في الغمرات يعاني عظيمَ السَّكَراتِ، يُغمى عليه مرَّةً ويفيقُ أخرى، وفي قلبه لهيبُ الزَّفرات، وكان منهمكاً في دنياه، متخلِّفاً عن طاعة مولاه، فقلت له: يا أخي تُبْ إلى الله وارجع عن غيِّكَ، عسى المولى أن يشفِيكَ مِنْ ألَمِكَ ويعافيك مِنْ مرضِك وسقمِك ويتجاوز بكرمه عن ذنبك. فقال: هيهات هيهات! قد دنا ما هُو آت، وأنا ميتٌ لا محالةَ، فيا أسفي

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

على عمرٍ أفنيته في البطالة. أردتُ أن أتوبَ ممَّا جنيتُ.. فسمعت هاتفاً يهتف من زاوية البيت: "عاهدناك مِراراً، فوجدناك غدَّاراً".

ثم إن مشهد يوم القيامة عسير على الظالمين، قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} [الصافات:٢٢-٢٦]

وهذا المذكور في هذه الآيات هو تلاوم أهل النار في عرصات القيامة، فالأتباع يقولون لقادة الضلال: أنتم الذين كنتم تزينون لنا الباطل، وتغروننا بمخالفة الحق، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} [البقرة: ٢٥٧]، ولكن القادة ورجال الفكر وزعماء الضلال يرفضون هذا، ويقولون لهم: أنتم تتحملون نتيجة أعمالكم فقد اخترتم الكفر، ولم يكن لنا من سلطان عليكم، إن طغيانكم واستكباركم هو الذي أوصلكم إلى هذه النهاية.

والمقصود بأزواجهم: نظراؤهم وإخوانهم في العمل.. {مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ} لا ينصر بعضكم بعضاً. وهذا توبيخ لهم بالعجز عن التناصر، بعدما كانوا يتناصرون في الدنيا، أو: استهزاء بهم. وقيل: هو جواب لأبي جهل، حيث قال يوم بدر: {نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ} [القمر: ٤٤]، وجملة النفي: حال، أي: ما لكم غير متناصرين، وعن عبد الله بن المبارك قال: سمعت عثمان بن زائدة يقول: إن أول ما يُسأل عنه الرجل جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ {مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ}، أي: كما زعمتم أنكم جميع منتصر.

{بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} قال ابن عباس: خاضعون. وقال الحسن منقادون. يقال اسْتسْلَمَ للشيء إذا انقاد له وخضع، والمعنى: هم اليوم أذلاّء منقادون لِما يُراد بهم؛ لعجزهم؛ وانْسِدَادِ أبواب الحيل عليهم، أو: قد أسلم بعضهم بعضاً وخذله.

أَمَا وَاللَّهِ إِنَّ الظُّلْمَ لُؤْمٌ *** وَمَا زَالَ الْمُسِيءُ هُوَ الظَّلُومُ
إِلَى دَيَّانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمْضِي *** وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ
سَتَعْلَمُ فِي الْحِسَابِ إِذَا الْتَقَيْنَا *** غَدًا عِنْدَ الإِلَهِ مَنِ الْمَلُومُ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ماذا تقول لربك غدا ؟!

سؤال طالما أرعد قلوب المخبتين، واقشعرت منه جوارح الصالحين ..إن حياة تسير جوابا لهذا السؤال لحياة فاضلة ملئها نعيما له لذة لا تدانيها لذة، وإن مجتمعا يعيش بهذا المبدأ لجدير بأن يكون مجتمعا متوازنا في تصوراته وسلوكياته وطموحاته وآماله، وإن إنسانا يعيش من هذا المنطلق لإنسان عرف حقيقة الصلاح ومعنى التقى، فأف لقوم غرتهم الحياة الدنيا فحسبوا أنها لهم باقية فانطلقوا وراء لذاتها لا يلون على شيء حتى إذا حان وقت الرحيل فارقهم جواب هذا السؤال الذي ما دار بخلدهم يوما من الأيام رغم أنهم له خلقوا وأهل البصيرة له عملوا.

ماذا تقول لربك غدا ؟!

عقيدة الرجوع إلى الله تعالى ليوم الجزاء طالما تكررت في القرآن في أكثر من موضع وآية مع تنوع الأسلوب والكلمات لتدفع المؤمن إلى الجادة الصواب دائما، فإذا حاد عنها لحظة رده هذا السؤال إلى المنهج القويم.

قال تعالى: { واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون } [البقرة:٢٨١] يقول سيد قطب –رحمة الله عليه–: «واليوم الذي يرجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت يوم عسير له في القلب المؤمن وقع ومشهده حاضر في ضمير المؤمن وله في ضمير المؤمن هول والوقوف بين يدي الله في هذا اليوم خاطر يزلزل الكيان ! إنه التصفية الكبرى للماضي جميعه بكل ما فيه والقضاء الأخير في الماضي بين كل من فيه فما أجدر القلب المؤمن أن يخشاه وأن يتوقاه» (١)

وقال تعالى: { أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون } [المؤمنون:١١٥]، كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى وإن لكم معادا ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم فخاب وخسر وشقي عبد أخرجه الله من رحمته

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وحرم جنة عرضها السماوات والأرض ألم تعلموا أنه لا يأمن عذاب الله غدا إلا من حذر هذا اليوم وخافه وباع نافدا بباق وقليلا بكثير وخوفا بأمان ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين وسيكون من بعدكم الباقين حتى تردون إلى خير الوارثين ثم إنكم في كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل قد قضى نحبه وانقضى أجله حتى تغيبوه في صدع من الأرض في بطن صدع غير ممهد ولا موسد قد فرق الأحباب وباشر التراب وواجه الحساب مرتهن بعمله غني عما ترك فقير إلى ما قدم فاتقوا الله قبل انقضاء مواثيقه ونزول الموت بكم ثم جعل طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكى من حوله (٢)

وقال عز وجل: { كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون } [الأنبياء:٣٥] { وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون } [القصص:٧٠] { ولا تدع مع الله إله آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون } [القصص: ٨٨] { من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون } [الجاثية:١٥]

ماذا تقول لربك غدا ؟!

● عن زبيد بن الحارث أن أبا بكر حين حضره الموت أرسل إلى عمر يستخلفه فقال الناس تستخلف علينا فظا غليظا ولو قد ولينا كان أفظ وأغلظ فما تقول لربك إذا لقيته وقد استخلفت علينا عمر قال أبو بكر: أبربي تخوفونني أقول اللهم استخلفت عليهم خير خلقك ثم أرسل إلى عمر فقال إني موصيك بوصية إن أنت حفظتها: إن لله حقا بالنهار لا يقبله بالليل وإن لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم في الدنيا الحق وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا، وإن الله ذكر أهل الجنة بصالح ما عملوا وإنه تجاوز عن سيئاتهم فيقول القائل ألا أبلغ هؤلاء، وذكر أهل النار بأسوأ ما عملوا وإنه رد عليهم صالح ما عملوا فيقول قائل أنا خير من هؤلاء، وذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

المؤمن راغبا راهبا،لا يتمنى على الحق ولا يلقي بيده إلى التهلكة فإن أنت حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وإن أنت ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه (٣)

• وعن الأحنف بن قيس قال: كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعدني على فلان فقد ظلمني .. فرفع عمر درته وخفق بها رأس الرجل، وقال له: تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم مقبل عليكم حتى إذا شغل بأمر من أمور المسلمين أتيتموه أعدني أعدني، فانصرف الرجل غضبان أسفا، فقال عمر: علي بالرجل فلما عاد ناوله مخفقته وقال له: خذ واقتص لنفسك مني. قال الرجل: لا والله ولكني أدعها لله وانصرف.

قال الأحنف: وعدت مع عمر إلى بيته فصلى ركعتين ثم جلس يحاسب نفسه ويقول: ابن الخطاب؟ كنت وضيعا فرفعك الله، وكنت ضالا فهداك الله، وكنت ذليلا فأعزك الله، ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته فماذا تقول لربك غدا إذا أتيته (٤)

• وعن عبد الله بن سبيع قال: سمعت عليا –رضي الله عنه– يقول: لتخضبن هذه من هذا، فما ينتظرني إلا شقي. قالوا: يا أمير المؤمنين، فأخبرنا به نبير عترته. قال: إذا تالله تقتلون بي غير قاتلي. قالوا: فاستخلف علينا. قال: لا، ولكن أترككم إلى ما ترككم إليه رسول الله –صلى الله عليه وسلم–. قالوا: فما تقول لربك إذا أتيته؟ قال أقول: اللهم تركتني فيهم ما بدا لك ثم قبضتني إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم، وإن شئت أفسدتهم (٥)

• وعن جعونة قال: دخل عبد الملك على أبيه عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، ماذا تقول لربك إذا أتيته وقد تركت حقا لم تحيه وباطلا لم تمته؟ قال: اقعد يا بني، إن آباءك وأجدادك خدعوا الناس عن الحق فانتهت الأمور إلي، وقد أقبل شرها وأدبر خيرها، ولكن أليس حسبي جميلا أن لا تطلع الشمس علي في يوم إلا أحييت فيه حقا وأمت فيه باطلا حتى يأتيني الموت وأنا على ذلك (٦)

ماذا تقول لربك غدا ؟!

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك» (٧)

قال العلامة ابن رجب: هذا الحديث أصل في قصر الأمل في الدنيا فإن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطنا ومسكنا فيطمئن فيها ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر يهيئ جهازه للرحيل وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم، قال تعالى حاكيا عن مؤمن آل فرعون أنه قال: { إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار } [غافر:٣٩] وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول (مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها) (٨)

ومن وصايا المسيح عليه السلام لأصحابه أنه قال لهم: اعبروها ولا تعمروها، وروى عنه أنه قال: من ذا الذي يبني على موج البحر دارا تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارا.

ودخل رجل على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته فقال يا أبا ذر أين متاعكم؟ فقال إن لنا بيتا نتوجه إليه فقال إنه لا بد لك من متاع مادمت هاهنا، فقال إن صاحب المنزل لا يدعنا هاهنا.

وكان على بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ولكل منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل .

وقال الفضيل بن عياض: المؤمن في الدنيا مهموم حزين همه مرمة جهازه ومن كان في الدنيا كذلك فلا هم له إلا التزود بما ينفعه ثم العود إلى وطنه فلا ينافس أهل البلد الذي هو غريب بينهم في عزهم ولا يجزع من الذل عندهم.

وقال الحسن: المؤمن كالغريب لا يجزع من ذلها ولا ينافس في عزها له شأن وللناس شأن . وكان عطاء السلمي يقول في دعائه اللهم ارحم في الدنيا غربتي وارحم في القبر وحشتي وارحم موقفي غدا بين يديك.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال الفضيل بن عياض لرجل: كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة قال فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ فقال الرجل إنا لله وإنا إليه راجعون فقال الفضيل: أتعرف تفسيره، قال الرجل فسره لنا يا أبا علي قال قولك «إنا لله وإنا إليه راجعون» تقول أنا لله عبد وأنا إلى الله راجع، فمن عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع فليعلم أنه موقوف ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسئول ومن علم أنه مسئول فليعد للسؤال جوابا فقال الرجل فما الحيلة؟ قال يسيرة، قال ما هي قال تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضي فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت بما مضي وما بقي (٩)

وقال السري السقطي: خرجت يوما إلى المقابر فإذا أنا ببهلول قد دلى رجليه في قبر وهو يلعب بالتراب فقلت أنت ها هنا قال نعم أنا ثم قوم لا يؤذونني فإن غبت عنهم لا يغتابوني فقلت يا بهلول الخبز قد غلا فقال والله ما أبالي وحبة بمثقال إن علينا أن نعبده كما أمرنا وعليه أن يرزقنا كما وعدنا ثم ولى عني وهو يقول

يا من تمتع بالدنيا وبهجتها   ولا تنام عن اللذات عيناه
أفنيت عمرك فيما لست تدركه   تقول لله ماذا حين تلقاه (١٠)

وعن محمد بن يوسف الباقلاني قال: سمعت أبي يقول سمعت رجلا يسأل أبا نصر بشر بن الحارث أن يحدثه فأبى عليه فجعل يرغبه ويكلمه وهو يأبى عليه قال فلما آيس منه قال له يا أبا نصر ما تقول لله غدا إذا لقيته وسألك لما لا تحدث ؟ فقال له بشر: أقول يا رب كانت نفسي تشتهي أن تحدث فامتنعت من أن أحدث ولم أعطها شهوتها (١١)

إن كنت تفهم ما أقول وتعقل   فارحل بنفسك قبل أن بك يرحل
وذر التشاغل بالذنوب وخلها   حتى متى وإلى متى تتعلل

الهوامش والمصادر

(١) في ظلال القرآن / سيد قطب / ج٣ ص ٣٣٣ (٢) تفسير ابن كثير ج: ٣ ص: ٢٦٠ (٣) مصنف ابن أبي شيبة ج: ٧ ص: ٤٣٤ برقم ٣٧٠٥٦ (٤) خلفاء الرسول / خالد محمد خالد / دار الفكر ص ١٣٧ (٥) رواه أحمد / مسند العشرة المبشرين بالجنة

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

برقم ١٠٢٥ ورواه البزار بإسناد حسن (٦) حلية الأولياء ج: ٥ ص: ٣٥٥ (٧) رواه البخاري .كتاب الرقاق [١١/ ٦٤١٦] (٨) رواه الترمذي –كتاب الزهد باب ٤٤ [٤/٢٣٧٧] وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح (٩) جامع العلوم والحكم ج: ١ ص: ٣٧٨ بتصرف (١٠) كتاب الزهد الكبير ج: ٢ ص: ٢٦٠ (١١) حلية الأولياء ج: ٨ ص: ٣٥٥

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

متعة العبودية

أعترف «كالفين كوليدج» رئيس الولايات المتحدة في إحدى خطبه بعجز القوانين الوضعية عن تقرير الفضيلة وحسن التعامل بين الناس، وقال: "إن البشر مهما بلغوا من التقدم في الأنظمة لابد لهم في سعادتهم الدنيوية من الاعتماد على الدين".

وقالت الكاتبة الفرنسية المعروفة مدام فالنتين دي سان بوان: "إن الغرب يتقدم بسرعة هائلة، ولكن لا يمكن للنفس الدينية والنسمة المقدسة أن تسود العالم، وتلدا له العجائب: الفضيلة والنبوغ، إلا إذا اتحد العلم والدين بعد أن فرقت بينهما القرون الوسطى. فأنا أجاهر بأنه لا يمكنني أن أبقى أسيرة التقدم المادي أو أسيرة كتلة الماديين في الغرب، لأنني موقنة بأن العالم في حاجة إلى صرخات ترجعه إلى الرشد، وتثير أمامه السبيل الموصل إلى الحقائق الخالدة أكثر من حاجته إلى الأمور المادية الزائلة".

إنها «متعة العبودية» التي تستطيبها كل نفس سامية، وتجحدها كل نفس وضيعة .. العبودية زاد القلب وروضة الوجدان، ومتعة الإنسان، وهي أعظم لقب، وأشرف وصف، وأسمى رتبة، وأعلى درجة يرتقي إليها العبد، ولذلك شرف الله تعالى بها أنبيائه وصفوة خلقه، {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ} [ص:٤٥] {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً} [مريم:٦٣]

فأعظم الناس تحقيقاً لهذا المقام هم الأنبياء والرسل، وأعظمهم على الإطلاق نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم– ولهذا تكرر ذكره بوصف بالعبودية المجردة في القرآن .. فذكره الله تعالى بوصف العبودية في أشرف المقامات كمقام الوحي فقال سبحانه: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا} [الكهف:١]، وفي مقام الإسراء فقال جل شأنه: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

البَصِيرُ} [الإسراء:١]، وفي مقام الدعوة فقال تعالى: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً} [الجن:١٩]

والارتقاء إلى مقام العبودية لا يكون ابتداء إلا بترك كل ما يشغلك عن الله عز وجل وإن كان فيه نوعا من الألم وهجر العادة، لأن ترك القلب لمحبوباته ابتغاء رضا الله تعالى لا ينفك عن نوع من المشقة التي يعقبها إلف وانسجام مع ما يحبه الله تعالى، فإن وفق الله عبده ارتقى لعتبة الذل والتضرع بين يدي الكريم والوهاب، وعندها تكون متعة القلب بالعبودية.. متعة لا تدانيها متعة، وهذا غاية العبودية ومنتهاها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له، كان أقرب إليه، وأعز له، وأعظم لقدره، فأسعد الخلق: أعظمهم عبودية لله، وأما المخلوق فكما قيل: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره. فأعظم ما يكون العبد قدراً وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم، كنت أعظم ما يكون عندهم، ومتى احتجت إليهم ولو في شربة ماء نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم، وهذا من حكمة الله ورحمته، ليكون الدين كله لله ولا يشرك به شيء".

قال القاضي أبو يعلى: "حقيقة العبادة هي الأفعال الواقعة لله عز وجل على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد".. فنهاية التذلل الخضوع وكمالهما لا تتحقق إلا بالمحبة والتعظيم. لذلك يقول ابن تيمية: "فأصل المحبة المحمودة التي أمر الله بها، وخلق لأجلها، هي ما في عبادته وحده لا شريك له؛ إذ العبادة متضمنة لغاية الحب بغاية الذل"

وقال أيضا: "من خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكبارًا وإعجابا بعبادته كلما كان عمله أدعى للبوار .. قال أبو وهب المروزي: "سألت ابن المبارك: ما الكِبْر؟ قال: أن تزدري الناس. فسألته عن العُجْب؟ قال: أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلِّين شيئًا شراً من العُجْب".

وقال مطرِّف بن عبد الله: "لأن أبيت نائمًا وأُصبح نادمًا أحبُّ إليَّ من أن أبيتَ قائمًا وأُصبح معجَبًا".

وقيل لعائشة رضي الله عنها: "متى يكون الرجل مسيئاً؟ قالت: "إذا ظن أنه محسن".

إن الله سبحانه كان محسناً في الأزل، وله الجلال والجمال والكمال بلا مشارك، وأنه أراد أن يُفيض إحسانه على مخلوق يخلقه، وهو الإنسان خلاصة الوجود، وموضع فضل الإله، فصَوّره بأحسن صورة، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وسخر له كل شيء، وإنما خلقه من أجله لا من أجل المخلوقات، فإذا تعلّق قلبه بالمخلوقات انقطع عن إلهه ومعبوده الحق.

ولقد فطر الله تعالى العباد على إرادة الخالق ومحبته، فإذا تشوشت الفطرة بحجب الجهل أو الهوى تعلقت إرادتها ومحبتها بغيره سبحانه، من متاع دنيا أو عشق الصور مما يتوهم الإنسان أن فيه نعيمه ولذته متغافلا عن حتمية حصول الألم والهم والغم لمخالفته طبيعة الفطرة التي جبل عليها.

ولولا طول الأمل، وخصوبة خيال الإنسان، كذلك الأماني التي هي سمة النفس الفارغة، والشهوة والأغاني المهيجة والغفلة والإعراض عن الوعد والوعيد لما انتكست الفطرة وتشتت.

خاصة أن القلب إذا تعلق بما سوى الله يتوهم أن فيه راحته ومتعته، وتعمى بصيرته عن رؤية مساوئه، وتصم أذنه عن سماع نقده وهجائه، ولذلك قال العلماء: "العشق لا يكون إلا مع فساد التصور للمعشوق، ومع صحة التصور لا يحصل الإفراط في الحب".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وأهل العبودية كما كانوا سادة في الدنيا فهم أيضا سادة في الآخرة .. قال مالك بن دينار: "جنات النعيم بين الفردوس وبين جنات عدن، فيها جوار خلقن من ورد الجنة، يسكنها الذين هموا بالمعاصي فلما ذكروا الله عز وجل راقبوه، فانثنت رقابهم من خشية الله عز وجل".

أما المفرطون فمعذبون.. قال تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [المائدة:٣٧] قيل: هذا إشارة إلى ما هو لازم لهم في الدنيا والآخرة، من آلامهم النفسية غماً وحزناً وقسوة وظلمة قلب وجهلاً، فإن للكفر والمعاصي من الآلام العاجلة الدائمة ما الله تعالى به عليم، ولهذا تجد غالب هؤلاء لا يُطيِّبون عيشهم إلا بما يزيل عقولهم ويُلهي قلوبهم من تناول مسكر أو رؤية مُلْهٍ أو سماع مطرب ونحو ذلك، فهذا للكفار منه النصيب الكامل وللعصاة نصيب منه بحسب معاصيهم.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

محاسبة النفس

الله عز وجل قائم على كل نفس بما كسبت، محاسب على النقير والقطمير، والقليل والكثير من الأعمال، وإن خفيت، وأرباب البصائر عرفوا أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب، ويطالبون بمثاقيل الذر من الأعمال، وتحققوا أنه لا ينجيهم إلا لزوم المحاسبة، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب، خف في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر: ١٨]

قال ابن كثير في تفسيره (٣٤٢/٤): قوله تعالى: { وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم، وعرضكم على ربكم.

وقال ابن القيم: فإذا كان العبد مسئولا ومحاسبا على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه، كما قال تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} [الإسراء: ٣٦] فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب.

وقال أيضا: هلاك النفس من إهمال محاسبتها، ومن موافقتها واتباع هواها.

وقال قتادة في قوله تعالى {وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً} [الكهف:٢٨] أضاع نفسه وغُبن، مع ذلك تراه حافظا لماله مضيعا لدينه.

قال عمر بن الخطاب –رضي الله عنه-: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال الحسن البصري:

- إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته.
- لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه، ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدما لا يحاسب نفسه.
- المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله عز وجل، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة.
- رحم الله عبدا وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر.
- إن المؤمن يفجأه الشيء [يأتيه على بغته وغفلة] ويعجبه، فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات ! حيل بيني وبينك. ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه، فيقول: هيهات ! ما أردت إلى هذا، وما لي ولهذا ؟! ما أردت إلى هذا، وما لي ولهذا ؟! والله ما أُعذَر بهذا، والله لا أعود إلى هذا أبدا إن شاء الله، إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم. إن المؤمن أسير في الدنيا، يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئا حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وفي بصره وفي لسانه وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله.

وقال ميمون بن مهران: لا يكون العبد تقيا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك.

ولهذا قيل النفس كالشريك الخوان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك.

وقال أيضا: إن التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان قاض ومن شريك شحيح.

وقال مالك بن دينار: رحم الله عبدا قال لنفسه النفيسة: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله، فكان لها قائدا.

وذكر الإمام أحمد عن وهب قال: مكتوب في حكمة آل داود: حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلو فيها بين

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويحمد، فإن هذه الساعة عونا على تلك الساعات، وإجماما للقلوب.

وعن إبراهيم التيمي قال: مثلت نفسي في الجنة، آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار، آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: أي نفسي، أي شيء تريدين ؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا، فأعمل صالحا، فقلت: فأنت في الأمنية فاعملي.

وعن سلمة بن منصور عن مولى لهم كان يصحب الأحنف بن قيس قال: كنت أصحبه، فكان عامة صلاته الدعاء، وكان يجيء بالمصباح، فيضع أصبعه فيه، ثم يقول: حس. ثم يقول: يا حنيف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟، ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟.

وقال عبد الله بن قيس أبو أمية الغفاري: كنا في غزوة لنا، فحضر عدوهم، فصيح في الناس، فهم يثوبون إلى مصافهم في يوم شديد الريح، فإذا رجل أمامي، رأس فرسي عند عجز فرسه، وهو يخاطب نفسه فيقول: أي نفس، ألم أشهدك مشهد كذا وكذا؟ فقلت لي: أهلك وعيالك، وأطعتك فرجعت؟ ألم أشهدك مشهد كذا وكذا ؟ فقلت لي: أهلك وعيالك، وأطعتك فرجعت؟ والله لأعرضنك اليوم على الله عز وجل، أخذك أو تركك. فقلت: لأرمقنه اليوم، فرمقته، فحمل الناس على عدوهم، فكان في أوائلهم، ثم إن العدو حمل على الناس، فانكشفوا، فكان في حماتهم، ثم حملوا على عدوهم، فكان في أوائلهم، ثم حمل العدو، وانكشف الناس، فكان في حماتهم. فوالله ما زال ذلك دأبه حتى رأيته صريعا، فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة.

وجماع محاسبة النفس أن يحاسب نفسه على الفرائض، فإن تذكر فيها نقصا تداركه، إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به لسانه، أو مشت إليه رجلاه أو بطشت به يداه أو سمعته أذناه، ماذا أردت بهذا؟ ولمن فعلته، وعلى أي وجه فعلته؟ ويعلم أنه لابد أن ينشر لكل حركة وكلمة منه ديوانين: لمن فعلته؟ وكيف فعلته؟ فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطواتها، فكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة يمكن أن يشتري بها كنزا من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فإضاعة هذه الأنفاس أو مشترى صاحبها بها ما يجلب هلاكه، خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلا، وإنما يظهر لهم حقيقة هذا الخسران يوم التغابن {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: ٣٠] {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [النحل: ١١١] {يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ [النبأ: ٤٠] {هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [يونس: ٣٠]

المصادر

- صلاح الأمة في علو الهمة د. سيد العفاني ج٤ مؤسسة الرسالة
- موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز السلمان ج١ ط ٢٦

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

معايشة الصالحين

ما أجمل أن تطالع حياة الطيبين وأجواء المخبتين وسلوك الصالحين.. تلك الروضة الإيمانية التي تمتد إلى جنبات النفس فتملئها خشوعا وعزيمة ومحبة لتناول صنوف البر كما تتناول اليد أطايب الثمر، فتأثير النفس في النفس ملحوظ لا ينكره إلا معاند، ومصاحبة الكرام تورث التشبه بهم، وهذا من فضل الله تعالى على الناس حيث يجدون منارات تهتدي بها قلوبهم عندما تشتد ظلمة الآثام وتستحكم قيود المعاصي.

عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: سئل رسول اللّه –صلى اللّه عليه وآله وسلم–: من أولياء اللّه؟ فقال: (أولياء الله تعالى الذين إذا رءوا ذكر الله تعالى) [الحكيم الترمذي، (حسن) صحيح الجامع].

قال المناوي: برؤيتهم يعني أن عليهم من اللّه سيما ظاهرة تذكر بذكره، فإن رؤوا ذكر الخير برؤيتهم، وإن حضروا حضر الذكر معهم، وإن نطقوا بالذكر فهم يتقلبون فيه كيفما حلّوا، فمن كان بين يدي ربه وآخرته، فإنما يفتتح إذا لقيك بذكره، ومن كان أسير نفسه ودنياه، فإنما يفتتح إذا لقيك بدنيا، فكل يحدثك عما يطلع قلبه فتنبه. [فيض القدير]

الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ

الرَّبيع بن خُثَيْم بن عائذ، الإمام، القدوة العابد، أبو يزيد الثَّوريّ الكوفيّ أحد الأعلام .. قال له عبد الله بن مسعود –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: «يا أبا يزيد، لو رآك رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين».

وابن مسعود صاحب النبي محمداً –صلى الله عليه وسلم– ثلاثاً وعشرين سنة، هي عصر النبوّة كاملاً، ويعرف ما يحب في الرجال، ومن يحب من الرجال.

من بديع أقوال الربيع رحمه الله:

- أعدّ زادك وخذ في جهازك وكن وصيّ نفسك.
- كل ما لا يبتغى به وجه الله عز وجل يضمحل.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

- السرائر السرائر اللاتي يخفين من الناس وهنّ لله بواد، التمسوا دواءهن، وما دواءهن إلا أن تتوب فلا تعود.
- الداء الذنوب، والدواء الاستغفار، والشفاء أن تتوب فلا تعود.
- إذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك، وإذا هممت فاذكر علمه بك، وإذا نظرت فاذكر نظره إليك وإذا تفكرت فاذكر إطلاعه عليك، فإنه يقول: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} [الإسراء:٣٦]

وقيل له يوما كيف أصبحت يا أبا يزيد؟ قال: أصبحنا ضعفاء مذنبين نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا.

وكان رحمه الله إذا أصبح قال: مرحباً بملائكة الله، اكتبوا، بسم الله الرحمن الرحيم: سبحان الله والحمد الله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وسرق له فرس أعطي به عشرون ألفاً، فقالوا له: ادع الله على السارق، فقال: "اللهم إن كان غنياً فاغفر له، وإن كان فقيراً فأغنه".

وأصابه أحدهم بحجر في رأسه فشجّه، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: "اللهم اغفر له فانه لم يتعمدني".

وإذا كان الليل ووجد غفلة الناس خرج إلى المقابر فيقول: "يا أهل المقابر كنا وكنتم" فإذا أصبح كأنه نشر من قبر.

قالت له أمه يوما: يا بني ألا تنام. فقال: يا أماه من جنّ عليه الليل وهو يخاف البيات حُقّ له أن لا ينام. فلما رأت ما بلغ من البكاء والسهر نادته فقالت: يا بني لعلك قتلت قتيلاً؟ فقال: نعم يا والدة. فقالت: ومن هو القتيل فنحمل على أهله فيعفونك، والله لو علموا ما تلقى من البكاء والسهر لرحموك فقال: يا والدتي هي نفسي.

وقام ليلة يصلي فمر بهذه الآية: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَّن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ} [الجاثية:٢١] فمكث ليله حتى أصبح ما يجوز هذه الآية إلى غيرها ببكاء شديد.

وكان إذا سجد كأنه ثوب مطروح فتجئ العصافير فتقع عليه.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال أحدهم، صاحبه سنين عدداً: ما سألني عن شئ مما فيه الناس إلا أنه قال لي مرة : أمك حية؟ كم مسجد لكم؟.

وقالت سرّية له: كان عمله كله سراً .. إنه كان ليجئ الرجل وقد نشر المصحف (فتحه للقراءة) فيغطيه بثوبه.

وما رئي الربيع متطوعاً في مسجد قومه قط إلا مرة واحدة.

وكان يقاد إلى الصلاة يهادى بين رجلين وبه الفالج (الشلل) فيقال له: قد رخّص لك لو صليت في بيتك. فيقول: إنه كما تقولون، ولكني سمعته ينادي (حي على الصلاة حي على الفلاح) فمن سمع منكم فليجبه ولو حبواً.

قال الأعمش: مرَّ أبو يزيد في الحدادين فنظر إلى كير الحداد فصعق –كأنه تذكر جهنم– قال الأعمش: فمررت بالحدادين لأتشبه به فلم يكن عندي خير.

وكان أبو يزيد وسيماً ممتلئاً شباباً ذا وفرة من شعر رأسه .. فأراد بعض الفسقة إغواءه، فأعطوا امرأة ذات جمال بارعٍ ألف درهم لتتعرض له وتفتنه.. فلبست أحسن الثياب، وتطيبت بأطيب الطيب، ثم تعرضت له حين خرج من مسجده، فنظر إليها فراعه أمرها، فأقبلت عليه وهي سافرة، فقال لها، كيف بك لو قد نزلت الحمّى بجسمك فغيّرت ما أرى من لونك وبهجتك؟ أم كيف بك لو قد نزل بك ملك الموت فقطع منك حبل الوتين؟ أم كيف بك لو سألك منكر ونكير؟ فصرخت صرخة فسقطت مغشياً عليها .. ثم تابت وبلغت من عبادة ربها أن كان يوم ماتت كأنها جذع محترق من خشية الله.

قال الشعبي: حدثنا أبو يزيد وكان من معادن الصدق وكان أورع أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقال عنه أحد أصحابه: صحبته عشرين عاماً ما سمعت منه كلمت تعاب وما تكلم إلا بكلمة تصعد.

وقال عنه الذهبي: قليل الرواية إلا أنه كبير الشأن وكان يعد من عقلاء الرجال.

{إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ}

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

المفهوم الشرعي لكلمة «ولي الله تعالى» يتجلى واضحا في قوله عز وجل: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} [يونس:٦٣،٦٢]، فكل من كان مؤمنا تقيا فهو من أولياء الله تعالى. وليست الولاية محصورة في أشخاص معينين، ولا يشترط لحصولها وقوع الكرامة.

ويؤصل الشوكاني لمفهوم الولاية بأصل جامع ماتع، فيقول: "والحاصل أن من كان من المعدودين من الأولياء، إن كان من المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله، مقيما لما أوجب الله عليه، تاركا لما نهاه عنه، مستكثرا من طاعاته، فهو من أولياء الله تعالى، وما ظهر عليه من الكرامات التي لم تخالف الشرع، فهي موهبة من الله عز وجل لا يحل لمسلم أن ينكرها.

ومن كان بعكس هذه الصفات، فليس من أولياء الله سبحانه، وليست ولايته رحمانية، بل شيطانية، وخوارقه من تلبيس الشيطان عليه وعلى الناس. وليس هذا بغريب ولا مستنكر، فكثير من الناس من يكون مخدوما بخادم من الجن أو بأكثر، فيخدمونه في تحصيل ما يشتهيه وربما كان محرما من المحرمات. والمعيار الذي لا يزيغ، والميزان الذي لا يجور هو ميزان الكتاب والسنة. فمن كان متبعا لهما معتمدا عليهما، فكراماته وجميع أحواله رحمانية، ومن لم يتمسك بهما ولم يقف عند حدودهما فأحواله شيطانية". [قطر الولي للشوكاني]

وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: "وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطئ؛ بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ومما نهى الله عنه، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى، وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجته، ولا يعرف أنها من الشيطان .. وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى؛ فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

مقولات في العلم والتعلم

العلم روضة يكتنفها التعب، ولذة مشوبة بالمعاناة، وخشية تزين حقيقته، وبهاء يعلو سادته .. اتفقت الشرائع على حسنه، وأجمع العقلاء على مدحه، ولا يكاد يذمه إلا أحمق مغبون في عقله .. كم كتبت في فضله أشعار، وسطرت في تمجيده أسفار، ورغم اتساع روضة الإشادة به في كل زمان ومكان إلا أني أحببت أن أقتطف من هذه المقولات الرائعة بعض أزهارها، وأرصد من أقوال الشعراء خير ترانيمها، راجيا شحذ الهمم وتذكير أهل العلم والفضل بشرف مقاماتهم وعلو غاياتهم.

- قدم هارون الرشيد الرقة؛ فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك، فقالت أُمُ ولدٍ لهارون كانت مشرفة على ذلك: من هذا؟ فقالوا لها: عالم أهل خراسان قدم الرقة يقال له عبد الله بن المبارك، فقالت: هذا والله الملك! لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان. (الحديقة لمحب الدين الخطيب)
- يقال أن الخضر قال لنبي الله موسى –عليه السلام–: يا موسى، تفرغ للعلم إن كنت تريده، فإنما العلم لمن تفرغ له.
- إن الوقوف عند حد مُعيَّن من العلم ما هو إلاَّ ضمور في العقل وقصور في الهمَّة! ولقد نعى الله تعالى على قوم وقفوا عند حد معين من العلم فكان وقوفهم سبباً لضلالهم! فقال تعالى: {ذلك مبلغهم من العلم} لكنَّ طالب العلم الجاد مع إطلالة كل صباح، يستذكر قوله تعالى: {وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً} فتراه يسأل ربَّه متواضعاً: {رب زدني علماً}، اعترافاً بقلَّة ما تعلَّمه ضمن دوائر المعرفة والعلم المتسعة.
- من خدم المحابر خدمته المنابر.
- الصالحون يبنون أنفسهم، والمصلحون يبنون الجماعات. (أحمد شوقي)
- طلبت العلم فوجدته صعب المراد، لا يصاد بالأزلام، ولا يورث عن الأخوال والأعمام، فاستعنت عليه بطول السهر، وإعمال الفكر، وافتراش المدر، حتى لانت لي قناته. (بديع الزمان الهمذاني)

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

- الأفكار كالطائرات تحتاج إلى ممر طويل كي تكتسب سرعتها قبل أن تحلق في السماء، وكلما كانت الفكرة كبيرة وثقيلة زاد طول الممر اللازم للإقلاع.
- الذكاء كالشرارة الكامنة في الزناد لا تظهر إلا بالقدح، فإذا لم تحتك الأفكار بالعلوم مات ذلك النشاط والذكاء في مكامنه، وانزوى في زوايا الصدور. (القاسمي)
- قال يحيى بن خالد لابنه: عليك بكل نوع من العلم فخذ منه، فإن المرء عدو ما جهل، وأنا أكره أن تكون عدو شيء من العلم.
- يا بني تعلموا العلم، فإن كنتم وسطا سدتم، وإن كنتم سوقة عشتم. (الخليفة عبد الملك بن مروان)
- كيف يدعي رجل أنه أكثر علما، وهو أقل خوفا وزهدا؟! (عبد الله بن المبارك)
- لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به، إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية، ومطارح الآمال التي لا تفيد غير الهم، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس، لكان ذلك أعظم داع إليه، فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره ؟! (ابن حزم)
- ما أتى الله تعالى عالماً إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه، وما أخذ الله على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلّموا. (على بن أبى طالب –رضي الله عنه–)
- ما مات من أحيا علما، ولا افتقر من ملك فهما. (على بن أبى طالب –رضي الله عنه–).
- لابد لي في درب الحياة أن أجد بين كل اثنين معلماً. (كونفشيوس).
- من كان لي معلماً يوماً، غدا لى صديقاً دوماً. (حكمة صينية).
- جمال الطير فى ريشه، وجمال الرجل في علمه. (حكمة صينية).
- إذا علمت ولدا فقد علمت فرداً، وإذا علمت بنتاً فقد علمت أمة. (الإمام ابن باديس)
- العلم أرفع النسب، العمل أرفع الحسب. (شامفور)
- ذوو العلم الواسع هم من يرصفون هيكل المجد. (شامفور).
- الروح عماد الدين، والعلم عماد الروح، والبيان عماد العلم. (ابن التوءم)
- أعز الأشياء في زماننا شيئان: عالم يعمل بعلمه، وعارف ينطق عن حقيقة. (أبو الحسن الثوري)

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

- يا جاهل العلم تعلم العلم؛ فإن قلباً ليس فيه شوق للعلم كالبيت الخراب الذى لا عامر فيه. (أبو ذر الغفارى –رضي الله عنه–)
- الجاهل صغير وإن كان شيخاً، والعالم كبير ولو كان حدثاً. (على بن أبى طالب –رضي الله عنه–)
- من لم يصبر على تعلم العلم، صبر على شقاء الجهل. (سقراط)
- كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع. (على بن أبى طالب –رضي الله عنه–)
- كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة. (عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه–)
- العلم بغير إيمان ضرب من النقص المعيب، أما الإيمان بغير علم فمهزلة لا تطاق. (ديستوفسكي)
- إن استطعت فكن عالماً، فإن لم تستطع فكن متعلماً، فإن لم تستطع فأحبهم (العلماء)، فإن لم تستطع فلا تبغضهم. (الخليفة عمر بن عبد العزيز)
- تعلموا العلم؛ فإنه زين للفتى، وعون للفقير، لا أقول إنه يطلب به، ولكنه يدعو إلى القناعة. (الخليفة عمر بن عبد العزيز)
- إن العلم والعمل قريبان، لكن كن عالما بالله عاملاً له، فإن أقواماً علموا ولم يعملوا فكان علمهم عليهم وبالاً. (الخليفة عمر بن عبد العزيز)
- إن المعلم طبيب لمجتمعه، يقيه أدواءه وشروره، ويعالجه من أمراضه وأوبئته، وهو مهندس، يبني ويقيم.
- اللذات كلها بين حسي وعقلى، فنهاية اللذات الحسية وأعلاها النكاح ونهاية اللذات العقلية وأعلاها العلم، فمن حصلت له الغايتان فقد نال النهاية. (ابن الجوزي).
- نار الصبر على العلم ولا جنة الجهل.
- العلم ثلاثة أشبار، فمن دخل فى الشبر الأول تكبر، ومن دخل فى الشبر الثانى تواضع، ومن دخل فى الشبر الثالث علم أنه لا يعلم.
- قال (الشافعي):

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

العلم مغرس كل فخر فافتخر * واحذر يفوتك فخر ذاك المغرس
فلعل يوما ان حضرت بمجلس * كنت الرئيس وفخر ذاك المجلس

- قال (أحمد شوقي):

فرب صغير قوم علموه * سما وحمى المسومة العرابا
وكان لقومه نفعا وفخرا * ولو تركوه كان أذى وعابا
فعلم ما استطعت لعل جيلا * سيأتي يحدث العجب العجابا

- قال الشاعر:

العلم يحيي قلوب الميتين كما * تحيا البلاد إذا مامسها المطر
والعلم يجلي العمى عن قلب صاحبه * كما يجلي سواد الظلمة القمر

- قال الشاعر محمد البطليوسي في العلم

أخو العلم حي خالد بعد موته * وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى * يُظَنُّ من الأحياء وهو رميم

- قال الشاعر الأخطل الصغير في العلم

صرفت شبابي واطلب العلم ثروة * فقالوا جنون والجنون الذي قالــوا
كفاني ثراء أنني غير جاهـل * وأكثر أرباب الغنـى اليوم جهــال

- وقال الشاعر

إذا طلبت العلم فاعلم أنه * حمل فأبصر أي شيء تحمل
وإذا علمت بأنه متفاضل * فاشغل فؤادك بالذي هو أفضل

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

من أسرار التوبة

الذنوب حجاب عن الله، والانصراف عن كل ما يبعد عن الله واجب، وإنما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن الله لم يندم على الذنوب ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد، وإذا لم يتوجع لم يرجع.

والتوبة: هي الرجوع عن المعصية إلى الطاعة، وهي واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين ربه تعالى فلها ثلاثة شروط:

(الأول) الإقلاع عن المعصية، وعلامته مفارقة الذنب فورا.

(الثاني) الندم على فعلها، وعلامته طول الحزن على ما فات لقوله –صلى الله عليه وسلم–: (الندم توبة) [أحمد، صحيح الجامع:٦٨٠٢]

(الثالث) العزم على أن لا يعود إلى معصية أبدا، وعلامته التدارك لما فات وإصلاح ما يأتي، فإن كان الماضي تفريطا في عبادة قضاها، أو مظلمة أداها، أو خطيئة لا توجب غرامة، حزن إذ تعاطاها.

فإن فقد أحد الشروط الثلاثة لم تصح توبته، وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي زاد شرط رابع وهو: أن تبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه إن كان موجودا أو رد بدله عند تلفه من قيمة أو مثل، وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منها إن كان عاقلا حليما يغلب على الظن أنه إذا جاءه أخوه المسلم نادما تائبا عفا عنه وسامحه، وإلا فليستغفر له.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [التحريم:٨]

قال ابن القيم: "النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

(الأول) تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنبا إلا تناولته.

(الثاني) إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرا بها.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

(الثالث) تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده. لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته ومنصبه ورياسته ولحفظ حاله أو لحفظ قوته وماله أو استدعاء حمد الناس أو الهرب من ذمهم أو لئلا يتسلط عليه السفهاء أو لقضاء نهمته من الدنيا أو لإفلاسه وعجزه ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل.

فالأول يتعلق بما يتوب منه، والثالث يتعلق بمن يتوب إليه، والأوسط يتعلق بذات التائب ونفسه، فنصح التوبة الصدق فيها والإخلاص وتعميم الذنوب بها ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة".

ومن المعوقات الضارة التسويف بالتوبة، فمن أين يعلم الإنسان أنه يبقى إلى أن يتوب، فتارك المبادرة بالتوبة بين خطرين عظيمين:

(أحدهما) أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى تصير رينا وطبعا.

(ثانيهما) أن يعاجله المرض فلا يجد مهلة للاشتغال بمحو ما وقع من الظلمة في القلب فيأتي ربه بقلب غير سليم ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، وقد قال العلماء: ما مثال المسوف بالتوبة إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة، فقال: أأخرها سنة ثم أعود إليها، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازدادت قوة لرسوخها وكلما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه حتى ضعف هو في نفسه وقوي الضعيف.

قال ابن القيم: "فإذا أراد الله بعبده خيرا فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجأ إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به سبب رحمته، حتى يقول عدو الله يا ليتني تركته ولم أوقعه، وهذا معنى قول بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار، قالوا كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفا منه مشفقا وجلا باكيا نادما مستحيا من ربه تعالى ناكس الرأس بين يديه

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

منكسر القلب له، فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة، ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه ويتكبر بها ويرى نفسه ويعجب بها ويستطيل بها ويقول فعلت وفعلت فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه، فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيرا ابتلاه بأمر يكسره به ويذل به عنقه ويصغر به نفسه عنده، وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه، فإن العارفين كلهم مجمعون على أن التوفيق أن لا يكلك الله تعالى إلى نفسك، والخذلان أن يكلك الله تعالى إلى نفسك".

وقال رحمة الله: التوبة المقبولة الصحيحة لها علامات:

(منها) أن يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبلها (ومنها) أنه لا يزال الخوف مصاحبا له لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: ٣٠] فهناك يزول الخوف (ومنها) انخلاع قلبه وتقطعه ندما وخوفا، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: {لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ١١٠] قال: تقطعها بالتوبة، ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه، وهذا هو تقطعه وهذا حقيقة التوبة، لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه وخوفا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرط حسرة وخوفا تقطع في الآخرة إذا حقت الحقائق وعاين ثواب المطيعين وعقاب العاصين، فلا بد من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة (ومنها) كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع ولا رياضة ولا حب مجرد، وإنما هي أمر وراء هذا كله، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحا ذليلا خاشعا، كحال عبد جان آبق من سيده، فأخذ فأحضر بين يديه ولم يجد من ينجيه من سطوته ولم يجد منه بدا ولا عنه غناء ولا منه مهربا، وعلم أن حياته وسعادته

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته هذا مع حبه لسيده وشدة حاجته إليه وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده وذله وعز سيده، فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ما أنفعها للعبد، وما أجدى عائداتها عليه، وما أعظم جبره بها، وما أقربه بها من سيده، فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه والاستسلام له.

فلله ما أحلى قوله في هذه الحال: (أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي وبغناك عني وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته ورغم لك أنفه وفاضت لك عيناه وذل لك قلبه).

فهذا وأمثالها من آثار التوبة المقبولة، فمن لم يجد ذلك في قلبه، فليتهم توبته، وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة، وما أسهلها باللسان والدعوى، وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المصادر

- إعلام الموقعين عن رب العالمين   ابن القيم الجوزية ـ دار ابن الجوزي / السعودية
- الوابل الصيب من الكلم الطيب   ابن القيم
- موارد الظمآن لدروس الزمان   عبد العزيز السلمان   ج١ / السعودية

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بسم الله الرحمن الرحيم

من تجاوزت أعمالهم أعمارهم

من منا لا يريد أن يعيش في الدنيا أكثر من مرَّة .. لا لجمالها، ولا لنعيمها، ولا لمتعها وشهواتها، فما عند الله تعالى لعبده المؤمن من الخير أفضل له مما يطمع في تحصيل أضعاف أضعافه من الدنيا التي لا يساوي نعيمها في الآخرة مثقال حبة من خردل، حيث النعيم المقيم والخير العميم في جنات النعيم .. وإنما نريد حياة مديدة لنستكثر من الحسنات والباقيات الصالحات التي ننتفع بها يوم لقاء ربنا، ونتجاوز بها تلك العرصات في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

والمأزق الشديد أننا لن نعيش في الدنيا إلا مرَّة واحدة، وإذا ذهبت الأعمار لم تتجدد مرة أخرى، وتلك والله داهية كبرى .. فرصة واحدة يشتري فيها العبد نفسه من ربه، فينجو، وإلا فالنار وبئس القرار!

ولكن من الفطناء من يعيشون بأعمالهم الصالحة مرَّات وكرات .. يعيشون في مصرهم وغير مصرهم، ويحيون في عصرهم وفي غير عصرهم، وكلما مرَّ الزمان عليهم، طال عمرهم في الخير والثواب أكثر، وغنموا مزيدا من الأعمال المباركة التي يتعاظم ثوابها ويتبارك فضلها. (١)

الأذان ثنتي عشر سنة

عن عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– قال –صلى الله عليه وسلم–: (من أذن ثنتي عشرة سنة وجبت له الجنة، وكتب له بتأذينه في كل يوم ستون حسنة، وبإقامته ثلاثون حسنة) (٢)

قال المناوي: (من أذن اثنتي عشرة سنة وجبت له الجنة) قال الجلال البلقيني: حكمته أن العمر الأقصى مائة وعشرون سنة، والاثنتي عشر عشرها، ومن سنة اللّه أن العشر يقوم مقام الكل، قال تعالى: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا } [الأنعام:١٦٠] فكأنه تصدق بالدعاء إلى اللّه كل عمره، ولو عاش هذا القدر الذي

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

هذا عشره فكيف دونه؟ وأما خبر سبع سنين، فإنها عشر العمر الغالب (وكتب له بتأذينه كل يوم ستون حسنة، وبإقامته ثلاثون حسنة) فترفع بها درجاته في الجنان (٣)

الصلاة

عن عقبة بن عامر –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (إذا تطهر الرجل ثم مر إلى المسجد يرعى الصلاة، كتب له كاتبه بكل خطوة يخطوها إلى المسجد عشر حسنات، والقاعد يرعى الصلاة كالقانت، ويكتب من المصلين من حين يخرج من بيته حتى يرجع إليه) (٤)

وعن عثمان بن عفان –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف ليلة، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله) (٥) وفي رواية: (من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف ليلة، ومن صلى العشاء والفجر في جماعة كان كقيام ليلة) (٦)

وعن أبي ذر –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (إن الرجل إذا صلى مع الإمام حتى ينصرف كتب له قيام ليلة) (٧) قال المناوي: (إن الرجل إذا صلى مع الإمام) أي اقتدى به واستمر (حتى ينصرف) من صلاته (كتب) وفي رواية "حسب" (له قيام ليلة) قال في الفردوس: يعني التراويح. (٨)

المحافظة على صلاة العصر

عن أبي بصرة الغفاري –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (إن هذه الصلاة –يعني العصر– عرضت على من كان قبلكم فضيعوها، فمن حافظ منكم اليوم عليها، كان له أجره مرتين، ولا صلاة بعدها حتى يطلع الشاهد) (٩) والشاهد النجم، كناية عن غروب الشمس لأن بغروبها تظهر النجوم.

صلاة الجمعة

عن أوس بن أوس –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (من غسل يوم الجمعة واغتسل ثم بكر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام، واستمع وأنصت ولم يلغ، كان له بكل خطوة يخطوها من بيته إلى المسجد عمل سنة، أجر صيامها وقيامها) (١٠)

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال السخاوي: لا أعلم حديثاً كثير الثواب مع قلة العمل أصح من حديث من بكر وابتكر، وغسل واغتسل ودنا وأنصت كان له بكل خطوة يمشيها كفارة سنة.. الحديث، سمع ذلك شيخنا ابن حجر من شيخه المصنف العراقي وحدثنا به كذلك غير مرة (١١) وقال المباركفوري: قال بعض الأئمة: لم نسمع في الشريعة حديثاً صحيحاً مشتملاً على مثل هذا الثواب. (١٢)

واختلف أهل العلم في معنى غَسَّل على أقوال لخصها ابن الأثير في النهاية (١٣) بقوله:

١- ذهب كثير من الناس أن "غَسَّل" أراد به المجامعة قبل الخروج إلى الصلاة، لأن ذلك يجمع غض الطرف في الطريق. ذهب إلى هذا القول وكيع، والإمام أحمد. قال ابن رجب: وهو المنصوص عن أحمد، وحكاه عن غير واحد من التابعين، منهم: هلال بن يساف (١٤)، وعبد الرحمن بن الأسود، وغيرهما، روي عن عبد الرحمن بن الأسود (١٥) قال: "كان يعجبهم أن يواقعوا النساء يوم الجمعة؛ لأنهم قد أمروا أن يغتسلوا وأن يغسلوا، وهو قول طائفة من الشافعية" (١٦). وقد أخرج البيهقي من طريق أبي عتبة ثنا بقية ثنا يزيد بن سنان عن بكير بن فيروز عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-: (أيعجز أحدكم أن يجامع أهله في كل جمعة، فإن له أجرين اثنين أجر غسله وأجر غسل امرأته). ثم قال البيهقي رحمه الله تعالى: "ففي روايات بقية نظر، فإن صح ففيه المعنى المنقول في الخبر، وأيضاً فإنه إذا فعل ذلك كان أغض للبصر حال الرواح إلى الجمعة، ففي القديم كان النساء يحضرن الجمعة.والله أعلم"(١٧)

٢- وقيل: أراد غَسّل غيره واغتسل هو؛ لأنه إذا جامع زوجته أحوجها إلى الغسل. هذا قول ذكره ابن خزيمة ولم ينسبه لأحد، وكذا ابن الأثير.

٣- وقيل: أراد بغَسّل غَسْلَ أعضائه للوضوء، ثم يغتسل للجمعة. ذكره ابن الأثير ولم ينسبه لأحد.

٤- وقيل: هما بمعنى واحد وكرره للتأكيد. قال الخطابي هو قول الأثرم صاحب الإمام أحمد.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

٥- لم يذكره ابن الأثير وهو: أن (غَسَّل) معناه: غَسَلَ رأسه خاصة، لأن العرب لهم لمم وشعور، وفي غسلها مؤونة، فأفردها بالذكر، (واغتسل) يعني: سائر الجسد. وهو قول: مكحول، وسعيد بن عبد العزيز التنوخي، وابن المبارك، وأبو عبيدة، وابن حبان، والبيهقي، والنووي. وذكر الطيبي أن الإمام أحمد رجع إلى هذا القول وترك القول الأول (١٨) واستدلوا بما يلي:

أ – حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (إذا كان يوم الجمعة فاغتسل الرجل وغسل رأسه....) الحديث (١٩)

ب – حديث طاووس قال: قلت لابن عباس: ذكروا أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (اغتسلوا يوم الجمعة، واغسلوا رؤوسكم...) الحديث (٢٠)

ت – ما جاء في بعض طرق هذا الحديث، وهي رواية عبادة بن نسي عن أوس الثقفي عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: (من غسل رأسه واغتسل...)الحديث (٢١) قال البيهقي: "لأنهم كانوا يجعلون في رؤوسهم الخمطي (٢٢) أو غيره، فكانوا أولاً يغسلون رؤوسهم ثم يغتسلون" (٢٣)

٦- لم يذكره ابن الأثير وهو: أنه غَسَل ثيابه واغتسل لجسده. وهذا قول الغزالي، والعراقي كما ذكر الشوكاني في نيل الأوطار (٢٤) ولعل القول الخامس هو الأكثر قوة؛ للأدلة عليه .والله أعلم .

وقد اختلف العلماء في معنى (بكر وابتكر) على أقوال:

١- بكَّر: أتى الصلاة في أول وقتها، وكل من أسرع إلى شيء فقد بكّر إليه. وأما ابتكر فمعناه: أدرك أول الخطبة، وأول كل شيء باكورته، وابتكر الرجل: إذا أكل باكورة الفواكه. وهو قول أبو عبيدة، وابن قتيبة، والزمخشري (٢٥)، وأهل اللغة (٢٦) وذكره ابن الأثير (٢٧) ورجحه الطيبي حيث قال: " أرى نقل أبي عبيدة أولى بالتقديم؛ لمطابقة أصول اللغة، ويشهد بصحته تنسيق الكلام، فإنه حث على التبكير، ثم على الابتكار، فإن الإنسان يعدو إلى المسجد أولاً ثم يستمع الخطبة ثانياً " (٢٨).

وقال ابن قتيبة: وأما قوله: (بَكَّر) فإن العوام تذهب في هذا إلى أنه الغدو إلى المسجد الجامع، وليس كذلك إنما التبكير ها هنا إتيان الصلاة لأول وقتها، وكل من

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أسرع إلى شيء فقد بكّر إليه، ولذلك يقال: بكروا بصلاة المغرب، أي: صلوها عند سقوط القرص، ويقال لأول شيء يأتي من الفواكه: باكورة؛ لأنه جاء في أول الوقت. وأما قوله (وابتكر) فإنه أراد أدرك الخطبة من أولها، وأولها بكورتها كما يقال ابتكر الرجل إذا أكل باكورة الفاكهة وابتكر إذا نكح بكراً أو تزوج بكراً، ومن الدليل على هذا التأويل حديث... فذكر حديث أوس الثقفي انتهى. (٢٩)

٢- (بكَّر) أي: في بكرة النهار، وهي أوله. وابتكر: بالغ في التبكير - أي:جاء في أول البكرة. فهو للمبالغة والتوكيد. وهو قول الأثرم صاحب الإمام أحمد (٣٠)، ودليله تمام الحديث: (ومشى ولم يركب) ومعناهما واحد. وجزم به ابن العربي (٣١)

٣- (بكَّر): راح في الساعة الأولى، (وابتكر): فَعَلَ فِعْلَ المبتكرين من الصلاة والقراءة وسائر وجوه الطاعة. ذكره النووي وحكاه عن الغزالي، والقاضي أبي الطيب (٣٢) (٣٣)

قيام ليلة القدر إيمانا واحتسابا

قال تعالى: {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ} [القدر:٣]

قال مجاهد: "عملها وصيامها وقيامها خيرٌ من ألف شهر" (٣٤)

وقال عمرو بن قيس الملائي: "عملٌ فيها خيرٌ من عمل ألف شهر" (٣٥)

وعن قتادة قال: "خيرٌ من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر (٣٦)

قال الدكتور عبد الرحمن حبنكة: "وألف شهر تعادل ثلاثاً وثمانين سنة وثلث السنة، وهذا عمرٌ قلَّ من الناس من يبلغه، فكيف بمن يعبد الله فيه، وهو لا يعبد إلاّ مميزًا على أقل تقدير" (٣٧)

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدّم من ذنبه) (٣٨)

قال ابن بطال: "ومعنى قوله: (إيماناً واحتساباً) يعني مُصدِّقاً بفرض صيامه، ومصدقاً بالثواب على قيامه وصيامه، ومحتسباً مريداً بذلك وجه الله، بريئاً من الرياء والسمعة، راجياً عليه ثوابه" (٣٩)

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال النووي: "معنى إيماناً: تصديقاً بأنّه حق، مقتصد فضيلته، ومعنى احتساباً: أن يريد الله تعالى وحده، لا يقصد رؤية الناس ولا غير ذلك مما يخالف الإخلاص، والمراد بالقيام: صلاة التراويح، واتفق العلماء على استحبابها" (٤٠)

وعن عائشة –رضي الله عنها– قالت: قلت: يا رسول الله: أرأيتَ إن علمتُ أي ليلةٍ ليلة القدر، ما أقول فيها؟ قال: قولي: (اللهم إنك عفوٌ كريم تحب العفو فاعف عني) (٤١)

الهوامش

[١] كيف تعيش أكثر من مرة؟/ عبد اللطيف بن هاجس الغامدي. بتصرف [٢] رواه ابن ماجة (صحيح) صحيح الجامع: ٦٠٠٢ [٣] فيض القدير للمناوي ٢/٢٥٤ [٤] رواه أحمد وابن حبان والحاكم (صحيح) صحيح الجامع: ٤٣٤ [٥] رواه مسلم ـ كتاب المساجد رقم ١٣٦٢وأحمد (صحيح) صحيح الجامع: ٦٣٤١ [٦] رواه أبو داود والترمذي عن عثمان (صحيح) صحيح الجامع: ٦٣٤٢ [٧] رواه أحمد والترمذي وقال الترمذي حسن صحيح (صحيح) صحيح الجامع: ١٦١٥ [٨] فيض القدير للمناوي ١/٥٢٤ [٩] رواه مسلم والنسائي (صحيح) صحيح الجامع: ٢٢٦٦ [١٠] رواه أحمد (صحيح) صحيح الجامع: ٦٤٠٥. انظر أحمد في مسنده ٤–٩+١٠+١٠٤، وابن أبي شيبة ٢–٩٣، وأبو داود ٣٤٥، وابن ماجه ١٠٨٧، وابن حبان ٢٧٨١، والطبراني في معجمه الكبير ٥٨٥، والحاكم ١–٢٨٢، والبيهقي ٣–٢٢٩، والبغوي في شرح السنة ١٠٦٠ [١١] فتح المغيث للسخاوي ٣ – ١٨ [١٢] تحفة الأحوذي ٣–٥ [١٣] النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٣–٣٦٧ [١٤] هلال بن يساف الأشجعي مولاهم الكوفي، ثقة، من الثالثة (التقريب ٥٧٦) [١٥] عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزهري، ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومات أبوه في ذلك الزمان، فعد لذلك من الصحابة. قال العجلي: من كبار التابعين (التقريب ٣٣٦) [١٦] فتح الباري لابن رجب ٨–٩٠ [١٧] شعب الإيمان ٦–٢٥٠، وفي سنده أبو عتبة هو: أحمد بن الفرج الحجازي ضعفه محمد بن عوف الطائي قال ابن عدي لا يحتج به هو وسط وقال ابن أبي حاتم محله الصدق. (ميزان الاعتدال ١–٢٧٢) [١٨] صحيح ابن حبان ٧–٢٠، والسنن الكبرى للبيهقي ٣ –٢٢٧، وشرح السنة للبغوي ٢–٥٧٠، والمجموع للنووي ٤–٤٦٣، وشرح الطيبي على المشكاة ٤–١٢٧٦ [١٩] صحيح ابن خزيمة ٣–١٥٢ رقم

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

١٨٠٣ بإسناد صحيح كما قال الألباني. [٢٠] صحيح البخاري مع الفتح ٢-٤٣١، رقم ٨٨٤ [٢١] سنن أبي داود ٢-٢٤٧، رقم ٣٤٦ [٢٢] قال في لسان العرب ٤-٢٢٠: الخمط: ضرب من الأراك له حمل يؤكل ... وقال الفراء: الخمط: ثمر الأراك ... والخمط: شجر مثل السدر، وحمله كالتوت [٢٣] السنن الكبرى ٣-٢٢٧ [٢٤] نيل الأوطار (١-٢٧٧) [٢٥] الفائق في غريب الحديث ٣-٦٧ [٢٦] القاموس المحيط ١- ٤٥٢، والمصباح المنير ص ٥٨، ولسان العرب ٤-٧٦، ومختار الصحاح ص ٢٥، والمغرب ١-٨٤ [٢٧] النهاية في غريب الحديث ١-١٤٨[٢٨] شرح الطيبي على المشكاة ٤-١٢٧٧[٢٩] غريب الحديث ١- ٢ [٣٠] المغني مع الشرح الكبير ٢-١٤٧، ومعالم السنن للخطابي مع مختصر المنذري ١-٢١٣ [٣١] عارضة الأحوذي ٢-٢٧٩ [٣٢] المجموع ٤-٥٤٣ [٣٣] حديث فضل التبكير إلى الجمعة رواية ودراية مجلة الجندي المسلم العدد ١١٩[٣٤] انظر تفسير الطبري ٥٣٣/٢٤ [٣٥] المصدر السابق. [٣٦] المصدر السابق [٣٧] الصيام ورمضان في السنة والقرآن لعبد الرحمن حسن حبنكه (ص١٨٣) [٣٨] رواه البخاري (٢٨/١) كتاب الإيمان باب قيام ليلة القدر من الإيمان رقم (٣٥)، ومسلم (٢٣٥/١)، واللفظ له، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح رقم (٧٥٩) [٣٩] شرح صحيح البخاري لابن بطال (٥٩/١) [٤٠] شرح صحيح مسلم للنووي (٣٩/٦) إكمال المعلم للقاضي عياض (١١٢/٣) [٤١] رواه الترمذي (٥٣٤/٥) كتاب الدعوات، باب حدثنا يوسف بن عيسى رقم (٣٥١٣). وابن ماجه (١٢٦٥/٢) كتاب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية. وأحمد في المسند (١٧١/٦، ١٨٢، ١٨٣). والحاكم (٥٣٠/١)، قال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح"، وقال الحاكم: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ولم يتعقبه الذهبي.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

منهج العلماء الربانيين في صيانة العلم

العلماء الربانيون في كل عصر صورة صادقة للاقتداء برسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه الكرام، في رسوخ الإيمان، وصدق اللهجة، والتعالي على عرض الدنيا، والتفاني في مرضاة الله، والجهر بكلمة الحق مهما كان ثمنها غاليا.

وأول ما يشد الانتباه عند مطالعة سيرتهم المباركة هذا المنهج الصارم الذي ألزموا به أنفسهم لصيانة العلم، فما طلبوه ابتداءً لعرض من الدنيا، أو للتعالي على الناس وازدرائهم، وما بذلوه رخيصا تحت أقدام الملوك والأمراء في ساحات الحكم التي قد تمتلئ بطالبي الزلفى من المنافقين والمداهنين، وتذوب فيها أقوى المبادئ وأرسخ القيم.

الإخلاص في تعلم العلم وتعليمه

إخلاص العمل لله من أركان التربية الإيمانية التي تبناها الإسلام، فلقد ذم الله تعالى من أراد بعمله غير وجهه الكريم، وعده باباً من أبواب الشرك، وأعلم الناس أنه سبحانه طيب لا يقبل إلا ما كان طيبا وأريد به وجهه، قال تعالى: {فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا} [الكهف: ١١٠]

ولما كان للعلم رفعة يرفع بها قدر صاحبه ولو كان وضيعا، كان الإخلاص فيه عزيزا، لذلك حذر الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– من الرياء، فيه فقال –صلى الله عليه وسلم–: (من طلب العلم ليباهي به العلماء، ويماري به السفهاء، أو ليصرف وجوه الناس إليه فهو في النار) [رواه ابن ماجة]

وقال –صلى الله عليه وسلم–: (من تعلم علما مما يبتغي به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة) [رواه أبو داود]

لذلك كان «الإخلاص» أول الطريق في منهج العلماء الربانيين، فزينوا العلم ولم يتزينوا به، قال الشافعي: وددت أن الخلق تعلموا هذا (يقصد علمه) ولا ينسب إلى حرف منه.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقيل عن الإمام أبو الحسن الماوردى شيخ الشافعية أنه لم يظهر شيئا من تصانيفه في حياته، وجمعها في موضع، فلما دنت وفاته قال لمن يثق به: الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي، وإنما لم أظهرها لأني لم أجد نية خالصة، فإذا عاينت الموت ووقعت في النزع فاجعل يدك في يدي، فإن قبضت عليها وعصرتها فاعلم أنه لم يقبل مني شيء منها، فاعمد إلى الكتب وألقها في دجلة، وإن بسطت يدي ولم أقبض على يدك فاعلم أنها قد قبلت، وأنى قد ظفرت بما كنت أرجوه من النية.

قال ذلك الشخص: فلما قارب الموت، وضعت يدي في يده، فبسطها ولم يقبض على يدي، فعلمت أنها علامة القبول، فأظهرت كتبه بعده.

ودفن بشر بن الحارث بضعة عشر ما بين قمطرة وقوصره من الكتب، وكان يقول: أنا أشتهى أن أحدث ولو ذهبت عنى شهوة الحديث لحدثت (وهذا لأن التلذذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد أعظم لذة من كل تنعم في الدنيا، فمن أجاب شهوته فهو من أبناء الدنيا وأهل الرياء)

وعن الأعمش قال: كنت عند إبراهيم النخعي وهو يقرأ في المصحف، واستأذن عليه رجل، فغطى المصحف، وقال: لا يرى هذا أنني أقرأ فيه كل ساعة.

وما كان أشد استنكارهم لعالم طلب العلم للدنيا، قال شميط بن عجلان: يعمد أحدهم فيقرأ القرآن ويطلب العلم حتى إذا علمه أخذ الدنيا فضمها إلى صدره، وحملها على رأسه، فنظر إليه ثلاثة ضعفاء: امرأة ضعيفة، وأعرابي جاهل، وأعجمي، فقالوا: هذا أعلم بالله منا لو لم ير في الدنيا ذخيرة ما فعل هذا، فرغبوا في الدنيا وجمعوها.

وقال ابن المبارك: طلبنا العلم للدنيا، فدلنا على ترك الدنيا.

أما الشهرة بين الناس بالعلم والصلاح فقد كانوا أشد فرارا منها من فرارهم من الأسد الضاري، قال عبد الله بن المبارك: كن محبا للخمول كراهية الشهرة، ولا تظهر من نفسك أنك تحب الخمول فترفع نفسك، فإن دعواك الزهد من نفسك هو خروجك من الزهد، لأنك تجر إلى نفسك الثناء والمدحة.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وعن الحسن قال: كنت مع ابن المبارك يوما فأتينا على سقاية والناس يشربون منها، فدنا منها ليشرب ولم يعرفه الناس، فزحموه ودفعوه، فلما خرج قال لي: ما العيش إلا هكذا (يعنى حيث لم نعرف ولم نوقر)

وقال بشر الحافي: غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه، وإخفاء مكانه عنهم.

وعن الحسين بن محمد البغدادي قال: سمعت أبى يقول: زرت بشر بن الحارث الحافي، فقعدت معه مليا، فما زادني على كلمة قال: ما أتقى الله من أحب الشهرة.

وقال جعفر بن محمد الصادق: عزت السلامة، حتى لقد خفي مطلبها، فإن تكن في شيء فيوشك أن تكون في الخمول، فإن طلبت في الخمول ولم توجد فيوشك أن تكون في التخلي، وليس كالخمول، فإن طلبت في التخلي ولم توجد فيوشك أن تكون في الصمت، وليس كالتخلي، فإن طلبت في الصمت ولم توجد فيوشك أن تكون في كلام السلف الصالح، والسعيد من وجد في نفسه خلوة يشتغل بها.

ورغم كل هذا البغض للشهرة والحب للخمول، ما قصر العلماء الربانيون في تعليم الناس، وما كلت هممهم في تبليغ الحق، فنفع الله بهم الغنى والفقير والشريف والبسيط والعالم والجاهل.

حدث الإمام أبو حنيفة النعمان عن نفسه قال: أخطأت في خمسة أبواب من المناسك بمكة فعلمنيها حجام (أي حلاق) وذلك أنى أردت أن أحلق لأخرج من الإحرام، فأتيت حلاقا، وقلت: بكم تحلق لي رأسي؟ فقال: هداك الله، النسك لا يشارط فيه، اجلس واعط ما يتيسر لك. فخجلت وجلست غير أنى جلست منحرفا عن القبلة، فأومأ إلى بأن استقبل القبلة، ففعلت وازددت خجلا على خجلي ثم أعطيته رأسي من الجانب الأيسر ليحلقه، فقال: أدر شقك الأيمن فأدرته، وجعل يحلق رأسي وأنا ساكت أنظر إليه وأعجب منه، فقال لي: مالي أراك ساكتا، كبر. فجعلت أكبر حتى قمت لأذهب، فقال: أين تريد؟ فقلت: أريد أن أمضى إلى رحلي. فقال: صل ركعتين ثم امض إلى حيث تشاء، فصليت ركعتين، وقلت في نفسي ما ينبغي أن يقع مثل هذا من حجام إلا إذا كان ذا علم، فقلت له: من أين لك ما أمرتني به من المناسك؟ فقال: لله أنت، لقد رأيت عطاء بن أبى رباح يفعله، فأخذته عنه، ووجهت إليه الناس.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

إكبار أهل العلم للعلم

لقد قعد العلماء الربانيون رضوان الله عليهم قاعدة جامعة فقالوا: «العلم يسعى إليه، ولا يسعى إلى أحد» وأخذوا أنفسهم بالعمل بهذه القاعدة الجليلة، فصانوا أنفسهم وصانوا العلم، ولم يأتوا إلى أبواب الملوك، قال الإمام مالك رحمه الله للرشيد: أدركت أهل العلم يؤتون ولا يأتون، ومنكم خرج العلم وأنتم أولى الناس بإعظامه، ومن إعظامكم له ألا تدعوا حملته إلى أبوابكم.

وهذا لأن العالم المخالط للملوك لا يخلو عن تكلف في طيب مرضاتهم واستمالة قلوبهم، وربما كانوا ظلمة فيجب عليه الإنكار عليهم، وتضيق صدرهم بإظهار ظلمهم وتقبيح فعلهم، فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تجملهم فيزدرى نعمة الله عليه، أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهنا لهم، أو يتكلف في كلامه كلاما لمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح، أو أن يطمع في أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت، وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح للشرور، وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط قال -صلى الله عليه وسلم-: (من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان أفتتن) [رواه الترمذي]

وقال حذيفة: إياكم ومواقف الفتن قيل. وما هي؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول فيه ما ليس فيه.

وقال بشر الحافي: ما أقبح أن يطلب العالم فيقال هو باب الأمير.

وقال سعيد بن المسيب: إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحترزوا منه فإنه لص.

قدم الخليفة عبد الملك بن مروان المدينة فامتنعت منه القائلة واستيقظ، فقال لحاجبه: امض إلى مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وادع لنا أحد العلماء ليحدثنا. فمضى الحاجب إلى المسجد، فإذا سعيد بن المسيب في حلقة له، فقام الحاجب حيث ينظر إليه سعيد ثم غمزه وأشار إليه بإصبعه، فلم يلتفت إليه سعيد ولم يأبه له، فاقترب منه، وقال له: ألم ترني أشير إليك. قال سعيد: وما حاجتك؟ قال: استيقظ أمير المؤمنين، فقال انظر في المسجد أحد من حداثي فأتني به. فقال له سعيد: ما أنا من حداثه. فقال الحاجب: ولكنه يبغى محدثا يحدثه. فقال سعيد: إن

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

من يبغي شيئا يأتي إليه، وإن في حلقة المسجد متسعا له إذا كان راغبا في ذلك، والحديث يؤتى إليه ولكنه لا يأتي. فعاد الحاجب وقص ما حدث على الخليفة، فما كان من عبد الملك بن مروان إلا أن قال: ذاك سعيد بن المسيب فدعه.

ومن صيانة أهل العلم له ما رواه الخطيب رحمه الله بسنده عن حمدان بن الأصبهاني قال: كنت عند شريك فأتاه بعض ولد المهدي، فاستند إلى الحائط وسأله عن حديث، فلم يلتفت إليه، فأعاد عليه فلم يلتفت إليه، فقال: كأنك تستخف بأولاد الخلافة. قال: لا، ولكن العلم أزين عند أهله من أن يضيعوه. قال: فحثا على ركبتيه ثم سأله، فقال شريك: هكذا يطلب العلم.

زكاة العلم القيام بحقه

أعظم حق للعلم على العلماء الربانيين هو بيانه للناس، فيتعلم الجاهل ويرشد الضال، قال تعالى: {وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه} [آل عمران:١٨٧] قال الحسن وقتادة: هي في كل من أوتى علم شيء من الكتاب، فمن علم شيئا فليعلمه، وإياكم وكتمان العلم فإنه هلكة.

وقال محمد بن كعب: لا يحل لعالم أن يسكت على علمه، ولا للجاهل أن يسكت على جهله.

وهذا البيان يشمل إظهار كلمة الحق ولو في أحلك المواقف، ومهما كانت النتائج والتبعات، قال تعالى: {الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور} [الحج:٤١]

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (إن من أمتي قوما يعطون مثل أجور أولهم ينكرون المنكر) [رواه أحمد].

جاء في كتاب (الإمامة والسياسة): دخل سفيان الثوري على أبى جعفر المنصور فأمره ونهاه، فقال له أبو جعفر: ها هنا يا أبا عبد الله إلي إلي أدن منى.

فقال: إني لا أطأ ما لا أملك ولا تملك.

فقال أبو جعفر: يا غلام ادرج البساط، وارفع الوطاء. فتقدم سفيان فصار بين يديه، وقعد ليس بينه وبين الأرض شيء، وهو يقول: {منها خلقناكم وفيها نعيدكم

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ومنها نخرجكم تارة أخرى} فدمعت عينا أبى جعفر ثم تكلم سفيان دون أن يستأذن، فوعظ وأمر ونهى وذكر وأغلظ في قوله.

فقال له الحاجب: أيها الرجل أنت مقتول، فقال سفيان: وإن كنت مقتولا فالساعة.

فسأله أبو جعفر عن مسألة فأجابه ثم قال سفيان فما تقول أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله ومال أمة محمد –صلى الله عليه وسلم– بغير إذنهم قد قال عمر في حجة حجها وقد أنفق ستة عشر دينارا هو ومن معه: ما أرانا إلا وقد أجحفنا ببيت المال. وعن ابن مسعود أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: (رب متخوض في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه له النار غدا)

فقال أبو عبيدة الكاتب: أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا؟! فقال له سفيان: اسكت، فإنما أهلك فرعون هامان، وهامان فرعون. ثم خرج سفيان.

فقال أبو عبيدة الكاتب: ألا تأمر بقتل هذا الرجل فوالله ما أعلم أحدا أحق بالقتل منه؟

فقال أبو جعفر أسكت فوالله ما بقى على الأرض أحد اليوم يستحيا منه غير هذا ومالك بن انس.

ولما وقعت الحرب بين مصر والحبشة، وتوالت الهزائم على مصر لوقوع الخلاف بين قواد جيوشها، ضاق صدر الخديوي إسماعيل لذلك، فركب يوما مع شريف باشا وهو محرج، فأراد أن يفرج عن نفسه فقال لشريف باشا: ماذا تصنع حينما تلم بك ملمة تريد أن تدفعها؟

فقال يا أفندينا: إن الله عودني إذا حاق بي شيء من هذا أن ألجأ إلى صحيح البخاري، يقرؤه لي علماء أطهار الأنفاس، فيفرج الله عني.

فكلم الخديوي شيخ الأزهر وكان الشيخ العمروسي، فجمع له من صلحاء العلماء جما أخذوا يتلون في البخاري أمام القبلة القديمة في الأزهر، ومع ذلك ظلت أخبار الهزائم تتوالى، فذهب الخديوي ومعه شريف باشا إلى العلماء، وقال لهم: محنقا

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

إما أن هذا الذي تقرءونه ليس بصحيح البخاري أو أنكم لستم العلماء الذين نعهدهم من رجال السلف الصالح، فإن الله لم يدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئا.

فوجم العلماء لذلك، وابتدره شيخ من آخر الصف، وقال له: منك يا إسماعيل فإنا روينا عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: (لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم) وانصرف الخديوي ومعه شريف باشا ولم ينبسا بكلمة.

وأخذ العلماء يلومون القائل ويؤنبونه، فبينما هم كذلك إذا بشريف باشا قد عاد يسأل: أين الشيخ القائل للخديوي ما قال؟

فقال: أنا. فأخذه وقام، وانقلب العلماء بعد أن كانوا يلومون الشيخ يودعونه وداع من لا يأملون أن يرجع، وسار شريف باشا بالشيخ إلى أن دخلا على الخديوي في قصره، فإذا به قاعد في البهو وأمامه كرسي أجلس عليه الشيخ، وقال: أعد يا أستاذ ما قلته لي في الأزهر، فأعاد الشيخ كلمته، وردد الحديث وشرحه.

فقال له الخديوي: وماذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء؟ فأخذ الشيخ يعدد له بعض المنكرات التي تجرى في الدولة بلا إنكار ثم قال فكيف تنتظر النصر من السماء؟!

فقال الخديوي: وماذا نصنع وقد عاشرنا الأجانب وهذه مدنيتهم؟ قال الشيخ إذن فما ذنب البخاري؟ وما حيلة العلماء؟ .. ففكر الخديوي مليا وأطرق طويلا ثم قال صدقت. وأمر فرتبت له في الرزنامجة ثلاثون جنيها.

ما أكرم هذه النفوس التي كانت صغيرة في عيون أنفسها كبيرة عند الله والناس، وما أجل هذا التاريخ الذي ظفر بهؤلاء الأفذاذ من روائع الرجال .. نضر الله هذه الوجوه النبيلة الكريمة، وجزاها عن الإسلام والمسلمين خيرا، فما عرف تاريخ الإنسانية أتقى ولا أنقى منها.

المصادر

إحياء علوم الدين، الغزالي

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

صورة حياة التابعين، د/ عبد الرحمن رأفت الباشا

الأتقياء الأخفياء، د/ سعيد عبد العظيم

صلاح الأمة في علو الهمة، د/ سيد العفاني

آفات العلم، د/ محمد سعيد رسلان

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

مواقف ليست من الغيبة

الغيبة من أشد آفات النفس الخبيثة، فهي تسبب العداوة والبغضاء والتقاطع والتدابر بين الناس، وتشغل المرء بعيوب الخلق وتُنسيه الانشغال بعيوبه، كما أنها اعتراض ضمني على قدر الله تعالى في خلقه.

وقد فشت آفة الغيبة في الناس فلا يكاد يخلو منها بر ولا فاجر ولا عالم ولا جاهل إلا من رحم الله تعالى، بل قد تمكن الشيطان في التدخل في هذه الجهة وأجلب بخليه ورجله من هذه الوجوه.

ولا يخفى على كل عاقل ما في كثرة مخالطة الناس من تفشي الغيبة، خاصة وأن وقعها على النفس سار لاسيما إذا كان المستغاب مكروها أو عدواً، فإن سلم المخالط من القول بالغيبة لم يسلم من المشاركة فيها، وإن سلم من المشاركة فيها، لم يسلم من السكوت عليها وضرورة إنكارها لمن كان في مجلس غيبة، وإلا فيفارق ذلك المجلس إن لم يستطع الإنكار، وإن لم يقدر على مفارقة المجلس اشتغل بذكر أو غيره.

لقد تساهل الناس في الغيبة لأنها بطبيعتها سهلة لينة لا تكلف مشقة سوى تحريك اللسان في الفم لاسيما إذا كان المستغاب عدواً لمن في المجلس أو لبعضهم لأنهم يتشفون بذكر معايبه ويتلذذون بما يسمعون عنه من سوء ويذكر به من نقص، كما يتلذذ الظمآن بالماء البارد ليطفي به حرارة جوفه ويبل به صداه.

لكنها في الحقيقة انتقام عاجز وسلاح في يد جبان لأن المغتاب دائماً ينهزم عندما يعلم بحضور المستغاب أو أحد محبيه وربما أبدل هجاءه بمدح وذمه بثناء.

وحد الغيبة بينه –صلى الله عليه وسلم– في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أتدرون ما الغيبة؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (ذكرك أخاك بما يكره) قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته).

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

لكن ليس هذا على إطلاقه، بل ذكر العلماء من الأمور التي ليست بغيبة ست حالات، جمعها محمد بن عُوجان (١) في أبيات شهيرة:

القدح ليس بغيبة في ستة ... متظلمٍ ومعرف ومحذر

ومجاهر فسقا ومستفت ومن ... طلب الإعانة في إزالة منكر

– (الأول): التظلُّم، فيجوز للمظلوم أن يتظلَّم إلى السلطان والقاضي، وغيرهما ممَّن له ولاية، أو قدرة على إنصافه من ظالمه فيقول: "ظلمني فلان بكذا."

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْكُو جَارَهُ، فَقَالَ له: «اذْهَبْ فَاصْبِرْ» فَأَتَاهُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَقَالَ: «اذْهَبْ فَاطْرَحْ مَتَاعَكَ فِي الطَّرِيقِ» فَطَرَحَ مَتَاعَهُ فِي الطَّرِيقِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ فَيُخْبِرُهُمْ خَبَرَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَلْعَنُونَهُ: فَعَلَ اللَّهُ بِهِ، وَفَعَلَ، وَفَعَلَ، فَجَاءَ إِلَيْهِ جَارُهُ فَقَالَ لَهُ: ارْجِعْ لَا تَرَى مِنِّي شَيْئًا تَكْرَهُهُ [أبو داود]

– (الثاني): التعريف، فإذا كان الإنسان معروفاً بلقب، كالأعمش (سليمان بن مهران أبو محمد) والأعرج (عبد الرحمن بن هرمز، وهو من أشهر الرواة عن أبي هريرة)، والأصم، والأعمى، والأعور (مسلم بن كيسان) والأحول (عاصم بن سليمان) .. وغيرهم، جاز تعريفهم بذلك، ويحرم إطلاقه على جهة التنقيص، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى.

بل وجد في المحدثين من نسب إلى أمه وهو إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم الأسدي المشهور بـ (إسماعيل بن عُليه)، وكان يقول من نسبني إلى أمي فقد اغتابني، ولكن علماء الحديث ذكروه بأمه لشرفه، لأن إسماعيل بن إبراهيم في الرواة كثير.

وكان ابن معين رحمه الله أحد الحراس الأشداء الأقوياء لسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ولَكَمْ أضرَّ بالكذابين والمغفلين وتوجعوا منه كثيراً! ومع ذلك كان لا يفتأ أن يقذف بالسهام إليهم، ولا يعبأ بنكيرهم ولا بكلامهم. .. قيل له يوماً: ألا تخشى أن يكون هؤلاء الذين تكلمت فيهم خصماءك عند الله يوم القيامة؟ فقال لهم: لأن يكون هؤلاء خصمائي أحبَّ إلي من أن يكون الرسول –صلى الله عليه وسلم– خصمي، يقول لي: «لِمَ لَمْ تَذُبَّ الكذِبَ عن سنتي؟»

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وهذا بعكس حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قُلْتُ للنبيّ صلى الله عليه وسلم: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كذَا وَكَذَا. [قَالَ بعضُ الرواةِ: تَعْنِي قَصيرَةً]، فقالَ: (لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ البَحْرِ لَمَزَجَتْهُ !) لأن الكلام هنا في معرض التنقيص.

– (الثالث): تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه: منها جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة، ولذلك صح عن شعبة بن الحجاج أنه كان يأتي عمران بن حُدَيرٍ ويقول له: «تعال نغتاب في الله ساعة» أي نذكر مساوئ أصحاب الحديث، كقول علماء الجرح والتعديل عن الرواة: هذا مدلس، وهذا مختلط، وهذا وضاع أو كذاب.

ومنها المشاورة في مصاهرة إنسان، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته، أو غير ذلك، أو مجاورته ويجب على المشاوَر ألاَّ يخفي حاله، بل يذكر المساوئ التي فيه بنية النصيحة، ومنها إذا رأى متفقهاً يتردّد إلى مبتدع، أو فاسق يأخذ عنه العلم، وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله، بشرط أن يقصد النصيحة، وهذا ممّا يُغلط فيه، وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد، ويُلبس الشيطان عليه ذلك، ويُخيل إليه أنه نصيحة فليفطن لذلك، ومنها أن يكون له ولاية، لا يقوم بها على وجهها: إما بأن لا يكون صالحاً لها، وإما بأن يكون فاسقاً، ونحو ذلك، فيجب ذكر ذلك، لمن له عليه ولاية عامة ليزيلها، ويولي من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله، ولا يغتر به، وأن يسعى إلى أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به.

– (الرابع): أن يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر، وجباية الأموال ظلماً، وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يُجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب، إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه.

– (الخامس): الاستفتاء، فيقول للمفتي: ظلمني أبي، أو أخي، أو زوجي، أو فلان بكذا، فهل له ذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه، وتحصيل حقي، ودفع الظُّلم؟ ونحو ذلك، فهذا جائز للحاجة، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجل أو شخص، أو زوج، كان من أمره كذا؟ فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين، ومع ذلك فالتعيين جائز، كما في حديث هند أَنَّ هِنْدَ بِنْتَ عُتْبَةَ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَبَا

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي، إِلاَّ مَا أَخَذْتُ مِنْهُ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ فَقَالَ: (خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ).

لكن هناك فرق بين القضاء والاستفتاء، فالقضاء ملزم عكس الفتوى فهي غير ملزمة، والقاضي لابد أن يسمع من الطرفين، عكس المستفتي فإنه يفتي بناء على حكاية الواحد وظاهر الكلام.

فعن زينب بنت أبي سلمة، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: (إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فأقضي له بنحو مما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئا فإنما أقطع له قطعة من النار).

- (السادس): الاستعانة على تغيير المنكر، وردّ العاصي إلى الصواب، فيقول لِمَن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا، فازجره عنه، ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حراما.

الحواشي

(١) محمد بن عُوجان المالكي: ولد بالقدس الشريف، ونشأ في عفة، وصيانة، وديانة، ورزانة، وحفظ القرآن العظيم، والشاطبية، والمنهاج للنووي، وعرضهما على شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني، وقاضي القضاة محب الدين بن نصر الله الحنبلي، وشيخ الإسلام سعد الدين الديري، وشيخ الإسلام عز الدين المقدسي، ثم حفظ ألفية ابن مالك، وألفية الحديث، وقرأ القرآن بالروايات على الشيخ أبي القاسم النويري، وسمع عليه، وقرأ في العربية والأصول والمنطق والعروض واصطلاح أهل الحديث، ورحل إلى القاهرة سنة أربع وأربعين، وأخذ من علمائها منهم ابن حجر، وكتب له إجازة وصفه فيها بالفاضل البارع الأوحد، وفي سنة إحدى وثمانين توجه إلى القاهرة واستوطنها، وتردد عليه الطلبة والفضلاء، وانتفعوا به، وعظمت هيبته، وارتفعت كلمته، ثم عاد إلى بيت المقدس بعد أن ولاه السلطان قايتباي الأشرف مدرسته المحدثة بها في سنة تسعين وثمانمائة.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ميراث الصمت والملكوت

في كتاب «ميراث الصمت والملكوت» يستجمع الكاتب «عبد الله بن عبد العزيز الهدلق» مجموعة مقالات كتبها على امتداد سبعة عشرة عاما، يقول عنها: قد كان من أسمى مقاصدي المرجوة من نشرها، أن أكشف لكثير من القراء عما لمنهج التفكير والتنوع المعرفي والبيان الوضيء من أثر بالغ على بنية العقل ونوع الخطاب.

وإليك عزيزي القارئ محطات من هذا السفر الفكري الرائع، لعلها تجمع شتات ما ذكره المؤلف من خلاصة فكرة وروائع ذهنه:

** {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً} [الإنسان: ١]

هذا الذي لم يكن شيئا مذكورا، ويحه يحب الذكر !!

** "إنني أنتمي إلى جيل الرهانات الخاسرة، فجيلنا قد راهن على القومية، وعلى الثورة، وعلى الاشتراكية، وهو يراهن اليوم على الديمقراطية، لا لقيم ذاتية في هذه المفاهيم، بل كمطايا إلى النهوض العربي، وإلى تجاوز الفوات الحضاري" طرابيشي

** الفكر حين يتحول إلى قوة تاريخية.. في قصة الحضارة: "أن امرأة تدعى نينون دلّانكلو عاشت في عصر لويس الرابع عشر ١٦٤٣-١٧١٥ حياة فاضحة متهتكة .. إلا أن تلك الحياة لم تمنعها من أن تلتقط قدرا من المعرفة لا يستهان بها، وأن تفتح صالونا أدبيا تقاطر إليه أرباب الأدب والفن والسياسة، حتى أذهلت باريس كلها بما أبدت من ذكاء ومعرفة، بل إنها أثارت فضول الملك لويس نفسه فاستمع إليها في قصره من وراء ستار.. عُمِّرت نينون بعد أصدقائها كلهم تقريبا، فلما دنت منيتها تنافس اليسوعيون والجانسنيون على هدايتها، فاستسلمت لهم في لطف وماتت في أحضان الكنيسة.

لم تترك في وصيتها –على ما بلغته من ثراء– سوى مال يسير لجنازتها حتى تكون أبسط ما يستطاع، ولكنها كتبت: أطلب في تواضع إلى المسيو لاروية –وكان

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وكيلها- أن يسمح لي بأن أترك لابنه الذي يتلقى العلم عند اليسوعيين ألف فرنك ليشتري بها كتبا"

قال ديورانت: واشترى الابن الكتب، وقرأها، وأصبح فولتير.

** إن التجربة الغربية تحد حضاري حافز، وليست مثلا أعلى أغلقته صيرورة التاريخ.

في شهر نيسان (أبريل) من عام ١٩٣٠ عقدت في الجامعة المصرية مناظرة بين عباس العقاد وسلامة موسى بشأن بيت الشاعر الانجليزي رديارد كبلنج: "الشرق شرق، والغرب غرب .. ولن يلتقي الاثنان" وقد أيد العقاد رأي كبلنج ونال ٢٢٨ صوتا، في حين عارضه سلامة موسى ونال ١٣٢ صوتا.

** القراءة بديل عن الحياة.. قال جرامشي: "ينتج عن الهيمنة الثقافية للبرجوازية: أن أفكار الطبقة المهيمنة تصبح بقوة الأشياء أفكار المجتمع كله، فلا يعود أحد قادر على معارضتها.. وحدهم المتعلمون جدا، وأصحاب الكفاءات الفكرية العالية، هم الذين يملكون الوظيفة الاجتماعية للمثقفين، وظيفة تغيير الشعوب.. ".

** لا شيء يشوه الأداء العلني للمثقف أكثر من تغيير الآراء تبعا للظروف، والتزام الصمت الحذر.

** فأنا في إيمان عميق بقدرة هذه الكلمة الصادقة -وحدها- على الرقي بالوعي والكرامة والوجدان في عالم الإنسان الذليل البائس، بما لا تقدر عليه الأنواع الأخرى الكاثرة من سائر ضروب النشاط الإنساني.. "المثقف في حاجة إلى الإيمان، والجماهير في حاجة إلى الوعي".

** يظل أهل البيوتات هم أهل البيوتات، فالتفاحة لا تسقط بعيدا عن شجرتها.

** وهناك آخر لا يقف إحساسه بالمسئولية عند حدود بيته، بل يتعداه إلى الفئة التي ينتمي إليها، أو وطنه كاملا، هذا النوع هو الذي يتكون منه: وقود الثورات، أو سكان السجون، أو الباحثون عن المعرفة.. أحمد بهاء الدين

** بناء الإنسان لحصونه مقدم على دك حصون الآخرين، فالتسلح بالمعرفة يكون قبل ثقافة الردود.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** ليس كل ما يقال عنا غير صحيح، لا تكن على مبدأ أطباء موليير: "خير للمريض أن يموت على قوانين الطب من أن يشفى على خلافها" لا تكن على هذا المبدأ لئلا يطبق عليك أول ما يطبق.

قال بولنوف: "القدرة على الإصغاء إلى الآخر تعني أكثر من التقاط الإشارات الصوتية، بل تعني أكثر من فهم ما يقوله الآخر.. إنها تعني إدراك أن الآخر يود أن يقول لي شيئا، شيئا مهما بالنسبة لي، شيئا علي أن أفكر فيه، وقد يرغمني –إذا دعت الضرورة– على أن أغير رأيي".

** إنه ليمر بي اسم العالم والعالم فلا أكاد آبه.. ثم يمر ذكر ابن تيمية فيأخذني شيء لا أتبين مأتاه، رحم الله أبا العباس، فالكتابة عنه ضرب شديد من الوعي والمسئولية، لأنه يحتاج إلى مقياس خاص:

١/ كثير من تراث ابن تيمية لا يبتدأ به، وإنما ينتهي إليه.. فالعلوم يأخذ بعضها بحجز بعض، فهي كدرجات السلم كل واحدة تسلم إلى أختها، ولعل مما أضر ببعض طلبة العلم، أن أحدهم يعلق بسمعه أول ما يسلك طريق العلم اسم هذا العالم الكبير، وما لتراثه من الأهمية البالغة، فيغوص في عمقه وهو لمّا يتعلم السباحة على شاطئه بعد، فيؤذيه ذلك كثيرا.

٢/ ليست هناك شخصية حية حاضرة في بناء عقل ابن تيمية ولا تشكل وجدانه، فلا تراه يقول: وكان شيخنا، ودخلت مرة على فلان.. مما تراه فيما يذكره عنه ابن القيم مثلا، أو فيما يذكره كثير من الأعلام عن مشيختهم والآخذين عنهم.. لا أدري، لعل الله سبحانه لما أن أعد هذا الإمام لما هو بسبيله من هذا التجديد، وعصره على ما هو عليه من السوء، هيأ له ألا يتطامن عقله ولا وجدانه لسلطان أحد من مشيخته المعاصرين، فجاء منه هذا العقل الحر النزاع إلى الحق، الرافض للتقليد الأعمى. وهذا الوجدان الصافي الذي اغتسل بماء الوحي النقي، فلم تكدره تلك الأوضار التي كانت عالقة بكثير من أنفس أهل عصره.

٣/ تمنيت لو أن سيد قطب وعبد الوهاب المسيري –رحمهما الله– قد عرفا تراث ابن تيمية وأفادا منه، لا أجد له ذكرا ولا أثرا فيما كتباه.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

٤/ رأيت ابن تيمية في مداخل ردوده على أهل الفرق المخالفة، وأرباب الأهواء المضللة، يبالغ كثيرا في عرض معارفه، وما يحسنه من علوم هؤلاء.. أظن أنه –رحمه الله– كان يمارس نوعا من الإذلال المعرفي لخصوم الوحي، كأنه كان يقول لهم: هذا الذي تتحدثون عنه وتأخذون في شأنه، لم نطرحه جهلا به، فنحن أعرف به منكم، لكننا آثرنا الوحي عليه.

٥/ لابن تيمية سلطان بالغ الأثر على عقل قارئه، لما له من هذا الأسلوب السيال، والتدفق المعرفي المبهر، والحجة العقلية النافذة، والحماس المتقد لما يؤمن به.

٦/ كان ابن تيمية –رحمه الله– من كبار مثقفي عصره.

٧/ من أعظم المقاييس عندي للعمل الخالد: هو أنه العمل الذي لا تستطيع أن تتجاوزه مهما تركته وعدت إليه.. ثمة تراث يكون له أثر في نفس قارئه في مرحلة من مراحل عمره، لكنه حين يعود إليه بعد أن يقطع شوطا في العلم يشعر بأنه قد تجاوزه (هذا المنفلوطي يحبه المتأدب ويكرهه الأديب كما يقولون) لكن هناك أعمال لا تستطيع أن تتجاوزها مهما اكتسبت من معرفة وعدت إليها، وعندنا في التراث الإسلامي أمثلة لهذا: المغني لابن قدامة، فتح الباري، تراث ابن تيمية كله، وهذا لم يتأت لعالم من علماء الإسلام

**** بئس هذا الناس.. «إنهم يعرفون أنهم أكثر مما ينبغي، وأنه لابد أن يفترس بعضهم بعضا شأن العناكب في وعاء واحد» بلزاك**

هذه النفس الإنسانية غريبة النوازع والبدوات والأطوار.. ومن مفارقاتها أن قلمي لا يكون في أحسن حالاته إلا إذا ساءت نفسي.. ما بال قلمي لا يضيء إلا بنار روحي وَوَقد ضميري؟

ألا بئس هذا الناس.. ولولا دين وحياء لقلت بقلمي هكذا فكشفت عن وجوه تصدر في المجالس، فلما عاملتها خشيت منها على نعلي!

قال سفيان الثوري لعطاء الخفاف: "يا عطاء احذر الناس، وأنا فاحذرني"

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

كتب رسكن ذات مرة: في طريقي إلى المتحف البريطاني كل صباح، أجد وجوه الناس في الشارع تزداد فسادا يوما بعد يوم.

** لا يصرفني عن القراءة إلا دموع عيني من فرط الجهد، لم أكن أتنفس من رئتي كنت ألتقط أنفاسي من ثقوب الكلمات.. كانت كتب التراجم الذاتية مسلاة لروحي، أجد فيها العظة والعبرة والمتعة، وكنت أعثر فيها على لطائف من المعارف لا توجد في غيرها.

وجدت أن كل تجارب الإنسان في حياته قابلة للنجاح والفشل، لا يؤول شيء من تجارب حياته إلى غير هذين.. وأما معاملة الرب –جل وعلا– فإنها لا تقبل إلا النجاح ببرهان وثيق.

ما إن استمررت في القراءة في هذا الفن، ومطالعة هذه التراجم، حتى وجدتني أمام حقيقتين تطلان علي فلا تخطئهما العين في كل ترجمة ذاتية أقرأها:

١/ رأيت أن الذين قرأت تراجمهم الذاتية يجمعون كلهم على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأزمانهم وأعمارهم وأديانهم، وتفاضل تجاربهم، وتباين مشارب أنفسهم، وتنوع مطارح مقاديرهم: على أن الحياة نصب ومشقة، وأنهم ما نالوا ما نالوه منها إلا بالصبر والتجلد والمغالبة.

٢/ ثم رأيتهم –وهذا هو بيت القصيد من حديث التراجم هذا– يجمعون وفيهم: العالم والأديب، والمخرج والفيلسوف، والسياسي والقائد، والممثل والأستاذ، والرسام والمهندس، والتاجر والمريض، والسجين والفقير، ومن شئت وما شئت.. رأيتهم يجمعون كلهم على فساد طبيعة الإنسان، وسوء خلقه، وبشاعة مخبره، وخبث طويته، ورداءة صنفه.. وأنهم لم ينلهم من أوصاب هذه الفانية، وأدواء هذا العمر، وأتراح هذة الروح، أشد ولا أشق ولا أكثر إيلاما من صراع الإنسان وحسده وقبحة.

فمن كاذب لا يصدق إلا في أنه كاذب، وخائن لمن ائتمنه، ومتنكر لصديق أحوج ما يكون إليه، وظالم يطلب ما لا حق له فيه، وجاهل خابي الذهن فاتر الموهبة ينقم على هذا وذاك أن منّ الله عليهما بما حرمه منه.

** ألق دينارا في غيابة تاريخ من تواريخنا، ثم ابتعد وانظر كم عمامة تسقط عليه؟

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** قالت عمرة الفرغانية: ميراث الصمت: الحكمة والتفكير، ومن أنس بالخلوة مع العلم أورثه ذلك أنسا من غير وحشة.

** قال العقاد: الذاكرة ملكة مستبدة، تحفظ وتنسى على غير قانون ثابت.

** الشيخ زكريا الأنصاري كان إذا مرض استشفى بمطالعة كتب أهل العلم.

** الحافظ السيوطي ثار به صوفية الخانقاه التي كان يتولى نظارتها لأنه قال: إنكم لستم على شرط الواقف، فثاروا به وحملوه وألقوه في فسقية الماء بجبته وعمامته.. وأنه خرج من الماء وأصلح ثيابه ثم توجه إلى روضة المقياس فسكن هناك، وأغلق النافذة التي تجاه النيل، وألف كتابه «تأخير الظلامة إلى يوم القيامة» وانقطع بعدها هناك إلى التأليف حتى وفاته.

** من لا يدرس التاريخ يسخر منه التاريخ.

** يظل العلم مسئولية لا متعة، وفي صدق الالتجاء إلى الله سبحانه –ولاسيما أوقات السحر– منجاة من كثير من آلام الحياة، التي باتت تحطم فينا معنى الحياة.

** لم أقرأ فيما قرأت

١/ أعقل من هذه الكلمة لمحمد كرد علي: حفظ مسائل العلم التي قالها أهل العقول، لا تجعل ممن استظهرها عاقلا إن لم يكن ذا عقل.

٢/ ولا أشد إيلاما من هذا البيت لمحمود أبو الوفا:

أود أضحك للدنيا فيمنعني .. أن عاقبتني على بعض ابتساماتي

** عبد الوهاب المسيري قامة فكرية عالية لا شك، لكني آخذ عليه كثيرا:

١/ ماذا حين ينعت بالمفكر الإسلامي، ثم أجده قد تجاهل النص الشرعي، فاستبعده تماما من نتاجه المعرفي كله؟

أين الآيات وأحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة فيما كتبه عن اليهود؟

إنه ليس كل من التقى وإياك في النتيجة يصدر –لا محالة– عن مقدماتك

هو مفكر إذن بلا إسلامي: من يستبعد الوحي عن مصادر المعرفة، ويتمثل في تحليله الحضاري أحد المنهجين الفلسفيين: المثالية أو المادية.. جارودي، تشومسكي، إدوارد سعيد، المسيري..

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** كان مصطفى جواد يقول: إن التاريخ خير مرب للأمم الضعيفة.

وهذا حق إذا كانت تلك الأمم ذات تاريخ، فكيف وليس تاريخ كتاريخنا بالأمس، وليست أمة هي في الضعف إلى ما نحن عليه اليوم؟

** قال كارل بوبر: «وأنا على تمام الإدراك بأن العلم يخطئ كثيرا» هذا ما قاله أكبر فلاسفة العلم في النصف الثاني من القرن العشرين، فلا حاجة بنا إذن لتأليه هذا الذي يخطئ كثيرا {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ} [الحج:٦]

** ملأ الشاعر التوراتي محمود درويش الأرض صراخا عن الوطن والعروبة وأوراق الزيتون.. ثم فر فرار مخزيا من فلسطين إلى القاهرة، وخلف هذا كله وراءه، لم يقو – صاحب اليهودية «ريتا» التي كان «الإله» يسكن عينيها العسليتين– على ما كان يقوى عليه جيفارا والرفاق في أحراش بوليفيا، ولم يكن لدى من قال «فخذوا وقتكم لكي تقتلوا الله» وقت لكي يقتل رذال الناس ممن اغتصبوا أرضه وأزالوا عرضه.

وحفظا لماء الوجه فقد أصدر –آنذاك– الحزب الشيوعي الإسرائيلي الذي كان ينتمي إليه درويش بيانا بفصل هذا الثائر الناعم، بعد هروبه المخزي من ساحة النضال.

درويش الذي كان يقول:

وأنا ابن عوليس الذي انتظر البريد من الشمال

ناداه بحار ولكن لم يسافر

لجم المراكب وانتحى أعلى الجبال

يا صخرة صلى عليها والدي لتصون ثائر

أنا لن أبيعك باللآلئ

أنا لن أسافر

لن أسافر

لن أسافر!!

** المتدين إنما يتدين على طبيعته وخلقه، يتدين على مزاجه النفسي وإرثه من التجارب السيئة.. ثم هو لا ينفك عن تأثير النشأة، ووطأة الإلف والعادة، وغلبة روح العصر.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فإذا رأيت متدينا يأتي شيئا ليس من الدين الحق فحذار أن تحمل الدين جريرة هذه النفوس، لأن المتدين إنما يتدين على طبيعته وخلقه ومزاجه النفسي.

** قال أمين نخلة: وقوع الحافر على الحافر في المعاني يحصل بين لغة وأخرى حصوله في اللغة الواحدة، ولقد جاء للسيدة دي سيفينيه في بعض رسائلها إلى ابنتها وكانت مصدورة قولها –وهو من أشهر الرقائق التي تدور في كتب الأدب الفرنسي–: يا بنيتي إن صدرك يوجعني!!

وجاء في كتاب القضاة هذا الكلام لسهل بن علي، قال: كنت ألازم ابن نعيم القاضي وأجالسه وأنا يومئذ حديث السن، وكنت أراه يتجر بالزيت، فقلت له: وأنت أيضا تتجر؟ فضرب بيده على كتفي ثم قال: انتظر حتى تجوع ببطن غيرك! فقلت في نفسي: كيف يجوع إنسان ببطن غيره؟ فلما ابتليت بالعيال إذا أنا أجوع ببطونهم.

** كاد صاحب المعرفة أن يكون عرافا.

** الطبقات الكادحة هي التي تدفع من الثمن في مثل هذه التحولات الحادة ضعف ما كانت تدفعه من قبل.

** قال ابن القيم: ما ابيض رغيفهم حتى اسود فقيرهم.

** يكثر جريان المثل في كل مجتمع على ألسنة العامة من الناس، وكلما ارتفعت الطبقة الاجتماعية ضعف دوران المثل في كلامها، لأن المثل موروث تقليدي تتناقله الثقافة الشفهية الشعبية، وليس تتأكد هوية النخبة إلا بالقدر الذي تبتعد فيه عن هوية العامة.

** لأن الفقر تربة الرذيلة، ولأن الفقر يشوه القيم في نفس الفقير، ويورثه ميزانا غير صالح يزن به العادات والأخلاق، فإن الفقير يظن أن الأغنياء وأصحاب البيوتات لم يصبحوا كذلك إلا لقيم لا يملكها، فإذا انتقل إلى طبقة أعلى من طبقته، فإنه يحاول أن يقترب من أخلاق هذه الطبقة وعادتها.

** حسبكم الله ماذا فعلتم بعقولنا يا نقاد الجنون المعقول؟ زعمت أقلامكم أنها استيقظت «من عادة النوم على المجاد» ثم ماذا؟ وقفت ذليلة تتثاءب –بلباس النوم– على باب المنهج الغربي تتكففه نموذجه المعرفي..

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** حفل تراثنا العلمي الذي خلفه الأجداد بضرب غريب من التآليف، إن في صنعة الكتاب أو في التصرف بمادته، تفتقت عنه أذهان القوم فافتنا فيه ما شاءت لهم عبقرياتهم الفذة، لقد تجاوزوا به المادة العلمية وقيمتها فخرج إلى شيء من هذا الذي يسمونه الترف الفكري، نعم، قد يعيبه من أدرك قيمة الزمن في حياة هذا الإنسان، إلا أنه لابد واقف وقفة الدهش المتحير من نبوغ هذه العقول وإبداعها.

** ليس كرهبة الموت رهبة تلجم الأقلام، فكيف بها إن كانت مقرونة بجلال الأحياء.

** إن التاريخ ليصغر ويصغر عند أقدام العظماء حتى يكون العظيم تاريخا يؤرخ التاريخ به.

** الأنفس الكبيرة ليس يغريها في هذه الحياة إلا ما هو كبير، وليس ثمة ما هو أكبر من معنى العلم في أنفس الكبار.

** السهل كل أحد يستطيعه، ولكن الصعب هو الذي يحتاج إلى أن ينذر الإنسان له نفسه، وهنا تكون الإرادة.

** قال الدكتور عبد الرازق السنهوري: وإن شيئا يشترك فيه أكثر العظماء: حياة الشظف والفاقة التي عاشوها أول حياتهم، فنفخت في أخلاقهم روح الصلابة، فأذاقوا الحياة بأسهم بعد أن أذاقتهم بأسها.

** رحم الله الإمام محمد بن عبد الوهاب، لم يكن نبيا، لكنه قام بدعوة نبي.

** قال ابن المقفع: الإنسان طبع على طرائق لؤم، وغنما يتفاضل الناس فيه كغالبة طباع السوء.

** إن سر النجاح ومكمن الظفر في هذه الحياة يرجع إلى جملة أمور، أهمها في نظري: أن يكون الإنسان ذا تفكير عملي يذود به عن ذاته غائلة العجز النفسي، وأن يوازن بين طموحاته وإمكاناته، ثم يعمل ما يستطيعه بما تهيأ له. «استعن بالله ولا تعجز»

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** تريد الحق بلا توريب؟ إني حين أتأمل هذا السعي الناصب الذي يسعاه أكثر هذا الإنسان في حياتنا الدنيا، أجد أن جله إنما هو لتحقيق القيمة التي تحتفي بها الجماعة «الاحترام الجماعي».

** إياك أيها المبدع أن تنخدع بقولهم «إن الصعوبة إنما هي في البدايات فقط» .. كل مراحل الحياة صعبة، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} [البلد:٤] والشأن إنما هو في أن نتعامل مع الحياة على ما هي عليه، لا على ما نريدها أن تكون عليه، فإنها على ما نريدها أن تكون عليه عصية.

** القراءة تورث المرء اغترابا روحيا ولاسيما في المجتمعات الجاهلة، وتكسبه حسد أقرانه، لازدياد كمية الإنسان فيه، وتجاوزهم بنموه العقلي، وستفقده القدرة على إقامة العلائق الاجتماعية والتكيف مع الناس.

** وقفت على حقيقة غريبة من حقائق هذه الحياة، وهي أن حدة التأمل المرهقة، وسعة الاطلاع المذهلة، وتراكم الخبرة الباذخ، ربما انتهى بالإنسان في بعض نتائجه إلى ما يقرره العامي ابتداء دون أن يتكلف شيئا من هذا كله.

** أول خطوة لتحقيق الحلم الاستيقاظ منه.. يمكن للمرء أن يعود نفسه على القراءة والاطلاع بأن يقرأ ويطلع، أعني بأن يمارس ما يريد أن يكتسب عاداته، فإن كان عنده قابلية لمثل هذا فإنه سيلزمه وينتفع به.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

نعم الرب ربك يا إبراهيم

قال تعالى في سورة الأنبياء: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ{٦٨} قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ{٦٩} وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ{٧٠}

{حرقوه} أي أحرقوا إبراهيم بالنار {وانصروا آلهتكم} التي أهانها وكسرها {إن كنتم فاعلين} أي مريدين نصرتها حقاً وصدقاً.

ونفذوا ما أجمعوا عليه وجمعوا الحطب وأججوا النار في بنيان خاص وألقوه فيه بواسطة منجنيق لقوة لهبها وشدة حرها، وقال تعالى للنار ما أخبر به في قوله: {قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم} فكانت كما طلب منها، ولم تحرق غير وثاقه، الحبل الذي شدت به يداه ورجلاه.

قال كعب وقتادة والزهري: ما انتفع أحد من أهل الأرض يومئذ بنار، ولا أحرقت النار شيئاً يومئذ إلاّ وثاق إبراهيم، ولم تأت يومئذ دابّة إلاّ أطفأت عنه النار إلاّ الوزغ، فلذلك أمر النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بقتله وسمّاه فويسقاً.

وقال ابن أبي حاتم: عن جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ سَائِبَةَ، مَوْلَاةٍ لِفَاكِهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، أَنَّهَا دَخَلَتْ عَلَى عَائِشَةَ فَرَأَتْ فِي بَيْتِهَا رُمْحًا مَوْضُوعَةً، فَقَالَتْ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا تَصْنَعِينَ بِهَذَا؟ قَالَتْ: نَقْتُلُ بِهِ الْأَوْزَاغَ، فَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَخْبَرَنَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ دَابَّةٌ إِلَّا أَطْفَأَتِ النَّارَ عَنْهُ غَيْرَ الْوَزَغُ، فَإِنَّهُ كَانَ يَنْفُخُ عَلَيْهِ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِقَتْلِهِ [صحيح ابن حبان]

ولو لم يقل الله تعالى {وسلاماً} لكان من الجائز أن تنقلب النار جبلاً من ثلج ويهلك به إبراهيم عليه السلام.

وعن المنهال بن عمرو أنه قال: أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوما، وأنه قال: ما كنت أياما وليالي أطيب عيشا إذ كنت فيها، ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها. صلوات الله وسلامه عليه.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وروى أن والد إبراهيم لما رأى إبراهيم لم تحرقه النار وهو يتفصد عرقاً قال: نعم الرب ربك يا إبراهيم! ولذلك قال تعالى {وأرادوا به كيداً فجعلناهم هم الأخسرين}

وقيل: كان النمروذ يحتكر، فإذا احتاجوا اشتروا منه الطعام، فإذا دخلوا عليه سجدوا له، فلما دخل إبراهيم لم يسجد له، فقال: مالك لم تسجد لي؟! فقال: أنا لا أسجد إلا لربي. فقال له نمروذ: من ربك؟ قال: {ربي الذي يحيي ويميت}.

وفي رواية: أنه كان كلما جاء قوم قال من ربكم وإلهكم؟ فيقولون: أنت، فيقول: ميروهم، وجاء إبراهيم يمتار، فقال له: من ربك وإلهك؟ فقال: {ربي الذي يحيي ويميت}.

وقيل: كانت المحاجة بعد أن خرج إبراهيم من النار التي ألقاه فيها النمروذ، وذكروا أنه لما لم يُمْرِهِ النمروذ، فمر على رمل أعفر، فأخذ منه وأتى أهله ونام، فوجدوه أجود طعام، فصنعت منه وقربته له، فقال: من أين هذا؟ قالت من الطعام الذي جئت به فعرف أن الله رزقه، فحمد الله.

وقيل: مرّ على رملة حمراء، فأخذ منها، فوجدوها حنطة حمراء، فكان إذا زرع منها جاء سنبله من أصلها إلى فرعها حباً متراكباً.

قال تَعَالَى {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} [الزخرف:٨٤] أي أَنَّهُ إِلَه أَهْل الْأَرْض وَإِلَه أَهْل السَّمَاء .

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لأَبِي حَصِينٍ: كَمْ تَعْبُدُ إِلَهًا؟ قَالَ: سَبْعَةً، سِتًّا فِي الأَرْضِ، وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ قَالَ: فَأَيُّهُمْ تُعِدُّ لِرَغْبَتِكَ وَلِرَهْبَتِكَ؟ قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ قَالَ: يَا حُصَيْنُ، أَمَا إِنَّكَ إِنْ أَسْلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ تَنْفَعَانِكَ، فَلَمَّا أَسْلَمَ حُصَيْنٌ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَتَى النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي كَلِمَتَيْنِ اللَّتَيْنِ وَعَدْتَنِي قَالَ: قُلِ: (اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي) [الترمذي، حسن]

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة في قوله {وأحسنوا إن الله يحب المحسنين} قال: أحسنوا الظن بالله .

وعَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: "أَحْسِنُوا الظَّنَّ بِاللَّهِ، يَبَرَّ بِكُمْ".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقيل: أحسنوا الظن بالله في إخلافه عليكم.

وقيل: أحسنوا الظن بالله –عز وجل– في المغفرة لمن تاب.

وقيل: أحسنوا الظن بالله تعالى أنه يضاعف الحسنات ويخلف النفقة.

عَنْ جَابِرٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثٍ يَقُولُ: (أَحْسِنُوا الظَّنَّ بِاللَّهِ). أخرجه مسلم

وفي بعض الأحاديث كما رواه مسلم من حديث الأعمش عن أبي سفيان طلحة بن نافع عن جابر قال: قال رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى).

قَالَ الْقَاضِي: الْإِحْسَانُ مَأْخُوذٌ مِنْ الْحُسْنِ، وَهُوَ كُلُّ مَا مُدِحَ فَاعِلُهُ

والعجب إن قوما غرتهم الأماني أحسنوا الظن بالله وكذبوا، فلو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل، فإن حسن الظن من حسن العمل.

فأحسنوا الظن بالله تعالى وأكثروا الاستغفار، {وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف:٨٧] ولا تقنطوا من رحمة الله، فإنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

نعمة العافية

العافية نعمة الدنيا والآخرة، وهي من أجل أفضال الله على عبده، ومن رزق العافية فقد حاز نفائس الرزق، فالعافية مفتاح النعيم، وباب الطيبات، وكنز السعداء، والخير بدونها قليل ولو كثر، والعز بدونها حقير ولو شرف، والعافية لا يعدلها شيء من أمر الدنيا بعد الإيمان واليقين، لأن عافية الدين فوق كل عافية.

قال رجل لصاحبه الحكيم وهو يتأمل في القصور: أين نحن حين قسمت هذه الأموال؟! فأخذه الحكيم إلى المستشفى وقال له: وأين نحن حين قسمت هذه الأمراض؟!

فلا يُدرِكُ قيمةَ العافية إلا من فقَدَها في دينه أو دُنياه؛ فالعافيةُ إذا دامَت جُهِلَت، وإذا فُقِدَت عُرِفَت لذتها وانكشفت متعتها، وثوبُ العافية من أجمل لباس الدنيا والدين، وفيهما تلذُّ الحياةُ الدنيا ويحسُن المآلُ في الأخرى.

ولما دعا الحجاج بن يوسف الثقفي الأعرابي إلى مائدته قال له مرغبا: إنه طعام طيب، قال الأعرابي: والله ما طيّبه خبازك ولا طباخك، ولكن طيبته العافية.

ولذلك كان الدعاء بالعافية لا يعدله دعاء، وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يوصي به خاصته وأهل بيته؛ روى أحمد والترمذي عن العباس بن عبد المطلب –رضي الله عنه– قال: قلت يا رسول الله علمني شيئا أسأله الله، قال: (سل الله العافية) فمكثت أياما ثم جئت فقلت: يا رسول الله علمني شيئا أسأله الله، فقال لي: (يا عباس، يا عم رسول الله، سل الله العافية في الدنيا والآخرة). [رواه الترمذي]

وقال –صلى الله عليه وسلم–: (سلوا الله العفو والعافية، فإن أحدا لم يعط بعد اليقين خيرا من العافية) [رواه أحمد] فصلاح العبد لا يتم في الدارين إلا بالعفو واليقين، فاليقين يدفع عنه عقوبة الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال المناوي: في ضمن هذا الحديث إيماء إلى أن شدة حياء العبد من ربه توجب أنه إنما يسأله العفو لا الرضى عنه. إذ الرضى لا يكون إلا للمتطهرين من الرذائل بعصمة أو حفظ، وأما من تلطخ بالمعاصي فلا يليق به إلا سؤال العفو.

وعن عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– قال: لم يكن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يدع هؤلاء الكلمات حين يمسي وحين يصبح: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِيَ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي". [رواه ابن ماجة]

قال الزمخشري: "العفو أن يعفو عن الذنوب، والعافية أن يسلم من الأسقام والبلايا، والمعافاة أن يعفو الرجل عن الناس ويعفوا عنه فلا يكون يوم القيامة قصاص، وهي مفاعلة من العفو، وقيل هي أن يعافيك اللّه من الناس ويعافيهم منك".

وقال الحكيم: "العفو والعافية مشتق أحدهما من الآخر، إلا أنه غلب عليه في اللغة استعمال العفو في نوائب الآخرة والعافية في نوائب الدنيا، وذكرهما في الحديث في الدارين إيذاناً بأنهما يرجعان إلى شيء واحد، فيقال في محل العقوبة عفا عنه، وفي محل الابتلاء عافاه، ثم المطلوب عافية لا يصحبها أشر ولا بطر واغترار بدوامها".

وإذا كان العفو هو العمدة في الفوز بالجنة والنجاة من النار، فإن العافية هي العمدة في صلاح أمور الدنيا والسلامة من شرورها. وقد كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول حين يصبح وحين يمسى ثلاث مرات: (اللهم عافني في بدني، اللهم عافني في سمعي، اللهم عافني في بصري، لا إله إلا أنت) [رواه أبو داود]

قال إبراهيم بن أدهم: "إذا أردت أن تعرف الشيء بفضله فاقلبه بضده، فإذا أنت عرفت فضل ما أوتيت، فاقلب العافية بالبلاء تعرف فضل العافية".

قال أحد الصالحين: "أكثروا من سؤال العافية، فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه لا يأمن ما هو أشد منه، وإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء، وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ورأى بعضهم في يد محمد بن واسع قرحة فتوجع فقال له: "هذه من نعم اللّه حيث لم يجعلها في حدقتي".

والله تعالى يجيب من دعاه ويكشف السوء عمن ناداه .. يقول ابن الجوزي في صيد الخاطر: "وعلى الحقيقة ما الصبر إلا على الأقدار، وقل أن تجري الأقدار إلا على خلاف مراد النفس. فالعاقل من دارى نفسه في الصبر بوعد الأجر، وتسهيل الأمر، ليذهب زمان البلاء سالما من شكوى، ثم يستغيث بالله تعالى سائلا العافية. فأما المتجلد فما عرف الله قط، نعوذ بالله من الجهل به، ونسأله عرفانه، إنه كريم مجيب".

وقد كان سفيان الثوري رضي الله عنه يقول: "نحن لا نخاف البلاء وإنما نخاف مما يبدو منا حال البلاء من السخط والضجر ثم يقول: والله ما أدري ماذا يقع مني لو ابتليت؟ فلعلي أكفر ولا أشعر".

ومن ذلك قول سحنون: "فليس لي في سواك حظ، فكيفما شئت فاختبرني"! .. فابتلي بحصر البول، فصار يطوف ويقول لأطفال الكتاب: "ادعوا لعمكم الكذاب".

والنعمة إنما تدوم لمن يعرف قدرها، وإنما يعرف قدرها الشاكر. وفي الأثر: إذا مرض العبد ثم عُوفي فلم يزدد خيرا، قالت الملائكة عليهم السلام: هذا الذي داويناه فلم ينفعه الدواء!

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

نـور البصـيرة

ما إن يخبت قلب العبد لرب العالمين وتذوق جوارحه لذة النصب في العبادة حتى يفيض الكريم الوهاب على صاحب هذا القلب بنور البصيرة ، هذا النور الذي يرافقه في سيره إلى الله تعالى يهديه إلى مسالك الرشد فيفرق به بين الحق والباطل والصدق والكذب والسنة والبدعة إلى أن يرزقه الله عز وجل حسن الخاتمة.

إن هذا النور منحة ربانية لا تشاهدها الأبصار ولا تحدها الكلمات بل يحسها كل صادق في إيمانه ليعلم من فقد هذا النور أنه في العبادة يلعب، فما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من ظلمة القلب.

تعريف البصيرة

قال علماء اللغة البصيرة: الفطنة تقول العرب: أعمى الله بصائره أي فطنه وفي حديث ابن عباس أن معاوية لما قال لهم يا بنى هاشم تصابون في أبصاركم قالوا له وأنتم يا بنى أمية تصابون في بصائركم ، وإنه لبصير بالأشياء أي عالم بها ويقال للفراسة الصادقة فراسة ذات بصيرة(١) وقال الراغب: البصر يقال للجارحة الناظرة، كقوله تعالى: {وإذ زاغت الأبصار} وللقوة التي فيها ويقال لقوة القلب المدركة بصيرة نحو قوله تعالى (أدعو إلى الله على بصيرة) (٢).

أما في الشرع فيعرفها ابن القيم بقوله: هي نور يقذفه الله في القلب يفرق به بين الحق والباطل والصادق والكاذب.

وفي تعريف آخر له يقول: هي نور يقذفه الله في قلب يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل كأنه يشاهده رأى عين فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل وتضرره بمخالفتهم، وهذا معنى قول بعض العارفين: «البصيرة تحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به» (٣)

البصيرة في القرآن الكريم

قال تعالى: {أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون} [الأنعام:١٢٢]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فهذا مثل للذي هداه الله بعد الضلالة وأضاء بصيرته بنور الحجج والآيات يتأمل بها الأشياء فيميز بين الحق والباطل (ويجد الإنسان في قلبه هذا النور فتتكشف له حقائق الوجود وحقائق الحياة وحقائق الناس وحقائق الأحداث التي تجرى في هذا الكون وتجرى في عالم الناس ويجد الإنسان في قلبه هذا النور فيجد الوضوح في كل شأن وفي كل أمر وفي كل حدث، يجد الوضوح في نفسه وفي نواياه وخواطره وخطته وحركته ويجد الوضوح فيما يجرى حوله سواء من سنة الله النافذة أو من أعمال الناس ونواياهم وخططهم المستترة والظاهرة ويجد تفسير الأحداث والتاريخ في نفسه وعقله وفي الواقع من حوله كأنه يقرأ من كتاب ويجد الإنسان في قلبه هذا النور فيجد الوضاءة في خواطره ومشاعره وملامحه ويجد الراحة في باله وحاله وقاله ويجد الرفق واليسر في إيراد الأمور وإصدارها وفي استقبال الأحداث واستدبارها ويجد الطمأنينة والثقة واليقين في كل حالة وفي كل حين)(٤).

وقال تعالى: {قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ} [الأنعام: ١٠٤]، قال القرطبى: قد جاءكم آيات وبراهين يبصر بها ويستدل جمع بصيرة وهى الدلالة ووصفها بالمجيء لتفخيم شأنها إذ كانت بمنزلة الغائب المتوقع حضوره للنفس كما يقال جاءت العافية وقد انصرف المرض.(٥)

وقال تعالى: {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم} [الشورى:٥٢] «روحا» أي وحيا من أمرنا وسماه روحا لأنه تحيا به القلوب الميتة لما فيه من الهداية والعلم الذي هو كالحياة.

وقال تعالى: {واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار} [ص:٤٥]، يقول ابن القيم: أي البصائر في دين الله عز وجل فبالبصائر يدرك الحق ويعرف وبالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم في الدين والبصر بالتأويل ففجرت من النصوص أنهار العلوم واستنبطت منها كنوزها ورزقت فيها فهما خاصا كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وجهه وقد سئل: هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه. فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذي أنبتته الأرض (٦)

درجات البصيرة

قسم ابن القيم البصيرة ثلاث درجات:

١- البصيرة في الأسماء والصفات: وهى أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله بل تكون الشبة المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشبة والشكوك في وجود الله فكلاهما سواء في البلاء عند أهل البصائر.

٢- البصيرة في الأمر والنهى: وهى تجريده عن المعارضة بتأويل أو تقليد أو هوى فلا يقوم بقلبه شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتثاله والأخذ به ولا تقليد يريحه عن بذل الجهد في تلقى الأحكام من مشكاة النصوص.

٣- البصيرة في الوعد والوعيد: وهى أن تشهد قيام الله على كل نفس بما كسبت في الخير والشر عاجلا وآجلا في دار العمل ودار الجزاء وأن ذلك هو موجب إلهيته وربوبيته وعدله وحكمته فإن الشك في ذلك شك في إلهيته وربوبيته بل شك في وجوده فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك ولا يليق أن ينسب إليه تعطيل الخليقة وإرسالها هملا وتركها سدى تعالى الله عن هذا الحسبان علوا كبيرا (٧)

المعاصي تطفئ نور البصيرة

فمن عقوبات المعاصي أنها تعمى بصيرة القلب وتطمس نوره وتسد طرق العلم وتحجب مواد الهداية قال تعالى: {واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون} [الأنفال:٢٤] إنها صورة تستوجب اليقظة الدائمة والحذر الدائم والاحتياط الدائم اليقظة لخلجات القلب وخفقاته ولفتاته والحذر من كل هامة فيه وكل ميل مخافة أن يكون انزلاقا والاحتياط الدائم للمزالق والهواتف والهواجس والتعلق الدائم بالله سبحانه مخافة أن يقلب هذا القلب في سهوة من سهواته أو غفلة من غفلاته أو رفعة من رفعاته ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم يكثر

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

من دعاء (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) فكيف بالناس وهم لا مرسلين ولا معصومين ؟!(٨)

وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به ورأى مخايل النجابة عليه: إني أرى الله تعالى قد ألقى عليك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية. ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم فكم من مهلك يسقط فيه ولا يبصره كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب فيا عزة السلامة ويا سرعة العطب ثم تقوى تلك الظلمات وتفيض من القلب إلى الجوارح فيغشى الوجه منها سواد بحسب قوتها وتزايدها فإذا كان عند الموت ظهرت في البرزخ فامتلأ القبر ظلمة كما قال صلى الله عليه وسلم: (إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة وإن الله منورها بصلاتي عليهم) فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد علت هذه الظلمة الوجوه علوا ظاهرا يراه كل أحد حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة «الفحم» فيالها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها (٩)

أسباب تحصيل البصيرة

• صدق الإيمان بالله ورسوله: قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم} [الحديد:٢٨] فهذا النور هبة لدنية يودعها الله القلوب التي تستشعر تقواه وتؤمن حق الإيمان برسوله هبة تنير تلك القلوب فتشرق وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز ومن وراء الأشكال والمظاهر فلا تتخبط ولا يلتوي بها الطريق.

• العلم النافع بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} [الجمعة:٢]

فالحكمة نور الأبصار وموقظة القلوب من سنة الغفلة ومنقذة للبصائر من سنة الحيرة ومحيية لها بإذن الله من موت الجهالة ومستخرجة لها من ضيق الضلالة وهى صديقة العقل وميزان العدل وروضة الأرواح ومزيحة الهموم عن النفوس وأنس المستوحش وأمن الخائف ومتجر الرابح وحظ الدنيا والآخرة.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ومن أحب أن يكون للأنبياء وارثا وفي مزارعهم حارثا فليتعلم العلم النافع ففي الحديث: (العلماء ورثة الأنبياء) (١٠) وليحضر مجالس العلماء فإنها رياض الجنة ومن أحب أن يعلم ما نصيبه من عناية الله فلينظر ما نصيبه من الفقه في دين الله ففي الحديث (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) (١١)

وكفي بالجهل قبحا أن صاحبه عدو للحق وأهله. قيل للحسين بن الفضل هل تجد في القرآن من جهل شيئا عاداه ؟ قال نعم في موضعين {بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه} [يونس: ٣٩] ، وقوله {وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا أفك قديم} [الأحقاف:١١]

• العمل بالعلم: فمن عمل بما علم رزقه الله علم ما لم يعلم وحقيقة التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله قال تعالى: {واتقوا الله ويعلمكم الله} [البقرة:٢٨٢]، والتقوى تقود إلى نور البصيرة، قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم} [الأنفال: ٢٩]

فإذا اتقى العبد ربه وذلك بإتباع أوامره واجتناب نواهيه وترك الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات وشحن قلبه بالنية الخالصة وجوارحه بالأعمال الصالحة وتحفظ من شوائب الشرك الخفي والظاهر بمراعاة غير الله في الأعمال والركون إلى الدنيا بالعفة عن المال الحرام جعل له بين الحق والباطل فرقانا ورزقه فيما يريد من الخير إمكانا.

ولما قال حارثة أصبحت مؤمنا حقا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟) قال: عزفت نفسي عن الدنيا وشهواتها، فأسهرت ليلى وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربى بارزا، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يتعاوون فيها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (عرفت فالزم، عبد نور الله الإيمان في قلبه) (١٢)

• صدق اتباع السنة ظاهرا وباطنا فالطريق إلى الله مسدود على خلق الله عز وجل إلا على المقتفين آثار النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {لقد كان لكم في رسول

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الله أسوة حسنة} [الأحزاب: ٢١] وقليل في سنة خير من كثير في بدعة وهذا يستلزم تعلم السنة وتقديمها في الأصول والفروع على قول كل أحد وهدية كما قال ابن القيم في شأن الهجرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالقلب: سفر النفس في كل مسألة من مسائل الإيمان وحادثة من حوادث الأحكام ومنزلة من منازل القلوب إلى منبع الهدى ومصدر النور المتلقى من فم الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فكل مسألة طلعت عليها شمس رسالته وإلا فاقذف بها في بحر الظلمات وكل شاهد عدله هذا المزكى وإلا فعده من أهل الريب والتهمات.(١٣)

• المداومة على ذكر الله عز وجل: فالذكر يورث حياة القلب وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟! (١٤) وأشرف الذكر تلاوة القرآن وفهمه وتدبره وبحسب نصيبك من القرآن يكون نصيبك من نور البصيرة فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن هذا القرآن مأدبة الله فمن دخل فيه فهو آمن) وقال (من أحب القرآن فليبشر) (١٥)

• كثرة العبادة فمن أعظم الوسائل التي ينال بها العبد نصر الله وتأيده الاجتهاد في العبادة فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها وإن سألني أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه) (١٦)

ومن أفضل العبادات الصلاة فإنها خير موضوع قال تعالى: {واسجد واقترب} [العلق:١٩] وفي الحديث (والصلاة نور) (١٧) وفيه (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء) (١٨) فكلما اقترب العبد من ربه كلما رأى الأمور على حقيقتها وقدرها حق قدرها ووزنها بميزان الحق وكلما أخلد إلى الأرض ولم يرتفع واتبع هواه كلما التبس عليه الحق بالباطل وترك الحق ، ومن خير العبادات أيضا الصوم فإنه نصف الصبر وفي الحديث (والصبر ضياء) (١٩)

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

• غض البصر وحفظ الفرج وتجنب الاختلاط المحرم: فغض البصر يلبس القلب نورا كما أن إطلاقه يلبسه ظلمة ولهذا ذكر الله سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر {الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ....} [النور:٣٥] أي مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان ، ونور القلب يورث صاحبه فراسة صادقة يميز بها بين الحق والباطل وكان شجاع الكرماني يقول: من عمر ظاهرة بإتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة وغض بصره عن المحارم وكف نفسه عن الشبهات واغتذى بالحلال لم تخطئ له فراسة (٢٠) وكان شجاعا لا تخطئ له فراسة

إن نور البصيرة عبق من الجنة يأنس به الموحدون الذين نزهوا الخالق عن أي شائبة من شوائب الشرك، فانقادوا له لا يقدمون قولا على قوله ولا أمرا على أمره ولا نهيا عن نهيه

أولئك هم المفلحون أولئك هم المفلحون

الهوامش والمصادر

(١) لسان العرب –ابن منظور – دار المعارف –مادة بصر

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني مادة بصر (٣) مدارج السالكين ابن القيم /دار الحديث /جـ١ ص ١٣٩، ١٤٠

(٤) في ظلال القرآن سيد قطب ص ١٢٠١ بتصريف

(٥) تفسير القرطبي – دار الغد العربي – تفسير سورة الأنعام ص ٣٤١ (٦) الوابل الصيب ابن القيم ص ٩١

(٧) مدارج السالكين ابن القيم جـ ١ ص ١٣٩–١٤١ (٨) في ظلال القرآن سيد قطب ص ١٤٩٥

(٩) الداء والدواء ابن القيم ص ١٠٧ (١٠) (صحيح) رواه أحمد عن أبي الدرداء / حديث رقم ٦٢٩٧ صحيح الجامع (١١) (حسن) رواه ابن ماجة عن معاوية _ صحيح الجامع رقم ٣٣٤٨ (١٢)التخويف من النار / ابن رجب الحنبلي / ج١ ص٣٣ (١٣) الرسالة التبوكية /

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ابن القيم ص٣١ / مكتبة التوعية الإسلامية /مصر (١٤) الوابل الصيب / ابن القيم /ج١ص٦٣ (١٥) رواه الدارمي ج٢ص٥٢٥ رقم ٣٣٢٢-٣٣٢٣

(١٦)رواه البخاري رقم ٦٠٢١ كتاب الرقاق (١٧) رواه مسلم / كتاب الطهارة عن أبي مالك الأشعري رقم ٣٢٨

(١٨)رواه مسلم عن أبي هريرة / كتاب الصلاة رقم ٧٤٤ (١٩) رواه مسلم / كتاب الطهارة عن أبي مالك الأشعري رقم ٣٢٨ (٢٠) فيض القدير / المناوي / ج٢ص٥١٥

- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن
- فضل الغنى الحميد د/ ياسر برهامي
- إيقاظ أولى الهمم العالية عبد العزيز السلمان

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

نور القلوب

القلوب وعاء يحتاج إلى الرعاية لما قد يعتريه من صنوف الدرن والغبش التي تذهب بنضارته وتشل حيويته، وهو لب الجسد الذي بصلاحه يصلح الجسد كله، لذلك كان حقه في الرعاية آكد ومزيد وصله بالاهتمام زائد، والكلمات النورانية والنصائح الجلية من أنفع الوسائل للقلب، ومن أعظم وسائل ثباته، وهل مشكلة القلب إلا في تقلبه، فاللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك.

قال أحد الصالحين: عليك يا أخي بمحاربة الشيطان وقهره، وذلك لخصلتين:

(أحدهما) أنه عدو مضل مبين، لا مطمع فيه بمصالحة واتقاء شره أبدا، لأنه لا يرضيه ويقنعه إلا هلاكك أصلا، فلا وجه إذا للأمن من هذا العدو والغفلة عنه، قال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [يس: ٦٠] وقال تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [فاطر:٦]

(والخصلة الثانية) أنه مجبول على عداوتك، ومنتصب لمحاربتك، في الليل والنهار يرميك بسهامه، وأنت غافل عنه، ثم هو له مع جميع المؤمنين عداوة عامة، ومع المجتهد في العبادة والعلم عداوة خاصة، ومعه عليك أعوان نفسك الأمارة بالسوء، والهوى، والدنيا، وهو فارغ وأنت مشغول، وهو يراك وأنت لا تراه، وأنت تنساه وهو لا ينساك، فإذا لابد من محاربته وقهره وإلا فلا تأمن الفساد والهلاك والدمار، ومحاربته بالاستعاذة بالله والإكثار من ذكره.

عباد الله .. سيصحو السكران من سكره، حين لا يمكنه تلافي أمره، وسيندم المضيع على تضيعه، إذا قابله أمر صنيعه، وسيقصر الأمل من أمله وقت هجوم أجله، وتعذر الزيادة في عمله، والخروج من بين ماله وأهله .. هنالك يستحيل حلو العيش مرا، وينقلب عرف الأمر نكرا، ويعلم جامع الحطام الذي أضاع به أوقاته أن الباقيات الصالحات أبقى ذكرا وأنفع ذخرا، ليس في ظل الدنيا ولا على هذه الحياة تعويل.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

كيف يطمع عاقل في الإقامة بدار الرحيل؟، كيف يضحك من هو محفوف بموجبات البكاء والعويل؟، أسمعنا الناصح فتصاممنا، وأيقظنا الغير فتناومنا، ورضينا بالحياة الدنيا من الآخرة، واشترينا ما يفنى بما يبقى، فتلك إذا صفقة خاسرة.

أين الآذان الواعية، أين الأعين الباكية، قول بلا فعال وأمر بلا امتثال، رسل ملك الموت في كل نفس تدنوا إلى أنفسنا، وأجساد أحبتنا تحت أطباق الثرى هامدة .. قد أوحشت منهم ديارهم، ودرست رسومهم وآثارهم، وتقطعت بالبلاء أوصالهم، ومحت أيدي الحوادث والقبور محاسن تلك الصور، وأطبقت عليهم ظلمات تلك الحفر، فلا شمس فيها ولا نور ولا قمر، ونحن عما قريب إلى ما صاروا إليه صائرون، وبالكأس الذي شربوا منه شاربون، ثم مع هذا اليقين إلى دار الغرور راكنون.

عباد الله .. انتهزوا فرص الزمان، قبل تعذر الإمكان، قبل أن تنقل من اسم مازال إلى خبر كان، فانتبه يا من نظنه صاح وإذا هو سكران.

عباد الله .. كيف يثق بالحياة مَن المنية تقفوا إثره وتقف له في دربه، كيف يرجو راحة الدنيا من لا راحة له دون لقاء ربه .. تالله لو كانت الدنيا صافية المشارب من كل شائب ميسرة المطالب لكل صالب، باقية علينا لا يسلبها منا سالب، لكان الزاهد فيها هو اللبيب الصائب، لأنها تشغل عن الله والنعم إذا أشغلت عن المنعم كانت من المصائب.

عباد الله .. لقد تراكمت عليكم الذنوب، وأنتم في غيكم ولهوكم في دنياكم مشتغلون، أحاطت بكم البلايا من كل جانب ولستم لإصلاح أنفسكم تجنحون، كلما أوضح لكم الواعظ طريق الهداية تعاميتم فلا أنتم بالكروب معتبرون ولا من البلايا منزجرون، أما سمعتم قول الله جل وعلا: {فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [القلم: ٤٤-٤٥] وقوله تعالى: {ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر: ٣] وقوله عز وجل: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون: ٥٥-٥٦]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

روي عن علي بن أبي طالب –رضي الله عنه- أنه قال: "لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة لطول الأمل، ويقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها عمل الراغبين، إن أعطي من الدنيا لم يشبع، وإن منع منها لم يقنع، ويأمر الناس بما لا يأتيه، يحب الصالحين ولا يعمل أعمالهم، ويبغض المسيئين وهو منهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه، ويقيم على ما يكره له الموت، إن سقم ظل نادما، وإن صح أمن لاهيا، تغلبه نفسه على ما يظن ولا يغلبها على ما يستيقن، ولا يثق من الرزق بما ضمن له، ولا يعمل من العمل بما فرض عليه، إن استغنى بطر، وإن افتقر قنط وحزن، فهو من الذنب في حال النعمة والمحنة موقر، يطلب الزيادة ولا يشكر، ويتكلف من الناس مالا يؤمر، ويضيع الموت ولا يبادر الفوت، يستكبر من معصية غيره ما يسهل أكثره من نفسه، مزاهر اللهو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقراء، يحكم على غيره لنفسه ولا يحكم عليها لغيره".

أخي انظر في نفسك هل تجدها عاملة بمقتضى هدي سيد المرسلين؟ هل أتيت بالصلاة على الوجه الأكمل واجتنبت المعاصي المنافية للدين؟ هل أديت الزكاة كاملة مكملة بيقين؟ هل تجد في نفسك حياء من الله رب العالمين؟ هل أنت سالم من الكذب والخيانة والاحتيال؟ هل أنت سالم من الرياء في أقوالك وأعمالك؟ هل أنت سالم من الربا في معاملاتك؟ هل أنت سالم من المداهنة والنفاق؟ هل أنت سالم من الغيبة والنميمة والبهت واللعن وسيء القول؟

هل أنت سالم من الغش في بيعك وشرائك وسائر تصرفاتك؟ هل أنت صائن لسانك عن ما يضرك من الأقوال والأعمال؟ هل أنت سالم من الكبر والإعجاب وقطيعة الرحم والعقوق؟ هل أنت سالم من أذية الجار؟ هل قلبك لين رحيم ترحم المسكين وتكرم اليتيم؟ فعليك أن تتفقد نفسك بدقة، وتعالج ما بك من هذه الأمراض المهلكات فإنها أشد ضررا وفتكا من أمراض البدن.

يا أخي التوبة التوبة قبل أن تصل إليك النوبة، الإنابة الإنابة قبل أن يغلق باب الإجابة، الإفاقة الإفاقة فيا قرب وقت الفاقة، إنما الدنيا سوق للتجر ومجلس وعظ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

للزجر وليل صيف قريب الفجر، المكنة مزنة صيف، الفرصة زورة طيف، الصحة رقدة ضيف، الغرة نقدة زيف، البدار البدار فالوقت سيف.

يا غافلا عن مصيره، يا واقفا في تقصيره، سبقك أهل العزائم وأنت في اليقظة نائم، قف على الباب وقوف نادم، ونكس رأس الذل وقل أنا ظالم، وناد في الأسحار مذنب وواجم، وتشبه بالقوم وإن لم تكن منهم وزاحم، وابعث بريح الزفرات سحاب دمع ساجم، قم في الدجى نادبا، وقف على الباب تائبا، واستدرك من العمر ذاهبا، ودع اللهو والهوى جانبا، وإذا لاح الغرور رأى راهبا، وطلق الدنيا إن كنت للأخرى طالبا.

المصادر

- موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز السلمان ج١
- المدهش ابن الجوزي

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

همسات للنفس

- يا نفس، إذا كانت الهداية إلى الله مصروفة، والاستقامة على مشيئته موقوفة، والعاقبة مغيبة، والإرادة غير مغالبة، فلا تعجبي بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك، فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خلق ربك وفضله الدار عليك وخيره، فمهما افتخرت بذلك كنت كالمفتخرة بمتاع غيرها وربما سُلب عنك فعاد قلبك من الخير أخلى من جوف البعير، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم فأصبحت وزهرها يابس هشيم، إذ هبت عليها الريح العقيم، كذلك العبد يمسي وقلبه بطاعة الله مشرق سليم فيصبح وهو بمعصية الله مظلم سقيم، ذلك فعل العزيز الحليم الخلاق العليم.
- يا نفس، مالك من صبر على النار، نوم بالليل وباطل بالنهار وترجين أن تدخلي الجنة هيهات هيهات، متى العمل فاستيقظي يا نفس ويحك، واحذري حذرا يهيج عبرتي ونحيبي، وتجهزي بجهاز تبلغين به شاطئ الأمان، فلم ينل المطيعون ما نالوا من حلول الجنان ورضا الرحمن إلا بتعب الأبدان، والقيام لله بحقه في المنشط والمكره.
- يا نفس، ما أصعب الانتقال من البصر إلى العمى، وأصعب منه الضلالة بعد الهدى، والمعصية بعد التقى، كم من وجوه خاشعة وقعت على قصص أعمالها عاملة ناصبة تصلى نارا حامية، وكم من شارف مركبه ساحل النجاة فلما هم أن يُرتقي لعب به موج فغرق الخلق كلهم تحت هذا الخطر، فقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ما العجب ممن هلك كيف هلك إنما العجب ممن نجا كيف نجا.
- يا نفس، كيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا؟! فبعيد من قلبه بعيد من الله تعالى، غافل عنه متعبد لهواه أسير لشهواته، لسانه يابس عن ذكره، وجوارحه معطلة عن طاعته مشتغلة بمعصيته فبعيد عن هذا أن يوفق للخاتمة بالحسنى.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

● يـا نفـس، أمـا الورعـون فقـد جـدوا، وأمـا الخـائفون فقـد اسـتعدوا، وأمـا الصالحون فقد فرحوا وراحوا وأما الواعظون فقد نصحوا وصاحوا، العلم لا يحصل إلا بالنصب والمال لا يجمع إلا بالتعب، فإن حرصت على الخلاص فاعلمي أنه من عزم بادر ومن هم ثابر، ولا ينال العز والمفاخر من كان في الصف الآخر.

● يا نفس، بادري بالأوقات قبل انصرامها واجتهدي في حراسة ليالي الحياة وأيامهـا، فكأنـك بـالقبور وقـد تشـققت وبـالأمور وقـد تحققـت وبوجـوه المتقـين وقـد أشـرقت وبـرؤوس العصـاة وقـد أطرقـت قـال تعـالى: {وَلَـوْ تَـرَى إِذِ الْمُجْرِمُـونَ نَاكِسُـوا رُؤُوسِـهِمْ عِنـدَ رَبِّهِـمْ رَبَّنَـا أَبْصَـرْنَا وَسَـمِعْنَا فَارْجِعْنَـا نَعْمَـلْ صَـالِحاً إِنَّـا مُوقِنُـونَ} [السجدة:١٢]

● يا نفس، أما لك في الصالحين أسوة:

- كان عامر بن عبد الله بن قيس التابعي قد جعل عليه كل يوم ألف ركعة فلا ينصرف منهـا إلا وقـد انتفخـت قـدماه وسـاقاه ثـم يقـول لنفسـه: «يـا نفـس، بهـذا أمـرت ولهـذا خلقت يوشك أن يذهب العناء، يا نفس إنما أريد إكرامك غدا، والله لأعملن بك عملا حتى لا يأخذ بـالحق منـك نصيب، قـومي يـا مـأوى كـل سـوء فـوعزة ربـك لأزحفـن بـك زحـف البعيـر، ولـئن اسـتطعت أن لا يمـس الأرض مـن زهمـك لأفعلـن، ثـم يتلـوى كمـا تتلوى الحية على المقلى، ثم يقوم فينادى: اللهم إن النار قد منعتني من النوم فاغفر لي».

- وكـان زيـاد بـن زيـاد مـولى ابـن عيـاش يخاصـم نفسـه فـي المسـجد فيقـول: «اجلسـي، تريدين الخروج؟ أين تـذهبين؟ أتخرجين إلى أحسـن من هـذا المسجد، انظري إلى ما فيه. تريدين أن تبصري دار فلان ودار فلان، ما لك من الطعام يا نفس إلا هذا الخبز والزيت، وما لك من الثياب إلا هـذين الثوبين، وما لك من النساء إلا هذه العجوز».

- وقال الجنيد: أرقت ليلة وفقدت حلاوة وردي ثم اضطجعت لأنام فتمايلت حيطان البيـت وكـاد السـقف أن يسـقط فخرجـت فـإذا برجـل ملتـف بعبـاءة مطـروح فـي الطريـق، فقال إلي الساعة، قلت موعد قال: بلى، سألت محرك القلوب أن يحرك قلبك، قلت

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قد فعل، قال متى يصير داء النفس دواءها، قلت إذا خالف هواها، قال: يا نفس اسمعي أجبتك به مرات فأبيت إلا أن تسمعيه من الجنيد ثم انصرف.

– وقال إبراهيم التيمي: مثلت نفسي في النار أعالج أغلالها وسمومها، آكل من المثخن وأشرب من زمهريرها: فقلت: يا نفس إيش تشتهين؟ قالت: ارجع إلى الدنيا فاعمل عملا أنجو به من هذا العقاب، ومثلت نفسي في الجنة مع حورها، ألبس من سندسها وإستبرقها وحريرها، قلت: يا نفس إيش تشتهين؟ قالت: أرجع إلى الدنيا فاعمل عملا ازداد فيه من هذا الثواب، قلت: فأنت في الدنيا وفي الأمنية فاعملي».

– وكان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول: «يا نفس، كم تبكين، أخلصي وتخلصي».

– وقال عبد الرحمن بن مهدي: أدركت امرأة لا أقدم عليها رجلا ولا امرأة ممن أدركت، كانت إذا أصبحت قالت: يا نفس هذا اليوم ساعديني يومي هذا فلعلك لا ترين بياض يوم أبدا، وإذا أمست قالت: يا نفس هذه الليلة ساعديني ليلتي هذه فلعلك لا ترين ظلمة ليلة أبدا، فما زالت تخدع وتدفع يومها بليلتها وليلتها بنهارها حتى ماتت على ذلك.

– وعن مسمع بن عاصم المسمعي قال كانت بالبحرين امرأة عابدة يقال لها «منيفة» فكانت إذا هجم الليل عليها، قالت: بخ بخ يا نفس، قد جاء سرور المؤمن، فتتحزم وتلبس وتقوم إلى محرابها فكأنها الجذع القائم حتى تصبح، فإذا أصبحت وأمكنت الصلاة فإنما هي في صلاة حتى ينادي بالعصر فإذا صلت العصر هجعت إلى غروب الشمس، فكان هذا دأبها، فقيل لها: لو جعلت هذه النومة في الليل كان أهدأ لبدنك. فقالت: لا والله لا أنام في ظلمة الليل ما دمت في الدنيا، فمكثت كذلك أربعين سنة.

وكيف تحب أن تدعى حكيما   وأنت لكل ما تهوى ركوب
وتضحك دائما ظهرا لبطن   وتذكر ما عملت فلا تتوب

جمع وترتيب
د/ خالد سعد النجار
alnaggar66@hotmail.com

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com